الشيخ الكبير أبو الحسن علي الحسني الندوي*
كيف تكونت شخصيته

بقلم: الأستاذ السيد محمد الرابع الحسني الندوي

إن حياة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه اللّه تعالى كانت حياة نموذجية للعلماء و العاملين في مجالات العلم و التعليم و التربية الاجتماعية، فقد طلب رحمه اللّه العلم حتى استوعب منه ما كانت تتطلبه حاجة حياته الذاتية و ما كان يفرضه عليه عصره للعمل في مجالات الحياة الاجتماعية، و العمل التربوي، و ما كانت تقتضيه حاجة الفكر الإسلامي المعاصر.

و قد ساعده في تحقيق كل ذلك عوامل مختلفة، و منها أولًا البيئة العائلية التي ولد و نشأ فيها، فقد كانت بيئة علم و ثقافة، كان جده مؤرخاً و أديباً، يدل على ذلك تأليفه لكتاب موسوعي في التاريخ في جانب، و ما تركه من مجموعة شعرية ظهر فيها براعته و نبوغه في جانب آخر، ثم جاء والده فسار على نفس الدرب من البحث و التأليف في التاريخ و بتوسع و إفادة أكثر، فقد ألف في تاريخ الرجال و في تاريخ الثقافة و العلم، و ألف كتاباً قيماً في تاريخ الشعر و نقده، و هي كتب تعد من المصادر في موضوعاتها، ثم كانت أمه من النابهات في شؤون التربية و الأدب، لها كتاب في تربية البنات، و لها مجموعة قصائد شعرية

---

* هذه مقالة قدمت في الندوة العلمية التي عقدها مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية حول حياة و خدمات سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي بمدينة أوكسفورد في ٣/سبتمبر٢٠٠٠.

عبرت فيها عن آمالها في ولدها الوحيد، و ابتهالات و مناجات قرضتها بأسلوب متين أخاذ النفس.

و كان أقارب سماحته في مثل هذه الخصائص، فقد كانوا موصوفين بالثقافةو العلم و الآداب الرفيعة، فنشأت في سماحته ميول و أخلاق عالية، و لكن ما بلغ الشيخ تسع سنوات من عمره حتى توفي والده، و كان في مهنته طبيبا، و كانت مهنته هذه وسيلة وحيدة لكفالته و كفالة عائلته، و كان له أخ يكبره سناً و لكنه لم يكن وصل بعد إلى درجة التفرغ للعمل فقد كان طالباً في المرحلة العالية، فوقع عبء اقتصادي ثقيل على العائلة، و صبرت العائلة عليه، و أثبتت أم الشيخ رحمه اللّه تعالى صبرًا و رزانةً و اهتماماً بأن يشب ولدها اليتيم على شمائل الشرف و مكارم الأخلاق، و على الهمة و العزيمة و الجد، و قامت عملياً بتربيته عليها كما يدل على ذلك رسائلها التوجيهية التي كانت ترسلها إليه من القرية التي تسكنها إلى المدينة التي كان يقيم فيها ولدها العزيز للتعليم الثانويو العالي، و لقد ساعد الوضع القاسي الذي واجهه الشيخ رحمه اللّه تعالى في هذه المرحلة من صغر سنه مع يتمه و زهادة اقتصاده في نمو مؤهلاته الفطرية لمواجهة الشدة و لتنمية ملكاته البناءة من جد و احتمال و من اعتماد على اللّه ثم على نفسه، فاشتغل بالدراسة بجد و اهتمام بالاستفادة مما تركه والده الجليل من تراث علمي و منهج عملي و خلق نبيل، و ساعده في ذلك أخوه الأكبر كل المساعدة، و اهتم بتنمية مؤهلاته الفكرية و حفزه على توسعة معرفته العلمية بمؤهلاته الفردية المحدودة، و هو نشأ و تربى على والده العظيم، و من هنا نشأت في سماحة شيخنا رحمه اللّه تعالى السعة في الفكر و الالتزام بالقيم و الحب لتوسعة معارفه العلمية، فاهتم بدراسة لغته و اللغة الأجنبية كذلك.

هـذا بـالـنـسـبة إلى ما حصل لـه من بيئته العائلية، أما في بيئة أوسع من هذه البيئة و هي البيئة التعليمية و الاجتماعية العامة فقد حصلت لـه من طراز خـاص أيضـاً، كـان فـيـهـا سـعـة الـنظر أكثر و اعتدال الفكر و جامعية علمية و ثـقافية، و ذلك لما كان قد توصل إليه طائفة من العلماء في عصر قبيل ميلاده و رجـال الـثـقـافـة و العلم معهم بعد اطلاعهم على أوضاع المسلمين المختلفة و رقـي الـغـرب و قوته و استيلائه على الشرق إلى ضرورة إنشاء منظمة و جامعة تـقـومـان بـالـجمع بين الثقافتين: الثقافة الإسلامية القديمة و الثقافة المفيدة لـلـحـيـاة الـجـديـدة، و بـين الـمنهجين للتعليم و التربية: المنهج الديني المأثور و الـمـنـهـج الـعـلـمـي الجديد، و هي منظمة ندوة العلماء و جامعتها دار العلوم الـتـابـعـة لـهـا، و بـذلك أحدثوا بيئة علمية ثقافية جامعة بين القديم و الجديد، أخـذوا فـيـها من القديم الموروث ما يلزم و ما يُفتقر إليه للمحافظة على القيم الدينية الصالحة، و أخذوا من الجديد ما ينفع في تأهيل الجيل الصاعد لمسايرة الـشـعـوب الـراهـنـة، و المساهمة في إنجاز الأمر الذي يخرج الأمة من غفوتها الـسـائـدة، فقد رأوا الغزو العلمي و السياسي للغرب، فوجدوا أن الانفتاح العلمي لابـد مـنـه لـتـربـيـة الأجيال الصاعدة، فقرروا في المنهج التعليمي ما يلزم من الـعـلوم الاجتماعية و الإنسانية و من اللغات، و سمحوا بدراسة العلوم الطبيعية ما يزيل هذا التخلف المخزي.

و كـان والـد سـمـاحـتـه من أوائل من حملوا مسئوليـة إدارة منظمـــــة نـدوة الـعلماء و قام بتنفيذ المشروع التعليمي الجديد، و قد كان واسعاً في النظر عـارفـاً لـمقتضيات الحياة العزيزة للمسلمين في الظروف الراهنة مع محافظة على الدين و القيم الأصيلة، و بناءً على ذلك سمح لنجله الأكبر أخي سماحته أن يـقـوم بـعـد إتمامه لدراسة العلوم الإسلامية بأن يوسع معارفه العلمية، و يدرسَ

الجديد منها، فتعلم اللغة الانجليزية، و درس العلوم الطبيعية إلى أن نال شهادة ليسانس فيها بامتياز، ثم التحق بكلية الطب، و أتم الدراسة فيها أيضاً بامتياز.

ثم إن زوجته أم سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، كانت متصفة بصفات ممتازة، إنها كانت أديبة شاعرة و خبيرة في تربية البنات مع الصلاح الديني و التقوى و العبادة التي كانت ممتازة فيها بين عضوات أسرتها، فنشأ سماحة الشيخ الندوي في بيئة هذا البيت و في بيئة ندوة العلماء، فحصلت له مؤهلات متعددة و خصائص متنوعة، فشب على الصلاح و التقوى، و تخصص في أصول الدين و العلوم الإسلامية و تعلم اللغة الانكليزية، أما الشغف بالتاريخ فقد ورثه من والده العلامة و امتاز فيهما، و استعمل معرفته للغة الانجليزية للاطلاع على تاريخ أوربا و أخلاقها، و الوسائل المجدية لها في تقدمها و استيلائها على الشعوب المتأخرة علمياً و سياسياً، كما أن مكانة والده العلمية و الدينية بين معاصريه هيأت لولده الشيخ أبي الحسن أسباب المعرفة لرجالات عصره و ميزاتهم، و استغل الشيخ رحمه الله معرفته هذه في تقربه إلى عظمائهم في العلم و الدين، و تتلمذ عليهم، و استفاد منهم، و بذلك أصبحت شخصيته جامعة لميزات و خصائص متنوعة.

كانت أمه التقية، و كان أخوه الصالح يتمنيان من البداية أن تكون سيرته على مستوى سيرة السلف من صلاح و تقوى و إخلاص و مكارم الاخلاق، فأشارا عليه به، و بناءًا على ذلك زار العلماء و الصالحين من عباد الله في عهده، و اكتسب منهم قسطاً كبيراً من حسن الطوية و الزهد في الدنيا، و الإخلاص في العمل، و الاحتساب، و إيثار خير الآخرة على خير الدنيا، و التواضع لله و حسن الخلق مع الناس، كما ساقته مطالعاته و قراءاته إلى التقدير لما قام به العلماء السلف من تجديد الفكر الإسلامي في أزمان مختلفة، و لما قام به أهل العزيمة

و الـعـمـل منهم من حركات إصلاحية تربوية، و كان له مثالاً محبوباً في ذلك أحد أجداد أسـرتـه بـصـورة عـامـة، و هـو الـمصلح المجاهد الكبير السيد أحمد بن عـرفـان الـذي كـان قـد قام بحركة إصلاحية جبارة، و أصلح ألوفاً من الناس في شبـه الـقـارة الـهـنـدية، و قد قرأ سماحته في أوائل عمره السيرة النبوية بشوق و رغـبـة، و كـان تـأثـر بـها تأثراً عظيماً و دخل ذلك الأثر في نفسه، و رسخ فيها، فكان مصداقاً لقول القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليـــاً فتمكنـا

و إن أهـم مـا تـأثـر بـه سـمـاحته فـي مطالعاته الأولى شعـــر الدكتور مـحـمد إقبال الذي مجدّ بشعره السلف الصالحين الأولين لبطولاتهم و خصائص سيرتهم العملاقة، و كذلك شعر الشاعر الناقد للحضارة الغربية و فكرها الإباحي الـشـاعـر الـكـبـيـر أكبر الإله آبادي، و كان رجلاً مثقفاً الثقافة الانكليزية، و كان شـاعـراً بـارعـاً فـي الـتـعـبير و التأثير، و مطالعة الشيخ رحمه اللّه لشعر هذين الـشـاعـرين زادت من اعتزازه بعظمة أسلاف الإسلام و روعة سيرهم و أعمالهم، كـمـا عـلـم عن الحضارة الغربية ما امتازت به و فاقت في تطوير وسائل الحياة، و الـذي يـتـطلب الاستفادة من منجزاتها المادية النافعة، و لكنه علم مع ذلك ما مـنـيـت بـه من الـخـواء الـروحـي، و فـقـر فـي الـقيم الإنسانية المشرفة، ثم إن مـطـالـعـاتـه فـي أمـهـات كـتـب الـفـكر الإسلامي و الشريعة الإسلامية لعظماء الـمـفـكرين الـقـدامـى مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، و ابن القيم، و ابن الجوزي و غـيـرهـم، و مـجـددي الـفكر الإسلامي في الهند مثل مجدد الألف الثاني الشيخ أحـمـد الـسـرهـنـدي، و مـثـل الـشيخ الإمام ولي اللّه الدهلوي قد كوّنت في نفس شـيـخـنـا الاعتراف بعبقرية الفكر الإسلامي و جدارته لهداية الحضارة و المدنية كذلك.

فهذا كله نجده في مؤلفات الشيخ بتعبيره القوي و عرضه الممتع، و يمثل فكره و نظرته إلى الحياة في الجانب الأول كتاباه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و "بين المدنية الغربية و المدنية الإسلامية"، و يمثل علمه و معرفته الدقيقة للشعرية الإسلامية كتاباه: "الأركان الأربعة" و "النبوة و الأنبياء"، و يمثل نظرته التربوية و الأخلاقية كتاباه: "ربانية لا رهبانية"، و "بين الإيمان و المادية"، و يمثل تأثره بالشخصيات الإسلامية العملاقة من تاريخ الإسلام كتابه "رجال الفكر و الدعوة في الإسلام" و كتبه في سير نخبة من الشخصيات الإسلامية الممتازة، أما الذين استفاد منهم استفادة أكبر و تخلق بخلقهم من الشخصيات الإسلامية الكبرى شخصية أسرته العملاقة السيد أحمد بن عرفان، و شخصية الإمام أحمد بن حنبل، و المجدد للألف الثاني الإمام السرهندي، و الإمام ولي اللّه الدهلوي، و قد ذكرهم في محاضراته و رسائله الإصلاحية و التوجيهية المختلفة الكثيرة، و ظهر اتباعه لمنهجهم في الدعوة و العمل في منهجه عند لقائه للحكام و الولاة و إسداء النصح إليهم بكل إخلاص و مودة مع الزهد فيما في أيديهم.

و قد امتاز سماحته بميزتين يصعب الاتصاف بهما على الناس، و قد زادت هاتان الميزتان في تأثير شخصيته و تحببه لدى الناس، و هما أولاً الصبر على أذى الناس و احتماله بطلاقة الوجه، و عدم انتقامه من المسيء إليه بل معاملته معه رغم ذلك بإسداء الخير و مكارم الأخلاق، و الميزة الثانية هي رعاية من يساعده أو يشاركه في العمل، فكان يعامله معاملة جد كريمة، و لم يكن يجفوه بقدر المستطاع، فنادراً ما هجر مساعداً له أو أبعده عنه، و كان يجمع بين أضداد الناس و يستفيد من كل واحد منهم من صلاحياته حتى المختلفين

عـنـه فـي الـمـنـهج العملي و الاتجاه النظري، و بذلك كان يتفق عليه آراء الناس و يجتمعون حوله كما لا يجتمعون على غيره.

و بـذلـك ظـهرت شخصية العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي شـخـصـيـة فـذة، اعترف بها الناس في أنحاء العالم الإسلامي كله، و عدوا وفاته خسارة عظيمة في مجال الحق، و الفضيلة و الخير الإنساني، و عدوا وفاته سبباً لـخـلـو مـكـانـه في عدد من الجمعيات و المجامع و المراكز الثقافية و التربوية و الـعـلمية، و ظنوا أنهم لا يجدون لمكانه فيها بديلا يساويه و يجدي مثل جدواه، رحـم الـلّه الـشـيـخ أبا الـحـسن فـقيد كلمة الحق و الفضيلة و الخير الإنساني، و فقيد العلم و الفكر و الأدب النافع.



رباني الأمة و داعية الإسلام
العلامة أبو الحسن الندوي

بقلم: أ. د. يوسف القرضاوي

و قدر اللّه عليّ أن انعى إلى أمتنا الكبرى الاعلام، بالحديث عن مناقبهم و آثارهم في حياة الأمة، بالكتابة في الصحف، أو بالكلام عنهم في برنامجي "الشريعة و الحياة" في قناة الجزيرة الفضائية في قطر، و برنامجي الآخر "المنتدى" في قناة أبوظبي الفضائية، و ذلك وفاء ببعض حقهم علينا، و كذلك حق الأجيال الصاعدة أن تعرف قدر هؤلاء الأكابر، و ما أدوه لدينهم و اوطانهم، طوال حياة عامرة بالخير، فياضة بالبذل و العطاء.

فلا غرو أن أتحدث عن شيخنا الندوي ببعض ما يستحقه، مقتبساً من بعض ما كتبته عنه في حياته رحمه اللّه و غفر له، و تقبله في الصالحين.

و كيف لا أتحدث عن هذا الإمام الرباني الإسلامي القرآني المحمدي، و هو أخي و شيخي و حبيبي رضي اللّه عنه و أرضاه،

أما أنه (رباني) فلأن السلف أجمعوا على أن الرباني هو الذي يعلم و يعمل و يعلم، فمن علم و لم يعمل بما علم فليس برباني، و علمه حجة عليه، و هو من العلم الذي لا ينفع، و هو مما استعاذ منه الرسول صلى اللّه عليه و سلم: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، و من قلب لا يخشع..." و من علم و عمل، و لكنه لم

يـعـلـم غـيره، و لم يدع الآخرين، فليس برباني، فقد قال اللّه تعالى: [و لكن كونوا ربـانـيـين بما كنتم تعلمون الكتاب* و بما كنتم تدرسون] و من علم و عمل و علّم فـذلـك هو الرباني الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماء: [و من احسن قولاً ممن دعا إلى اللّه* و عمل صالحاً* و قال: إنني من المسلمين].

و كـلـمـة (الـربانية) هي الكلمة التي اختارها الشيخ أبو الحسن ليعبر بها عن (الـتـزكـيـة) الـتـي عني بها القرآن الكريم، و جعلها شعبة أساسية من مهمة الـرسـول صـلـى الـلّـه عليه و سلم، و عن مقام الإحسان الذي بينه الرسول الكريم صـلـى الـلّـه عـلـيـه وسـلـم بقوله: "أن تعبد اللّه كانك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يـراك" و ذلك في كتابه القيم المعبر (ربانية لا رهبانية) يريد به السلوك الخالص لوجه اللّه، السالم من البدع و من المبالغات في الاعتقاد أو السلوك.

و أما أنه (إسلامي) فلأن الإسلام لحمته و سداه، و مبتدؤه و منتهاه، و أدناه و أقـصـاه، إليه يسعى و عليه يدور، و لـه يعمل، و به يعتصم، و منه يستمد، و عند يـصـدر، و فـيـه يـحـب و يـبـغض، و من أجله يكتب و يصنف، و يدرس و يحاضر، و يـسـافـر و يقيم، و يصل و يقطع، فهو شغله في نهاره، و حلمه في ليله، و زاده فـي سـفـره، و أنـيـسـه فـي إقـامـتـه، فهو بالإسلام و للإسلام، و من الإسلام و إلى الإسلام.

قضايا الأمـــــة:

إن الـذي يـشـغـل عـقـلـه و قـلـبـه و وقـتـه بـاسـتمرار هو الإسلام: رسالته و حـضـارتـه، و انـبـعـاثه و صحوته، و قضايا أمته، و هجمة أعدائه، و أعظم ما يـهـمه هو تقوية الجبهة الداخلية في مواجهة الغزوة الخارجية، هو تربية الفرد، لانـه الـلـبنة الأساسية في بناء الجماعة، هو تغيير ما بالنفس حتى يغير اللّه ما بالأمة: [إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم].

و أما أنه (قرآني) فلأن القرآن هو مصدره الأول، منه يستمد، و عليه يعتمد، و به يأنس، يتعبد بتلاوته، و يتلذذ بقراءته، و يعيش في رحابه، متجاوباً مع آياته، و متدبراً لمعانيه، يستخرج منه اللآلي و الجواهر، يعرضها في محاضراته و كتبه و رسائله، بعقل متفكر، و قلب متأثر، يشهد بذلك كله من استمع إليه محاضراً، أو قرأ كتبه الكبيرة أو الصغيرة، فهو رجل القرآن حقاً.

و أما أنه (محمدي) فلا أعني مجرد أنه من نسل الرسول الكريم صلى اللّه عليه و سلم، و من السلالة الهاشمية الحسنية، فكم من حَسنيين و حُسينيين تناقض أعمالهم أنسابهم (و من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)، و إنما أعني أنه رجل جعل الرسول الكريم صلى اللّه عليه و سلم أسوته في هديه و سلوكه و حياته كلها، و اتخذ سيرته نبراساً له، في تعبده و زهده، و إعراضه عن زخارف الحياة، و زينة الدنيا، فهو يعيش في الخلف عيشة السلف، لا يهتم بما يهتم به أمثالنا من متاع و تملّك و رياش و زينة، تحسبه إذا رأيته سلمان الفارسي أو أبا الدرداء.

و حديثه عن الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه و سلم ليس محض حديث باحث دارس، بل حديث محب عاشق، معجب بهذه الشخصية الضخمة الفريدة، شخصية محمد بن عبد اللّه، و ليس هذا في كتابه القيم: "السيرة النبوية" فقط، بل في سائر كتاباته و محاضراته و أحاديثه المعبرة عن هذا الإعجاب، و هذا الحب، و هذا التأسي، و هي ـ كلها ـ نابعة من فهمه لهذه الحياة النبوية الشامخة، و هضمه لهذه السيرة الجامعة، و تذوقه لما فيها من معاني الكمالات التي فرقها اللّه تعالى في البشر و جمعها في مصطفاه محمد صلى اللّه عليه و سلم.

و أما أنه (عالمي) فهذا ما يلمسه كل متتبع لنشاط الشيخ العلامة، فهو ـ و إن كان هندي المولد و النشأة و الدراسة ـ عالمي الوجهة و الغاية، عالمي النشاط و الحركة، و هو ـ و إن اهتم بالمسلمين في الهند، و شارك في همومهم، و تصدر الصفوف أحياناً في ذلك، كما في قوانين الأحوال الشخصية، التي أرادت الحكومة الهندية يوماً أن تفرض على المسلمين فيها ما يحرمهم من خصوصيتهم ـ لا يقتصر همه و لا نشاطه على القارة الهندية، بل يمتد إلى العالم كله، و لذا نجد شهرة الشيخ في العالم العربي لا تقل عن شهرته في الهند، و نجد الشيخ عضواً في أكثر من مجلس، و أكثر من مؤسسة، مثل المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، و المجلس العالمي الأعلى للمساجد، و مجلس المجمع الفقهي للرابطة، و المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، و المجمع العلمي بدمشق، و هو الذي سعى لإنشاء مركز "أوكسفورد" للدراسات الإسلامية، ليكون نقطة انطلاق للفكر الإسلامي في جامعة غربية عريقة، و هو الذي يرأس مجلس أمنائه منذ أنشئ، كما أسهم في إنشاء "رابطة الأدب الإسلامي" لتكون منبراً عالمياً لأدباء الإسلام، و هو رئيسها منذ أنشئت أيضاً، و من قرأ عناوين محاضرات الشيخ و رسائله و أحاديثه، و أين ألقيت؟ و إلى من وجهت؟ يعرف هذه العالمية بوضوح، فهناك أحاديث إلى العرب، و أحاديث صريحة في أمريكا، و هناك جملة (إسمعيات) ـ إذا صح هذا الجمع ـ و هي الرسائل التي وجهها إلى البلاد التي زارها ناصحاً لها و مشفقاً عليها: اسمعي يا مصر! اسمعي يا زهرة الصحراء! (يعني الكويت)، اسمعي يا إيران... إلخ.

أخوة الإسلام:

و أما أنه (أخي) فقد ربطت بيني و بينه (أخوّة الإسلام) الذي يربطِ بين الأكبر و الأصغر من أبنائه: [إنما المؤمنون أخوة]، و :"المسلم أخو المسلم"،

و :"أخوة العلم"، و العلم رحم بين أهله، و "أخوة الدعوة"، و الدعوة رابطة بين الدعاة، و إن بعدت الدار، و شط المزار، و "أخوة المحنة"، و أعني المحنة بهموم الأمة، و ترشيد الصحوة، و تفرق العلماء و توحد الأعداء، و هجمة الخصوم، و ضعف المقاومة، و فساد الحكام، و غفلة الجمهور، و ترف الأغنياء، و شغل الدعاة أتباعهم بالفروع عن الأصول، و الجزئيات عن الكليات، و بالشكل عن الجوهر، و بأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

و أما أنه (شيخي) فلأني تتلمذت على كتبه، و انتفعت بها، و اقتبست منها، و نقلت عنها في أكثر من كتاب لي، و كل كتاب فيها له طعم خاص، و مذاق معين، و فكرة محورية يدور عليها، و لا أجد داعية من الدعاة المعاصرين، و لا مفكراً من مفكرينا المعتبرين إلاّ استفاد من كتب الشيخ، و اقتبس منها، الشهيد سيد قطب، الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، العالم الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي... و غيرهم.

بل إنني تتلمذت عليه مباشرة باللقيا و السماع منذ لقيته في سنة ١٣٧١هـ/١٩٥١م في مصر، و كلما لقيته بعد ذلك، فهو ـ حفظه اللّه ـ قدوة في حركته، و قدوة في سكونه، قدوة في كلامه، و قدوة في صمته.

أذكر أنه حينما زارنا منذ أكثر من ثلاثين عاماً في قطر، و كان يشكو من قلة موارد (دار العلوم) بندوة العلماء، اقترح عليه بعض الإخوة أن نزور بعض الشيوخ و كبار التجار، نشرع لهم ظروف الدار و نطلب منهم بعض العون لها، فقال:

لا أستطيع أن افعل ذلك! و سألناه: لماذا؟ قال: إن هؤلاء القوم مرضى، و مرضهم حب الدنيا، و نحن أطباؤهم، فكيف يستطيع الطبيب أن يداوي

مـريـضـه إذا مد يده إليه يطلب عونه؟ اي يطلب منه شيئاً من الدنيا التي يداويه منها؟!

قـلـنـا لـه: انـت لا تطلب لنفسك، انت تطلب للدرس و معلميها و تلاميذها حتى تستمر و تبقى.

قـال: هـؤلاء لا يـفـرقـون بين ما تطلبه لنفسك و ما تطلبه لغيرك، ما دمت أنت الطالب، و أنت الآخذ!!

و كـنـا فـي رمضان، و قلنا له حينذاك: ابق معنا إلى العشر الأواخر، و نحن نـقـوم عـنـك بـمهمة الطلب، فقال: إن لي برنامجاً في العشر الاواخر، لا احب ان أنقضه او اتخلى عنه لاي سبب، إنها فرصة لاخلو بنفسي و ربي.

و عـرفنا أن للرجل حالاً مع اللّه، لا تشغله عنه الشواغل، فتركناه لما أراد، محاولين أن نقلده، فلم نستطع، و كل ميسر لما خلق له.

امـا انـه (حـبـيـبي) فاشهد اني احبه، و ارجو ان يكون حباً للّه تعالى، فقد احـبـبـتـه لتجرده و إخلاصه و ربانيته، و أحببته ليقينه و توكله و قوته، و احببته لـتـحـرّقه و توقده و غيرته، و أحببته لاعتداله و سيطرته، احببته لنقاء فكره من الـخـرافـة، و صـفـاء قـلبه من الحسد، و سلامة عقيدته من الشركيات، و سلامة عـبـادتـه من الـمـبـتـدعـات، و نـظـافـة لسانه من الطعن و التجريح، بالتصريح او التلويح، احببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة، و بالحقائق عن الصور، و بالمعنى عن المبنى، و بالعمق عن السطح.

احببته لحسن خلقه و سهولته، احببته لحيائه، و رقة طبعه و دماثته.

لست وحدي:

و إنـي لأتقرب إلى اللّه تعالى بحبه، و أرجو أن أحشر معه: [مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين* و حسن أولئك رفيقاً].

و إني أتمثل هنا بقول الشاعر الصالح:

أحب الصالحين و لستُ منهم   عساني أن أنال بهم شفاعة

و أكره من بضاعته المعاصي   و إن كنا سواءً في البضاعة!

و لست أنا وحدي الذي يحب الشيخ الجليل، فأحسب أن كل من عرفه و اقترب منه أحبه على قدر معرفته به، و قربه منه، و كلما ازداد منه قرباً، ازداد له حباً.

و لا غرو أن يختلف الناس على أشخاص العلماء، و لكنهم يتفقون على أبي الحسن، حتى الذين ليسوا من مشربه، و لا على طريقته، لا يملكون إلاّ أن يختاروه في مجامعهم، لما خصه اللّه به من مزايا قل أن توجد في غيره: [و اللّه يختص برحمته من يشاء* و اللّه ذو الفضل العظيم].

عرفت الشيخ أبا الحسن منذ أربعة و أربعين عاماً، حين زارنا في مصر، أول ما خرج من وطنه في الهند، و أراد أن يتحرك إلى العالم من حوله، فكانت زيارته لمصر ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

و كنت وقتها طالبا في كلية أصول الدين، مشغولاً بدعوة الإخوان المسلمين، مسئولاً عن طلبة الإخوان في جامعة الأزهر، مع أخي أحمد العسال، و عدد من الإخوة الكرام، و أخطب الجمعة في مسجد بمدينة المحلة الكبرى ــ

الـقـريـبـة من قـريـتـي ـ و كـنـت قـد قـرأت كتاب: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" الذي نشرته (لجنة التأليف و الترجمة و النشر) التي يرأسها الأستاذ الكبير أحمد أمين رحمه اللّه.

و قـد أعـجـبـت بـالكتاب، و دللت عليه بعض الأصدقاء ليقرؤوه، و إن كنت لا أعـرف عن صـاحـبـة شـيـئـاً إلا أنـه عـالـم هـنـدي مـسـلـم، و قد كتب الأستاذ أحمد أمين مقدمة للكتاب، و لكنه لم يوف صاحبه حقه كما ينبغي.

و لـكن الـكـتـاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، و إلى التاريخ العالمي من مـنظور إسلامي، و هو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، و يعرف كيف يستخدمه لهدفه و رسالته.

و قـد سـاعـده عـلـى ذلـك مـعـرفـتـه باللغة الإنجليزية، كما ساعده الحس الـنـقدي، و الحس الحضاري، و الحس الدعوي، و الحس الإصلاحي، ـ و كلها من مواهبه ـ على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد.

اتـصـل بـي بـعـض الإخـوة الهنود الذين يدرسون في مصر، و قالوا لي: هل تـعـرف الأستاذ أبا الحسن الندوي؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب: "ماذا خسر الـعـالـم بـانـحطاط المسلمين؟"، قالوا: بلى، قلت: و ما شأنه؟ قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا، قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه بعد حضوره.

و مـا هـي إلّا أيـام حـتـى حـضـر الشيخ، و معه اثنان من إخوانه و رفقائه الندويين، أحدهما: الشيخ معين الندوي، و الثاني: نسيت اسمه.

لا ينزل في الفنادق:

كـان الشيخ و من معه يسكنون في شقة متواضعة في زقاق من أزقة شارع الـمـوسـكـي بـحي الأزهر، فالشيخ لا يقدر على سكنى الفنادق، و لا يحبها ـ حتى

و إن قدر عليها ـ و في اجتماعات مجلس الرابطة بالمملكة يدع الفنادق التي ينزل فيها الضيوف ـ و هي من فنادق الدرجة الأولى ـ و ينزل عند بعض إخوانه.

كما أنه يرفض النزول ضيفاً على بعض الكبراء من الأغنياء و الموسرين، لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلا يكون أسيراً لإحسانهم.

كان الشيخ حين زار مصر في شرخ الشباب، لحيته سوداء، و وجهه نضر، و عزمه فتي، و روحه و ثابة، و غيرته متوقدة، كان يحمل حماس الشباب، و حكمة الشيوخ، يحمل فكر العالم الموفق، و قلب المؤمن الغيور في آن واحد.

ذهبت لزيارة الشيخ في مسكنه المتواضع أنا و أخي و صديقي و رفيقي ـ محمد الدمرداش مراد رحمه اللّه ـ رفيقي في الدراسة، و رفيقي في الدعوة، و رفيقي في المحنة، و رفيقي في السكن، و دعوناه إلى بيتنا في شبرا، ليلتقى ببعض إخواننا من شباب الأزهر الملتزمين بالدعوة في صورة ما يسميه الإخوان (كتيبة) و هو تعبير عن ليلة جماعية تُقضى في العلم و العبادة و الرياضة، و قليل من النوم، و كان الشيخ حريصاً على أن يستمع منا، كما نستمع إليه، فكان يسأل عن حسن البنا، و كلامه و طريقته، و مواقفه و تصرفاته في الأمور المختلفة، كبيرة كانت أو صغيرة، مما كوّن معه فكرة عن الشيخ البنا، و أنه كان (إماماً ربانياً) بحق، و لم يكن مجرد زعيم يطالب بحكم إسلامي، بل كان قبل كل شيء (مربياً) يريد أن ينشئ للإسلام (جيلاً جديداً)، يحسن الفهم له، و الإيمان به، و الالتزام بتعاليمه، و الدعوة إليه، و الجهاد في سبيله.

و تكرر لقاؤنا معه، و لقاؤه معنا، نحن شباب الدعوة الإسلامية (أنا و الأخ أحمد العسال، و الأخ الدمرداش و آخرون).

كانت أيام الشيخ أبي الحسن في مصر أياماً خصبة مباركة، لا يكاد يخلو

يوم منها عن محاضرة عامة يدعى إليها، أو درس خاص يرتب له، أو لقاء خاص يعدّ له.

ألقى محاضرة تحت عنوان: "المسلمون على مفترق الطرب" في دار الشبان المسلمين على ما أذكر، و ألقى محاضرة عن: "محمد إقبال" شاعر الإسلام في الهند في كلية دار العلوم، كان له تأثيرها و دويها، و الشيخ من المعجبين بشعر إقبال، و يحفظ منه الكثير الكثير، و قد أخرج كتاباً عنه بعنوان: "روائع إقبال".

التقى الشيخ في القاهرة بكثير من العلماء و الدعاة و المفكرين، و سجل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه الذي أصدره بعد رجوعه: مذكرات سائح في الشرق العربي.

التقى بالأديب الكبير الناقد الشهيد سيد قطب، و أعجب به الشهيد، و كتب مقدمة أخرى لكتابه: "ماذا خسر العالم...؟" أنصف فيها الكتاب و صاحبه، و قدره حق قدره.

و التقى كثيراً بالشيخ محمد الغزالي، و رافقه في بعض رحلاته الدعوية، و أعجب كل منهما بصاحبه، و كتب عنه الشيخ في (مذكراته) تلك.

و أذكر أن الشيخ الندوي كان قد اصطحب معه عدة رسائل من أوائل كتاباته الإسلامية الدعوية، و هي جملة رسائل تعبر عن حس رقيق و فكر عميق، و بيان أنيق، و عن رهافة الحاسة الأدبية، و عمق الحماسة الروحية عند الشيخ.

و أذكر أن الشيخ الغزالي قرأها و منها رسالتان: إحداهما: من العَالم إلى جزيرة العرب، و الأخرى: من جزيرة العرب إلى العالم، و فيهما يستنطق الشيخ

ما يريده العالم من الجزيرة من الهدى و دين الحق، و هو ما قدمته الجزيرة قديماً للعالم، و ردّ الجزيرة على هذا التساؤل.

قال الغزالي معقباً: هذا الإسلام لا يخدمه إلّا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه!

لغة جديدة:

لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، و روحاً جديدة، و التفاتاً إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها، إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر رضى اللّه عنه بين رستم قائد الفرس و كلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، و عبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، و إيجاز رائع: إن اللّه ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده، و من ضيق الدنيا إلى سعتها، و من جور الأديان إلى عدل الإسلام، أبو الحسن الندوي ــ فيما أعلم ــ هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف، و هذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك و انتشرت.

و قد لقي الشيخ أستاذنا البهي الخولي، و قد أعجب به الأستاذ البهي غاية الإعجاب، و سجل ذلك في رسالة سطرها إليه، كما لقي الأستاذ صالح عشماوي و غيره من قادة الإخوان، و جلس إليهم و تحدث معهم حديثاً نشره في رسالة بعد ذلك، عنوانها: أريد أن أتحدث إلى الإخوان المسلمين.

و لقي كذلك أستاذنا العلامة الدكتور محمد يوسف موسى، و قد كتب له مقدمة لكتابه: "ماذا خسر العالم؟".

كما لقي الأديب الداعية الشيخ أحمد الشرباصي، الذي سجل معه مقابلة عن سيرته نشرت في مقدمة: "ماذا خسر العالم؟"، و مما ذكره في هذه

الـمـقـابلة: أنه سئل عن أغرب ما رآه في مصر؟ فكان جوابه: أني وجدت العلماء حـليـقـي اللحى! و لا ريب أن هذه صدمة شديدة لعالم لم ير في حياته في وطنه عـالـمـاً واحداً حليقاً، و حلق اللحى عندهم من شأن المتفرنجين، و البعيدين عن الـدين، أمـا أن يـكـون هـذا هو الطابع العام للعلماء في بلد، فهو الشيء الغريب! و من الـعـجـب أن بـعـض شـيـوخ الأزهـر المتحمسين لإعادة الأزهر إلى مكانته الـقديمة يحاولون أن يفرضوا على الطلبة لبس العمامة، و هي مجرد تقليد! و لا يفكرون أن يفرضوا عليهم إطلاق اللحية، و هو سنة إسلامية بلا ريب!

و لـم يـكـتـف شيخنا بالنشاط و الحركة في مدينة القاهرة على سعتها، بل امـتـد إلى مدن أخرى، سمعت بالشيخ فدعته إلى زيارتها و لقاء الجمهور المسلم فيها.

و من ذلـك: مـدينة (المحلة الكبرى) التي كنت أخطب في أحد مساجدها، و قـد دعـاه إلـيـها الدكتور محمد سعيد ـ رحمه اللّه ـ رئيس الجمعية الشرعية بـمـديـنـة المحلة، و هو طبيب أسنان معروف، نذر حياته لإحياء السنة، و الدعوة إلـى الـلّه على طريقة (إخواننا في الجمعية الشرعية) و قد عرف الشيخ أن بينه و بـين الإخوان شيئاً، فهو يأخذ عليهم أنهم لا يلتزمون بالآداب التي يلتزمونها هم من إعـفـاء الـلـحـيـة، و إحـفـاء الشارب، و إرخاء العذبة، و إطالة الصلاة، و قال الـشـيـخ للدكتور: إن دعوة الإخوان دعوة عامة، مهمتها أن تجمع الجماهير على الأصـول الكلية للإسلام، ثم تربيهم بالتدريج على الآداب الخاصة. و لا بد أن يكون فـي الأمة المنهجان: النهج العام للإخوان، و النهج الخاص كالجمعية، و استراح الدكتور سعيد ـ رحمه اللّه ـ لكلام الشيخ و دعاني معه على الغداء عنده.

و لـكن سـرعـان مـا كـاد هذا يذهب هباءً، عند ما ذهبنا مع الشيخ إلى بلدة "نـبـروه"، و تكلمت كلمة أغضبت الدكتور سعيد ـ غفر اللّه لنا و لـه ـ و لا أدري:

لـمـاذا؟ و لكن الشيخ تدارك الموقف بهدوئه و حكمته و بات الناس تلك الليلة في المسجد سجداً و قياماً، بدعوة من الشيخ و استجابة كثيرين من الحضور.

كـانـت زيـارة الـشـيـخ لـمصر هي بداية لقائي به، و معرفتي به، ثم زادتها الايام قوة على قوة، بيد أن هناك فترة انقطعت فيها أخبار الشيخ عنا، و ذلك بعد ظـهور ثورة يوليو، و صدامها الدامي مع الإخوان، و دخولنا المعتقلات و السجون، و الـحـيـلـولة بيننا و بين كل نشاط يتصل بالجماهير من تعليم و تدريس أو وعظ و خـطـابـة، و إن أجـبرتهم الأقدار أن يستعينوا بنا حين وقع العدوان الثلاثي على مـصـر، و قـد صُنـف الـشـيخ الندوي ـ و زميله الشيخ المودودي ـ على أنهما من أعـداء الـثـورة الـمـصـريـة، و خـصـوم الـناصرية، و لهذا حين صدر قانون إنشاء "مـجـمع البحوث الإسلامية بالأزهر"، و هو ينص على أن يضم علماء بارزين من أقـطـار الـعـالـم الإسـلامـي، اسـتبعد اسما الرجلين الكبيرين مع أنهما كانا أولى المرشحين بذلك، لمكانتهما العلمية و العالمية.

ثـم شـاء القدر أن أعار إلى قطر، بعد عشرة سنوات من زيارة الشيخ لمصر (١٣٨١هـ/١٩٦١م) و قـد سـعدنا بزيارة الشيخ للدوحـة، بعد أشهر أو سنة ـ لا أذكر ـ من قـدومـي إلـى الـدوحـة، و كـانـت تـلك الزيارة تجديداً و تأكيداً للصلة السابقة و المستمرة، و قد أشرت إليها فيما سبق.

البعث الإسلامي:

ثـم ظـللت أتصل به عن طريق ما يصدره من كتب، و ما ينشره من رسائل و مـحـاضـرات، و عن طـريـق مـجـلـة "البعث الإسلامي" التي كنا نعتبرها لسان الدعوة الإسلامية في الهند، و يقوم عليها أخوان كريمان من تلاميذ الشيخ، و من رجال الدعوة، و هما: الأستاذ محمد الحسني ـ رحمه اللّه و تقبله في الصالحين

ـ و هـو ابن أخ الـشيخ، و الأستاذ سعيد الأعظمي ـ بارك اللّه في عمره و نفع به ـ، و لا يـكـاد يـخـلـو عـدد من الـمجلة من كلمة للشيخ أو بحث، أو من تلخيص لمحاضرة، أو نحوه مما ينفع الناس، و يمكث في الأرض.

و من أهم الكتب التي ظهرت للشيخ في تلك الفترة:

رجال الـفـكـر و الـدعوة في الإسلام ... الجزء الأول منه، و هو كتاب يعتبر نسيج وحده.

و هـو ـ فـي الأصـل ـ مـحـاضـرات عن كـل شـخـصـيـة من الشخصيات الـمـجـددة الـتـي اخـتـارها الشيخ، و ألقاها على طلاب كلية الشريعة في دمشق بدعوة من عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه اللّه ـ.

و قـد أعدها الشيخ الندوي إعداداً جيداً، و بينت مدى عناية الشيخ بالتاريخ الإسلامي، و مـراحـلـه الـمختلفة، و عمق معرفته بخصائص الرجال المجددين لـلـدين، و الـمؤثرين في الامة، و أن كلا منهم جاء في أوانه، و سد ثغرة في جانب من الجوانب لم يكن ليسدها غيره.

و قـد أتـبـع الـجـزء الأول بأجزاء بعد ذلك تحدثت عن عدد من الأعلام، مثل الـحـافـظ ابن تـيمية، و شيخ الإسلام ولي اللّه الدهلوي، و الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، و أمير المؤمنين علي رضى اللّه عنه (المرتضى).

و من الـكـتب التي ظهرت في تلك المرحلة: الصراع بين الفكرة الإسلامية و الـفـكـرة الـغـربـيـة، و هـو يـبـين كـيف دخلت الفكرة الغربية ديار المسلمين، و صارعت الفكرة الإسلامية، التي هي الأصل و صاحبة الدار، و كيف كانت تنفرد بالـتأثير و التوجيه فترة من الزمن، ثم قيض اللّه للفكرة الإسلامية من يجددها و يدعو إليها و يذود عنها، لتبوأ مكانتها.

و منها: الاركان الاربعة، و هو كتاب يتحدث عن العبادات الأربع الكبرى: الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج، بلسان الداعية المعاصر الذي يخاطب العقل و القلب معاً.

و منها: ربانية لا رهبانية: و هو كتاب يتحدث عن الجانب الروحي أو السلوكي في الإسلام، لا حديث الصوفي المتأثر بفلسفة الحلول أو الاتحاد، و لا بالطريقة المرتزقة، بل حديث المسلم الملتزم بالكتاب و السنة، العارف الذائق الذي خاض التجربة الروحية، فلم يغرق في بحار القوم، بل خرج بلآلئ و جواهر انتفع بها، و لم يحجبه عنها المصطلحات التي قد تنفر و لا تبشر، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء، و بالمضامين لا بالعناوين.

ثم كان للشيخ بعد ذلك كتب و رسائل سارت بذكرها الركبان، و تلقاها المسلمون بالقبول في كل مكان.

و مما أذكره و لا أنساه:

زيارتنا للشيخ في مدينة (لكناء) بالهند، مقر ندوة العلماء و دار العلوم، و ذلك حين دعانا الشيخ حفظه اللّه، للاحتفال بمرور خمسة و ثمانين عاماً على تأسيس ندوة العلماء، و قد استجاب لدعوة الشيخ جمهرة من كبار علماء الأمة، من أقطار شتى على رأسهم فضيلة الإمام الأكبر الراحل الرجل الصالح الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر، و الذي أبى الشيخ الندوي إلّا أن يجعله رئيس الاحتفال، تكريماً و تقديراً للأزهر في شيخه، و حضر معه فضيلة الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف في مصر في ذلك الوقت، و حضر الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك، رئيس قضاء الإمارات، و الشيخ عبد اللّه الانصاري، مدير الشئون الدينية في وزارة التربية بدولة قطر، و الشيخ عبد اللّه

العلي المحمود، رئيس الشئون الدينية بإمارة الشارقة، و الشيخ عبد المعز عبد الستار، مدير توجيه العلوم الشرعية، و عدد من علماء السعودية و بلاد الخليج.

في رحاب الندوة:

و كانت أياماً حافلة تلك التي قضيناها في رحب الندوة، و كان مهرجانا رائعاً و باهراً، اجتمع فيه المسلمون ـ و الهندوس!! ـ بعشرات الألوف، و عاش الضيوف في فيض من كرم الشيخ الندوي و إخوانه، حتى قال أخونا الشيخ محمد المهدي البدري: لم يبق إلاّ شيء واحد يقدمه لنا الشيخ، و هو أن يزوج كلاّ منا فتاة هندية مسلمة!

حضر المصورون ليصوروا ذلك المهرجان، و قال الشيخ: إن مذهبنا هو منع التصوير، و لكنا نسمح به اليوم، إكراماً لإخواننا العرب الذي لا يرون بالتصوير بأساً.

ألقيت كلمات كثيرة في المهرجان، حرص الشيخ أن يقدم بعض المتحدثين بنفسه، كما فعل معي، و كما فعل مع العلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة ـ رحمه اللّه ـ، و لقد قال لي بعدها: قد يصل إلى المستمع مباشرة، و إن عجز المترجم عن توصيله.

و لا انسى قولة الشيخ لي مرة: إن في كلامك روحاً و حرارة خاصة، و هذه قلما تترجم، لأن المترجم يترجم المعاني و الأفكار، و لا يترجم الحرارة و الروح، إلاّ مترجماً يملك ما تملك.

و قد وجد هذا المترجم يوماً، ممثلاً في الاخ الشاب النابغة: سلمان الندوي من أسرة الشيخ، الذي ترجم كلمتي في: "مؤتمر المستشرقين"، فقال الشيخ:

الحمد للّه، لقد نقل سلمان المعنى و الروح معاً.

لقد رأينا "ندوة العلماء" و جامعتها المتميزة "دار العلوم" في عقر دارها، تلك الندوة، أو تلك الدار التي طالما سمعنا بها، فعشقناها قبل أن نراها ـ و الأذن تعشق قبل العين أحياناً ـ فلما رأيناها و عايشناها صدق الخُبْرُ الخَبَرَ، و أنشدنا مع الشاعر القديم:

كانت محادثة الركبان تخبرنا

عن جعفر بن رباح أطيبَ الخبر

حتى التقينا، فلا و اللّه ما سمعت

أذني بأحسن مما قد رأى بصري!

إنها الدار التي تغنى بها الشعراء و الأدباء، و أشاد بها الدعاة و العلماء، و قال يحييها العلامة الشيخ علي الطنطاوي: كم أتمنى لو رُددت إلى عهد الصبا، فأعود لأتعلم في هذه الدار، و أتتلمذ على شيوخها، و أرافق طلابها، و أتنفس في رحابها، و أقتبس منها العلم و الإيمان، أو كما قال.

إنها "الندوة" التي اتخذت شعارها: الاستفادة من كل قديم نافع، و الترحيب بكل جديد صالح، و الجمع بين الإيمان الراسخ، و العلم الواسع، و الثبات على الأهداف و الغايات، و التطور في الفروع و الآلات، و الأخذ مما صفا من التراث، و ترك ما كدر منه.

لقد كانت مشكلة التعليم الأساسية في العالم الإسلامي: أنه يقوم على نوعين متناقضين من المؤسسات، إحداهما تمثل القديم الموروث و لا تعرف العصر، و لا تحسن التعامل معه، و الأخرى تمثل العصر بتياراته و معارفه

و تـوجـهـاتـه الـمادية و العلمانية، و لا تعرف التراث و قيمه و عقائده و مُثله، كان هـناك "التراثيون" الماضويون الذين يقولون: ما ترك الأول للآخر شيئاً، و ليس في الإمـكان أبدع مما كان! فلا اجتهاد في الفقه، و لا إبداع في الأدب، و لا ابتكار في العلم، و لا اختراع في الصناعة، و لا تجديد في الدين و لا في الحياة.

و يـقـابلهم "العصريون" الذين يريدون أن يجددوا كل شيء، و هم الذين قال لهم إقبال: إن الكعبة لا تجدد، و قال عنهم الرافعي: إنهم يريدون أن يجددوا الدين و اللغة و الشمس و القمر!

و هـنـا كـان الدور المبارك لندوة العلماء، لتقوم بدور التوفيق بين الجانبين، و تـطعيم كل واحد منهما بعناصر من الآخر، فقامت الندوة فحلت عقدة الصراع بـين الـقـديـم الـصراع بين القديم و الجديد، بين الموروث و الوافد، بين الماضي و الـحاضر، كما يقال اليوم ـ و رفعت شعارات الجمع و التوفيق و الوسطية التي أشرنا إليها.

أسس متينة:

و من حـسن حـظ الـنـدوة أن اللّه تـعـالى هيأ لها ـ منذ تأسيسها ـ رجالاً كـبـاراً، أقـامـوهـا على قواعد مكينة، و أسس متينة، لا تنهار بسهولة، و قد كانوا كـبـاراً فـي الـعـلـم، كـباراً في الفكر، كباراً في الدين، كباراً في الخلق، كباراً في العزيمة و الطموح، ابتداء من العلامة شبلي النعماني، و العلامة سليمان الندوي، و العلامة عبد الحي الحسني والد الشيخ، إلى العلامة أبي الحسن الندوي، و كلهم قمم شامخة.

هـؤلاء الـكـبـار كـونـوا تـلامـيذ لهم أشربوا روحهم، و اقتبسوا من ضوئهم، و تـخـلـقـوا بـأخـلاقـهم، فساروا على نهجهم، فانشا اللّه تعالى بهم مناخاً علمياً

إيمـانـاً مـتفرداً في الندوة، لا تجده في أي مدرسة أو جامعة أخرى، كما أوجدت المعلم المؤمن برسالته، المحب لمهنته، المتجاوب مع طلبته.

فـي المدارس و الجامعات الأخرى قد تجد المنهج الجيد، و الكتاب الجيد، و لـكـنـك لا تـجد المعلم الجيد، و إذا وجدته جيداً في الجانب العلمي تجده ميت القلب، جامد الروح في الناحية الإيمانية و التوجيهية.

و هـذا مـا لاحـظـنـاه عـنـدنا في قطر، فقد ألفنا في العلوم الشرعية كتباً جـيـدة في مادتها و محتواها، و لكنها لم تجد المعلم الذي يتفاعل معها و ينقلها حـيـة إلـى الطلاب، بل وجدنا ذلك الذي يميت المادة الحية، و يلقي على حرارتها من ثلجيته ما يطفئ جذوتها و يجعلها رماداً.

و لـقـد قـدر لـي أن أسـعـد بـزيـارة الندوة ثلاث مرات بعد ذلك، مرة عند ما دعـانـي الـشـيـخ لـمؤتمر "المستشرقون و الإسلام" في مدينة "أعظم كره" التي تـضم دار المصنفين، و كان معي الأخوان الكريمان: الدكتور عبد العظيم الديب، و الـدكـتور علي المحمدي، و قد أبى الشيخ و إخوانه ألا أن يشرفوني برئاسة هذا الـمـؤتـمـر، الذي استمر ثلاثة أيام، فقد كانت فرصة لزيارة محدث الهند العلامة الـشيخ حبيب الرحمن الاعظمي الذي زرناه في قريته التابعة لأعظم كره، و لهذا نـسـب إلـيـهـا الـشـيـخ، و قـيـل الأعـظـمي و في العودة مررنا بلكناؤ وجدنا فيها الذكريات.

و الـمـرة الـثـانـيـة عـنـد مـا ذهـبـت بـدعوة من الشيخ لزيارة الندوة لمدة أسـبـوعـين، لإلـقـاء مـحـاضـرات عـلـى طلاب دار العلوم، و المعهد العالي للفكر الإسـلامـي، و كانت فرصة ذهبية للعيش في هذا الجو العلمي الإيماني المحبب، الذي يعيش المرء فيه بالله و لله و مع الله، و بتنفس علماً و إيماناً و دعوة.

و من سـوء حـظي أن الشيخ أباالحسن كان غائباً عن لكناؤ، و عن الهند في تـلـك الـفـتـرة فـي إحـدى رحـلاتـه المباركة، و لم نلتق به إلاّ في آخر الزيارة في طـريـقـي إلـى "ديـوبـنـد"، لـحضور احتفالها المئوي المشهود، و قال لي الشيخ: أخـبـرنـي الإخوان أنك سحرت العقول، و أسرت النفوس، قلت له: إنما أستمد من اللّه أولاً ثم منكم.

الأرواح و القلوب:

و الـمـرة الـثـالـثـة: منذ نحو ثلاث سنوات حين دعاني الشيخ لزيارة الندوة و دار عـلومها، و ألقاء محاضرات على أساتذتها و طلبتها، و قد قضيت في رحاب الـندوة أياماً أعتبرها من أفضل أيام عمري، و ألقيت فيها عدداً من المحاضرات فـي أصـول الـعلوم الشرعية، أحمد اللّه ـ عز و جل ـ أن وفقني فيها، و كان مما أسـعـدنـي و شـد من عـزمـي: وجـود شـيـخـنـا أبـي الـحـسن و حـضوره كل هذه المحاضرات.

و قـد تـواصـلـت لـقاءاتي للشيخ ـ رحمه اللّه ـ في مناسبات شتى، أقطار شـتـى: الـتقينا به في قطر في أواسط السبعينيات، أول ما أنشئت جامعة قطر، و ألقى محاضرة عن "دور الجامعة في تكوين الأجيال".

ثم سعدنا به مرة أخرى في المؤتمر العالمي للسيرة و السنة الذي عقد في قـطـر، فـي بـدايـة سـنـة ١٤٠١هـ، و كـان مـقدمة لاحتفال الأمة الإسلامية بالقرن الـخـامـس عـشر الهجري، فقد أجمع المؤتمرون على اختيار الشيخ الندوي نائباً لرئيس المؤتمر، و التقينا به في "ملتقى الفكر الإسلامي" بالجزائر.

و كـنـا نلتقي عادة في "مجلس المجمع الفقهي" برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، حيث نشترك معاً في عضويته.

و نـلـتـقـي كـذلك في مجلس امناء مركز "أوكسفورد" للدراسات الإسلامية حيث نسعد برئاسة الشيخ لهذا المجلس، و غير ذلك كان من المناسبات.

أمـا قـلوبنا و أرواحنا فكانت تلتقي دائماً و أبداً مع الشيخ الجليل، في ظل الـحب في اللّه، و في رحاب الإسلام العظيم، الذي أكرمنا اللّه به، و شرفنا بحمل رسالته، و اعباء دعوته، و هموم امته.



لمحات و وقفات
مع سيرة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

بقلم: الدكتور عدنان علي رضا النحوي

١ ـ معرفتي بسماحته و لقاءاتي و صداها:

عرفت سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي سماعاً قبل أن أراه، و ذلك من خلال زياراته للمشرق العربي في أوائل الخمسينات و كانت المعرفة من الذكر الطيب الذي خلفته تلك الزيارات في أوساط مختلفة من المجتمع، الذكر الطيب النابع من الإيمان و العلم و البيان.

إلّا أن لقائي الأول مع سماحته كان في مدينة لكهنؤ في الهند من خلال الندوة العالمية للأدب الإسلامي التي عقدت في لكهنؤ، مركز ندوة العلماء في الهند، و مركز نشاطها بعامة و نشاط الشيخ أبي الحسن الندوي بخاصة و قد عقدت هذه الندوة خلال الفترة (٦/١٢ ـ ٦/١٤) لعام ١٤٠١هـ الموافقة للفترة: (٤/١٧ ـ ٤/١٩) لعام ١٩٨١م، و قد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من علماء الهند و رجالاتها و أبنائها و عدد كبير من العالم الإسلامي، و كان عدد الأبحاث في المؤتمر يزيد عن خمسة و أربعين بحثاً.

و كان المؤتمر برئاسة سماحته يعينه إخوانه في الندوة، و يعينه الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا و الأستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه اللّه، و كان هنالك

ندوة شعرية شارك فيها الشعراء الذين حضروا بقصائد جميلة و أدب إسلامي كريم، و ختمت الندوة بصدور القرارات و التوصيات، و كان من أهمها إنشاء أمانة دائمة لهذه الندوة، و إنشاء مكتب لها في الحي الجامعي لدار العلوم ندوة العلماء، يكون الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي مسئولاً عنه، و يكون أميناً عاماً لهذه الندوة. و يكون معالي الشيخ عبد العزيز الرفاعي و سعادة الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا و سماحة الشيخ عبد اللّه بن إبراهيم الأنصاري نائبي رئيس ندوة الأدب الإسلامي العالمية و كونت لجنة عاملة كذلك.

و لقد ساهمت في هذا المؤتمر ببحث عن الخصائص الإيمانية للأدب الإسلامي و بقصيدة "عرائس و جواهر ـ هدية الشعر"، أحي فيها لكهنؤ و ندوة العلماء و رئيسها و ندوة الأدب الإسلامي و رجالها و كان مطلعها:

"عرائس الشعر صوغي من جواهره
و رجّعي اللحن من أحلى مزاميره
و فوّحي بالشذا في زهو موكبه
مضمخاً بندى من مجامره
و فتقى الورد أشكالاً منمّقة
بالروض حنّت إلى دنيا أزاهره"

و أهمية هذه الندوة في نظري تنبع من عدة أمور: أولاً: إنها الملتقى الأدبي العلمي الأول و الخطوة التطبيقية الأولى للأدب الإسلامي و فتح ميادينه و إطلاق مسيرته. ثانياً: إنها جمعت حشداً كبيراً من رجال الأدب و الفكر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ثالثاً: كانت الأساس الذي قامت عليه رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

و ظل سماحته و إخوانه يتابعون قضية الأدب الإسلامي حتى كان اللقاء التاسيسي لرابطة الأدب الإسلامي سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م برئاسة سماحته يعينه الشيخ محمد الرابع الندوي و إخوانه، و كان الأعضاء المؤسسون من خارج الهند: الدكتور عبد القدوس أبو صالح، الدكتور عدنان علي رضا النحوي، الدكتور محمد علي الهاشمي، الدكتور عبد الباسط بدر، الأستاذ محمد حسن بريغش، الدكتور حسن الإمراني، الأستاذ أحمد براء الأميري، الأستاذ حيدر غدير و آخرون و حضر حفل الافتتاح جمع غفير من الهند و جامعاتها، و ألقى الشيخ أبو الحسن الندوي كلمته الندية، و كذلك الأستاذ عمر بهاء الأميري و ألقيت قصيدة مهرجان القصيد ثم تفرغنا بعد حفل الافتتاح لوضع النظام الداخلي للرابطة الذي أصبح فيه سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رئيساً للرابطة، و فضيلة الشيخ محمد الرابع الندوي نائباً للرئيس، و تكون مجلس الأمناء و في لقاء آخر تكون مكتب البلاد العربية برئاسة الدكتور عبد القدوس أبو صالح، و الدكتور عدنان علي رضا النحوي نائباً للرئيس و انطلقت الرابطة تشق طريقها.

و توالت اللقاءات مع سماحته في مؤتمرات و ندوات متعددة تعقد برئاسته في مختلف مدن الهند، و في استانبول، و في المغرب، و التقيته أثناء زيارته لعمان و كذلك للرياض.

هذه جولة سريعة عن مجالات معرفتي بهذا العالم الرباني، المجاهد الصابر، أحببت أن أعرضها قبل تحدثي عنه، حتى يكون الحديث منطلقا من أسس اللقاء و التعارف الذي امتد قرابة عشرين عاماً، كان فيها لقاءات جانبية، أو حفل خاص على أثر الندوة لفتيان الندوة العالمية و أزاهرها، أو جلسة عامة، أو دعوات في بيوت متعددة، لوجوه المدن التي تقام فيها الندوات و كنت أكتب لسماحته و أتلقى ردّه، و أتلقى منه بعض كتبه إهداءً كريماً منه.

كانت اللقاءات كلها تتسم بروح التقوى و الزهد و العمل الدائب و البذل، يطلق فيها سماحته من روحانيته و خلقه و علمه ما يبعث النشاط في الجميع و يضم القلوب إلى القلوب.

كانت تكشف لنا هذه اللقاءات الأثر العظيم الذي يتركه في الهند و المدرسة الكريمة التي يبنيها، و الشباب الأغنياء بالعلم و التقوى، و الفتيان الناشئين على الكتاب و السنة و اللغة العربية التي يتكلمونها بطلاقة خيراً من كثير من أبناء العرب و عرفنا من خلالها الشيء الكثير مما كنا نجهله عن الهند المسلمة و علمائها و جهادها في سبيل اللّه، و التراث الفكري و الأدبي الضخم الذي يحمله هذا التاريخ العظيم، مما فجر في نفسي كلمات و قصائد أعبر عن ذلك كله، و كان من أهمها "ملحمة الإسلام في الهند".

٢ ـ مولده و نشأتــــه:

ولد أبو الحسن الندوي في اليوم السادس من محرم سنة ١٣٣٣هـ الموافق سنة ١٩١٤م. و نشأ في بيت عُرف بالإيمان و التقوى، و العلم و العمل، و في أسرة كريمة تنتمي في نسبها إلى علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، ولد في مدينة راى بريلى و نشأ فيها و تلقى بواكير زاده فيها. و كان والده السيد عبد الحي طبيباً له عيادته في لكهنؤ حيث انتقل شيخنا إليها، و كان يعمل والده أيضاً في ندوة العلماء، و كان أخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني أميناً عاماً لندوة العلماء سابقاً و كانت أمه السيدة خير النساء ابنة الشيخ السيد ضياء النبي.

كان أبوه عالماً عاملاً باذلاً وقتاً كبيراً و جهداً في التأليف و الكتابة و هو صاحب الكتاب المشهور "نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر"، وضع فيه تراجم علماء الهند و أعيانها في ثمانية أجزاء. و كان خاله الحافظ السيد عبيد اللّه، و كان له أثر في تربيته و نشأته، كما كان لأخيه الأكبر فضل كذلك.

نـشـأ أبـو الـحـسن الندوي بين العلماء و العاملين و الدعاة البائلين و كانت و كـانـت أسـرتـه عـلـى صلة كبيرة بالعلماء و الأمراء، ممن يؤلفون قائمة طويلة يـصـعـب حصرها هنا. و لكننا نشير إلى نماذج و أمثال: الأمير السيد نور الحسن الـبـوفـالـي الإبن الأكـبـر لـلـعلامة السيد صديق حسن خان القنوجي والي بوفال، و العالم الرباني السيد عبد السلام الواسطي، و الأمير الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني، الشيخ غلام محمد الشملوي، الأستاذ عبد الماجد الدريابادي، العلامة الـسيد سليمان الندوي، الشيخ حيدر حسن خان شيخ الحديث و عميد دار العلوم، الـدكـتـور مـحـمـد إقـبـال الـذي زاره أبـو الـحـسن الـنـدوي فـي شـبـابـه و أحبه و أحب شعره، و كان موضوع كثير من أحاديثه.

و نشأ في هذا الجو محاطاً بالرعاية و الحنان محباً للعلم و القراءة، مقبلاً عـلـيـه آخـذاً مـنـه أقـصـى ما يستطيع. و كانت نشأته مع كتاب اللّه، مع القرآن الـكـريـم: حـتـى إذا ختمه كان هناك حفل و تكريم. و كانت هذه عادة ممتدة في العالم الإسلامي، تحتفل العائلة بإبنها الذي يختم القرآن الكريم تلاوة أو يحفظه.

و لـقـد شـاهـدت طفولته أحداثاً كثيرة أهمها الانتقال إلى لكهنؤ، و دراسته الـنـظـامـيـة، و قـيـام حـركـة الخلافة، الحركة القوية، الحركة التي عمت الهند و نـهـض بـهـا مـسـلـمو الهند، و ظهرت شخصيات بارزة بين المسلمين مثـــل محمد علي و شوكت علي، و برز كذلك غاندي و قد ألغيت الخلافة في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٤م، الـمـوافـقـة ١٣٤١هـ. و كـانـت وفاة والده سنة ١٣٤١هـ الموافقة ١٩٢٣م. و قد أثـرت وفـاة والـده فـي نـفـسه و حياته، و كان لم يجاوز التاسعة من عمره و مرت الأسرة كلها بظروف خاصة في تلك المرحلة.

درس الـلـغـة الـعـربـيـة و اللغة الفارسية في طفولته، و ظلت تلاوة القرآن الـكـريم ملازمة له، تحت إشراف والدته التي كانت تحفظه بعض السور الكبيرة

من القرآن الكريم. و كان يشرف على تدريسه اللغة العربية الشيخ خليل بن محمد كما بدأ بدراسة اللغة الإنجليزية. و بدأ يطالع بعض كتب الأردية و آدابها. و كان من أساتذته الأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي أستاذ التفسير و الشيخ محمد طلحة الحسني الذي كان إماماً باللغة العربية ثم التحق بجامعة لكهنؤ سنة ١٩٢٧م.

و كانت رحلاته الأولى بين "رائ بريلى و لكهنؤ" ثم امتدت إلى لاهور برعاية أحد أقربائه الكبار الأستاذ السيد إبراهيم الندوي ليزورا زوج عمته السيد طلحة فقد جمعه الشيخ الفاضل السيد طلحة مع جميع أهل الفضل و النبوغ في لاهور، حيث كانت لاهور أكبر مركز ثقافي و أدبي و صحافي في شبه القارة الهندية و اجتمع بالدكتور محمد إقبال، و التقى بالشخصيات المرموقة هناك و تعرف على الشاعر حفيظ جالندهري، و على الشيخ الجليل مولان أحمد علي اللاهوري و على عميد الكلية الشرقية بلاهور الأستاذ الشيخ محمد شفيع.

و عندما عاد إلى لكهنؤ انخرط في دراسة الحديث الشريف في ندوة العلماء على يد العلامة الشيخ حيدر حسن خان الطونكي.

و جاء إلى ندوة العلماء العلامة المحقق في اللغة العربية و آدابها الأستاذ الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي الذي بدأ يعمل في دار العلوم ندوة العلماء و من خلال هذه الأجواء و بإشراف أخيه، بدأ الشيخ أبو الحسن الندوي يكتب بعض المقالات، و ترجم بعض ما يكتب بالاوردية إلى العربية، فترجم مقالة لأمير جماعة أهل الحديث الشيخ داؤد الغزنوي، ثم عرضها على الأستاذ الهلالي الذي بعثها إلى العلامة السيد رشيد رضا فقام هذا بنشرها في "المنار" معجباً بها مقدراً لها.

و أصبح شغوفاً بمطالعة الصحف و المجلات التي كانت ترد إلى ندوة العلماء أو إلى بعض أفراد أسرته، مثل: "أم القرى" الصادرة من مكة المكرمة، "فتى العرب" الصادرة من دمشق، "الجامعة الإسلامية" الصادرة من فلسطين و التي تمثل لسان حال سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين، "المنار"، "الهلال"، المتقتطف، "مجلة الزهراء"، المجمع العلمي، العرفان، "التفح" مجلة الأستاذ محب الدين الخطيب. و كانت ترد الصحف و المجلات و كذلك الكتب من مصر و سوريا و لبنان و العراق وغيرها. و بدأ يتسع مجال المطالعة في ميادين مختلفة أمام الشاب النشيط أبي الحسن الندوي هذا بالإضافة إلى الصحف و المجلات و الكتب و المؤلفات من الهند نفسها، و من رجال ندوة العلماء.

و عاد إلى لاهور و اتصل بالشيخ الجليل أحمد علي اللاهوري، ثم توجه إلى ديوبند ليكون في رعاية الشيخ حسين أحمد المدني الذي كان يدرس الحديث و يدرس صحيح البخاري و سنن الترمذي و تعرف هناك على الشيخ أبي المحاسن محمد سجاد البهاري، و هو من كبار قادة المسلمين الدينيين و السياسيين، و من الزاهدين المخلصين، و الفقهاء الراسخين توفى سنة ١٣٥٩م.

٣ ـ مع ندوة العلماء و نشاطه و انطلاقته:

و عمل مدرساً في ندوة العلماء اعتباراً من سنة ١٩٣٤م، مدرساً لمادتي الأدب و التفسير، و كان قد بلغ العشرين من عمره.

تأسست ندوة العلماء في الهند في لكهنؤ سنة ١٣١٢هـ الموافقة سنة ١٨٩٥م. أسسها العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري مع إخوانه و تأسس معها دار العلوم التابعة لها. و كانت و مازالت تؤدي دوراً هاماً في حياة المسلمين في

الهند، و تأخذ الموقف العادل الإيماني من العلوم العصرية دون التورط في أن تكون تابعة لها أو مجافية و لقد تأسست في الهند مراكز علمية و معاهد تعليمية كثيرة تهدف إلى المحافظة على رسالة الإسلام و ارتباط المسلمين بها، و أما أبناء ندوة العلماء فقد أصبحوا مرتبطين فيما فينهم برباط هذه الندوة الإيمانية، و كأنها نسب لهم و رحم، و أصبح يعرف كل منهم بهذا اللقب "الندوي" و امتد أبناؤها في شبه القارة الهندية و أندونيسيا و غيرها، يحملون كلهم رسالة الإسلام لقد أصبحت ندوة العلماء مدرسة فكرية تقوم على الكتاب و السنة و التصور المتوازن للعلوم و الثقافة و الآداب.

و بدأ أبو الحسن الندوي نشاطه التعليمي في ندوة العلماء، و أخذ ينمو علمه بذلك ينمو نشاطه و صلاته، و أخذت حياته تستقر على نهج واضح لديه، و زاد من استقراره زواجه سنة ١٩٣٤م بإبنة خاله السيد أحمد سعيد، و هي حفيدة الشيخ السيد ضياء النبي.

و أخذت تنمو ندوة العلماء، و تنمو مناهجها، و ينمو نشاطها. و طلب الشيخ خليل و كذلك أخوه الأكبر منه أن يتوجه إلى بومبائي و يدعو الدكتور أمبيدكر، الذي كان يبحث عن الدين الصحيح، إلى الإسلام و قام بهذه المهمة و خاض هذه التجربة، إلّا أن ذلك الدكتور لم يشأ اللّه له الهداية فلم يسلم و أعلن اختياره البونية له و لجماعته "المنبونين".

و كان من أهم الشخصيات التي قرأ عنها أبو الحسن الندوي في شبابه و تأثر بها السيد أحمد إبن عرفان الشهيد، الذي سبق أن ترجم مقالة عنه نشرها السيد رشيد رضا. فسافر إلى "طونك" كي يجمع أكبر معلومات عن السيد أحمد الشهيد بغية أن يضع كتاباً عنه فكان الكتاب "سيرة الإمام أحمد الشهيد" و كان يرتبط بالإمام أحمد بن عرفان الشهيد برباط النسب، إلّا أنه اهتم بإبراز جهاده

لقناعته بضرورة تقديم النماذج الرائعة من المجاهدين لأبناء الإسلام في الهند، و للإمام أحمد ابن عرفان تاريخ حافل بالجهاد في سبيل اللّه.

و انطلقت قدرته و موهبته في الكتابة و التأليف بزادٍ نامٍ و تجربةٍ غنية مبكرة و كذلك اتسعت كتابته للمقالات و المحاضرات في الندوة. و اتسع أفق قراءاته و مطالعاته. فقرأ كتب الأستاذ أحمد أمين، و ما كان يكتبه شكيب أرسلان و عبد الرحمن الكواكبي. و أخذ يقرأ كتباً في السياسة و التاريخ: "انحطاط و سقوط روما"،"الصراع بين العلم و الدين"، "تاريخ الأخلاق الأوروبية"، و "تاريخ الفلسفة الجديدة" و كتب أخرى كثيرة كما قرأ للأستاذ طفيل أحمد و للأستاذ المودودي.

٤ ـ انطلاقته في شبابه في الهند بواكير نشاطه خارجها:

انطلق الشاب الداعية أبو الحسن الندوي يزور المراكز الدينية في الهند و يتعرف على قياداتها، و يبحث عن تصور لقيادة دينية جديدة، فانتسب إلى الجماعة الإسلامية بقيادة الأستاذ أبي الأعلى المودودي، و بدأ نشاطه معها، ثم انفصل عنها بعد حين دون أن يفقد إعجابه بمقالات الأستاذ المودودي و كتاباته و احترامه له. و التقى معظم الدعاة، و التقى دعاة حركة التبليغ، و زار عدداً من الزوايا، و ألقى بعض المحاضرات هنا و هناك، حول الدين و الدعوة الإسلامية، و اتصل بالحركات السياسية الهندية و بعض قادتها، و فتحت أمامه ميادين جديدة للدعوة الإسلامية و العمل.

و بدأ بكتابة مقالات دعوية باللغة العربية، و بدا ينظر إلى واقع المسلمين في الهند و خارج الهند، و واقع المسلمين في العالم العربي. فكان كتابه الهام "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و بدأت زياراته إلى خارج الهند فسافر

إلى الحجاز و التقى إمام الحرم المكي، و سافر إلى مصر و التقى الأستاذ سيد قطب و حضر المؤتمر الآسيوي الذي دعا إليه جواهر لال نهرو.

و أسس مركزاً "للتعليمات الإسلامية" يعطي فيه دروساً في القرآن و السنة متبعاً أسلوب شيخه الشيخ أحمد علي اللاهوري و أقبل الناس على هذه الدروس و صدرت صحيفة "تعمير" سنة ١٩٤٨م.

و كان من بين أهم الزيارات التي قام بها زيارته للشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي و اتصاله بحركته الدعوية "التبليغ" و بعد هذه الزيارة انطلق الشيخ إلى نشاطه الدعوي في نواحي لكهنؤ و العناية بالتربية عن طريق الجولات الدعوية، و أخذ يلح بضرورة التكلم باللغة العربية و من بين هذه الجولات كانت زيارته إلى بيشاور و إلقاء محاضرة بمناسبة الاحتفال بالسيرة النبوية، و التقى هناك الشيخ السيد عبد الراشد أرشد سكرتير مجلس السيرة الداعية الذي امتد نشاطه من بيشاور إلى كلكته إلى اليابان إلى أمريكا، و مع تقدير الشيخ أبي الحسن الندوي للشيخ محمد إلياس الكاندهلوي و احترامه لنشاط جماعة التبليغ إلّا أنه لم يستطع الذوبان، و لكنه أعان و آزار.

و سافر للحج سفرته الأولى سنة ١٩٤٧م مع الشيخ محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى، و هناك بدأ نشاطاً دعوياً واسعاً. و التقى بالشيخ عمر ابن الحسن آل الشيخ الذي هو من أعقاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه.

و أثناء هذه الزيارة بلغهم نبأ تقسيم الهند إلى دولتين: الهند و باكستان. و عاد الشيخ أبو الحسن و الشيخ محمد يوسف إلى الهند في ٣٠ يناير ١٩٤٨م، و صادف هذا اليوم يوم اغتيال الزعيم غاندي. و قد أثر هذا الحادث في نفوس

أهل الهند مسلمين و غير مسلمين و تعددت اتجاهات المسلمين، فمنهم من اخذ يدعو إلى السير مع التيار القومي، و منهم من علّق آماله بالقوى الغربية و مال إلى اتباعها، و منهم من التزم الإسلام على حسب فهمه و تصوره و دارت بين فئات من الناس اعتراضات على بعض التصورات الإسلامية فتصدى لها ابو الحسن الندوي بالرد في مجلة "تعمير" و مجلة "الفرقان" و كان لموقف الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي، المدير العام لجمعية العلماء و أمينها العام و ردوده الجزئية كذلك أثر هام.

و دعا الشيخ أبو الحسن الندوي المثقفين المسلمين من مختلف المدارس الفكرية و المؤسسات إلى اجتماع عام في لكهنؤ لدراسة أوضاع المسلمين، و ذلك في ٢٠/ شوال ١٣٦٧هـ الموافق ٢٦/ أغسطس عام ١٩٤٨م و وجدت الدعوة القبول و تمت الندوة، و قرأ مقاله الذي أعده مقدمة للندوة.

و توالت الندوات في لكهنؤ و المحاضرات الدعوية، و استمرت المراسلات مع أصدقائه في أرض الحجاز، و ازدادت رغبته في الدعوة بين العرب و سافر للحج ثانية سنة ١٣٦٠هـ في مرافقة الشيخ عبد القادر الرائي بوري و مع بعض تلامذته الأعزاء: الشيخ عبد اللّه عباس الندوي، و الشيخ سيد رضوان الندوي، و الشيخ محمد طاهر المظاهري، و ابن اخته الشيخ محمد الرابع الندوي، و التقوا بأدباء الحجاز و وجوهه و قدم الشيخ أبو الحسن الندوي بعض الأحاديث في إذاعة المملكة العربية السعودية.

و لقد لمس في هذه الزيارة مدى تأثر شباب الحجاز و أدبائها بأدباء مصر و كتابها فتوجّه إلى مصر سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، يرافقه بعض أبناء ندوة العلماء. فألقى محاضرة في جمعية الشبان المسلمين بعنوان: "العالم على مفترق الطرق" و تعرف من خلال اللقاءات برجال الأزهر و الدعوة و رجال العلم و الأدب

علـى نـطـاق واسـع. و قدم محاضرة أخرى في دار العلوم بعنوان: "إقبال و شعره و رسـالـتـه"، و مـحـاضـرة أخـرى في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) بعنوان: "الإنسان الكامل عند إقبال" و توالت المحاضرات و اللقاءات في مختلف المراكز الإسـلامـيـة فـي مصر، و التقى الطلاب و الشباب في لقاءات دعوية، و انتقل إلى الـقـرى و الأريـاف. و تـابـع رحلته إلى السودان، و فالتقى برجالها و دعاتها. و كان لـكـتـابـه "مـاذا خـسـر الـعـالـم بـانحطاط المسلمين" مدخل هام للتعرف على الـكـثـيـرين لانـتـشار الكتاب بين الشباب المسلمين و الدعاة في مصر و السودان و بلاد الشام وغيرها.

و تـابـع رحـلـتـه إلى دمشق و مدن سوريا، و التقى كذلك وجوهها و علمائها و أدبـائـهـا، و زار مـراكـزهـا الـعـلـمية و مؤسساتها الفكرية و تحدث عن قضية فلسطين في محاضرة بجامعة دمشق و زار بيت المقدس و الخليل و عمان.

و عـاد إلـى الـحـجـاز و أدى فـريـضـة الحج للمرة الثالثة، و اقام في مكة الـمـكـرمـة هو و إخوانه خمسة أشهر و قدم أحاديث في إذاعة المملكة العربية الـسـعـودية، و زار الطائف، و كان في هذه الفترة في ضيافة الشيخ محمد سرور الصبان يرافقه الشيخ محمد الرابع الندوي و الشيخ معين الندوي.

و عـاد إلـى الـهـنـد هو و إخوانه في تشرين الأول ١٩٥٧م ليبدأ نشاطاً دعوياً جـديداً في الهند و لقد استغرقت هذه الرحلة بحدود ستة أشهر في عمل متواصل دائب و في سفر متواصل يكاد يعجز عنه الكثيرون.

٥ ـ استئناف نشاطه في داخل الهند بعد عودته:

لقد رأى الشيخ أبو الحسن الندوي و إخوانه ضرورة تبليغ الدعوة الإسلامية لـغير المسلمين في الهند عن طريق محاضرات عامة يحضرها المسلمون و غير الـمـسـلـمين. فدعت جماعة التبليغ إلى احتفال عام على هذا الأساس يعقد في

مـنـتـزه أمـين الـدولـة فـي لكهنؤ. و كانت كلمة سماحته بعنوان: "عبادة اللّه ام عـبادة الـنفس" و اقيم حفل آخر في "سيوان" خطب فيه سماحته و تأثر الناس كـثـيراً، حـتـى قام رجل هندوكي و أمسك بالمكبر و قال: "لقد سمعت في حياتي خـطـابين تـاثـرت بهما: خطاب C.R.ROSS و خطاب مولانا اليوم، و اقول بكل صراحـة إن مـحـمـداً صـلـى الـلّه عـلـيـه و سـلم رسول الحق..." و تحولت هذه الاحتفالات المتكررة إلى ما سماه الشيخ الندوي "حركة رسالة الإنسانية".

و بـدأ الـشـيـخ الندوي بسلسلة من المحاضرات تلقى أمام جماعة التبليغ بـعـنـوان: تـاريخ الإصلاح و الـتجديد و شخصياته الجليلة ثم أخرج هذه السلسلة في خمس مجلدات كل مجلدة عن مصلح مجدد: الأول و الثاني و الثالث عن شيخ الإسلام ابن تيمية، و الرابع عن الإمام أحمد بن عبد الاحد السرهندي، و الـخامس عن الإمام ولي اللّه الدهلوي و تلامذته و أعقابه.

و امـتـد نـشـاطـه في داخل الهند على نطاق واسع بنفس العزيمة و الهمة التي رأيناها في نشاطه الـخارجي.

٦ ـ استئناف النشاط خارج الهند و اتساع مداه:

تـلـقى الشيخ أبو الحسن الندوي دعوة إلى دمشق من جامعتها من الدكتور مصطفى السباعي، فاستجاب لها سنة ١٩٥٦م. و توالت المحاضرات في الـجامعة و فـي إذاعـة دمـشـق. و كـان من أهـمـهـا: الـتجديد و المجددون في تاريخ الفكر الإسـلامـي، "مـحـمـد إقبال في مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم" اسمعي يا سورية".

ثـم انـتـقـل إلـى بـيروت و طرابلس، ثم توجه إلى تركيا، ثم عاد إلى دمشق لـيـحـضـر الـمؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه الدكتور سعيد رمضان، و الذي رأسه

الدكتور محمد ناصر رئيس وزارة اندونيسيا، و نائباه الأستاذ الشيخ المودودي و الأستاذ الشيخ الندوي.

و توجه الشيخ أبو الحسن سنة ١٩٦٠م إلى "رانغون" بدعوة من المقرئ عبد الرحمن القاسمي، حيث مكث أكثر من شهر في محاضرات متصلة للتعريف بالإسلام و دعى إلى الكويت و ألقى محاضرات في المساجد و الإذاعة ثم دعى إلى السعودية ليكون عضواً في هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، فاعتذر عن ذلك و رضي أن يكون عضواً في المجلس الاستشاري للجامعة، و ألقى في المدينة عدة محاضرات و دعى إلى المؤتمر الإسلامي الذي كان سيعقد في ١٤/ ذي الحجة ١٣٨٢هـ في القصر الملكي و الذي يحضره الملك سعود فلبّى الدعوة و تأسست في هذا المؤتمر رابطة العالم الإسلامي و اختير اعضاؤها و رئيسها الدائم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ و ألقى الشيخ الندوي في هذه الزيارة عدة محاضرات في الجامعة الإسلامية و زار ولي العهد سمو الأمير فيصل بين عبد العزيز، و قدم لسموه وجهة نظر حول منطقة الحجاز و أهميتها.

و أرسل فيما بعد برسالة تلقى ردّها سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م: و توجه إلى أوروبا، إلى جنيف بدعوة من الدكتور سعيد رمضان للمشاركة في الجلسة الاستشارية للمركز الإسلامي بجنيف ثم زار لوزان و برن و باريس و لندن و كمبردج و آكسفورد و جلاسكو و التقى بأساتذة الجامعات و بعض المستشرقين و استفاد من مكتبة المتحف البريطاني و ألقى عدة محاضرات، و ذلك سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

و توجه إلى الأندلس فزار: مدريد و طليطلة و اشبلية و قرطبة و غرناطة، و في سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م قام برحلات أخرى إلى أوروبا زار خلالها بعض مدن

الـمـانيا، و تلا ذلك رحلة إلى أمريكا. و تأسس مركز إسلامي في جامعة أكسفورد و اقيمت حفلة عامة في ٢٢/ تموز ١٩٨٣م.

و فـي نـفـس الـسـنـة زار الـكـويـت و الإمـارات. و تم تحويل مكتبة الشيخ عـبـد الـلّه الـعـلـي الـمـحمود إلى مكتبة عامة بعد وفاته رحمه الله، و أقام إبنه الـدكـتـور سـالـم حـفـلـة افتتاح في ١٢/ صفر ١٤٠٤هـ ـ ١٦/ تشرين الثاني ١٩٨٣م، حـضـرهـا حـاكـم الـشـارقـة و حاكم عجمان و حضرها الدكتور عبد اللّه نصيف و الشيخ الندوي. ثم تابع محاضراته في العين و الشارقة و أبي ظبي ثم انتقل إلى سيرلنكا ثم انتقل إلى الجزائر ليدعو إلى اللّه و رسوله صلى اللّه عليه و سلم.

و حـضـر مؤتمر السيرة في قطـــر قبل ذلك في (٥ ـ ٩ مـحــــرم/ ١٤٠٠هـ) (٢٦ ـ ٣٠) تـشـريـن الـثـانـي ١٩٧٩م و في السعودية نال جائزة الملك فيصل العالمية فـي ١٢ شـبـات ١٩٨٠م، و وزع قـيـمـتـها على ثلاثة مراكز إسلامية، و قرأ كلمته في حفل الافتتاح فضيلة الشيخ الدكتور عبد اللّه عباس الندوي.

و امتدت رحلاته و محاضراته بصورة شبه متواصلة، و كأنه يجوب الأرض كـلـهـا يدعو بدعوة الإسلام دون كلل او ملل أو يأس و يعمل مع معظم المؤسسات و المراكز الإسلامية في العالم.

نهدف من هذا العرض الموجز أن نوضح العزيمة القوية التي كان يملكها، و الإصـرار عـلـى البذل للّه و دينه، و الصبر الطويل على مشقات السفر المتوالي فـي جـمـيـع حـالاتـه من الصحة و المرض في جهد متواصل لا يكاد ينقطع و لا يبحث عن الراحة و الاسترخاء.

٧ ـ عودة إلى النشاط في الهند مع الأحداث الداخلية و اضطراباتها:

حـدثـت اضـطـرابـات داخـلـيـة فـي كلكتا سنة ١٩٦٣م/ ١٩٦٤م، و في حدود

المنطقة الشمالية سنة ١٩٦٤م، ذهب ضحيتها آلاف المسلمين بصورة وحشية مروعة.

و رأى المسلمون محاولة الاستعانة ببعض القادة غير المسلمين الذين قد يحملون نظرة أناة لكن عند التجربة ضاع الأمل. و رأوا أنه لا يوجد إلاّ طريق واحد هو نفخ روح المقاومة و ملء فراغ القيادة الموحدة عند المسلمين و الاعتماد على اللّه تعالى. و تقرر عمل مجلس استشاري إسلامي، و حدد موعده (٨ ـ ٩) أغسطس ١٩٤٦م. و قرر المجلس إرسال وفد لزيارة المناطق المفجوعة. و تحرك الوفد و الشيخ أبو الحسن الندوي إلى جمشيد بور حيث رأوا الفاجعة و الوحشية و الرؤوس الملقاة و الأشلاء المتناثرة.

و تابع الشيخ أبو الحسن الندوي نشاطه في الهند بين المسلمين و غير المسلمين، و أثر في كثير من غير المسلمين، و هدأ قدر المستطاع من بعض النفوس الحاقدة.

و تابع التأليف و كتابة المقالات و إلقاء المحاضرات، فأخرج كتاب "جنة المشرق و مطلع النور المشرق" الذي ألفه والده و وضع كتابه: "الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية"، "و الطريق إلى المدينة"، و "نحو التربية الإسلامية الحرة" و هناك كتب كثيرة في مختلف الموضوعات الفكرية و الأدبية و التربوية و غيرها.

و عاصر الشيخ الندوي أحداثاً جساماً في حياته: مثل تقسيم الهند، و الحرب بين الهند و باكستان سنة ١٩٧١م و أحداث فلسطين كلها و هزته مأساة سنة ١٩٦٧م و احتلال اليهود للقدس: ٢٩/ صفر ١٣٨٧هـ ٥/ حزيران ١٩٦٧م و لقد نقد سياسة عبد الناصر، و انتقد التقديس الذي أبرزته بعض الصحف.

٨ ـ ترابط نشاطه بين الهند و خارجها بعزيمة و قوة:

و لـقـد أرسـلـت رابطة العالم الإسلامي وفوداً إلى مناطق مختلفة، فاختار الـشـيـخ أبـو الـحـسن زيارة أفغانستان، و إيران، و لبنان، و شرق الأردن و العراق، و كان رئيس الوفد في هذه الزيارات.

و أقـامـت دار الـعـلـوم مـهرجانها التعليمي بمناسبة مرور (٨٥) عاماً على نـشـوئـهـا فـجمعت لكهنؤ يومها حشوداً و وفوداً كثيرة و ذلك في (٢٥ ـ ٢٨) شوال ١٣٩٥هـ الموافق ٣١ تشرين الأول ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥م.

و جـابـه أحـداث الـهـند المختلفة بوعي و روية: انديرا غاندي و كتابته لها حـول عـدة قـضـايا. و جابه قرار حالة الطوارئ الذي أصدره ابنها سنجى غاندي، و قـراره بتنظيف المدن، و استغلاله القرار للغدر بالمسلمين و إزالة أكثر من ألف بـيت و قتل مئات الأشخاص و اعتقال المئات. و حدثت اضطرابات مروعة أخرى فـي "حـيـدر آبـاد" سـنة ١٤٠٠هـ، و مأساة "جمشيد بور" التي ذهب ضحيتها ستة آلاف قتيل، و اضطرابات عليكرة، و إله آباد، و مدن أخرى ممتدة في الهند.

و تـوالـت رحلاته خارج الهند و داخلها، و محاضراته: في أمريكا و المغرب الأقـصـى و مـؤتـمـر رابـطة العالم الإسلامي في كراتشي في ٦/تموز ١٩٨٧م الذي افـتـتـحه ضياء الحق و منح شهادة الدكتوراة الفخرية من جامعة كشمير، و قدم فيها بعض محاضراته.

و كان يرافقه في رحلاته هذه كلها عدد من أبناء ندوة العلماء و من إخوانه مـثـل الـشـيـخ محمد الرابع الحسني الندوي و الشيخ معين الندوي و الدكتور عبد اللّه عباس و آخرون.

و من الأحداث الخاصة في حياته، الأحداث التي أثرت في نفسه وفاة بعض الأعزاء عليه: والده و والدته و أخوه الأكبر الذي كان يتولى رعايته و شقيقته و ابن أخيه العزيز عليه محمد الحسني، و إسحاق جليس الندوي، و ابن أخته السيد محمد الثاني، و لقد أحزنته هذه الأحداث، كما أحزنته أحداث الأمة، فكان يحمل أحزاناً تدفعه إلى مزيد من البذل و العطاء و الصبر.

نهدف من هذا العرض الموجز لسيرة حياته أن نبين الاتصال في السفر و الترحال و الاتصال مع كثير من المسؤولين و الدعاة، و الشباب و الفتيان، و المحاضرات و الأحاديث في المراكز الإسلامية و الجامعات و الندوات و المؤتمرات، مما يؤلف حجماً ضخماً من الفكر و الأدب و العطاء يفرغ من روحه الوثابة و روحانيته الصافية على إخوانه في جولاته و نشاطه و على أبنائه و تلامذته، يمضي صابراً محتسباً ذلك عند الله.

و كان الزهد و الانصراف عن الدنيا و زخارفها صورة جلية مؤثرة في النفس، مكرسا فكره و قلبه و عاطفته و عطاءه و وقته، للإسلام و قضاياه، في صورة ممتدة متواصلة غنية ندية.

لقد أثر هذا كله في نمو مدرسة ندوة العلماء و نهجها و نشاطها حتى امتد أبناؤها في مناطق عديدة من الأرض، رجالاً مؤمنين و دعاة جادين، و فتياناً كأنهم الزهر المتفتح شذاً و عطراً، ثمرة غنية لجهود سماحته المباركة و لقد غرس سماحته اللغة العربية في أبناء هذه المدرسة المباركة، حتى أصبحوا يتكلمونها خيراً من كثير من أبنائها، و كذلك إصدار المجلات الإسلامية القيمة، باللغة العربية مثل "البعث الإسلامي" التي يرأس تحريرها الأخوان الشيخان: سعيد الأعظمي و واضح رشيد الندوي، و كانت الدعوة إلى اللغة العربية من أبرز أنشطته حيثما توجه، و كذلك مجلة الرائد الأدبية.

وتميز عطاؤه كذلك بهذا الحشد الكبير من المؤلفات المتميزة في مختلف الـموضوعات الفكرية و الأدبية، المؤلفات التي احتلت مكانتها اللائقة في قلوب قرائها من الشباب و المفكرين و الأدباء.

و لـقـد كـان لـسـماحته فضل كبير في تعريف الهند المسلمة الحديثة إلى الـعـالـم الإسلامي الممزق حتى جهل الكثيرون عظمة الإسلام في الهند و عظمة الـهـنـد بالإسـلام، و الـتراث الخالد الذي قدمه علماؤها و الجهاد المتواصل الذي قـامـوا بـه. و كـذلـك كـان لـه فـضـل في تعريف العالم العربي إلى الهند المسلمة لتتصل أمة الإسلام قلوباً و فكراً و عاطفةً، و داراً و إخواناً، و ساحات بذل و جهاد.

لا تكاد توفي هذه الكلمة الموجزة بجوامع خلاله و سماته و خلقه و فكره. و لكنها محاولة نرجو اللّه سبحانه أن يتقبلها منا لرجل له علينا حق كبير.

و أخـتتم كلمتي هذه بأن أشير إلى التأثير العظيم الذي خلفته زياراتي إلى الـهـنـد و لقاءاتي مع سماحته، حتى أحببت الهند المسلمة و مسلميها، و فجرت فـي قـصـائـد فـي ذكـرهـا و فـي سـمـاحته، و تحيات إلى مدنها لكهنؤ و حيدرآباد و غـيـرهـما و مقالات متعددة فيما أثارته تلك الندوات من موضوعات، و من بين مـا قلته: قصيدة عرائس و جواهر أحيي فيها سماحته و الندوة، قصيدة مهرجان الـقـصـيـد في حفل مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية، تحية لسماحته بعد إحـدى الـندوات بعنوان تحية لأبي الحسن الندوي و ندوة العلماء، قصيدتان تحية إلـى حـيـدر آباد، قـصـيـدة "زخرف و حيقيقة" عن بعض أوضاع المسلمين في الـهـنـد، قـصـيـدة "الـمسجد البابري بين حلو ذكرياته و مر عتابه"، و أكبَر عمل قـدمـتـه هـو "ملحمة الإسلام في الهند" و أخيراً كانت القصيدة في رثائه، أدعو

اللّه أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، جهداً متواضعاً في التعريف بتلك الجهود الكريمة، و تقدير بلد إسلامي عظيم كاد المسلمون ينسونه.

رحم اللّه أبا الحسن الندوي رحمة واسعة، و جعل قبره روضة من رياض الجنة، و أنزله المنزلة العالية عنده مع الصديقين و الشهداء، و غفر له و اجزل له الاجر و الثواب.



فضيلة الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي

و ما كان قيس هلكه هلك واحد
و لكنه بنيـــان قوم تهـــدما

بقلم: الأستاذ عبد الرحمن مومن تعريب: أبو مسعود أظهر الندوي

خلال حوالي عشر سنوات أخيرة انتقل من بيننا إلى رحمة اللّه عدد من العلماء و المشائخ الأجلة اضمحلت بذلك مجالس العلم و الفضل. فقد غادرنا واحد تلو الآخر كل من أصحاب الفضيلة الشيخ حبيب الرحمن الاعظمي والشيخ زيد أبو الحسن الفاروقي و المقرئ الشيخ صديق أحمد الباندوي و الشيخ عبد الرشيد النعماني رحمهم اللّه رحمة واسعة و كان قد بقي بقية السلف الدكتور محمد حميد اللّه، متعنا اللّه بطول حياته، و فضيلة الشيخ سيد أبو الحسن علي الندوي و عدد قليل من العلماء الراسخين و من الأسف ان الشيخ الندوي قد انتقل أيضاً إلى رحمة اللّه في ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠٠م تاركا خلفه مآت ألف من المسلمين في بالغ الحزن و الأسى. رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة.

كان المرحوم الشيخ الندوي عضوا ممتازاً لأسرة علمية ممتازة في الهند و كان من أسلافه أول من قد جاء إلى الهند الشيخ سيد قطب الدين محمد المدني (المتوفى ٦٧٧هـ) و قبره في بلدة كره مانك بور و يسمى اعضاء هذه الأسرة السادات القطبية. و قد برز من أولاد الشيخ المدني عدد من العلماء و المشائخ المعروفين على رأسهم الشيخ شاه علم اللّه و الشهيد الكبير

سيد أحمد الرائى بريلوي، كان الشاه علم اللّه خليفة للشيخ خواجه أكرم البنوري الذي كان الخليفة الأعظم للشيخ مجدد الألف الثاني رحمهم اللّه. و كان جد الشيخ الندوي الشيخ الطبيب سيد فخر الدين ممتازا في العلوم الظاهرية و الباطنية و قد صنف ٢٤ كتاباً و من حيث النسب كان حسنيا من والده و حسينيا من والدته. و كان والد الشيخ الندوي الشيخ الطبيب سيد عبد الحي (الميلاد ١٢٨٦هـ) عالما ممتازا في عهده و صاحب مؤلفات كثيرة و كان قد قرأ على الشيخ محمد حسين اله آبادي خليفة الشيخ الشهير الحاج امداد اللّه المهاجر المكي و علماء بارزين آخرين. ثم استمع الحديث من شيخ زمانه الشاه فضل رحمن الغنج مراد آبادي و بايعه. ثم درّس في دار العلوم التابعة لندوة العلماء و تولى وكالته لفترة طويلة. و كان الشيخ سيد سليمان الندوي من أرشد تلامذته و توفي في ١٩٢٣م عندما كان عمر الشيخ الندوي حوالي تسع عشر سنوات.

إن الشيخ الطبيب سيد عبد الحي قد صنف عددا من الكتب على رأسها "نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر" باللغة العربية طبعتها دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد في ثماني مجلدات فيها تراجم خمسة آلاف من العلماء و المشائخ خلال ألف سنة للعهد الإسلامي في الهند. و قد استغرق اعداد هذا الكتاب عشرين سنة استفاد فيها المصنف من ثلاث مآت كتاب مطبوع و مخطوط بالقلم. و كتابه الثاني "جنة المشرق" يشمل المعلومات التاريخية و الجغرافية و الحضارية للهند و قد طبع هذا الكتاب باللغة العربية في عام ١٩٧٣م باسم "الهند في العهد الإسلامي" كما طبعت ترجمتها باللغة الأردية باسم "هندستان اسلامى عهد مين" و كتاب آخر له يسمى بـ"معارف العوارف في أنواع العلوم و المعارف" ذكر فيه تاريخ التطورات في المنهج التعليمي و العلوم

و الـفـنـون فـي الـهـنـد خلال العهد الاسلامي. و كتابه باللغة الأردية "جول رعنا" يـشـمـل تـراجـم الشعراء البارعين للغة الأردية و منتخب اشعارهم كما أن كتابا آخـرا لـه باللغة الأردية "ياد ايام" يشمل تراجم علماء و مشائخ منطقة غجرات و مهاراشترا.

و كـان الـشـيـخ عبد الحي شاعرا أيضا و سجل الشيخ الندوي نماذج شعره بـالـلـغـات الأرديـة و الـفـارسـية و العربية في سيرته "حيات عبد الحي" و كانت لـزوجـتـه والـدة الشيخ الندوي السيدة خير النساء بهتر ذوقاً علمياً و شعرياً، و قد كـتـب الـشـيـخ الندوي سيرتها باسم "ذكر خير" و كان للشيخ الطبيب عبد الحي ابـنـان و ابـنـتان أكبرهم الدكتور عبد العلي الذي كان قد تولى فيما بعد وكالـــة دار العلوم لفترة طويلة و كان الشيخ الندوي أصغرهم و كان اختاهما امة العزيز و امـة الـلّه تسنيم أكبر منه و كان لأمة اللّه تسنيم ذوقاً علمياً و قد نقلت الكتاب الـمـعـروف لـلامام النووي "رياض الصالحين" إلى اللغة الأردية كما كتبت أيضا "قصص الأنبياء. و "همارى حضور" (سيرة النبي) للأطفال.

و كـان مـيـلاد الشيخ الندوي خلال عام ١٩١٤م في راى بريلى و حيث أن بيئة الأسـرة كـانت دينية قد ظهر جوهره بسرعة مدهشة ففي عمر حوالي ١٤ سنة قد نـقـل بـعـض قـصائد العلامة محمد إقبال إلى اللغة العربية و قدّمها له. كما أنه كـتـب رسـالـة عن الشهيد سيد أحمد رائي بريلوي باللغة العربية و عمره حينذاك حـوالـي ١٦ سـنـة و قـد طـبـعـت بمصر. و كان الشيخ الندوي قد اكتسب العلم من أجـلـة عـلـمـاء عصره و حصل على شهادة الفضيلة و كان في تنمية كفاءته في الأدب الـعـربـي دورا رئـيـسـيـاً لأسـتـاذه الجليل الشيخ خليل بن محمد بن حسين اليماني.

و لا يمكن احاطة خدمات الشيخ الندوي المتعددة الجهات و أعماله المتنوعة في هذه المقالة و نكتفى هنا بالقاء الضوء على أهم أوجه سيرته و شخصيته و خدماته الدينية و الملّية فقط. كان الشيخ الندوي كثير المؤلفات و تشمل كتبه مواد العقائد و العبادات و السيرة و التاريخ و السوانح و تسجيلات ما شاهد في اسفاره و طول حياته و غير ذلك. و يغلب لون الاصلاح و الدعوة في كتبه و أعماله. و قد نالت كتبه شهرة و قبولا حسنا في شبه الجزيرة الهندية وغيرها و كان يكتب باللغتين العربية و الأردية كلتيهما و قد تم نقل معظم كتبه إلى اللغات الفارسية و الانجليزية و التركية و لكتبه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و "السيرة النبوية" و "الطريق إلى المدينة" و "تاريخ الدعوة و العزيمة" (في خمس مجلدات) اهمية خاصة فقد طبع كتابه "ماذا خسر العالم" خمس عشرة مرة باللغة العربية من مصر و السوريا، و كانت طبعته الأخيرة من الكويت خلال ١٩٨٢م بمائة ألف نسخة كما أن هذا الكتاب قد طبع تسع مرات باللغة الأردية و ست مرات باللغة الانجليزية و عدد من كتبه داخلة في مناهج الجامعات العربية و غير العربية و قد سجل تجارب حياته و ما شاهد في عصره باسم "كاروان زندجي" في ثلاث مجلدات.

كانت حياة الشيخ الندوي وشخصيته و سيرته مرآة لعلماء السلف فكان بعيدا جدا من طلب الدنيا و طمع الجاه و الشهرة و الرياء و النفاق و قد تخطى بخطوة أسلافه في التبعد عن أصحاب السلطة و الحكام و لم يتورط قط في وادي السياسة كما لم يبع قط مبادئه لنيل العزة و الشهرة. قد منحت له جائزة الملك فيصل و لكنه اهدى مبلغ الجائزة كله إلى المؤسسات الدينية و قد قدمت مؤسسة كويتية مبلغاً ضخماً له اعترافا بخدماته و لكنه منح المبلغ كله للمؤسسات الإسلامية خارج البلد و داخله.

و قـد نكـر الـصـوفـيـة آفـات العلم فإن العلم يحدث أحيانا الكبر و النخوة و الاعـجـاب بـالـنـفـس و من أجـل دفع هذه المفاسد لابد من التركز على اصلاح الـبـاطن و تـزكـيـة الـنفس أيضاً مع اكتساب العلم و كان الشيخ الندوي من أهل الـعـلـم الـذين أعـطـاهـم اللّه "القلب" أيضا مع "الذهن" فلم تكن عنجهية في طـبيعته و كان حُسن الخلق و السذاجة و الانكسار و التوسع و التسامح و الشفقة عـلـى الـصـغـار من مـيزات شخصيته البارزة و "النسبة الباطنية" كما يسميها الـصوفية كانت في تقاليد أسرته فكان والده الشيخ سيد عبد الحي و جده الشيخ سـيد فخر الدين جامعين للشريعة و الطريقة و كان الشيخ عبد القادر رائى بوري قـد أرشـد الـشـيـخ الـنـدوي فـي عـبـور الأوديـة الحجرية الصعبة لتزكية النفس و اصلاح الباطن.

لـقـد مـرّ الـمـسلمون الهنود من أوضـاع صعبة جدا على إثر استقلال البلد و لـكـنـهـم لـم يـبـيعوا هويتهم الملية و أقدارهم الدينية على رغم ظروف الابتلاء و الامـتحان الشديد و هذا الواقع بنفسه جدير بأن يكتب في تاريخ الأقوام و الملل بـحـروف ذهـبـيـة و قـابلة لأن نفتخر و نباهى بها و كان الشيخ الندوي في طليعة جـمـاعـة الـقادة العلماء المخلصين الذين قد تقدموا إلى الإمام من أجل الدفاع عن الـهـويـة الـديـنـيـة و الـملّية للمسلمين و الحفاظ بها و قد شجعت جراتهم الإيـمـانـيـة و قـولـهـم الـحـق و عـزيـمتهم و استقامتهم المسلمين و خلال حالة الـطـوارئ عـنـدمـا واجـه الـمسلمون مشاكل جمة قد قابل الشيخ الندوي رئيسة الـوزراء، انـديـرا غـانـدي و أخـبـرهـا بـخطورة الوضع. و كذلك عندما تم تاسيس المجلس الاستشاري الاسلامي لعموم الهند من أجل تنمية الوحدة بين المسلمين و قـيـادتـهم السياسية قد لعب الشيخ الندوي دورا هاماً كما أنه قاد هيئة القانون

العائلي الإسلامي لعموم الهند بعد وفاة الشيخ المقرئ محمد طيب قيادة مؤثرة و حاول محاولة جادة من أجل الحفاظ بالشريعة الإسلامية و قد اختار الشيخ الندوي موقفا جريئا من أجل استعادة المسجد البابري و تحدى حكومة ولاية اترابراديش بجراة إيمانية مثالية عندما اقامت نزاعا باسم عبادة معبودة التعليم الهندوسية سرسوتى، و لم يزل نشيطا إلى آخر أنفاسه من أجل الحفاظ بالمدارس الإسلامية و بقائه.

لم يكن الشيخ الندوي كاتبا أو عالماً محدودا في زاوية بعيدا من مشاكل الدنيا فكانت الدعوة و الأعمال الاصلاحية غالبة على طبيعته و كانت له رغبة عميقة في المشاكل الوطنية و الملية و كان يقدّم دائما خدماته لحلها. كان يحب الحضارة المشتركة الهندية و كان يسعى دائما لتنمية الاخوة و التفاهم بين الهنادك و المسلمين و من أجل ذلك قد أسس "حركة رسالة الإنسانية" و قام بزيارات كثيرة بمختلف أنحاء الهند لإيصال رسالة السلام و المودة. و كان لخدماته المتنوعة وجها لامعا صلاته القريبة بالموسسات الإسلامية والعلمية في الهند و خارجها و قد نالت ندوة العلماء مقاما دوليا رفيعا تحت قيادته و اشرافه و عندما تمت اقامة المركز الإسلامي بجامعة اكسفورد قد انتخب الشيخ الندوي بالاجماع رئيسا للمجلس الاستشاري للمركز. و كانت له نشاطات في مجال الوحدة الإسلامية العالمية كعضو هام لرابطة العالم الإسلامي كما كان رئيسا لرابطة الأدب الإسلامي و قد منحت له عدد من الجوائز اعترافا بعلمه و فضله و مؤلفاته و خدماته الدينية و العلمية و كان يحترمه أصحاب مكاتب فكر مختلفة و يعترفون باخلاصله و اصابة رائه و ما أقل من نال قبولاً شاملاً لفترة طويلة مثلها- ليس ذلك إلا موهبة إلهية.

لـم يـزل عـلـماء السلف يتجنبون العزة و الشهرة الدنيوية و لكنها قد قامتا بـتـقـبـيـل اقدامهم و كان الشيخ الندوي على نفس الطريق الذهبي و تدل لمحاته الاخـيـرة عـلـى قبوله عند اللّه فإنه كان مشغولا بتلاوة القرآن الكريم فيها. يقول الـجـريـر كـنـت مـوجـودا عند سيد الطائفة جنيد البغدادي حين وفاته. كان يتلو الـقـرآن الـكـريـم فقال له أحد هذا وقت الضعف ليس وقت التلاوة فقال جنيد أي وقـت يـكـون أحسن من هذا للتلاوة فان صحيفة اعمالي تغلق ـ أليس يناسب أن أحضر إلى اللّه تعالى و في يدي رسالة الحبيب.

كـانـت مـقابلتي الأولى مع الشيخ الندوي قبل حوالي ثماني عشرة سنة في عـام ١٩٨٢م بـمـنـزل الشيخ محمد البتنى في ممباي الوسطى كنت قد ذهبت إليه برفقة الدكتور ضياء الدين الديسائي المدير السابق لمؤسسة مسح الآثار القديمة الـهـنـدية و بعد تعريفي للشيخ الندوي قال الدكتور ديسائي أن لي رغبة خاصة في الآثـار الإسلامية. فقلت إني أريد اعداد كتاب عن الآثار و النوادر الإسلامية. و سال الشيخ الندوي هل قرأت كتاب أرض القرآن للشيخ سيد سليمان الندوي و التفسير الـمـاجـدي لـلـشـيـخ عبد الماجد الدريا آبادي فقلت نعم. ثم عرضت عليه بعض الـصـور عن خرائب قوم ثمود و سدّ مأرب و الجثة المحنطة لفرعون و استفسرت هـل رأى الـشـيـخ جثة فرعون في متحف القاهرة. فأجاب الشيخ بأنه كان قد زار مصر قبل فترة طويلة. و في اليوم الذي كان في القاهرة كان المتحف مغلقا فلم يـسـتـطـع النظر إليها ثم سالت هل مرّ عليه كتاب حول موضوع الآثار الإسلامية فـأجـاب بأنه ليس هناك كتابا مستقلا حول الموضوع غير أن اثنين أو ثلاثة كتب قـد طـبـعـت باللغة العربية أحدها عن أصحاب الكهف للسيد رفيق وفا الدجاني. و قـال هـذا الـمكان على قرب من عمان و قد شاهد برفقة مؤلف ذلك الكتاب، ذلك

الـغار. فيها سبعة قبور و خارجه قبر صغير يقال له قبر كلب أصحاب الكهف. ثم شـرفـنـي الـشـيـخ بقوله أن أسافر إلى لكناؤ و استفيد بدار كتبه. و نصحني بان لا اسـتـعـجـل في طبع الكتاب و أن اتاكد من مندرجات الكتاب حتى إذا تم انشراح الـقـلـب بـذلـك أتوجه إلى الطبع و في هذا الصدد نصحني بالاتصال بسفراء دول الـخـلـيـج و عن طـريـقـهـم الـنظر إلى خرائب الأقوام الماضية و كانت الطبعة الـمـضـافة للتفسير الماجدي قد طبعت في ذلك الوقت مع تقديم الشيخ الندوي. قـلـت لـلـشيخ أن عديدا من المباحث في التفسير الماجدي قد أصبحت الآن غير مـفـيـدة و الـحـاجـة الآن القاء الضوء عليها من جديد في ضوء البحوث الجديدة فـاتفق الشيخ الندوي بذلك و قال ان الشيخ عبد الماجد قد قام بأعمال مفيدة إلى حـد الـبـحـوث التي كانت قد تحققت إلى عهده و الحاجة الآن هي التقدم بها إلى الإمـام. و كـنـت قـد نـقـلـت إلى اللغة الانجليزية خلال تلك الفترة مقالاً للدكتور مـحـمـد حميد اللّه عن فرعون فقدمت نسخة منه للشيخ الندوي فتلطف الشيخ بـقـولـه أنـه سـوف يـقـرأ ذلـك الـمقال. قلت له هل يمكن في أن اتصل به كتابيا و أراسـلـه و أتوقع الرد قال ذلك سوف يسره و بعد تلك المقابلة قد جرت المراسلة عدة مرات.



الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

عالم رباني جليل

بقلم: الشيخ ضياء الدين الإصلاحي

تعريب: الأستاذ السيد محمود الحسن الندوي

ينتهي نسب الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، من أبيه إلى الإمام الحسن، و من أمه إلى الإمام الحسين ابنَى علي رضي اللّه عنهم حيث تزوج حسن المثنى ابن الإمام الحسن رضي اللّه عنهما من السيدة فاطمه الصغرى بنت الإمام الحسين رضي اللّه عنهما، و لذا فإن هذه الأسرة الكريمة حسنية و حسينية معاً. و أول أجداده الذين وصلوا إلى الهند مهاجرين من المدينة المنورة، هو الأمير قطب الدين محمد المدني ابن أخت الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه اللّه الذي كان هو الآخر من كبار الأولياء و الأتقياء في عصره فنزل على منطقة "كرا مانيك فور" و أضاء تلك المنطقة و ما حولها بنور الإسلام و غرس بين أهاليها حب الإيمان و الاخلاص لدين اللّه تعالى. و عاش أولاده و أحفاده في منطقة "كرا مانيك فور" حياة عز و وقار و شرف و كرامة طوال قرن كامل، و عندما عُين أحد أنجال هذه الأسرة المباركة و هو مير السيد قطب الدين محمد الثاني قاضيا لمنطقة "جايس" تحول إليها مع عائلته. ثم عُين أحد أبناءه السيد علاء الدين قاضياً على منطقة "نصير آباد" فاستوطن هذه المنطقة أي "نصير آباد" مع عائلته. و كان أحد أحفاده القاضي السيد أحمد. رزق إبنه السيد محمد معظم ولدان باران و هما السيد

محمد فضيل و السيد محمد اسحاق. أولهما كان من أجل خلفاء السيد آدم البنوري رحمه اللّه و والد العارف باللّه و من كبار أولياء اللّه شاه علم اللّه الذي كان من سلالته الطاهرة المجاهد الكبير و البطل السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه اللّه. و كان الشيخ السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي من أولاد مؤخر الذكر السيد محمد اسحاق رحمه اللّه، و الذي دوى العالم بين العرب و العجم بنداءه الحق و اخلاصه للدين و جهاده لنشر رسالة الإسلام.

انجب الفرعان من الأسرة القطبية عددا كبيراً من أعلام العلماء و رجال الدين و أولياء اللّه ما لم تنجبهم اية أسرة أخرى في هذه البلاد حيث كان جد الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، المولوي السيد فخر الدين المعروف بـ "خيالى"من كبار اطباء عصره و يتمتع بنصيب وافر من الكمالات الروحية و العلمية إلى جانب كونه شاعراً فذاً و صاحب ديوان شعر بالفارسية و الأردية و الهندوكية و لكن معظم مؤلفاته قد ضاعت إلا أن التي وصلت إلينا لا تقل عددا. و كتابه "مهر جهان تاب" يعتبر مرجعاً و مركزاً اهتمام كبير للباحثين و نقاد الأدب الأردي و يتضمن الفصل الثالث من مجلده الأول ذكر شعراء العربية الفارسية و الأردوية و لغة بهاشا الهندوسية. و ألف إبنه الطبيب الحكيم السيد عبد الحي الحسني والد الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي أمين عام ندوة العلماء الأسبق كتاب "نزهة الخواطر" و "الثقافة الإسلامية في الهند" باللغة العربية و كتاب "غل رعنا" باللغة الاردية و لا يزال هذان الكتابان مركز اهتمام و مصدر الهام بالنسبة لطلاب الأدب الأردي و الباحثين و الشعراء. كما كان أجداد الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي من أمه من كبار العلماء و أولياء اللّه و الاتقياء في عصرهم.

(فهذه السلسلة الذهبية كلها تضم في أحضانها شموس العلم و العمل)

شد الرحال شاه علم اللّه بن السيد محمد فضيل، للسفر إلى الحرمين الشريفين ليجعلهما مسكنا دائمياً له مهاجراً من "نصيرآباد" و لما وصل إلى "جهان آباد" من مقاطعة "راى بريلى" غير ارادته نزولا على رغبة أحد المجانيب الأولياء و اتخذ سواحل نهر ساى مسكنا له في الغابة و بنى له دارا من الحشيش و الأعشاب و بنى مسجدا من التين. فاهدى له أمير قرية "لوهانى فور" المسمى دولت خان بضعة هيكتارات من الأرض و التي عرفت فيما بعد بدائرة الشاه علم اللّه أو "تكيه كلان" بمقاطعة "راى بريلى" غير أن أبناء أعمام الشاه علم اللّه اتخذوا منطقة "نصيرآباد" مسكنهم الدائم تحولوا بعد ذلك إلى دائرة الشاه علم اللّه مهاجرين من قريـــــة نصيرآباد بعد أن تزوج الشيخ السيد عبد العلي النصير آبادي من بنتين للشيخ السيد محمد ظاهر واحدة بعد أخرى علماً بأن الشيخ محمد ظاهر مـــــن أحفاد الشاه علم اللّه. ولد الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي في هذه الأسرة نفسها في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين و هكذا أصبحت دائرة الشاه علم اللّه مولده و منشأ طفولته.

بلاد بها تمت على تمائمـــــي و اول ارض مسّ جلدي ترابها

بدأ الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي دراسته المبدئية في حارة تدعى "تكيه كلان" في مدنية "راى بريلى" ثم انتقل إلى مدنية "لكناؤ" عاصمة ولاية "اترابراديش" ليتلقى دراسته المكتبية في حارة "امين آباد" في مسجد نوازى في حي "بازار جهاؤ لال" و سمى هذا الحي فيما بعد "محمد علي لين" حيث كان يقيم به والده الحكيم السيد عبد الحي الحسني رحمه اللّه و انشا فيه عيادته الخاصة. و لكن الشيخ أبو الحسن الحسني الندوي فوجئ بوفاة والده و هو إبن تسع أو عشر سنين فقط فاضطر إلى العودة إلى قريته "التكية" و بعد

قليل انشا اخوه الكبير الدكتور الطبيب السيد عبد العلي الحسني أمين عام ندوة العلماء سابقاً عيادته في نفس المكان بلكناؤ فدعا شقيقه الأصغر أبا الحسن عليا إلى لكناؤ و تولى تدريسه و تربيته و اعتنى به عناية حب و اخلاص و شفقة أخوية. و هنا ترعرع و نشأ في أحضان الشعر و الأدب و تحققت له ملكة ادبية أعانته على فهم الشعر و جمال اللغة و الأدب الأدري. تخرج في جامعة لكناؤ العصرية و اجتاز امتحان "الفاضل" في الأدب العربي و الحديث النبوي الشريف، و درس الصرف و النحو على زوج شقيقة أبيه السيد محمد طلحة أستاذ الكلية الشرقية بمدينة لاهور و استفاد من رحاب دار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ و بدأ يستنشق في أجوائها العلمية الأدبية روح العلم و الأدب و درس الفقه على الشيخ شبلي الجيراج فوري، و درس الحديث الشريف على الشيخ المحدث حيدر حسن خان. سافر إلى لاهور سنة ١٩٢٩م و تشرف بزيارة الشاعر حكيم الشرق الدكتور محمد اقبال و كبار علماء العصر هناك برفقة الشيخ السيد محمد طلحة ثم تلمذ بعد سنين على الشيخ أحمد علي اللاهوري رحمه اللّه بأسلوب الشيخ عبيد اللّه السندي في التفسير و التفكير في القرآن الكريم و كتاب حجة اللّه لصاحبه الشيخ ولي اللّه الدهلوي كما درس بعض السور القرآنية في نفس الأسلوب على الشيخ الخواجه عبد الحي الفاروقي أستاذ التفسير و علوم القرآن بالجامعة الملية الإسلامية و أحد كبار علماء التفسير في ذلك الأسلوب و اشترك في حلقة الشيخ حسين أحمد المدني الدراسية للحديث النبوي الشريف سنة ١٩٣٢م بدار العلوم ديوبند و استطاع حل بعض المشكلات القرآنية تحت إشرافه و رعايته.

يعتبر الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي أكبر كاتب و مؤلف موهوب باللغة العربية في الهند و الباكستان، بدأ دراسة اللغة العربية سنة ١٩٢٤م في دار الشيخ خليل محمد العرب أستاذ جامعة لكناؤ و تمرن على الكلام و الخطاب

بـهـذه الـلـغـة الـكـريـمـة حيث كانت تفرض غرامة على الطلاب الذين يتكلمون بـالاردبـيـة أو ايـة لغة محلية و عنى بقراءة الجرائد و المجلات و الصحف العربية الـتـي كـانـت تـرد إلـى مـربيه و شقيقه الاكبر الطبيب الدكتور السيد عبد العلي الحسني ثم استفاد من الجرائد و المجلات التي ترد بانتظام إلى دار العلوم لندوة الـعـلـماء و اتسع أفقه العلمي و الأدبي العربي برفقة الشيخ مسعود عالم الندوي رحـمـه اللّه و زمالته. بدأت مقالاته تنشر في المجلات و الجرائد المصرية. و في ١٩٣٠م عـنـدمـا زار الـعلامة تقي الدين الهلالي المراكشي دار العلوم لندوة العلماء و أقـام بـها مدة من الزمن استاذا و معلماً للغة و الأدب العربي بدأ عهد جديد من دراسة و ترويج اللغة العربية و آدابها و انتفع منه صاحبنا الشيخ أبو الحسن علي الـحـسـنـي الندوي مع لفيف من زملائه الآخرين. و في مايس ١٩٣٢م ظهرت مجلة "الـضـيـاء" الشهرية باللغة العربية تحت إشراف و رعاية العلامة السيد سليمان الـنـدوي و الـشـيـخ تـقـي الـدين الهلالي و ادارة الشيخ مسعود عالم الندوي فكان الـشـيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي من كتابها الدائمين إلا أنها امتنعت عن الـصـدور بـعـد ثـلاث سنوات، و بعد عدة سنوات صدرت مجلة "البعث الإسلامي" الـشـهـرية و صحيفة "الرائد" نصف الشهرية تحت رعاية و إشـــراف الشيـــخ أبو الحسن علي الحسني الندوي نفسه.

كـان الـشـيـخ الـسـيـد أبـو الـحـسن عـلـي الحسني الندوي يفضل الكتابة و الـخـطـاب باللغة العربية مع اعطاء نصيب أوفر للغته الأصلية لغته الأم و هي الـلـغـة الأردبـيـة. تـرجـمـت مـعظم مولفاته الاردبية إلى العربية. عين في ١٩٥٦م، أستاذاً زائراً بجامعة دمشق و اختير عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

تـفـوق مـؤلفاته العربية الحصر لكثرتها و اتساع رقعتها و بناء على تفوقه بالعربية كان دائم الظعن و الارتحال إلى البلاد العربية تلبية لدعوات من علمائها و كـتـابـهـا و أدبـائـهـا كـمـا يتمتع بعضوية معظم الهيئات و الجمعيات العلمية

الإسلامية العربية مما يصح أن يقال إنه كان كثير السفر و تواتر الزيارات إلى الدول العربية و لا يضاهيه في ذلك أي شخصية أخرى في الهند و الباكستان: لم تكن كتاباته و مؤلفاته العربية أقل درجة و فضلا من مؤلفات الكتاب العرب و العلماء الناطقين بالضاد من أية ناحية. و بناء على صيته الذائع و عظمته و شعبيته و ورعه و تقواه سُلم إليه مفتاح الكعبة المشرفة و كفى به فخراً.

قضى الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي عشرين سنة من حياته في الدراسة و تحصيل العلوم و عين أستاذا للتفسير و الأدب العربي عام ١٩٣٤م في دار العلوم لندوة العلماء. و كان من عادته أنه لم يكن يلقى دروسه إلا بعد دراسة عميقة و جد و اجتهاد فيقوم باعداد محاضراته لتلامذته بدقة و اتقان. سافر في ربوع الهند أحيانا لجمع الأموال و التبرعات لندوة العلماء و التعريف بها و شرح أغراضها و أهدافها و مطامحها. و في عام ١٩٤٠م أصدر من جديد مجلة "الندوة" الشهرية العلمية هو و الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي و لكنها انقطعت عن الصدور بعد سنتين فقط في فبراير ١٩٤٢م. إلا أن اهتمامه بالصحافة لم يتوقف ارضاء لمزاجه الدعوى و عملاً بطبيعته التوجهية الاصلاحية فأصدر جريدة "تعمير" نصف الشهرية عام ١٩٤٨م بالاشتراك مع صديقه الكبير الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي و كتب لها مقالات عديدة تنبع عن مزاجه الديني العلمي و تفكيره الدعوى التوجيهي، كما تمتعت جريدة "نداى ملت" الأسبوعية بتوجيهاته الرشيدة و رعايته الغالية ثم صدرت جريدة "تعمير حيات" نصف الشهرية تحت إشرافه و توجيهاته و لا تزال هذه الجريدة صادرة تحت ادارة تلاميذه النجباء حتى يومنا هذا. ثم انصرف إلى اعداد منهاج جديد للتدريس و اصلاح الأساليب و المناهج المعمول بها في المدارس العربية الإسلامية لدراسة الأدب و اللغة العربية فالف كتاب "مختارات من أدب العرب"

و "الـقـراءة الـراشـدة" و "قـصـص النبيين" و ما إلى نلك كما طلب من تلاميذه و أقـاربـه اعـداد مـخـتـلـف الكتب المنهجية على منواله، كانت له ملكة خاصة لاعـداد و تـرتـيب الكتب الدراسية المنهجية. ألف كتابا دراسيا لزمره بكالوريوس تـلـبـيـة لـرغبة قسم الشؤن الدينية التابع لجامعة علي كره الإسلامية في ١٩٣٨م فـقـدمـت له الجامعة خمس مائة روبية و بارك له العلامة السيد سليمان الندوي و هناه تهنية مباركة و دعا له بالخير و التوفيق.

بـث الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي الروح الدينية بين طلاب دار الـعـلـوم لـنـدوة الـعـلـمـاء و غـرس فيهم حب الاهتمام بأهداف ندوة العلماء و أغـراضها النبيلة السامية. و انشأ و دعم الرابطة بينها و بين المدارس العربية الدينية الأخرى.

كـان الـفـقـيد رحمه اللّه شديد الاهتمام بنشر تعاليم الدين و الدعوة إليه. فـصرف جُلّ عنايته و أوقاته إلى مهمة تبليغ الدين و نشر رسالة الإسلام و الإرشاد و الـتـوجـيـه. و امـتـنع عن مواظبة مهمته التدريس الرسمية إلا أن علاقته بندوة الـعـلـمـاء كـانت علاقة عائلية و رابطة متوارثة منذ الأجيال و سرى حبها مسرى الـروح و الـدم فـي جـسده حتى أصبح فيما بعد جل همه و مقصد حياته. اختير عـضـو الـمـجـلـس الإداري لـنـدوة الـعـلماء في منتصف ١٩٤٨م ثم عُين المشرف الـتـعـلـيمي العام بالنيابة في يناير ١٩٤٩م. و عُين المشرف العام لندوة العلماء إثر وفـاة الـعلامة السيد سليمان الندوي عام ١٩٥٤م. ثم عُين الأمين العام لها إثر وفاة شقيقه الأكبر الطبيب الدكتور السيد عبد العلي الحسني الندوي.

ذاع صـيـت نـدوة الـعـلـمـاء و تـخطت شعبيتها الآفاق حيث حققَت تقدما مـنـقطع النظير في مجال العلم و الدين و الأدب و ازدادت بناياتها عددا و اتساعاً

و انشئت فيها مختلف الأقسام و الأجنحة و استقرر وضعها المالي و انتشرت فروعها التربوية و التدريسية في مختلف المدن و المقاطعات احتفلت ندوة العلماء بمرور ٨٥ سنة على تأسيسها فأقيمت ندوات دولية كبيرة حتى أصبحت المهرجانات العلمية و الاجتماعات الدينية من سماتها المميزة و خصائصها اليومية البارزة. و الحق أنه ترك آثاره السرمدية الدائمة على كل شبر من أرض ندوة العلماء و رحابها الطاهرة.

لعمرك ماوارى التراب فعاله   و لكنما وارى ثيابا و اعظما

تربطه رابطة حب و اخلاص و توجيه و ارشاد لكثير من الهيئات و المجالس و الجمعيات في الهند و العالم الإسلامي فكل جمعية أو هيئة تعتز بانتسابها إلى تلك الشخصية الفذة. أما علاقته "بدار المصنفين" فكانت عميقة الجذور فكان يولى اهتماما كبيرا بتلك الدار منذ نعومة أظفاره و يشارك جميع نشاطاتها و اهتماماتها حيث كان وثيق الصلة برئيسها المؤسس العلامة السيد سليمان الندوي و زميله الشيخ مسعود علي الندوي مدير شئونها الإدارية و يسره نجاحها و تقدمها. كما كان أخوه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني عضوا في مختلف أقسامها و أختير رئيسا لها بعد وفاة الشيخ المفسر الأديب عبد الماجد الدريا بادي كان الشيخ الندوي رحمه اللّه بمثابة الروح و الدم في جسد دار المصنفين بعد وفاة الدكتور محمود أحد كبار زعماء حزب المؤتمر الوطني الهندي و الشيخ شاه معين الدين أحمد الندوي رحمهما اللّه، يحضر جلساتها و ندواتها بانتظام و يبذل جهوده و مساعيه لانجاح احتفالات اليوبيل الذهبي و الندوة الدولية فيها تحت عنوان: "الإسلام و المستشرقين". كما قامت "دار المصنفين" بنشر و توزيع مؤلفات والده "كل رعنا" و "الثقافة الإسلامية في الهند" و ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الاردية. و نشرت الطبعة الأولى من الجزئين

الاولـين من تـالـيـف الـشيخ أبو الـحسن الندوي الشهير "تاريخ الدعوة و العزيمة" كـان دائـم الانتظار لوصول مـجلة "معارف" الشهرية الصادرة من دار المصنفين و يـشـكـو أي تـاخـيـر في وصولها إليه كل شهر، يقرأها و يحبذ محتوياتها. ساله بعض الناس أخيراً أي مجلة تفضلها بين المجلات فقال افضل مجلة "معارف" و أقـرآهـا بـانـتـظـام. كـمـا يـسعى لمساعدة دار المصنفين من الناحية المالية و الـمـادية بأسلوبه الخاص. قدم له السيد باهوجنا رئيس وزراء ولاية اترابراديش سـابـقـاً مـبلغاً قدره مائة الف روبية أثناء رئاسته للحكومة الاقليمية لانفاقه في شئون ندوة العلماء فحوله إلى "دار المصنفين".

كتب مقالا قيما جدا تقديما للجزء السابع لكتاب "السيرة النبوية" لمؤلفه الـعلامة السيد سليمان الندوي رحمه اللّٰه فأعجب هذا المقال جنرال ضياء الحق الـشـهـيـد اعـجـابـاً كـثيرا فاراد أن يهدي ماة ألف روبية للشيخ أبي الـحسن علي الـحـسـنـي الـنـدوي فـرفض الهدية بلطف و امتنان قائلاً: "إن الذي يستحق هذه الـهـديـة الـقـيمة هو دار المصنفين و أرملة العلامة السيد سليمان الندوي فقدم نصف المبلغ إلى دار المصنفين و النصف الآخر إلى السيدة أرملة العلامة السيد سليمان الندوي.

اعـطـت لـه في آخر أيام حياته حكومتا ابوظبي و بروناى مبلغا كبيرا جدا فـوزعـه عـلـى الـمـدارس الـدينية و دار المصنفين. كانت هذه الدار تتلقى مبلغا كـبـيـرا سـنـويـا من رابـطة العالم الإسلامي بتوصية من الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي إلا أنه انقطع منذ مدة و لأسباب مجهولة.

وهب اللّٰه له ملكة خاصة للكتابة و الـخطاب فكان خطيبا مصقعاً ممتازا و كـاتـبـا قـديرا مـوهـوبـا بـالـلـغـتين الأردية و العربية. لم يوفق أي شخص من

معاصريه بكثرة القاء الخطب و التأليف إلا ما شاء اللّه. و كان من اختصاصه إنه استغل قدرته هذه في وجوه صحيحة. يستهدف من كل كلمة كتبها أو ألقاها اعلاء كلمة اللّه و رفع راية الإسلام كانت خطبه و كتبه ذات تاثير عميق لدى القراء و المستمعين بل و ينقل حرارة إيمانه و حلاوة عقيدته إلى قلوب سامعيه و آذان قرائه فتفيض عيونهم أحيانا مما يجدون فيها من حلاوة الإيمان و تاثير العقيدة. و عندما انشأ الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي إدارة تعاليم الإسلام في ١٩٤٣م في مدينة لكناؤ و حمله مسئولية القاء الدروس حول القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف في تلك الإدارة كل أسبوع فزحف إلى تلك الحلقات الدراسية جموع غفيرة من المثقفين و أصحاب المناصب العالية و أفراد الطبقة العليا من المجتمع الإسلامي و رجال الدين و العلم لما أوتي من اعجاز البيان و فصل الخطاب و وجهت إليه دعوات لالقاء الخطب و تقديم المقالات في الاجتماعات الكبيرة و هو لا يزال حديث السن. و يلقى محاضرات في الاجتماعات و الندوات العلمية الهامة نيابة عن ندوة العلماء و حضر اليوبيل الفضى للمؤتمر التعليمي الإسلامي عام ١٩٣٦م في علي كره و اشترك في ١٩٣٨م اجتماعه الذي عقد في مدينة "بتنا" عاصمة ولاية بيهار. و في ١٩٤٢م، ألقى محاضرة قيمة تحت عنوان "مذهب و تمدن" (الدين و المدنية) تلبية لدعوة وجهها إليه قسم الشئون الدينية بالجامعة الملية الإسلامية و التي نشرت هذه المحاضرة فيما بعد في شكل كتاب قابلته للأوساط العلمية بالترحاب و القبول.

كان رحمه اللّه مولعاً بالأدب و الشعر و الانشاء منذ صغره و يتجلى ذلك في جمال أسلوبه و حسن تعبيره و صفاء تفكيره و شفافية محجته و لم تفقد كتاباته و خطاباته روعتها و عمق تاثيرها و اعجاز بيانها حتى عند كبر سنه و اضمحلال صحته. تدل مؤلفاته: "سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد"

و "مـاذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و "الأركان الاربعة" و "نبي الرحمة" و "الـمـرتـضـى" و "تـاريـخ الـدعـوة و العزيمة" وغيرها، على جهوده و مساعيه الـطـيـبـة و سـبـر غـور الـمـوضـوع و الـبـحث فيه و التحقيق و دقة النظر و نفاذ الـبـصيرة من ناحية و يتجلى من ناحية اخرى علو الفكر و جمال الاسلوب و قوة الملاحظة و نضارة معانيه و صفاء أدائه و نقاء ذهنه و تبلور أفكاره. نالت جميع مـؤلـفـاتـه شعبية واسعة و حسن القبول في الأوساط العلمية و الادبية و الفنية و الـديـنـيـة. و تـرجمت كتاباته الأردية إلى العربية و ترجم ما كتبه بالعربية إلى الأردية و معظمها ترجمت إلى الانجليزية و لغات عالمية اخرى. قدمت له جائزة الـمـلـك فـيـصـل الـشـهـيـد عام ١٩٨٠م نظرا إلى خدماته الجلى في حقل الدعوة و الإرشاد فـوزع جـمـيـع مـبـالـغها و جميع أموالها التي قدمت له كجوائز دولية لـخـدمـة الـدين و نـشـر رسـالـة الإسلام و تعاليمه و لم يترك لنفسه أو لذويه فلسا واحدا.

كـان من مـؤيدى حركة التحرير و محباً للوطن منذ نعومة أظفاره و توارث من أجـداده الـكـراهـيـة و النفور من الإنجليز حيث شاهد و هو ابن ثماني سنوات فـقـط تـصـاعد حركة الخلافة و قوتها و ثورتها كما ثارت ثائرته في الثلاثين من شهر مارس سنة ١٩٢٤م عندما ألغى كمال اتاترك ادارة "الـخلافة" بواسطة حكمه المستبد بمساعدة من الإنجليز و زادت حبه للوطن و كراهيته للإنجليز تلك الايام الـتـي قـضـا فـي حضرة الشيخ حسين أحمد المدني في جامعة ديوبند.. يرى أن الإنـجـلـيز و الأفكار المادية الهدامة المتفشية في أوربا كلها مؤامرة ضد الإسلام و المسلمين و يراها أشد و أخطر من السم القاتل، و توصل إلى هذه النتيجة من وراء دراسـتـه و تـجـاربـه الـواسـعـة و عـلـى الـرغـم من كونه بعيدا عن ممارسة الـسـيـاسـة الـعملية يميل هو و اعضاء أسرته إلى جمعية علماء الهند و مجلس

الاحرار آنذاك. و عند ما اتخذ حزب المؤتمر الوطني قراره الحازم "اتركوا الهند" ضد الانجليز عام ١٩٤٢م، استحسنه و أعجب به و حبذ موقف العلماء الذين انضموا إلى حركة تحرير الوطن و استقلاله من الحكم الإنجليزي الاستعماري و لكنهم لم يستسلموا للاستبداد و الظلم عندما تغير موقف الحكام و المسئولين الهنود بعد الاستقلال و أصبح المسلمون ضحية مركب النقص و فريسة الياس و القنوط. عُقد اجتماع كبير للمسلمين في دار العلوم لندوة العلماء على دعوة من الشيخ السيد أبو الحسن الحسني الندوي عام ١٩٤٨م و قرروا فيه خطة عمل للمستقبل و انشأ مجلس التحقيقات و النشر الإسلامي لمقاومة الارتداد الفكري و العقائدي و فساد الأخلاق و الغزو السياسي و الحضاري من أوربا كما أنشأ مجلس التعليم و التربية الديني تحت قيادته و توجيهاته للصمود أمام المعتقدات الوثنية المشركة و الأفكار الهندوكية الأسطورية الخرافية و الأباطيل المتفشية في الحياة الاجتماعية الهندية. أصدر جريدة "نداى ملت" لملأ فراغ القيادة الجديدة للمسلمين الفكرية الجريئة و تنشيط و انعاش القيم الخلفية الروحية الإسلامية فيهم.

و عندما وقعت مشاجرات طائفية مروعة في مدن كلكتا و جمشيد بور و راور كيلا في ولاية البنغال الغربية بالهند الشرقية عام ١٩٦٤م صحت عزيمته على الاهتمام بنلك الوضع الطائفي المدمر في ربوع الهند نهض و شمر عن ساق الجد. رأى أن الوضع السائد آنذاك يحتاج إلى معالجته فورا بعد ايقاف جميع النشاطات التعليمية و التربوية الأخرى بصورة مؤقتة. و رأى انه لا بد من تحقيق التعاون الفعال و المشاركة من زعماء الأغلبية الهندوكية من ذوى العقول السليمة و أصحاب الجراءة و البسالة الفائقة لتعزيز و دعم الحركة الاصلاحية. فاجتمع برفقة الشيخ محمد منظور النعماني رحمه اللّه مع أبرز زعمائهم من

أمـثـال ونـوبـابـهـاوى و السيد جيابراكاش نارايان. تأسست على إثره هيئة باسم "مـسـلـم مـجلس مشاورت" أو مجلس الشعوري الإسلامي في ندوة العلماء تحت قـيادة أحـد كـبـار زعـمـاء الـمـسـلمين من حزب المؤتمر الوطني الحاكم آنذاك الـدكـتـور الـسـيـد مـحمود. و انضم إليه الشيخ أبو الحسن بكل ما أوتي من عزم و جـزم. ثـم انـشأ حركة "بيام انسانيت" (رسالة الإنسانية) لإخراج البلاد من هوة الـهلاك و الانـحـطـاط الأخـلاقـي و سـد الـفجوة بين الهنادك و المسلمين. تراس مـجـلـس الأحوال الشخصية للمسلمين للحفاظ على القوانين العائلية الخاصة لـلـمـسـلـمين، ذرفـت عـيـنـاه الـدمـوع عندما استشهد المسجد البابري بمدينة "ايودهيا" بولاية اترابراديش بأيد آثمة من المتطرفين الهندوس.

و خـلاصـة الـقـول أن قـلـبـه الـنابض المتألم لقن دروس الحق و الصداقة و الحلم و الأناه لأبناء وطنه كما لقن المسلمين دروس العدل و الجراءة و البسالة الـفـائـقـة فـي كـل مـرحـلـة صـعـبـة خـطـرة. و أوصاهم بعدم الخضوع للظلم و الاستبداد و أمرهم بتوحيد صفوفهم و الصمود و أمام الفساد و الطغيان.



شخصية القرن العشرين

بقلم: الشيخ وحيد الدين خان تعريب : السيدة رضيه سلطانه واحدي

انتقل إلى رحمة اللّه علم من اعلام العالم الإسلامي المعروف بالسيد أبي الحسن علي الندوي، نورّ اللّه مرقده في اليوم الآخير من الشهر الآخير للسنة الآخيرة من القرن العشرين، ٣١/ ديسمبر في سنة ١٩٩٩م يوم الجمعة. ولد الاستاذ ابو الحسن في سنة ١٩١٣م. كان شخصيته البارزة قد أحاطت بالعهد الممتد على مئة عام تقريباً. ليعتبر ميزة بارزة لهذه الفترة من الزمن فلابد أن يعرفه التاريخ كشخصية القرن.

كان الأستاذ أبو الحسن تتجلى في شخصيته مزايا متنوعة متعددة في وقت واحد. فكان عالماً بارزاً، سجلت دار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ تقدماً غيرعادي تحت إشرافه كما أشرف على هيئة الاحوال الشخصية لعموم الهند للمسلمين كرئيسها و على كثير من المعاهد الإسلامية و كان له صلات قوية مباشرة أو غير مباشرة مع كافة الحركات الإسلامية الهامة الكبيرة الناشئة في القرن العشرين و كان يحترمه كل من رآه مهما كان ينتمي إلى أفكار أو أحزاب شتى، فإنه يستحق بأن يُعرف كشخصية دولية.

قد يشهد الزمان أن شخصاً خاصا يحتل مكانة ممثل لامته ـ كما وفق اللّه شيخنا الأستاذ ابا الحسن على الحسني الندوي ليفوز بهذه المكانة المرموقة ـ فاصبحت شخصيته، ثروة قيمة و رمزاً نادراً لوحدة الامة الهندية، و رابطاً قويا

فـيـمـا بـين الـبـلـدان و سـكـانـهـا، كـمـرجع ديني علمي و ثقافي لمواطني الدول الـمـخـتـلـفـة يـفـزع إلـيـه الـنـاس في مشاكلهم المادية و الروحية و يثق برأيه الـسـلـطات الحكومية و الأحزاب السياسية كلما حصل نزاع أو إرتباك في مسائل أو خلاف بين طبقات الأمة.

لـقـد جـمـع الأسـتـاذ أبو الـحسن الندوي في شخصيته كافة هذه الميزات الـمـتـنـوعة بتمامها و كمالها، فقد وصفه الشيخ محمد منظور النعماني رحمه اللّه مـرةً بـلـقـب "رجـل موهوب" و ذلك ما يصح و يصدق بأجمع مفاهيمه على شخصيته الفذة امتدت صنائعه البيضاء على كامل القرن تقريباً كأنه تحول إلى قـرن حيٍّ متحرك في ذاته، هدأت هذه الشخصية المتحركة المضطربة في آخر سويعات القرن العشرين و استأثرت لقاء ربه فانتقلت إلى الرفيق الأعلى.

كـان الأسـتـاذ أبـو الـحسن علي الندوي يمتاز بشخصية جامعة تتجلى فيه سمات مختلفة متنوعة في وقت واحد. بلغنا قول عالم كبير الشيخ مناظر أحسن الـكـيـلانـي إنّ ما تحققه أكاديمية في أوربا يقوم بتحقيقه أدمى واحد عندنا في الـشـرق أي مـا يـقـوم بـه مجمع علمي كبير من المجامع الكبيرة في أوربا يفوز بمثله من الأعمال الجبارة رجل واحد في الشرق. كان الأستاذ أبو الـحسن نموذجاً صادقاً لـهـذا الـمـقـال. فـإنـه كـان فرداً واحداً و لكنه تمّ على يديه من الأعمال الضخمة التي تماثل حصيلة معاهد كثيرة.

كـان الأسـتـاذ أبـو الـحسن حاول بنجاح تربية المسلمين في العلوم الدينية بمعهد مثالي كدار العلوم التابعة لندوة العلماء على جانب، و نظم توفير المعارف الـعـصرية بمؤسسة الدراسات و البحوث الإسلامية في "لكزمبرغ" على آخر. كما أثار حـمـية دينية عملية بخطاباته المصقعة في قلوب المسلمين حيناً و أوجد شـعـوراً عـلـمـيـاً عـمـيقاً و يقظةً ثقافية إسلامية بكتاباته المقنعة المؤثرة في عقولهم أحياناً.

إنه قام على جنب بحماية المسلمين الهنود الملية و الدينية بهيئة الأحوال الشخصية الهندية للمسلمين و اجتهد لإعطاءهم منصب الدعاة إلى اللّه بحركته المعروفة "بيام انسانيت" أي رسالة الإنسانية، على جنب آخر كما أثار عواطف الدفاع عن الإسلام في قلوب أتباعه بكتاباته مثل "ردّة و لا أبابكر لها" مرةً فقد استلفت اهتمام المسلمين مرة أخرى نحو الأعمال الإيجابية البنّاءة بكتابه القيم المعروف "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" إنه بذل مجهوداته الطيبة في سبيل إيجاد وحدة الكلمة بين مسلمي العالم كعضو فعال لرابطة العالم الإسلامي و أثار حُب اكتساب العلم و المعرفة و الأدب كرئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمي مدى الحياة. إنه قام بإحياء العلوم القديمة بحركة إقامة المدارس و المجالس الدينية و مع ذلك ركّز مساعيه المشكورة على إيجاد خبرة و براعة عصرية في مجال العلوم الجديدة بين المسلمين كرئيس المركز الإسلامي التابع لجامعة اكسفورد.

كانت شخصية الأستاذ أبي الحسن مجموعة مثالية لكثير من القيم النبيلة العليا، منها ما برزت كعادة الإستغناء عن الدنيا كما يقال "استغن عن الدنيا فتُسرع الدنيا إليك"، أصبح الأستاذ المرحوم مستغنياً عن الدنيا و ما إليها فجاءت إليه الدنيا مهرولة و ألقت بما فيها و تخلت في قدميه.

مرة قام أمير من الأمراء العرب بزيارة ندوة العلماء لكناؤ فاقيمت له حفلة ترحيبية خطب فيها الأستاذ أبو الحسن و ذكر اثناء خطابه قول أحد الشيوخ العرب: "نعم الأمير على باب الفقير و بئس الفقير على باب الأمير" و هذا ما يدل على جراءته لأفضل الجهاد "كلمة الحق عند سلطان جائر". لقد بقي شيخنا العلامة الندوي طيلة حياته معرضا عن الدنيا و علائقها و لكن الدنيا و ما إليها سلمت إليه كلما تملكه من الموارد و المصادر.

قدّم إلـى الأسـتـاذ الـمغفور له مناصب و جوائز عالية أمثال جائزة الملك فـيصل و جائزة الامتياز من سلطان بروناني و جائزة فخرية من الإمارات العربية المتحدة و نحوها.

كانت شخصية الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي مثالاً واقعياً رائعاً لـلـحـقـيـقة المعترف بها عالمياً أن المال و المتاع و المنصب و العزة و الكرامة كـلـها تـابـعة للإنسان و ليس الإنسان تابعاً لأي منها. و إذا علا الإنسان بإنسانيته حصل له كل شيء منها تلقائياً بدون أن يبذل في سبيله أدنى كدّ أو جهد.

قـال أحـد من الـشـعـراء عن شـخـص يعرفه بأوصافه الجميلة معناه إنه مجلس أو جماعة في ذاته و يصدق هذا القول بشيء من التعديل على شيخنا أبي الـحسن أنـه كـان عالماً في شخصه من الفرق إلى القدم و قد صدق القائل موت الـعـالِم مـوت الـعـالَم. كـأنـنا فقدنا في وفاته مجلساً علمياً كاملاً و عهداً ثقافياً بأسره. و لكنما يبعث على الصبر و التسلية أن الأستاذ المرحوم خلّف جيلاً كاملاً من تـلامـيـذه الـبررة و عدداً كبيراً ممن ينتسبون إليه من الدارسين و المتعلمين الـصغار. و يستمدون من ذكرته العطرة قوة الحياة و روح المقاومة السلمية ضد كل ما يضر بروح الإنسانية و يوذى عباد اللّه الصالحين.

أرجـو اللّـه سـبـحـانـه و أدعـوه أن يـوفـق المستفيضين من تربية الأستاذ الـمـرحـوم لـيـكونوا نماذج مثالية و مصداقاً واقعياً لما قاله أحد فحول الشعراء العرب:

إذا مات منـــا سيـــــــدٌ قام سيـــدٌ

قؤول لما قـــال الكرام فعـــــــول



الشخصيات و الكتب التي أسهمت في بناء شخصية سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الندوي

بقلم: الأستاذ أبو سحبان تعريب: اس. ايه. صديقي

يقول العلامة السيد سليمان الندوي عن العائلة الشهيرة التي ينتسب إليها العلامة ابو الحسن علي الندوي:

"هي العائلة البارزة التي قد بدءت عملية نشر السنة و قمع دابر البدعة و الخرافات قبل قرن و التي تنير أنوار بركتها كافة أنحاء البلاد."(١)

و يمكن لنا أن نفهم بالتفصيل خلفية عائلته العلمية و الدينية و الإسلامية في الصفحات الخمس و الستين الأولى من كتابه الشهير"حياة عبد الحئ" و المجلد الأول من سيرته الذاتية "كاروان زندكى"(مسيرة الحياة).

و الميزة الأساسية الهامة لعائلته الشهيرة هي تدوين التاريخ و كتابة التراجم و الاهتمام بالأدب و الحديث و يدل على هذا السلسلة الذهبية من المؤلفات "قمقام الإسلامي" و "صمصام الإسلام" و "أعلام الهدى" و "مهرجان تاب" و "سيرة السادات" و "سيرة علمية" و "نزهة الخواطر" و "الثقافة الإسلامية في الهند" و "الهند في العهد الإسلامي" و "كل رعنا" و "تهذيب الأخلاق" و "رجال الفكر و الدعوة".

يقول العلامة في التعريف بعائلته العامرة:

"إن عـائـلـتـي عـائـلـة دينية أصابها الخريف، سلفنا قد بلغوا رسالة الدين السـامـية في الربيع فلما توقف هبوب الريح الدينية في الهند أصابها الانحطاط و عـنـدمـا تـرعـرت و بـلـغت أشدى وجدت الشيب أكثر التزاماً بالدين من الشباب و النسوة أوفى دينا من الرجال.(٢)

و يقول عن دراسته الابتدائية:

"ارتـحـل أبـي الـحـكيم السيد عبد الحئ في بداية ١٣٢٣هـ و كنت ابن عشر سنوات و كان أخي الأكبر السيد عبد العلي يتعلم في كلية الطب بلكناؤ و كنت أنا مـقـيـمـا مـع أمـي فـي بـلـدة رائ بريلى و كنت أتعلم كتب الفارسية على بعض العلماء الكبار و أتردد على أخي في لكناؤ." (٣)

و فـي أيام طـفـولـته كان يتلى في بيته كتاب "صمصام الإسلام" للسيد عـبـد الـرزاق كـلامـى (١٣٣٤هـ/١٩١٦م) و هـو فـي الـحـقيقة ترجمة شعرية باللغة الأرديـة لـلـكـتـاب الـشـهـيـر"فتوح الشام" لابي عبد اللّه محمد بن عمر الواقدي و تـشـتـمـل عـلى خمسة و عشرين آلف بيت، فلنستمع إلى ما ترك من تاثير على شخصية الشيخ الندوي فهو يصوره:

"و لـمـا كـانت خالتي المرحومة تنشد هذه الأبيات البديعة بأسلوب بسيط و بـدون أي صنعة و لكن بصورة مؤثرة ساد على الحضور جو من الجهاد و كلمات ذكر شـجـاعـة خالد بن وليد رضي اللّه عنه و بسالته و ضرار بن الازور رضى اللّه عـنـه و أخـتـه خـولـة و غـيـرهـم من الـصـحـابـة و مـجاهدي الشام أثر ذلك في الـمـستمعين تاثيرا بليغاً و كلما ذكرت الملحمة عودة المسلمين إلى بيوتهم من مـعـركة شديدة أو شهادة أي شجاع من المسلمين بكت العيون مدرارا و كان ذلك

يترك تاثيراً بليغاً في قلوبنا الصغار.(٤)

و يقول عن تأثير هذه المجالس في قلبه:

"و قد تركت هذه المجالس الحية لكتاب فتوح الشام على القلوب اثرا بالغاً لم يقلل أي دراسة جديدة او محاولة علمية لإثبات الجهاد دفاعا من محبة و عظمة هؤلاء المجاهدين و قيمة الشهادة في سبيل اللّه جل و مجده، فلم تمح آثار الحبر آثار الدم التي تثبت بكل اطمئنان و سكون على صفحات التاريخ المزور و خاصة إذا كانت هذه الآثار ترسخت في سن البراءة و الطفولة"(٥)

و كما أن هذه المجالس تركت اثرا آخر على افكار و آراء الشيخ أبي الحسن الندوي فهو يقول بنفسه:

"و التاثير الآخر هو أن هذه المجالس أحدثت في نفسي مشاعر مناوية و منافسة ضد هذه الديانة (المسيحية) و أتباعها. التي كتبت لها أن تكون خصما و منافسا للإسلام إلى يوم القيامة على الصعيد العالمي. و التي ورثت أوربا الراهنة و تمثلها. و لم تتغلب عليهـا قط القضايا و الظروف المحلية لبلد ما".(٦)

و قد كان لديوان الشاعر الطاف حسين الحالي المسمى "بالمسدس" التي كانت رائجة و شائعة في بيوت الشرفاء بذلك الوقت و كانت جارية على لسان كل شخص فقد قرأ الشيخ علي الندوي أيضا هذه الأشعار مرارا و تكرارا بكل رغبة و شوق و قد حفظ معظمها عن ظهر قلب و كانت لها تاثير بالغ في شخصيته. و يقول عنه بنفسه:

"بعد مضي حقبة من الزمن على تاريخ الإسلام حاول الكتاب و المؤرخون

الـغـرب أن يمدحوا العرب الجاهليين إلى درجة انه لومكان يوجد فيهم مثقال ذرة من خـليقة، يرونها بواسطة المنظار و يعرضونها كالجبال لإثبات أن العرب كانوا عـلـى اسـتـعـداد تـام لـلـثـورة الأخلاقية و كان البركان على وشك الانفجار. إذ تم اغـتـنـام هـذه الفرصة باشعال النار فيه. في الـحقيقة هذه المؤامرة العلمية لم تـكن إلا تـقـلـيل أهمية الثورة النبوية و قداستها و الاستعانة بمعجزة رسول اللّه صـلـى الـلّه عـلـيه و سلم. إلا انها لم تتغلب على ما ترك بعض الأبيات البسيطة الـجـذابـة لألـطـاف حـسـين الـحـالي من تاثير في قلبي و التي صور فيها العصر الـجـاهـلـي و الانحطاط الـخلقي الذي وقع فيه العرب كما أنه لم تستطعْ كتابات بـعض العرب القوميين النين يحاولون أحيانا الدفاع عن العرب الجاهليين تـحت تحمس وطني و يبالغون في ذكر بعض الأوجه الوضاءة للحياة الجاهلية."(٧)

و الـكـتـاب الـذي أثـر فـي الـشـيـخ الـندوي كثيرا في هذا العصر الابتدائي لـدراسـة الـلغة الأردية هو ما قام بتاليفه القاضي محمد سليمان المنصور بوري (م ١٩٣٠م)* و هو الذي يسمى "رحمة للعالمين".

يـقـول الـشـيـخ الـنـدوي بـعد ذكر خلفية الحصول على هذا الكتاب البارع القيم:

"فـظـفـرت بالكتاب و قرأته مرارا و تكرارا و في مكان غير واحد لم أتمالك و جـاش قـلبي و ذرفت عيناي و بعض الوقائع الإسلامية أثرت فيّ خاصة أحاديث دعـاة الـعـصر البدائي و مواجهة الحياة المكية و المدنية المنورة لـ "مصعب بن عـمـير رضي الـلّه عنه و وصول النبي صلى اللّه عليه و سلم إلى المدينة و فرح الأنـصـار الـكـرام بـه و تـرحـيـبهم به ترحيبا حارا و تقديم أنفسهم له و تضحية الأنـصـار و مـحـبـتهم الدينية الخاصة للمهاجرين و وقائع رحلة النبي صلى اللّه

علـيـه و سلم إلى جوار رحمة ربه و ما إلى ذلك كنت أتلوه قائما و قاعداً و ماشيا و جالسا علـى غيري من الـسامعين و أتمنى لو كانت لي مثل تلك.... فاول ما عرفت عن طريقه هو محبة النبي صلى اللّه عليه و سلم التي بدونها لا قيمة للحياة و لا وزن للعالم"(٨).

ثم قرأ "الـفاروق" لـلكاتب الشهير الأديب المرموق الناقد العلامة شبلي النعماني و قرأه مرارا و تكرارا و يقول عنه:

"الـجـمـل الـقصيرة و الفقر البليغة التي صور بها العلامة شبلي النعماني حروب العراق الدامية و البويب و القادسية و غيرها هي خلقت اثرا بالغاً عجزت عنه "شاهنامه الفردوسي" (ملحمة ملوك الفرس) بأشعارها الجميلة و كلماتها الرائعة البليغة ان جمل "الفاروق" الحية و الفاظها الحلوة تعمل عمل السيوف الصارمة و الرماح فالمحاولة التي قام بها العلامة شبلي النعماني عن تقديم صورة نظام الخلافة كنت عاجزا عن فهمها في ذلك الوقت و الآن ليست لي رغبة فيها و لا تاثير علمي لها و لكن أثر الوقائع كان و لا يزال حتى الآن..."(٩)

و خلال إقامته ببلدة "رائى بريلى" درس العلامة الندوي اللغة العربية و النحو و الصرف على يدي السيد طلحة الحسني (الماجستير) أستاذ الكلية الشرقية بلاهور (Oriental College Lahore) و اعترف به العلامة الندوي في غير موضع من تاليفاته القيمة. و يقول عنه:

"إن لـه فضل كبير في تعليمي اللغة العربية حيث أنني تعلمت منه قراءة العبارة صحيحة و القضايا النحوية الأخرى للعربية التي سرت و رسخت في تفكيري بالاضافة إلى تعلم قواعد العربية النحوية و الصرفية فقد تلقيت منه

كـثيرا من الفوائد الاخرى و التربية الذهنية و الفكرية و الشعور بالتاريخ و أخذت حظا من الثقافة المتنوعة التي امتاز بها عن غيره من معاصريه البارزين".(١٠)

يقول في موضوع آخر:

"تـعـرفـت فـي مـعايشة العم المكرم المحترم السيد طلحة الحسني على كـتـاب "آب حـيـات" سـمـعـتـه و قـراته غير مرة حتى حفظت بعض مواضيعه و ارتسم على ذهني كلام الشعراء و الشخصيات البارزة كالنقش في الحجر حيث يرصد الذهن في الطفولة كل ما يسمع أو يرى الطفل بدون أي تعب"(١١).

و اسـتـفـاد من مـجـالسته كثيرا و رسخت في قلبه عظمة السلف، و يقول بنفسه:

"إن مـجـالـسـتـه كانت تخلق في الأذهان الشعور بعظمة السلف و الوقوف عـلـى درجـات الـمـتـقدمين من آبائنا و الاحساس بمحبة العلماء من أهل السنة و الـمـحـدثـين فـانـه كـان له فضل كبير في هذا الصدد و غرس فيّ بذور المحبة و الاحترام و التقدير للسلف الصالحين و حملة السنة النبوية الغراء و لا يزال هذا الـتـقـديـر قـائـماً حتى الآن و لم يؤثر على ذلك أية بحوث أو دراسات أو مصاحبة الناس"(١٢).

يقول عن كتاب والده "كل رعنا":

"إن "كـل رعـنـا" كـان من الـكـتب التي ألفت في بيتي، أنا قراته غير مرة و الـذي زودنـي بـالـمـعلومات عن تاريخ الشعر و الشعراء إلى درجة أنني أصبحت قادرا على المشاركة في المحافل التي يدور فيها الحديث عنهم".(١٢)

خلقت مصاحبة لإبن خاله السيد أبي الخير البرق الحسني الذوق اللغوي و قدرة التمييز بين الخير و الشر و النافع و الضار.(١٤)

فيقول:

"و كان أخوه الصغير الحافظ السيد حبيب الرحمن له اهتمام بالشعر الأردي و الشعراء، و كان من عادته أنه كان يسأل الأطفال عن معاني الشعر و يعقد المسابقات الخطابية و الكتابية في اللغة الأردية. و كانت له رغبة خاصة في شعراء اللغة الأردية البارزين أمثال الحكيم مؤمن خان مومن و أسد اللّه خان غالب الدهلوي و ذوق و الخواجه حيدر علي آتش اللكناؤي و أمير مينائي. فأتعبت نفسي في فهم كلامهم و التعود على النظر فيهم...(١٥).

و قد تأثرت في هذا العصر البدائي من عمري و في الذوق البدائي للغة الأردية بنثر "آزاد" الذي هو نموذج رائع حي للأدب الأردوي المنثور كما كتبت صفحات عديدة بأسلوب "نيرنك خيال" و "آب حيات" و لكن بدون جدوى إلا أنها لم تكن خالية من منفعة رغم قلة معرفتي في هذا المجال."(١٦).

و في مجال كتابة المقالة تأثرت أولا بأسلوب "ياد أيام" الذي قام بتاليفه والدي المرحوم و الذي هو نموذج سلس للغة السانجة الحية و الذي يجمع بين متانة التاريخ و بلاغة اللغة فالمقالة الأولى التي كتبتها على هذا الأسلوب حسب ما أذكر هي عن "الاندلس".(١٧)

"عقب البدء بدراسة اللغة العربية علمني أستاذي الشفيق الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين اليمنى سورة "الزمر" و رجاء أن يرسم على قلبي عقيدة التوحيد بكل اهتمام و عناية ..... فالتوحيد كان موضوعا محببا لديه فقد علمني برحابة صدره حتى شرح اللّه صدري لذاته فأرى منذ ذاك اليوم إلى الآن إذ أذكر

ذاك اليوم يمتلئ قلبي بالشكر و العرفان للّه عز و جل و لا يزال تاثير شرح الآية الكريمة :"الا للّه الدين الخالص" باق و كذلك أجد فحوى الآية: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفىً" نظرية و اهمية لم تزل جزءا أساسيا لفلسفة الشرك و هي أوهن من بيت العنكبوت".(١٨)

فلننظر قصة تعلم اللغة العربية و الاستفادة من المنهج الدراسي الذي اختاره الشيخ خليل من خلال ما كتبه الشيخ الندوي بقلمه:

"فقد كان للشيخ خليل منهج دراسي خاص بتعليم الأدب العربي و كان جديدا بالنسبة للهند و بل بديعا و كان له اليد الطولى في نقل ذوقه إلى تلامذته. إنه علمنا بكل عناية مبادئ و قواعد اللغة العربية و ذلك بسلسلة "المطالعة العربية" التي صدرت في مصر و "الطريقة المبكرة" المشتملة على ٥ أجزاء و "مدارج القراءة" جزء واحد و "كليلة و دمنة" لإبن المقفع و "مجموعة من النظم و النثر" و "نهج البلاغة" و "ديوان الحماسة" و "سقط الزند" لإبي الأعلى المعرى و "دلائل الاعجاز" للجرجاني و "مختصر تاريخ آداب اللغة العربية" و "رسالة الضريري" لابي الحسن على الضرير و في هذا الصدد اعتنى كثيرا بالتمرينات و الممارسات خاصة و التي لا تزال تنفعنى من ناحية أخرى".(١٩).

و أما خصائص درسه فهي كما يقول الشيخ الندوي:

"و من خصائص درسه انه لم يكن تعليما لمختلف العلوم و المعارف و اللغات في آن واحد بل كان التركيز على تعليم اللغة العربية و آدابها فحسب و كانت واسطة وحيدة للتحدث و الكتابة و أصبحت هدف و غاية حياتنا و مماتنا".

و كان من خصائص الشيخ أنه كان يشير علينا ممن يحبه من الكتاب

البارزين و كتبهم القيمة بحيث أنها نموذج وحيد للأسلوب و طرق الأداء و أساليبهم الأدب و الذوق و فقد كانت ترتسم على أذهان الطلاب و تسيطر على عقولهم و كان الطلاب يقلدونها، و يحذون حذوها فإبن المقفع و الجاحظ في النثر و الجرجاني في الذوق الأدبي و النقد و فهم الكلام و المتنبي و البحتري في الشعر فالطلاب كانوا يعتبرون سعادة لهم أن يحذوا حذوه في الكتابة و كاتب هذه السطور قد حاول أن يكتب على طراز إبن المقفع و صاحب نهج البلاغة و الجرجاني فأفادني هؤلاء كثيرا".(٢٠)

و هناك نكتة تعليمية للشيخ خليل يذكرها الشيخ الندوي:

"و كان من خصائص دروس العلامة خليل أنه يلقن الطلاب أن ميراث الأدب و الذوق تراث للطلاب الذين لهم ذوق خاص فلا يخافون في الاستفادة منه و الاستخدام له و بفضل هذا التشجيع استخدمنا الجمل و التعابير المختارة من أولئك الرجال في كتاباتنا و حصلنا على جوائز".(٢١)

و يقول:

لدى البدء بهذا المنهج الدراسي أعطانا أستاذي الشفيق الشيخ خليل "النظرات" للسيد مصطفى لطفى المنفلوطي و سيطر هذا الأديب الفنان على عقولنا فكتبنا المقالات على مواضيعه و اتبعنا أثره لمدة طويلة".(٢٢)

و سأذكر قصة تلمذه في حلقة تدريس الحديث التي أقامها الشيخ حيدر حسن خان التونكي في الفصل الثاني لرسالتي و لذلك فإني أصرف النظر عنها و أتقدم إلى حلقة تدريس الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي و يجدر بالذكر قبل ذلك اشتياقه إلى دراسة "احياء العلوم" للإمام الغزالي يقول:

"و فـي هذه المرحلة رغبت في قراءة كتاب "احياء العلوم" للإمام الغزالي و الـذي أثر فيّ تـأثـير البرق إلا أنه لم تدم هذه الدراسة الروحانية و قد حال دون قـراءتـه فكرة حكيمة لأخي الكبير الذي كان يرتأى انه قد تخلق في نفسي بعض الميول و النزعات غير المعتدلة".(٢٣)

و لـلـشـيخ خليل و الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي فضل كبير فـي تـعـلـيـم الـشيخ الندوي اللغة العربية و آدابها حيث أنه استفاد منهما كثيرا و يقول عنهما:

"و في ١٩٣٠م حضر ندوة العلماء أديب بارع ذو أسلوب متميز باقتراح الشيخ خـلـيـل و بـدعـوة أخـي الـكـبـير و هو العلامة تقي الدين الهلالي و الذي لو لم أره لاحـتـجـب عـني عديد من حقائق اللغة العربية و قواعدها و اصولها و لم اخلص من عـجـمـيـة الـهـنود و لاعتبرت اللغة العربية لغة القرن الثاني و الثالث الميتة و الـمـكـتـوبة على صفحات التاريخ فإنه كان يجمع بين أسلوب السلف و تورعهم الـعـلـمـي حـيـث يـقول صاحب العلم عند عدم معرفة (لا "لا أدري عندما لم يقم بـالـتـحـقيق العلمي" و حفظ أهل الشنقيط و اتقان أهل اللغة و كمال النحويين و حلاوة أصحاب اللغة في الكلام فإني لم أسمع غيره يتكلم بلغة صاحبي الاغاني و الـبـيان و التبين. فإنه كان يتكلم بما كان يكتب و لم يكن يتحدث اللغة العربية اليومية".(٢٤)

و من حـسن حـظـه أنـه قـرأ الـكـتب الأدبية عليه و لكن مصاحبة الشيخ الـهلالي في الأسفار و الزيارات قد نفعه أكثر و كشفت عليه النقاع عن حقيقتين يقول عنهما الشيخ الندوي:

"أحداهما أن هناك فرقا بين اللغة و الأدب فاللغة لبنة للأدب و الأدب قصر

اللغة و الادب وسيلة فنية متقدمة للتعبير عن المشاعر و الافكار الذي يتولد حيث تتطور الثقافة و الحضارة فتعليم اللغة ياتي أولا قبل تعليم الادب فمن لا يعلم اللغة لا يستطيع أن يعرف الادب و تعليمها قبل الأوان تضيع للوقت و تتم دراسة الادب العالمي في الهند بإسم اللغة التي لا تؤتي ثمارها المرجوة و لا تنفع بشيء في معظم الاحيان. كان يقول العلامة الهلالي أن كتب الحريري و المتنبي و الحماسة كتب أدبية غالية تتم دراستها بعد تعليم و مزوالة اللغة العربية لمدة طويلة و التي يدرسها الطلبة في الصفوف المنتهية و لكنها كل بضاعة الادب في الهند فنحتاج إلى أن نتعلمها كلغة حية قبل ذلك و كان يرى انه يجب ان نتعلم اللغة كسكائن حي بدون اية مساعدة من الترجمة و الشروح و كان يصر على رأيه هذا و يبرهن في محاضرات متواصلة بالادلة و البراهين الدامغة".

و الحقيقة الاخرى ان قواعد اللغة العربية، تاتي بعد تعليم اللغة العربية فذخيرة اللغة ضرورية لهذا و المفردات آجار للمبنى و تعلم النحو و الصرف اسس الدراسة فإن فقدت الآجار لن يبني أي مبنى و أية هندسة قد لا تغني عن شيء".(٢٥)

و كذلك تعلم الشيخ الندوي على يدية الحقيقة:

"إن النموذج الحسن الرائع الحي هو كتب التاريخ الموثوق بها و منها تاليفات العصر العباسي الأصلية و لذلك فإنه أوصى بقراءة كتب "الامامة و السياسة" لإبن قتيبة و "كليلة و دمنة" لإبن المقفع و "الاغاني" لإبي الفرج الاصفهاني و رسائل الجاحظ".(٢٦)

يقول:

"كانت هذه الحقبة من تاريخ دار العلوم فصل ربيع للغة العربية في

رحابها حيث كانت تفيض بركات الشيخ الهلالي من جانب و من جانب آخر يصدر زميلي السيد مسعود عالم الندوي مجلة "الضياء" و في هذا الوقت أصبحت الكتابة و القراءة و المنافسة و النقد باللغة العربية شغل الشاغل و من حُسن الحظ كانت تأتينا جرائد مصرية و شامية و مغربية فنقرءها و نتبادل الآراء عنها فهذه أولى دراسة للجرائد و مصاحبة الأساتذة العرب. فقد بدءت قراءة الصحف بمساعدة أخي الكبير و نفعني ذلك في التعبير و البيان أكثر مما نفعتني الكتب الأدبية التي قمت بقراءتها و دراستها".(٢٧)

و لا شك في أن قراءة مقالات هؤلاء الكتاب المصريين و الشامين قد ساهمت في معرفة الشيخ الندوي باللغة العربية و الأدب و تطورها إلا أنها لم تؤثر على تفكيره كثيرا.

فقد انتقد الشيخ الندوي مرارا و تكرارا الأفكار العربية الوطنية و الإنهزامية من الغرب و حضارتها و سطحية آرائهم إلا أن الشيخ الندوي يرى أن هناك بعض العمق في كتابات شكيب ارسلان و إن فيها طابعا من الإسلامية و لكن الشخص الذي يرى في كتاباته رأيا سديدا و دقة نظر قد تداوى أمراض الأمة الإسلامية و تأتي لها بشفاء و الذي ترك أثرا كبيرا على الشيخ الندوي هو كتاب "أم القرى" للكاتب ــ عبد الرحمن الكواكبي ـ".(٢٨)

كتب محي الدين القصوري مقالا بإسم "تيرهوين صدى كا مجدد اعظم" (المجدد الأكبر من القرن الثالث عشر) و الذي طبع في مجلة "توحيد" بامرتسر في حلقات مختلفة متواصلة في ٢٧ ـ ١٩٢٨م. و ترجمه الشيخ الندوي بأمر من أخيه في ٢٢ ــ ١٩٣٠م إلى اللغة العربية ترجمة حرة و الذي قام بإصلاحها الشيخ الهلالي و نشر في مجلة "المنار" الشهيرة ثم اعيدت طباعته باسم "ترجمة

السيد الإمام أحمد بن عرفان" بصورة رسالة منفصلة، و كان أول خطوة له في مجال الترجمة و الكتابة".(٢٩)

و قد اعانت رسالة ابن قيم "تفسير سورة النور" في زمن المصيبة و البلاء هذه و يرى أن هذا و كتاب "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" لإبن القيم مراقبان جيدان و معلمان صالحان للشباب و أما الكتاب الذي أثرت كثيرا في الشيخ الندوي في مرحلته التعليمية المبكرة و الذي علمه احترام المدرسين و الأساتذة و السلوك مسلك الطالب الجاد هوَ كتاب صغير لتلميذ صاحب الهداية المسمى بـ "تعليم المتعلم". (٣٠)

و كذلك كان لكتاب "علماء سلف" للعلامة شيرواني دور فعال في علو الهمة و العزيمة في الحصول على العلم و خلق الرغبة فيه فيرى العلامة الندوي انه يجب على كل طالب ان يدرسه و يلازم مراجعته.(٣١)

و قد اثر كتاب "أرمغان أحباب" لوالده و الذي هو منكرة لأسفاره العلمية في نفس العلامة الندوي كثيرا و خلق فيه الشعور بمحبة اولياء اللّه و النزعة الدينية هو الكتاب الذي كان سببا في علاقة الودية القلبية مع حركة السيد احمد الشهيد.

و الرسالة الاخرى التي خلقت المحبة لأولياء اللّه في قلب الشيخ الندوي هي رسالة "ارشاد رحماني" للشيخ محمد علي المونغيري.(٣٢)

و من مجموعات أقوال الأولياء و المشائخ التي اثرت في نفس الشيخ الندوي و ذهنه هي "فوائد الفوائد" للشيخ نظام الدين أولياء و "در المعارف" للشاه غلام علي إلا أن الشيخ الندوي بفضل دراسته للأحاديث النبوية و التربية الفكرية الخاصة و قراءته الكتب الإسلامية لم يقبل جميع افكار و آراء هؤلاء

المشائخ و لكن تأثر بأقوالهم المرتجلة و اخلاصهم و تضحياتهم في سبيل الدين".(٣٣)

و كذلك المباحث الفلسفية و التصوف و فلسفة الأخلاق التي توجد بصورة مفرطة في كتب الصوفية المتأخرين لم تترك أية آثار على نفسه إلا أن أحاديث الود و المحبة لم تذهب سدى فقد كانت الأشعار المملوءة بالمحبة و الود كانت ترسخ في ذهنه و تحفظ في ذاكرته.(٣٤)

و قد انبعثت لديه فكرة اصلاح المنهج الدراسي و النظام التعليمي بفضل مصاحبة الشيخ خليل اليماني و الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي و مجالستهما.

و قد تطورت هذه الفكرة بمنشورات دار العلوم و بيئتها و اتضح بخطبة الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني التي ألقاها في ١٩٢٤م في جلسة ندوة العلماء بلكناؤ مذهب ندوة العلماء و المزج بين الدين و الدنيا و الشعور بأهمية قيادة العلماء و الحاجة إليها ثم زاد اطمئنانا و إيقانا دراسته الأخرى الواسعة حتى صارتا جزءين من عقائده القوية. (٣٥)

و أما النفور عن الحضارة الغربية و أنظمتها فقد نشأ ذلك في مجالس و مصاحبة أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي و قد نمت هذه النزعة و رسخت في ذهنه الجريدتان "سچ" و "صدق" الارديتين اللتين كان يصدرهما الأستاذ عبد الماجد الدريابادي.

و قد ساعده كثيرا في فهم تاريخ الغرب و مراحلها من اللادينية وَ المادية التي توصل إليه الغرب كتاب "المعركة بين الدين و العلم" لدريبر و كتاب "تاريخ

اخلاق أوربا" للـيكى و حصل عنهما على مواد كثيرة استخدمها في مقالاته و رسائله و كتبه القيمة.

و قد زادت مقالات الشيخ المودودى في "ترجمان القرآن" و كتابه "تنقيحات" وضوحا في تفكيره و قوت نظره و اثرت في أسلوب فكره و استدلاله و كتابته و كما اثرت على ذوقه و فكره تأثيرا بالغا. (٣٦)

و انكشفت عليه عيوب الحضارة الغربية و طبيعتها الخاصة و تناقضها المبدئي و الأساسي مع الحضارة الإسلامية و عدم إمكانية اتفاقهما عندما طالع كتاب الأستاذ محمد أسد "Islam at the cross roads" (الإسلام على مفترق الطرق) و اعتبره في هذا الصدد اوضح كتاب و أكثره مغزى.(٣٧)

يرى الشيخ الندوي أن دراسة "فجر الإسلام" و "ضحى الإسلام" للدكتور احمد امين تزلزل إلى حدما عقيدة المؤمن في الحديث الشريف و لا تقوم تلك العظمة و الاعتقاد بشخصياته المبدئية التي يطلبها الإنسان منه و قد عثر الشيخ الندوي على هذا النقص في كتاب الدكتور أحمد أمين من خلال كتاب "السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي" للدكتور مصطفى السباعي.

و أهم شيء استفاده الشيخ الندوي من كتب الدكتور أحمد أمين هي نعته الحلوة و السلسة، الأمر الذي يمتاز به عن معاصريه من الكتاب و الصحفيين.(٣٨)

و قد أحدث كتاب "تذكرة مولانا آزاد" في نفسه حباً و احتراماً للإمام احمد بن حنبل و غيره من المحدثين. و قد أعجب كثيرا بأسلوب كتاباته الادبية في مجلة "الهلال" و غيرها و كذلك اتضحت لديه بتفسير "ترجمان القرآن"

لابي الكلام آزاد بعض الجوانب الجديدة من فهم القرآن و النظر فيه و وسع نطاق فكره. (٣٩)

و الكتاب الذي أثر فيه كثيرا من بين كتب الشيخ العلامة السيد سليمان الندوي هو كتابه "خطبات مدراس" ـ الرسالة المحمدية ـ حيث فتح أمامه جوانب جديدة للسيرة و الحديث و أبان له مناهج لعرض الحديث و السيرة و على أصحاب العلم و المثقفين من غير المسلمين في هذا العصر الثوري".(٤٠)

و قد رغب الشيخ الندوي دائما في كتب الشيخ الكيلاني خاصة كتابه "النبي الخاتم" و كتابه "همارا قديم نظام تعليم و تربيت" حافل بالمعلومات و كتاب "تدوين حديث" الذي كان يعتبره كتابا حافلا بالمعلومات و النقاط و مقاله "مجدد الف ثاني كا تجديدى كارنامه" زود الشيخ الندوي بالمعلومات الهامة. كما تعرف من خلال قراءة مقالاته على جوانب جديدة من تاريخ الهند. (٤١)

و ساعد الشيخ الندوي كتاب "حيات جاويد" و "وقار حيات"، و أعداد مجلة "تهذيب الاخلاق" في فهم النفسية الحالية لمسلمي الهند و نزعاتهم السياسية و التعليمية الحالية و قد سد ما نقص في هذا الصدد كتاب "حياة شبلي". (٤٢)

استفاد الشيخ الندوي في توجيه السياسة الانجليزية في الهند و انحطاط المسلمين السياسي و تغيرهم الذهني من كتابي السيد طفيل أحمد "حكومت خود مختارى" و "مسلمانون كا روشن مستقبل".(٤٣)

و رغم أن الشيخ الندوي لم يستطع الاستفادة الكاملة من والده لصغر سنه و إلا أنه استفاد من كتابه "نزهة الخواطر" في مختلف المجالات اكثر و أوفر مما استفاد من غيره من كتب السير و التاريخ".(٤٤)

و قد كان الشاعر العلامة إقبال قد سيطر على ذهن الشيخ الندوي في معظم مراحل عمره و لكنه تنبه منذ البداية ان هذا القدر من الاهتمام بشخصية ما قد لا يليق به و لو انه يرى أن التغني باشعاره لتحريك المشاعر و العواطف و إيقاظ الناس أمر لا بأس به. (٤٥)

و قد تعرف الشيخ الندوي من كتاب "مذهب اور عقليات" ـ الدين و العلوم العقلية ـ للبروفيسور عبد الباري الندوي على حدود العقل و النقل و نقص العلم الإنساني و عجزه و ضعفه ازاء علم الأنبياءً الذي يفيد اليقين و الذي حصل من الكتاب الذي نفعه كثيرا في دراساته المستقبلية و كذلك استمد من تفسير سورة الاخلاص و "كتاب النبوءات" لإبن تيميه في هذا المجال و هذه الفكرة قوة برسائل مجدد الألفية الثانية الشيخ أحمد السرهندي. (٤٦)

و اطلع العلامة الندوي على علم الكلام الحديث بدراسة رسائل مجدد الألفة الثانية و المخدوم البيهاري فقد شرحت صدره في السنة و البدعة كلماته و حقائقه التجديدية كما أثارت فيه حمية دينية و خاصة ما يتعلق بعهد الملك المغولي أكبر و إبنه جهانغير و قلما وجد الشيخ الندوي هذه الحرارة في تأليفات و كتب مؤلف آخر.(٤٧)

و قد اختار الشيخ الندوي لعدد الفرقان الخاص بالشاه ولي اللّه الدهلوي عنوان مقاله "الشاه ولي اللّه كمؤلف" و درس كتابه "ازالة الخفاء" بكل جدية و تأثر بهذه الرسالة أكثر مما تأثر به من غيرها من الرسائل.

و لما درس الشيخ الندوي "حجة اللّه البالغة" للإمام الدهلوي وجد في عقله و ذهنه و قلبه أثرا بالغا للإمام ولي اللّه و استدلاله المحكم و نظره الدقيق و فهمه الواسع للمباحث العلمية و المبدئية و الكتب الكلامية و الفلسفية.

كما أن كتاب "الفوز الكبير في أصول التفسير" أفاده باشاراته العلمية

و نـكته الموجزة في دراسة و فهم القرآن الكريم و حل المشاكل التي تعترض في سبيل دراسة القرآن الكريم.(٤٨)

أما حبه للشاه ولي اللّه الدهلوي فلنقرأ ما سجله قلمه الرائع:

"يمكن لي أن أقول إني لم أتاثر بأحد (من القرون السالفة) أكثر مما تأثرت بـهذه الشخصية و لم أجد شخصية اتفق معها هذا القدر فانه كان من الضروري أن نـرتـبـط بـمـدرسـة من الـمـدارس الفكرية و المذهبية و افتخر بانتمائي إلى مدرسة الإمام ولي اللّه الفكرية"(٤٩).

يقول عن دراسة كتاب "صراط مستقيم" للسيد أحمد الشهيد:

"زالـت عـنـي الـعـجمة و الغرابة بشأن العلوم النبوية و التي تتمخض عن الـعـلوم و الكتب الوضعية الاصطناعية و حصلت على مقدرة التمييز بين الخير و الشر و أنه يمكن التعبير عن الحقائق و العلوم بدون الاستناد إلى المصطلحات الـعلمية و لغة العصر. و هناك وسائل سوى الكتب للحصول على علوم و معارف لا يـمـكن تـقـييدها في ما بين صفحات الكتب و يمكن أن يوجد اللب بدون القشور و المعاني بدون الكلمات و المتون بدون الـحواشي". (٥٠)

إن قـراءة تـالـيـف "سيرة سيد أحمد شهيد" و رسائل مجدد الألفية الثانية ساعـدت الشيخ الندوي في فهم أقوال الشيخ محمد الياس الكاندهلوي (١٣٦٣هـ) و معارفه. (٥١)

إنـه قـرأ الـتفاسير الضخمة المتداولة و المعروفة و غير المعروفة إلا أنه استـفـاد من الـقرآن الكريم من متنه أكثر من التفاسير و الشروح و يذكر شئيين هامين لفهم القرآن الكريم:

١ ـ مصاحبة الأشخاص الذين يتحلون بالعلوم النبوية و الذين يمثلون بأعمالهم و طريقة حياتهم عن القرآن حيث يصدق عليهم: كان خلقه القرآن.

٢ ـ إتباع آثار الانبياء إذ يفتح اللّه به قلب المرء لفهم القرآن الكريم. (٥٢)

يقول الشيخ الندوي:

"و كل ما لا يمت بصلته بمصدر العلوم النبوية هو موضع شك و ارتياب و مجرد كلام التسلية و محبوك بالألفاظ الساحرة لإنه إنما تحصل طمانية القلب بالعلوم التي تنفجر من العلوم النبوية و التي بلغها أيانا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و التي توجد الآن بصورة القرآن الكريم و الحديث النبوي".(٥٣)

هوامش:

* ـ كان قاضيا سابقا بمحكمة بتياله ولاية بنجاب و جامعا بين العلم و العمل مقتصدا في الفكرين القديم و الجديد عالما كبيرا للغة العربية و العلوم الدينية و صاحب نظر في التوراة و الانجيل تائقا للمناظرة و المناقشة مع غير المسلمين، كما كان معتدلا في أسلوبه العلمي و متبعا بمذهب أهل الحديث و محترما لغيره من الائمة و المجتهدين من المسلمين مقدرا جهودهم و محاولاتهم الاجتماعية و عضوا قديما لندوة العلماء.

من مؤلفاته "رحمة للعالمين" و "الجمال و الكمال" (تفسير سورة يوسف) و "رحلة إلى الحجاز" و غيرها من الرسائل الكبيرة و الصغيرة إلا أن الكتاب الأول نال قبولا واسعا و ذاع صيته في المدارس الإسلامية و التي ضمنته في مقرراتها الدراسية و تهافت عليه الناس بكل رغبة و نشاط و شوق ("ياد رفتكان" ص ١٠٦) تمت ترجمة مجلداته الثلاثة إلى اللغة العربية بقلم الكاتب الشهير اديب اللغة العربية و رئيس تحرير مجلة "صوت الأمة" الدكتور مقتدى حسن الأزهري، و طبع في حلة قشيبة و جميلة من الدائرة السلفية بممباي في عام ١٤١٠هـ.

١ـ "مقدمة زاد سفر" ٥:١، لكناؤ، ١٩٨٣

٢ ـ "مشاهير أهل علم كى محسن كتابين" لمحمد عمران الندوي، ص ١٥٦

٣ ـ المصدر السابق، ص ١٥٦

٤ ـ المصدر السابق، ص ١٥٧

٥ ـ المصدر السابق، ص ١٥٧ ـ ١٥٨

٦ ـ المصدر السابق، ص ١٥٨ ـ ١٥٩

٧ ـ المصدر السابق، ص ١٥٩ ـ ١٦٠

٨ ـ المصدر السابق، ص ١٦٠ ـ ١٦١

٩ ـ المصدر السابق، ص ١٦١

١٠ ـ "برانى جراغ" للشيخ أبي الحسن علي الندوي، مكتبة الإسلام، لكناؤ، ١٠١/١

١١ ـ "مشاهير اهل علم كى محسن كتابين" لمحمد عمران خان الندوي،ص ١٦٣

١٢ ـ "برانى جراغ" للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ص ٢٣٦/١

١٣ ـ "مشاهير اهل علم كى محسن كتابين" لمحمد عمران خان الندوي، ص ١٦٢

١٤ ـ المصدر السابق، ص ١٦٢

١٥ ـ المصدر السابق، ص ١٦٢

١٦ ـ المصدر السابق، ص ١٦٣

١٧ ـ المصدر السابق، ص ١٦٣

١٨ ـ المصدر السابق، ص ١٦٣ ـ ١٦٤

١٩ ـ المصدر السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٥

٢٠ ـ المصدر السابق، ص ١٦٥

٢١ ـ المصدر السابق، ص ١٦٦

٢٢ ـ المصدر السابق، ص ١٦٦

٢٣ ـ المصدر السابق، ص ١٦٨

٢٤ ـ المصدر السابق، ص ١٦٨ ـ ١٦٩

٢٥ ـ المصدر السابق، ص ١٦٩ ـ ١٧٠

٢٦ ـ المصدر السابق، ص ١٧٠

٢٧ ـ المصدر السابق، ص ١٧١

٢٨ ـ المصدر السابق، ص ١٧٢

٢٩ ـ المصدر السابق، ص ١٧٣

٣٠ ـ المصدر السابق، ص ١٧٣ ـ ١٧٤

٣١ ـ المصدر السابق، ص ١٧٤

٣٢ ـ المصدر السابق، ص ١٧٤

٣٣ ـ المصدر السابق، ص ١٧٥

٣٤ ـ المصدر السابق، ص ١٧٥

٣٥ ـ المصدر السابق، ص ١٧٦

٣٦ ـ المصدر السابق، ص ١٧٧

٣٧ ـ المصدر السابق، ص ١٧٨

٣٨ ـ المصدر السابق، ص ١٧٨

٣٩ ـ المصدر السابق، ص ١٧٨

٤٠ ـ المصدر السابق، ص ١٧٩

٤١ ـ المصدر السابق، ص ١٧٩

٤٢ ـ المصدر السابق، ص ١٧٩

٤٣ ـ المصدر السابق، ص ١٧٩

٤٤ ـ المصدر السابق، ص ١٨٠ ـ ١٨١

٤٥ ـ المصدر السابق، ص ١٨١ ـ ١٨٢

٤٦ ـ المصدر السابق، ص ١٨١

٤٧ ـ المصدر السابق، ص ١٨٢ ـ ١٨٣

٤٨ ـ المصدر السابق، ص ١٨٤ ـ ١٨٥

٤٩ ـ المصدر السابق، ص ١٨٤

٥٠ ـ المصدر السابق، ص ١٨٦

٥١ ـ المصدر السابق، ص ١٨٦

٥٢ ـ المصدر السابق، ص ١٨٧

٥٣ ـ المصدر السابق، ص ١٨٨



الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
و حبّه للإنسانية

بقلم: الأستاذ واضح رشيد الندوي

لم يكن الحب الغامرة الذي ارتبط بشخصية الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي (رحمه اللّه تعالى) و القبول العام الذي كان يحظى به في جميع الأوساط لمجرد أفكاره أو مؤلفاته العلمية، و بحوثه، بل لأنه كان مثالاً للخلق السامي الذي تغلبه العاطفة الإنسانية النبيلة، و حسن سلوكه مع الناس، و تعاطفه مع قضاياهم مهما كان جنسهم و عنصرهم و قوميتهم و معتقداتهم، و كان شعاره كما كان يدعو إليه في خطبه و كتاباته: [ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة، و جادلهم بالتي هي أحسن](١)، و كان ذلك أسلوب كلامه مع عامة الناس و القادة و العلماء و الساسة، لا مراء فيه و لا مجادلة، بل كان يتصف باحترام المخاطب و رعاية عواطفه و تصوراته، و حتى في أحرج الأوقات، و القضايا الشائكة التي تتغلب فيها حدة، و عنف، و كراهية لدى القادة و المفكرين، و لم يكن همّ المسلمين وحدهم يشغل فكره، بل كان يهمّه همّ الإنسانية كلها، فكان يشعر بالألم و المرارة إذا أصيب أي فرد أو مجتمع بالظلم أو المعاناة مهما كان دينه أو وطنه، و كان في دعوته و تربيته و سلوكه مع الناس و حياته الخاصة يتمسك بالتواضع و الإيثار و العطف و الحب و لين الجانب، و ذلك كان موقفه من الغرب و الحضارة الغربية، فإنه لم يكن يقوم على

الكراهية الكاملة، و لا الرفض التام، بل كان منهجه منهجاً وسطاً، و هو الجمع بين القديم و الجديد، كان دائم الفحص و الاختبار و الدراسة و التفكير، و قد أوضح مسلكه في كتابه "الصراع بين الفكرة الإسلامية الشرقية و الفكرة الغربية". إنه كان يخاطب طلاب المدارس الدينية، و يطالبهم بتجديد المناهج، و يخاطب طلاب المدارس العصرية، و يطالبهم بالرجوع إلى منابع الإيمان و اليقين، و تربية النفس، و الخلق الحسن، فكان مجال عمله مجالاً واسعاً. إنه كان زعيماً يخوض معركة الحياة، و يحلّ المشاكل الاجتماعية في الهند، و كان مصلحاً ربانياً يعيش حياة الزهد و الورع، يقول الحق و لا يخاف لومة لائم، و كان مصلحاً اجتماعياً و مربياً دينياً في وقت واحد، وصفه الدكتور يوسف القرضاوي الذي عرفه شخصياً و درس فكره عملياً بـ "رباني الأمة و الرجل القرآني و المحمدي، الذي جعل الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم أسوته في هديه و سلوكه و حياته كلها، و اتخذ سيرته نبراساً له و عالمي العطاء"، فتحدث إلى العرب و إلى أمريكا و أوربا. إنه انتقد القومية الهندية المتطرفة، و انتقد القومية البنغالية المتطرفة، و انتقد القومية العربية المتطرفة بنفس القوة.

إن هناك سؤالاً ينشأ في الأذهان عند دراسة شخصية الشيخ الندوي و هو أنه كيف التقت فيه هذه الصلاحيات و القدرات المتنوعة التي إذا وجدت صلاحية واحدة منها في زعيم كان من الفحول، و قد رد على السؤال الشيخ رحمه الله تعالى:

"لقد ولدت في بيت كان موضوعه الحبيب بل هوايته التاليف في سير الرجال و طبقاتهم، و تراجم العلماء و أهل الفضل، و خاصة الذين أنجبتهم أرض الهند، و نبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإسلام في هذه البلاد إلى هذا القرن، و نشات في بيئة كان الحديث الدائر المتكرر في اوساطها

و مجالسها، و تكأة المتحدثين فيها الإشادة بالمثل و القيم الإنسانية و العلمية، و التنويه بسمات العلماء الكبار و مجالات اختصاصهم و تبريزهم، و الشعائر الغالبة عليهم، و التغني بنبوغ أصحاب النبوغ، و عبقرية أصحاب العبقريات في مختلف العصور و الأمصار في إكبار و إعظام، بل في شيء من الهيام، فثارت في نفسي ملكة الإعجاب بمواضع العظمة و النبالة و مكارم الأخلاق و علو الهمة و سمو النفس من بين أفراد البشر في سن مبكرة لا تنبعث هذه الملكة فيها في غالب الأحيان، و الملكات البشرية المودعة في طبائع الأطفال قد يثيرها باعث خاص من بيئة و تربية و حوادث مخصوصة، فتنقدح و تتفتق قبل أوانها الطبعي المعتاد.

قد نشأت بصفة خاصة على حب التفنن في الفضائل، و الجمع بين الأشتات بل الأضداد من الفضائل الإنسانية و أنواع العلوم و المعارف، و الآداب و الثقافات و علو الهمة، و القدرة الفائقة على التنسيق بينها، و تسخيرها للوصول إلى غاية مثلى و خدمة العلم و الدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم و آداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، و يعدونها من حثالة العلوم و براية الآداب.

و نشأت كذلك على حب من يوفقه الله و يقويه على الجمع بين الرياستين العلمية و العملية، و الحسنيين الدنيا و الآخرة، و النقيضين (في عرف الناس) في إمارة و وزارة من جانب، و الاشتغال بالتأليف و التدريس، و التربية و الإرشاد، و الإصلاح و إزالة الفساد في جانب.(٢).

لقد أنشأ الشيخ الندوي حركة رسالة الإنسانية لحبه للإنسانية، و لتقويم سلوك الإنسان، و بث المثل الخلقية في المجتمع البشري التي تتفق عليها جميع

الأديان، و قد اقتضت ظروف المعيشة التي غزتها المادية الرعناء و حب المال و حب الجاه و المصلحة مثل هذه الحركة، و هي حاجة العصر، لذلك نالت هذه الحركة القبول لدى متبعي سائر الأديان في الهند، و اشترك قادتهم في جلساتها، و قد ساعدت هذه الحركة على ملأ الخليج بين المسلمين و غير المسلمين، و إزالة الكراهية المتنامية بينهم للدعاية السامة التي تقوم بها المنظمات المتطرفة، و إتاحة فرص اللقاء بين قادة المسلمين و بين قادة الأديان الأخرى، و عرض صور التسامح التي تشتمل عليها تعاليم الإسلامي الذي علاه الغبار ببعض أحداث التاريخ، و سلوك بعض الحكام المستبدين، كما شوّه هذا الوجه المستشرقون و تلاميذهم بكتب موجهة تعتدي على الإسلام و المسلمين، و تزويرهم للتاريخ، و قد حققت هذه الحركة هذا الهدف أيضاً، فاعترف بعض القادة من غير المسلمين أنهم ما كانوا يعرفون أن المسلمين أيضاً في قلوبهم محبة للإنسانية و للوطن، و إنما كنا نعرف أنهم حملة السيوف، و أن المسلمين كانوا غزاة، و لم يكون بناة للوطن.

كان اشتغال الشيخ الندوي الأساسي بالتصنيف و التأليف، و التدريس و الدعوة، لكنه لما شاهد تدهور الأحوال الاجتماعية، و طغيان المادة، و فساد البيئة العامة تصدى لمواجهته، و الاهتمام بإصلاح البيئة العامة، و كان سماحته يشعر أن المجتمع الإنساني بمثابة سفينة إذا غرقت هذه السفينة غرق جميع أفراد هذا المجتمع، فكان يقوم بجولات و رحلات مضنية رغم انحراف صحته في آخر أيام حياته، لحضور اجتماعات رسالة الإنسانية و لقاء القادة و السياسيين و المثقفين من غير المسلمين، و حثهم على العمل لتخفيف معاناة الإنسان، و مكافحة استغلال الإنسان بجميع أنواعه، و عندما تصاعد اتجاه المغالاة في نفقات الزواج، و المطالبة من أسرة العروسة بدفع أجور

مرتفعة، و إحراق الزوجات على عدم دفع أسرتهن ما تطالب به أسرة الزوج، زال النوم عن عيون الشيخ فجعل ذلك موضوع خطبه و كتاباته، و حذّر بقوة عن مغبة هذه العادة السيئة، و قام بحملة ضد هذا الاستغلال، و قد وصف الشيخ الندوي الدواعي التي دفعته إلى تأسيس هذه الحركة:

"إن الحركات و الدعوات التي ذكرتها سابقاً، و التي أسهمت فيها لم أكن السابق إليها و لا مخطّطها، بل رأيت من الضرورة التعاون معها و المشاركة فيها، أما حركة رسالة الإنسانية فهي تختلف في هذا الأمر عن غيرها، فإن تفكيرها انبعث من داخل النفس، و استولى على القوة التفكيرية و الخطابية، و ملك الأعصاب، و حولتني داعية و شارحاً لها ـ مع طبيعتي و مزاجي الخاص الذي لا ينفك عنه أي شخص ـ ينبغي هنا أن أشير إلى الخلفية العقلية و الفكرية لهذه الحركة و جوها و دوافعها.

لقد كان من المشاهدات اليومية أن هذه البلاد تسير بخُطى حثيثة إلى الفوضى الخلقية، و الانتحار الجماعي، فتداس القيم الخلقية، و يصاب الناس بجنون النفعية و الانتهازية ـ باستثناء أولئك الذين أثّر فيهم الدين تأثيره، أو الذين اعتزلوا معترك الحياة ـ و يفقد سريعاً احترام الأعراض و الأموال و الأنفس، فيضحّى لأغراض تافهة حقيرة بمصالح قومية و اجتماعية، و تنتشر اللامسئولية، و إضاعة الوقت، و الرشى، و السوق السوداء، و الادخار و الاكتناز، و كل ما يخالف الدين و العرف و القانون، و قد أصبحت الحياة بذلك جحيماً لا يطاق، و لم تبق رغم استقلال البلاد و حريتها أي لذة في العيش أو متعة في الحرية.

و انتظرت أن يقوم أحد في وجه هذا الفساد، و لكن الحزبية و السياسة لم تدع للناس مجالاً للتفكير في مثل هذه القضايا، و أخيراً قرّرت رغم شعوري بقلة

بـضاعتي و وحدتي و ضعف تأثيري أن أنزل في الميدان، و أخاطب الناس من دون تـمـيـيـز بـين الـمـسـلـمين و غيرهم، و أحذّرهم من عواقب هذه الحياة المادية الـمـتـطرفة، و معلوم أن الحريق إذا وقع فلا ينظر أحد إلى ضعفه و قلة حيلته، بل ينطق عند ذلك الأخرس و يسعى الأعرج".(٣)

و يقول في موضع آخر:

"لـقـد كـنـت مع نشاطاتي الدعوية، و أشغالي العلمية و الأدبية، و رحلاتي الـداخـلـيـة و الـخـارجـيـة، لا تـزال هـذه الحقيقة ماثلة أمام عيني، أنه لا يجوز الـتـغـاضـي فـي الـبـلاد الـتـي قرّرنا أن نعيش فيها و نسكنها، عن تقدير الوضع الـصـحـيح و النزعات الهدامة و الميول المثيرة، و الأخطار المستقبلية، و لأجل ذلـك كـان يـسـتـولى على التفكير ـ دائماً ـ في نشر "رسالة الإنسانية"، و القيام بدعوتها على النطاق الواسع." (٤).

و قـمـت فـي صدد هذه الحركة بجولات في ولايات بيهار و مدهيه براديش، و راجـسـتـهـان و هـريـانـه، و بنجاب و أترابراديش، و عقدت في مختلف الأماكن احـتفالات رائعة ناجحة، كان يحضرها عدد كبير من غير المسلمين من الطبقة الـمـثـقـفـة فـيـهم، و كانوا يستمعون الخطب و المحاضرات بإصغاء و اهتمام، و يبدون تأثرهم و انطباعاتهم الطيبة، و قد قلت في إحدى هذه المناسبات:

"إن عـلـى الـمـسـلمين مسئولية ذات وجهين: إحداهما: أن كتابهم الأخير الـخـالد القرآن، و رسولهم الخاتم محمداً عليه الصلاة و السلام، لا يرشدانهم إلى اجـتـنـاب هـذا الـفـسـاد العام و الحريق المستطير، و وحل عبادة المادة و المال فحسب، بل يأمرانهم بالوقوف دونه و سدّ سبيله و حماية الناس منه.

و الـمـسئولية الثانية: أنهم كانوا وردوا هذه البلاد برسالة احترام الإنسانية و الـعـدل الاجـتـمـاعي و المساواة الإسلامية، و قد أسعفوا هذه البلاد في ساعات

حرجة دقيقة، و لا تزال هذه الرسالة محفوظة في صحائفهم الدينية، فلو لم يبذلوا جهودهم المستطاعة في الأخذ بهذه السفينة الغارقة أو المتورطة لكانوا عند اللّه أصحاب ذنب و تقصير و جريمة، و سجلهم التاريخ غير قائمين بالواجب، كافرين بالنعمة، مجرمين بالغفلة."(٥)

و في أحد هذه الاجتماعات، و الذي عقد في حيدرآباد صرّح سماحته:

"إن لكل إنسان في هذه الحياة دارين: دار يسكنها هو و أعضاء أسرته، و يحرص كل إنسان أن تكون هذه الدار مأمونة، و أن يعيش فيها بسلام، و هناك دار أخرى و هي أكبر من هذه الدار الشخصية، و هي دار البلاد، و نحن ننسى في غالب الأحوال أن هاتين الدارين كلتيهما لنا، و إحداهما صغيرة، فيها أسرة واحدة، و الأخرى كبيرة فيها المواطنون، و هم أفراد الأسرة الوطنية الكبرى، و ترتبط مصلحة الدار الصغيرة بمصلحة الدار الكبرى، فإذا فسد نظام الدار الكبرى فسد نظام الدار الصغرى." و قال: "إن فساد المجتمع، و إهمال مبادئ الأخلاق و غلبة الشر، و حب المال يؤدي إلى فساد كل فرد من أفراد المجتمع".

و صرّح سماحته في كلمة ألقاها في أحد الاجتماعات: "إن العالم الإنساني يحتاج فيما يحتاج إليه إلى أن توضع أمام الإنسان بالارتفاع عن المصالح الذاتية و العصبيات القومية و المصالح السياسية، تلك الحقائق و القيم التي تلزم لنجاته و حياته بأمن و سلام، و هي حقائق إذا أغفلتها تعرضت حضارتنا و مجتمعنا لأخطار جسيمة، و واجهت الإنسانية صراعاً عنيفاً، قد بيّن هذه الحقائق الأنبياء في عصورهم و جاهدوا في سبيلها، و لاتزال هذه الحقائق تحمل هويتها و تأثيرها و نفعيتها للإنسان، و تقدر أن توصل الإنسان اليوم إلى النجاة، لكن الحركات و المنظمات المادية، و النزعات القومية أثارت الغبار الكثيف على الانظار، و لكن ضمير الإنسان لم يمت رغم هذه العواصف الهوجاء،

و لـم يـجـمـد ذهن الإنسان، و لـم يتعطل عن العمل، فإذا عرضت الدعوة إلى هذه الـحـقـائـق بـإخـلاص و بـأسـلوب سهل يفهمه الإنسان اليوم، فإن ضمير الإنسان و ذهـنـه سـيـتـجـاوبـان لـهـذه الـدعـوة، و يـعـرف الإنـسـان أن هذه الدعوة بلسم لجروحه".(٦)

و قد حققت هذه الحركة هدف التقارب بين المسلمين و غيرهم، و جمعت عـلـى رصـيـف واحـد أعـداءهم الذين اعترفوا بعد سماع كلماته أن هذه الحركة حـاجة العصر، و تغير تصورهم عن المسلمين، و بذلك أتيحت لهم فرصة دراسة الإسـلام، و تغير موقفهم إزاء قضايا المسلمين، بل قدم عدد منهم خدماتهم لحل قـضـايـا الـمـسـلمين، و أصبحوا مدافعين عنهم، و كانوا يقومون بزيارة الأماكن الـتـي تـحـدث فيها الاضطرابات الطائفية، و يشتركون في أعمال الإسعاف، و قد ساعدت هذه الاجتماعات في بعض الأماكن على إجماد الفتن و تهدئة الأعصاب ضد المسلمين.

و قـد عـارض بـعـض الـعـلـمـاء الـمـخـلـصين العاملين في مجال الدعوة الإسـلامـية هذه الحركة لعدم فهم أهدافها و نوايا القائمين بها، و ناقش بعضهم سـمـاحـة الشيخ في هذه المسئلة، و لكن سماحته واصل جهوده في هذه الجهة إلى آخر أيام حياته، و كان يثبت همم العاملين في سبيله و يؤيدهم.

و من جـهـة أخرى كـان سماحته يؤكد خلال حديثه مع المسلمين على أن يشتركوا في أعمال بناء الوطن، و يزيلوا من مجتمعهم أسباب التخلف و الصراع و الـجـهـل، و أن يـكـون وجودهم باعث الخير و البركة لهذه البلاد، و كان موضوع خـطـابـه حـتـى فـي أيـام مـرضـه [يـا أيـها الذين آمنوا إن تتقوا اللّه يجعل لكم فـرقـانـاً](٧) و كان يشرح الفرقان بأن تتميز حياة المسلمين عن غيرهم كلياً في

سائر مجالات الحياة، و تتصف بالصدق و الأمانة و الإخلاص و الاجتهاد و المواساة و المساواة و الإيثار، فيكسبوا بهذه الخصال حب من يعايشهم و تقديرهم، و يعتبروا بركة، و لا يعتبروا وبالاً للبلاد. إنه كان يؤكد على توفير الماء لينفع من يحتاج إليه، و إزالة الأذى عن الطريق، و إسعاف المنكوب، و هداية الضال عن الطريق، و تخفيف آلام المرضى، فكان بجانب دعوته إلى إنشاء المدارس للتعليم يدعو إلى إنشاء المستشفيات، و الجمعيات الخيرية، و يشترك في مناسبات افتتاحها، و يشجع القائمين على أمورها، و يدعو إلى توسيع دائرتها.

كان سماحة الشيخ الندوي في أحاديثه مع المسلمين في الجلسات العامة و اللقاءات الشخصية يؤكد على التمسك بالقيم الخلقية، و خدمة الإنسانية بغض النظر عن الدين أو الطبقة، و كان يصرح أن الإسلام ليس بمجرد عقيدة و عبادة، و إنما هو دين شامل كامل يغطي الحياة كلها، و فيه تعاليم للرحمة و العطف حتى على الحيوانات، و كان يقول: يجب أن يكون المسلم مسلماً كاملاً في عقيدته و منهج عبادته و خلقه مع الناس، و أن يتميز عن غيره فيعرف بين الناس بأنه مسلم، فيقال إنه لا يكذب لأنه مسلم، إنه لا يسرق لأنه مسلم، إنه لا يقبل الرشوة لأنه مسلم، إنه لا يخدع لأنه مسلم.

كان موضوع خطاباته في آخر أيام حياته [ادخلوا في السلم كافة](٨) أي كاملاً في جميع ميادين الحياة، و لذلك ألف كتاباً يعتبر دليلاً لكل مسلم "العقيدة و العبادة و السلوك"، و كان أيضاً يؤكد في آخر أيام حياته في خطاباته العامة على [يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً](٩)، و كان يشرح الفرقان بالسمة التي يعرف بها المسلم، و الشعار و الشارة بين الناس، و كان يفسر هذه الآية بقوله: "إن المسلم إذا عاش حياة متميزة عن غيره و اتبع

الإسـلام اتـبـاعـاً كـاملاً عرف بين الناس و شهر، و صار موضع الاحترام و التقدير و الإكرام بين الناس.

و قد كان سماحته عند زيارة المستر أتل بيهاري واجبائي رئيس وزراء الهند خـلال مـرضـه الـذي تـوفـي فـيه يجد الصعوبة في الكلام لكنه عبّر عما كان في ضـمـيـره بصوت مرتعش: "أنقذ الوطن"، فإن الوطن في خطر، و لم يكن يقصد سـمـاحـتـه العدو الخارجي، فإن الهند أعظم بلد في هذه المنطقة فلا يخشى أن يـغـزوهـا بـلـد آخر، و إنما كان يعني الفساد الخلقي و الفساد الإداري، و الصراع الـطـائـفـي، و الـظـلـم، و الاستبداد، و كان يقول في خطبه: الحكومات لا تسقط بالغزو الخارجي، و إنما تسقط بالظلم و الاستبداد، و الإكراه.

كـان سـمـاحته يعتقد بأن المسلمين جزء من المجتمع الإنساني، فإذا فسد مـجتمعهم كان له انعكاس على المجتمع العام، و إذا كان جزء من المجتمع في مـعـانـاة تـأثـر بـه الـمـجتمع الذي يعيشون فيه، و لإصلاح المجتمع المسلم قاد سـمـاحته حركة إصلاح المجتمع الإسلامي، و كافح ما دخل في حياة المسلمين من الـتـواكـل، و الـجـمـود، و الـجـهـل و الـفقر، و الفساد، و الصراعات الطبقية و الـمـذهـبية، و عقد أول مؤتمر لعموم الهند لإصلاح المجتمع الإسلامي في ندوة الـعـلـمـاء بـرئـاسـة سـمـاحة الشيخ الندوي، ثم فتحت فروع في المدن الأخرى، و تحولت هذه الحركة حملة مكثفة في عموم الهند، و كان من أهدافها مكافحة الاسـتـغـلال، و الإسراف فـي الزواج، و المطالب الغالية، و مكافحة التمييز على أساس الـعـائلة أو الطبقة أو الوضع الاقتصادي، و ذلك في ضوء تصوره أن لكل إنـسـان دارين: دار صـغـيـرة و دار كـبـيـرة، و لا يـتـم الإصـلاح إلـى بإصلاح الدار الصغيرة، و الدار الكبرى.

هـذه هـي بـعض الجوانب لـحياة الشيخ الندوي التي انفرد فيها و تميز عن غـيـره من الـدعـاة و الـعـلـماء و المفكرين، و لم تكن هذه المواقف إلا عبارة عن فـراسـته الإيمانية و إدراكه لبواطن الأمور و الأسباب و العواقب للأعمال، و كانت نـاتـجـة عن بـصـيـرتـه الـعـميقة، و لا تقل قيمة تاثير هذا الموقف عن أعماله العلمية و إسهاماته العملية الأخرى.

إنـها نظرة سريعة موجزة على ما قام به سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه تعالى من حب للإنسانية التي عمت البلاد كلها، وقد جاءت بنتائج حلوة مشجعة، و اسـتـعدت عدة نفوس ممن يحملون الضمائر الحرة لإنقاذ المنكوبين، و أنشأوا جـمـعـيـات لـمكافحة الطائفية، و العنصرية، و الاستغلال، و فيهم عدد كبير من غير المسلمين.

الهوامش:

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥

(٢) كلمة تقديم له لكتاب "الأمير صديق حسن خان القنوجي، للدكتور محمد إجتباء الندوي.

(٣) في مسيرة الحياة ٣٣٧/١ ـ ٣٣٨

(٤) في مسيرة الحياة ٧٩/٢

(٥) في مسيرة الحياة ٣٣٩/١ ـ ٣٤٠

(٦) في مسيرة الحياة

(٧) سورة الأنفال، الآية: ٢٩

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨

(٩) سورة الأنفال، الآية: ٢٩



العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي
و
حبه للوطن العزيز "الهند" و أبنائه

بقلم: أ. د. محمد راشد الندوي

ولد العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله في العقد الثاني من القرن العشرين في محافظة رائى بريلى في قرية اشتهرت باسم "تكيه كلان" في أسرة علمية دينية و ثقافية، ينتمي إلى هذه الأسرة العريقة المصلح الكبير و المجاهد العظيم السيد أحمد الشهيد الذي قضى جُل حياته في خدمة أبناء الهند و سعى لتحريرها من كل ظالم كما سعى لتحريرها من كل عدو غاصب. و قد نشأ العلامة أبو الحسن في هذه البيئة العلمية و ترعرع و شب على حب العلم و الأدب و الثقافة و السياسة، فقد درس التاريخ الإسلامي بجد و عناية كما درس تاريخ الهند السياسي بشوق و شغف. و قد كانت هذه الموضوعات العلمية و الثقافية موضوع بحثه و دراسته كما كانت موضوع تصنيفه و تأليفه. و إنما كانت الهند موضوع بحثه و دراسته لأنها انبثت شخصياته عظيمة كانت غرة في جبينها، و قد كان العلامة مولعاً بدراسة هذه الشخصيات و كان معتزاً بها و فخوراً، و يقدمها كأسوة و مثال للباحثين و الدارسين و المثقفين.

من حسن الحظ ان الشباب النابغ السيد أبو الحسن حينما كان مغرقاً في

تـاريـخ الـهند القديم قد بدأت فيها نهضة علمية و سياسية، و كانت هذه النهضة تـتمخض بظهور شخصيات تعتز الهند بكتبها و شعرها كما كانت تموج بخطبها الـرنـانـة و مـقـالاتها القوية التي كانت ترمي بشدر. و هذه الشخصيات هي مولانا الـشـيـخ مـحمود الحسن الديوبندي و مولانا أبو الكلام آزاد و الشيخ حسين أحمد الـمدنـي و الطبيب الحانق الحكيم أجمل خان، و الشاعر الفذ محمد اقبال. و قد كـان الـعلامـة يـقـدر من صميم قلبه ما كان يقوم اخواننا الهندوك من الخدمات الـجـلـيـلـة و التضحيات العظيمة في سبيل تحزير الوطن العظيم أمثال الزعيم الـكبير مهاتما غاندي و بندت جواهر لال نهرو و سوباس جندر بوس، ثم كان رحمه اللّه مـتـأثـراً بـأبـيه الشيخ عبد الحي الحسني الذي بذل كل حياته في التصنيف و الـتـالـيف، و كان أكثر اهتمامه بدراسة تاريخ الهند الثقافي و الأدبي و السياسي فكتابه الشهير "نزهة الخواطر" من أهم الكتب في هذا الموضوع، و يشتمل هذا الـكـتـاب القيم على عدد عظيم من العلماء و المفكرين و المصلحين و المدبرين و الـمـاهـرين لشئون الحكم و الحكومة و النظم الاجتماعية من الملوك و الأمراء فـالـذي يـدرس هـذا الكتاب يهتز طرباً بما قدمت الهند للعالم مثل هؤلاء العباقرة الـذين كـانـوا كـالنجوم اللامعة في أفق الهند، لم يكن هؤلاء العظام مفخرة للهند فحسب بل كانوا مفخرة للعالم الحديث و القديم. هذه النفوس الطاهرة و العقول الـمـشـرقـة و الـقـلوب العامرة بالحب و العرفان اثرت في حياته فشب على حب الـعلم و المعرفة كما شب على حب الوطن و البلاد، و يتحدث الأستاذ أبو الحسن الـنـدوي فـي هـذا الـصدد فيقول: "و لقد اراد اللّه ان انشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ و كتابة التراجم و السير، و أن أولد في أسرة كان فيها مؤرخون و مؤلفون، و كـان أكـثـر اشـتـغـالهم بالتأليف في تراجم الرجال، و طبقات الشعراء و الأدباء، و سـير العظماء من المصلحين و العلماء و الملوك و الأمراء. فكان جدّي العلامة

السيد فخر الدين الحسني (م ١٣٢٦هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هذا ببال كثير من العلماء و المؤلفين في شبه القارة الهندية، و ذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تعرف الموسوعات و دوائر المعارف في الهند و لا حتى في اللغات الأجنبية، فوضع كتابه: "مهرجان تاب" في مجلدين ضخمين يحتوي المجلد الأول بخط مولفه على ثلاث مائة و ألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير، و أكثرها تراجم لطبقات الصوفية و العلماء و الشعراء، و وفق والدي العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١هـ) لوضع أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية في تراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١ هـ (١٩٢٣م) يغطي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، و المساحة المكانية من ممرّ خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، و من قلل كشمير إلى مالابار و كالى كوت في الجنوب. و الأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية و اتجاهاتهم العلمية و اختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار تحتوي على أكثر من أربعة آلاف و خمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم، و هو أشبه في أسلوبه و منهجه و تعبيراته بابن خلكان، و في الدقة و الأمانة، و تحرّى الصدق و القياسات اللائقة و الدقيقة، و في تخيّر الأوصاف و النعوت، هذا إلى كتاب آخر إسمه "كل رعنا" في طبقات شعراء الهند بلغة الأردو، اعتبر من المراجع الرئيسية في تاريخ الشعراء و نقد الشعر، و قرّر تدريسه في عدة جامعات في القارة الهندية، يضاف إليهما كتابه الثالث: "ياد ايام" في تاريخ ولاية كجرات و علمائها و عظمائها و حكوماتها، و هو النموذج العالي لتاريخ بلاد و ولايات، يجب أن يُحتذى و يقلد، و قد قرأت هذه الكتب في سن مبكرة، لأنها كتب كانت بمتناول اليد، و كانت الدوافع إلى قراءتها قوية و طبعية، فحفظت

منها الكثير، و قلدت أسلوب المؤلف حين بدأت أشدو في اللغة و الأدب و امسكت القلم للكتابة و الإنشاء.

و لذلك كله كان ادب التراجم و السير من أحب الآداب و أخفّها و أسهلها إليّ، و كان هوايتي و شغلي الشاغل في سنّ قلّما يتيسر فيها الكتابة لكثير من هُواة الأدب و الإنشاء، فبدأت أولف في تراجم الرجال و سير النابهين من العلماء و المصلحين بالعربية قليلا، و بالأردية أكثر، و تكون منها مكتبة لا باس بها في كتب التراجم و سير المصلحين و المجددين في الإسلام، و الدعاة و المربين الذين نفع اللّه بهم الامة و نهض بها في مختلف الادوار و الامصار.(١)

فقد قاده حبه الراسخ و تقديره البالغ للوطن العظيم، الذي لازمه طول حياته، إلى دراسة التاريخ الإسلامي الهندي فحاول أن تكون هذه الدراسة العلمية و التاريخية من خلال دراسة حياة السيد أحمد الشهيد، و كانت غاية هذه الدراسة أن يدرس الشيخ العلامة الأوضاع السياسية و الدينية و الاجتماعية التي كانت في عصر الشهيد، و في الحقيقة لم تكن دراسة حياة الشهيد و ظروفه دراسة سهلة هينة للكاتب الشاب بل كانت مملؤة بالغموض و الابهام، فالظروف الداخلية كانت مكدرة بالفتن التي ضاق بها الناس ذرعاً. و لم تكن الظروف الدينية اقل إبهاماً و غموضاً من الظروف الداخلية حيث أصبحت البدع و الخرافات في المسلمين دينهم و ديدنهم ، ثم الظروف السياسية هي كانت أشد خطراً حيث أن الاستعمار الخارجي بدأ ينشب أظفاره للسيطرة على الهند و خيراتها، و كان هذا الاستعمار هو الاستعمار البريطاني الذي ترافقه المهارة الحربية و الوسائل الجديدة من العدة و العتاد. فبذل المؤلف الشاب كل جهده في جمع الكتب و الرسائل و الوثائق التي ترشده لدراسة الموضوع دراسة علمية و فنية، و بعد جهد جهيد و سفر طويل استطاع أن يقدم إلى الناس أول باكورة

علمية و هي "سيرة سيد أحمد شهيد" و نال اعجاب الناس و تقديرهم حيث ظهر بينهم مؤرخاً و محققاً كما ظهر بينهم كاتباً و أديباً. تتجلى في هذه الباكورة العلمية براعة الأستاذ أبي الحسن الأدبية و مهارته الفنية بصورة واضحة و خاصة في تصوير الأوضاع تصويراً كاملاً و تحليلاها تحليلها فنياً، فيخيل إلى القاري من خلال قراءة الباكورة كأنه يرافق الشهيد في غدواته و روحاته، في صولاته و جولاته مع محادثاته مع الناس و حواره و يسمع كذلك حين يخاطب أصحابه في أشد أوقات الحرج و القلق و يحثهم على الجهاد و الثبات و يحبب إليهم الموت في سبيل الله و يتلو عليهم: "و سارعوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين" "و لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء و لكن لا تشعرون" كما يسمع نجوى فواد المجاهدين و أناشيد التضحية. ما أحلى هذه الأناشيد و أعذبها التي كانت تخرج من أعماقهم:

اقول لها و طـــارت شعاعـــاً	من الأبطال ويحك لن تراعـــى
فصبرا في مجال الموت صبرا	فما نيل الخلـــود بمستطـــاع

و هنا يجد القاري الكاتب الشاب كأنه يطير مع السحب يطل من خلالها قافلة الشهيد التي تسير من شرق الهند إلى غربها مع عدد قليل و عدة ضئيلة، و يتتبع آثار خطواتها و أقدامها و يمسح بترابها وجهها كالعاشق الهيمان و المحب الولهان:

ضعيف الصبر عنك و أن تفادى	و سكران الفؤاد و إن تصاحـــى
بذاك بنوا الهوى سكرى صحاة	كأحداق المها سكرى صحاحا

و عندئذ يحس القاري احساسا بالغا بأنه أيضا في نشوة الحب و الغرام، فاستطاع المؤلف ان يذرع في القلوب حبا عميقا و تقديرا بالغاً للوطن، و إنه

مازال يحبب إلى الناس الهند و ما فيها كما يحبب إليهم الشخصيات التي ظهرت و نبتت فيها، فقد ساعدني الحظ أن أرى الأستاذ العلامة و هو يلقى محاضرة في مدينة تونك في حفلة علمية و أدبية و يشير إلى ما في هذه المدينة من آثار العلماء و الادباء و المحدثين و المحققين و المصلحين و كانت عينه تقر بروية آثار هؤلاء و قلبه يهتز طرباً كأنه في نشوة و هو يردد قول الشاعر العباسي أبي العلا المعرى:

خفف الوطأ ما أظن أديم　　　الأرضَ الأمن هذه الأجساد

و حرام بنا و ان قدم العهد　　　هوان الأباء و الأجداد

بعد العقد الخامس من عمره رأى العلامة الهند أنها تمر بمرحلة عجيبة و غريبة أيضا. و هي مرحلة النضال لتحريرها من الاستعمار الأجنبي، لاشك أن هذه المرحلة كان ينتظرها الشعب الهندي بفارغ الصبر، ضحّى في سبيلها عدد كبير من أبنائه لم يسعدوا بروية هذا اليوم المشهود كما قدر لعدد كبير أن يسعدوا بروية هلال اليوم السعيد هلال الحرية و الاستقلال، كان هذا الهلال سعيدا لأناس و لكنه كان نحسا و شقاوة لعدد آخر. فرأى الشعب أن بلاده قد قسمت و مزقت، فهذا الشعب الذي كان يعيش اخواناً يفرح معاً في الافراح و الأعياد و يحزن في الآلام و المصائب، فاذا هو الآن يقتل بعضه بعضاً، و أن الشعب الذي كان بالأمس يحارب العدو المشترك هو يحارب اليوم اخوانه و أبنائه كأنه يجد في قتلهم و دمارهم سعادة و هنائة، كأن شمس الحرية غابت و طلعت مكانها نجوم النحس و الشقاء، فكانت البلاد كما يقول البحترى:

و لم أنس وحش القصر إذ ريع سربه　　　و إذ ذعرت اطلاؤه و جآذره

و إذ صيح فيه بالرحيل فهتكت　　　على عجل أستاره و ستائره

فـإذا الـبـيـوت العامرة التي كان يسكنها ابنائها في أمن و سلام و يتمتعون بحلاوة البلاد و جمالها قد خربت و توحشت، إذا هم يودعونها حفاة عراة، عيونهم تـدمـع و قلوبهم تضطرب، و في نفوسهم حسرة و على لسانهم الوداع الوداع أيتها الـبلاد العزيزة لا نغادرك راضين بل نودعك مكرهين، لعن اللّه الاستعمار ما أمكره و أمـهـره، رحـم الـلّه أبـا الـحـسن مـا أشـجـعـه و أقـواه، فـهـو في هذه المرحلة المدهشة المزعجة التي كانت كما يقول القرآن: "يوم يفر المرء من أخيه، و أمه و أبيـه، و صـاحـبـته و بنيه لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه" صمم أن لا يغادر هـذه الـبلاد التي يحبها من صميم قلبه بل هو يبقى فيها و يخدمها بعلمه و قلمه و يـحـبـب إلـى الـنـاس مـا فـيـهـا من آثـار علمية و معاهد دينية و مجامع أدبية و جامعات تغذى النفوس و العقول.

كـان رحـمـه الـلّه رقيق الحس، يلاحق الأسفار بعد الأسفار و يجوب القرى و الأريـاف، و يـقدم إلى الناس ما أعطاه اللّه من الحب و المعرفة، و يخوفهم عن مـصـيـرهم و مستقبلهم، و إن هذه الأسفار المتلاحقة التي كان هو يقطعها حبا لـلـنـاس و عملاً لسعادة الانسانية و فلاحها تزيد قوة في قلبه و شجاعة في نفسه و حـلاوة فـي لـسـانه و رشاقة في بيانه، فهو يبدو في جولاته كالبلبل الشادى الذي يسحر الناس بتغريده لا تفرق بينه و بين الناس لغة و لا وطن و لا جنسية و لا لون، يـعيش بين الأشجار و الأغصان حدا طليقا يملأ العالم بالجمال و البهاء، فاللغات الـمـختلفة و الثقافات المتنوعة و الحضارات المتعددة و المدنيات المتفرقة في الـعـالـم هـي كلها من صنع الإنسان الذي كرمه اللّه بالعقل و الفكر و نوره بالحب و الـوداد "و لـقـد كرمنا بني آدم و حملنهم في البر و البحر و رزقنهم من الطيبات و فـضـلـنـاهـم عـلـى كـثير ممن خلقنا تفضيلا" فلا بد أن تقدر هذه النعم كلها، و يـفـوق الـعـلامة هنا أقرانه و زملائه جميعا حيث هو يصبح هبة للناس جميعا

أينما سكنوا و كانوا، و هو ما يقدم إليهم من الهدايا تكون عزيزة و حبيبة للناس جميعا، تكون هي أغلى و أعز من الهدايا التي يقدمها الملوك للملوك و الأمراء للأمراء من الجواهر النادرة و اللآلي اليتيمة لأن الناس يرون بعد أفول نجمهم أنها تقدم إلى الأسواق الاعلانية يشتريها الاغنياء بثمن بخس دراهم معدودة، لكن ما يقدم إلى الناس من العلم و المعرفة، و من النصح و الاخلاص تبقى هدية نادرة على مر الأيام لاتباع و لا تعار تضن بها الأجيال بعد الأجيال.

و هنا نرى الشيخ العلامة يخرج إلى الناس خطيبا و داعيا، مفكرا و فيلسوفا يحمل معه رسالة الإنسانية، رسالة المودة و الاخوة، رسالة الائتلاف و الاتحاد، رسالة التسامح و شرف الجار و يشرح للناس أن الهند من القدم كانت مهوى القلوب و محط الأنظار للأمم بما كانت تسمع عن معارفها و علومها و عن خصبها و غنائها و عن أنهارها و جبالها و توجهت إليها شوقاً و حباً و نزلتها و توطنت فيها و وجدت في أبنائها التسامح و التقدير و الاكرام و الاحترام فأصبحت الهند أكبر دولة في العالم تموج بديانات مختلفة و ثقافات متنوعة و علوم متفرقة و لغات متعددة فالأجناس التي جاءت إليها تحمل معها علوم بلادها و ثقافتها و قدمتها إلى أبناء الهند كهدية لها فأصبحت الهند كباقة جميلة للأزهار تتضوع كل زهرة بأريجها كما تبتسم بجمالها و بهائها محتفلة بشخصيتها و وجودها نجد هنا العلامة حين يخاطب الناس كأنه معلم ماهر يشرح للناس الأوضاع التي يمرون بها و يذكرهم بماضيهم المشرق كما يبين أن العالم الجديد ينقسم بين حضارتين متناقضتين حضارة شرقية تقتبس أسسها و مباديها من الديانة السماوية و المذاهب الروحية لو أن هذه الحضارة قد أصابها شيء من الذبول و الاضمحلال، لكننا نجد في طياتها روحا مختفية و جذوة تشتعل بعد حين أما الحضارة الثانية هي حضارة غربية مع أن الغرب

من أقصاه إلى أقصاه قد اعتنق المسيحية دينا و عقيدة له و لكن من سوء الحظ أن أسسه السياسية و الاجتماعية و الأدبية و الفكرية و الثقافية كلها قامت على الـفـلسفة اليونانية الوثنية التي هي من أول أمرها قامت على مبادي وثنية مادية فـامـتـزجـت الـوثنية المادية روح الحضارة الغربية فالعالم الغربي لم يستطع أن يـتـخلص من الوثنية المادية إلى يومنا هذا، فالمبادي الاقتصادية و الاجتماعية و الـسياسية و الأدبية هي كلها ممتزجة بهذه الأسس السقيمة الموبؤة. لذلك نرى الـعـالـم الـغـربي كله مصاب بالأنانية و الاثرة و الظلم و الاستبداد و بقيت الديانة الـمسيحية حبرا على ورق لا صلة لها بالمجتمع الغربي الحديث، و هي محصورة و مـحـدودة بين الطقوس و الرسوم و من سوء الحظ أن الأمم الشرقية التي كانت مـنـذ مـدة طـويلة في جهل و فقر و تأخر و يأس و قنوط حينما بدأت الحياة تدب فـي عـروقـهـا و نـهـجـت مـنـهـجـا رسـمـه الغرب، لذلك نجد أن العلماء و الأدباء و الـمـثقفين و المتعلمين بدءوا يبتعدون عن ماضيهم المشرق و يقعون في حمأة لا يـرجـى الـخـلاص مـنـهـا. هـنا نجد الأستاذ الشيخ أبا الحسن يحذر أبناء الهند بـالنتائج الوخيمة و يذكرهم بماضيهم المشرق الرائع و يتمنى من صميم قلبه أن تـقـدم الأمم الشرقية إلى الغرب بما وهبها اللّه من الرسالة السماوية و المذاهب الـروحـيـة و يـقـول يـنـبـغي أن نكون مبلغين داعين بدل أن نكون مقلدين متبعين. و كانت هذه الرسالة همه و شغفه إلى آخر حياته.

فـالأديـب الـمـاهـر و الـشاعر المفلق و العالم المخلص و الطبيب الحاذق و الـفـيلسوف النادر أينما حل و نزل تدنوا إليه العيون و ترتفع إليه الأعناق و تشار إليه بالبنان حبا و احتراما، تقديرا و اجلالا له هكذا كان العلامة شخصية عالمية حـبـيـبـة، وجـدتـه الإنـسـانـية ناصحا أمينا و دعته بلاد العالم للتوطن بها و لكن الانـسـان عـجـيـب فـي صورته كما هو عجيب في نظرته و عقيدته، و في روحه

و وجدانه بل هو مجموع العجائب و الغرائب، و هو مهما بلغ من العلم و المعرفة و الذكاء و الفطانة و الوجدان و القريحة الفياضة لا ينسى وطنه و مولده، فهو كالطير يغدو صباحا يتنقل من الشجر إلى الشجر و من الحقل إلى الحقل و من الزهر إلى الزهر يتّخر لنفسه و لأفراخه ما طاب له الطعام ثم يروح إلى وكره مطمئنا مبتهجا و في قلبه حنين و شوق، كم رأينا في التاريخ من العلماء و الأدباء و الشعراء و الفنانين الذين قضوا جل حياتهم في خدمة العباد و البلاد و سحروا الناس بعلمهم و أدبهم و غنوهم بروحهم و وجدانهم ثم عادوا إلى موطنهم و مولدهم الأول في آخر حياتهم، لم تستطع المناظر الجميلة و المناطق الرائعة و المنازل البهيجة و اقبال الناس عليهم و تقديرهم لهم أن تحول بينهم و بين عودتهم إلى الوطن العزيز و المولد الحبيب و كانوا كما يقول الشاعر:

نقل فوادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى و حنينه ابدا لأول منزل

رحم اللّه أبا الحسن كم طاف من البلاد و جال و قد سُحر بجمالها و بهائها كما فتن بحسنها و رونقها، فقد رزقه اللّه حسا مرهفا و روحا رقيقة و نظرة نافذة و نوقا سليما، يقف عند كل منظر جميل يتمتع به و يهتز له، و تكون هذه المناظر من الجبال العالية الخضراء، و الوديان الواسعة الممتدة بالأشجار و الأزهار، و الأنهار الجارية المتدفقة بالماء الزلال، و البحار المتموجة ذات الأمواج الزاخرة كالجبال. في تلك اللمحات ينسى نفسه كأنه في نشوة و سكر، و لكن المؤمن الحق لا ينسى آيات اللّه المليئة في الكون حتى في حالة السكر و الفناء فنفسه تصحو و تستيقظ و تتذكر أنها آية من آيات اللّه "إن في خلق

السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون اللّه قياماً و قعوداً و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار" فآيات اللّه في الكون ترقق شعور المؤمن كما تقربه إلى اللّه عز و جل، ففي تلك اللمحات النادرة حين تفيض قريحة الشاعر و الفنان يكون شعرا عالميا خالدا كما يكون أدبا رفيعا انسانيا حيا.

هنا يسعدني أن أكتب نبذة من حياة أبي الحسن أو عن الأيام التي قضاها في مدينة دمشق الفيحاء ١٩٥٦م، إذ دعته الحكومة السورية استاذاً زائراً لإلقاء المحاضرات في جامعة دمشق لمدة شهرين، و كنت حينئذ طالباً في جامعة دمشق و كنت أسعى أن أتشرف بزيارة أستاذي صباحاً و مساءً. و أحاول أن أصاحبه في مقابلاته للكتاب و الأدباء و زيارته للعلماء و الشيوخ في المدينة، و كنا نخرج أحيانا إلى ضاحية المدينة متنزهين ماشين على الأقدام، و كان الأستاذ يسر و ينشرح كلما يخرج إلى ضواحي هذه المدينة الجميلة التي تحفها الجبال الخضراء، و تنفجر منها الينابيع و الشلالات، و يحفها نهر "بردة" حيث تنفرع منه ترع و قناواة تسقى كل بيت في المدينة، و تحتضنها الوديان الممتدة اللامتناهية بأشجار العنب و التفاح و المشمس و الزيتون كأنها بحيرة عظيمة انفصلت من البحر، و تبدو المدينة مع طلوع الشمس و غروبها كأنها ترقص في حلل البشر، فيقول لي أحيانا و هو ينصحني كما ينصح الأب إبنه، يا راشد أنت سعيد إذ وفقك اللّه أن تأتي إلى هذه البلاد و تنزل في هذه المدينة الجميلة و تدرس في جامعتها الشهيرة، فعليك أن تنتهز كل فرصة لتحصيل العلم و المعرفة اثناء قيامك فيها، و يقول لي أحيانا و نحن نتنزه لم أر مدينة أجمل

منها و لا أروع كم اتمنى أن اختارها مسكنا لي، و أنا أعتقد انه كان يقول هذه الجملة حينما يكون في غاية الانشراح و الانبساط بجمال المدينة و بهائها و تقدير الناس لشخصيته الجذابة و اقبالهم عليها. و لكني كنت ارى أن الأيام كلما تمر تبدو عليه آثار الملل و السأم، و أحس أن روحه بدأت ترفرف كأنها تحاول أن تطير إلى ارض قد طالت غيابها عنها و قد رأيت أنه حينما أكمل المدة المعينة التي جاء لها لا يريد أن يبقى دقيقة واحدة فيها بل يتمنى من صميم قلبه أن يعود إلى وطنه العزيز و يطمئن في داره المتواضعة في قريته "تكيه كلان" و دار الضيوف البسيطة المجاورة لمسجد دار العلوم ندوة العلماء في مدينة لكناؤ الهند.

الذي يدرس حياة العلامة السيد أبي الحسن دراسة تحليلية يجد أنه كان يقتبس القوة للعمل المستمر من القرية التي ولد فيها كما يقتبس العلم و المعرفة من المدرسة التي تعلم فيها و تثقف، و هي دار العلوم ندوة العلماء، فكان يعود إليهما بعد جولاته الطويلة الشاقة. و يطالع و يبحث موضوعات و يرتب المقالات و الكتب التي تناسب الظروف و الأحوال، و يملأ و فاضه بالعلم و المعرفة ثم يطير إلى أنحاء العالم ما طاب له الطيران و يقدم إليه ما عنده من الهدايا النادرة و التحف القيمة.

يكون سماحة الشيخ أبو الحسن في بيته في القرية أو يكون في دار الضيوف لندوة العلماء يراقب أحوال المسلمين و شئونهم في جميع أنحاء العالم، اثناء قيامه في دار العلوم يشرف على أمورها الادارية و التعليمية، يتصل بالأساتذة و الطلبة و يحدثهم عن انطباعاته و خواطره في الأسفار التي قطعها و عن الشخصيات العالمية التي قابلها و زارها، هكذا كان العلامة همزة وصل

بـين الـطلبة و الأساتذة و بين البلاد القريبة و البعيدة و بين الشخصيات العالمية فـي العلم و السياسة فتكونت بفضله جماعة تثقفت و تنورت و حملت لواء العلم و الأدب و تسير على آثاره و للّه الحمد أولا و أخيرا.



الشيخ أبو الحسن الندوي
في تعريفه لمسلمي الهند

بقلم: د/ محمد ثناء اللّه الندوي

للشيخ الندوي رصيد هائل للفكر ـ الشارح و الدعوى و المصلح على السواء ـ الذي أثرى مكتبة العالم الإسلامي، و خدمات جليلة حجة للمسلمين في الهند و خارجها، و هي خدمات قد لا يتمكن من إنجازها جيل كامل و حقبة زمنية كاملة. و من جلائل الأعمال التي اتحفها لنا الشيخ الندوي في ميدان السياسة و الاجتماع، و حدث و لا حرج عما أنتج قلمه في شرح تعاليم الإسلام و تحليل التاريخ الإسلامي، و سير عظماء الإسلام، و رجال الفكر و الدعوة، و الأدباء و الشعراء و ما أنتجه هو من أدب هادف بناء يرقق الشعور و يغذى الفكر و يهذب النفس و يبعث على مكارم الأخلاق، و يهدي إلى عوالم فسيحة من المذهب الإنساني المسلم، أو المسلم الإنساني، الجدير بكرامة الإنسان في كل زمان و مكان.

الشيخ الندوي في رحلاته في الشرق الأوسط و بخصوص في عام ١٩٥١م كان يواجه سؤالًا يتكرر و يوجه إليه في كل مجلس و في كل مناسبة: ما عدد المسلمين في الهند و "كان بعض الإخوان يسال: هل في الهند مساجد؟ هل فيها مدارس دينية؟ هل عندكم علماء؟ هل يوجد هناك من يحسن أن يقرء القرآن؟ هل هناك من يفهم العربية؟(١) و هذه الأسئلة كانت تدل على ضآلة معلومات العرب

عن الـهـنـد و المسلمين فيها، و كما يقول الشيخ الندوي نفسه: "و تدل كذلك على انـه قـد اثـير نفع كبير حول المسلمين في الهند، و تدل كذلك على تقصير علماء الـهـنـد فـي الـقيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم، و بهذه الأمة الإسلامية الـعـظيمة التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الإسلام و تاريخ العلم العام، و أضافت ثـروة ذات قـيـمـة عظيمة إلى مكتبة الإسلام العامة ..... و توفرت ببعض العلوم الإسـلامية التي كانت و لا تزال فيها الهند زعيمة العالم الإسلامي و حاملة لواءها عـدة قـرون، كـعلم الحديث و الفقه و أصوله، في القديم، و السيرة النبوية و علم الكلام و الدعوة إلى الإسلام في هذا العصر".(٢)

المكتبة العربية تعوز بحوثاً مركزة أو تعريفات أمينة للهند و مسلميها في الـغـالب، على اننا نجد عددًا من المتتبعين لأحوال الهند و المطلعين على آثارها الإسـلامـيـة و شـخـصـيـاتـهـا، و السيد جمال الدين الأفغاني نفسه كان قد تناول شـخـصـيـة هـنـدية كبيرة: السيد أحمد خان، و ألف رسالة بالفارسية بإسم "الرد على الدهريين" و ربما أساء فهم هذه الشخصية، و مجلة العروة الوثقى الصادرة من باريـس لـلـسـيـد الأفـغـانـي و الـشيخ محمد عبده نشرت مقالات عن الهند، و بـخـصـوص عن الـسـيـد أحـمـد خـان، تـتـهمه بالالحاد و التحريف في القرآن و الـفـسـاد فـي الـدين، و الأسـتـاذ الـدكـتـور مـحـمـد البهي ألف لنا كتاب "الفكر الإسـلامـي الـحـديـث و صـلـته بالاستعمار الغربي" كما نجد الأستاذ عبد المنعم الـنـمـر يـؤلف كتاب "كفاح المسلمين في تحرير الهند" و للأستاذ أحمد إبراهيم الـبـشـبـيـشـي كـتـاب "الهند خلال العصور" و الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤م) تـنـاول شخصيات هندية بالدراسة، مثل السيد أحمد خان و القاضي أمير علي في كـتـابـه "زعـمـاء الإصلاح في العصر الحديث" و طبعي أن تتناول هذه الدراسات جـوانـب خـاصـة من المسلمين في الهند، و ربما تسيء فهمهما، و القارئ تفوته أشياء مهمة.

على أن هناك شخصيات من الهند خلفت لابناء البلاد العربية مكتبة كاملة في تاريخ الهند و التعريف برجالها و مآثرهم العلمية و الأدبية و الثقافية، و من بين هذه الشخصيات: السيد غلام علي آزاد البلجرامي الذي الف لنا كتاب "سبحة المرجان في آثار هندوستان" في مجلدين، و منهم مؤرخ الهند الكبير العلامة عبد الحئ الحسني، و كتابه "نزهة الخواطر" في ثمانية مجلدات كبار يترجم لنحو خمسة آلاف من أعلام الهند، و له كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" و كتاب "الهند في العهد الإسلامي"، و منهم الأستاذ مسعود عالم الندوي الذي ألف كتاب "نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند و باكستان".

و لكن القارئ الإنكليزي يختلف من نظيره العربي كلياً، حيث يجد نفسه أمام مئآت من الكتب بين صغير و متوسط و كبير ألفت في اللغة الإنكليزية، و ألفها المسلمون و الهنادك و المستشرقون، قديماً و حديثاً، و لا يصادف القارئ موضوعاً أو نيل موضوع متصل بالهند إلا و يجد فيه عددا كبيرا من الكتب و المؤلفات و البحوث المركزة. (٣)

إن كثرة التساؤلات عن الهند: مسلميها، تاريخها، آثارها الإسلامية، في الرحلات في الدول العربية بعثت الشيخ الندوي أن يملأ هذا الفراغ، فالف كتابين في هذا الموضوع، و هما: "المسلمون في الهند" و "الدعوة الإسلامية في الهند و تطوراتها" و الباحث يجد في غضون مؤلفات أخرى للشيخ الندوي خذ نكات متصلة بالموضوع، منها نجد في كتبه "الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية" و "ربانية .... لا رهبانية" و "رجال الفكر و الدعوة" وغيرها.

منهج الشيخ الندوي:

المنهج الذي يتخذه المؤلف في التعريف بالمسلمين في الهند يختلف

جذرياً من منهج البحث العلماني الذي يدقق النظر في المعلومات و تفاصيلها المبطنة في طيات آلاف من الكتب المطبوعة و المخطوطة، و الذي يقوم بتحليل علمي باسلوب موضوعي و بمنطق الاستدلال العلمي و التاريخي، في ضوء الإحالات إلى المصادر العلمية و التاريخية، و على أن الشيخ الندوي يشرح الغرض من تأليفه قائلاً: "هذا الكتاب يتحدث عن الهند و عن إخوانهم ـ أي المسلمون في الشرق العربي ـ فيها قديماً و حديثاً، و يتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية والاجتماعية و الدينية، و عما أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها و ما أدخلوا عليها من إصلاحات، و تجديدات في مختلف نواحي الحياة، و عما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلامية، و ما زادوا إلى تراثها، و من نبغ فيها من العلماء الكبار و المؤلفين العظام، و عن مراكز نشاط المسلمين العلمي و الديني، و مراكزه الصغيرة في العصر الحاضر، و عن خصائص هذا الشعب و طبيعته و شخصيته و عن ماضيه و حاضره، و عن قضاياه الرئيسية و مشكلاته، عسى أن يكون حلقة ـ ظلت مفقودة زمناً طويلاً ـ في سلسلة تنوير الرآي العام و التزويد بالمعلومات الصحيحة، و في سبل التعارف الإسلامي"(٤) فالكتاب ينصف بالموضوع من وجهة نظر دعوية، و طبعي أن لا يهمه الخوض في التفاصيل التاريخية التي تكثر لدى الباحث المنهجي في التاريخ.

أراد المؤلف أن يتعرف القارئ العربي على أخيه المسلم الهندي: تاريخه و ثقافته و رصيده الفكري و العلمي و اتجاهه الديني و مهمته الدعوية و مشكلاته الخاصة، و قد لاحظ المؤلف شيئاً هاماً يسترعى الانتباه، لنستمع ذلك من الشيخ الندوي نفسه:"و يحملن على تقديم هذا الكتاب أيضاً أننا نلاحظ أن كثيراً من أقطاب السياسة و الثقافة و رجالات العالم الإسلامي و الشرق

العربي يزورون هذه البلاد كل عام، و يقضون فيها ما شاء الله من الوقت، و لا يهمهم أن يتصلوا بإخوانهم المسلمين ـ الذين أسهموا في بناء الحضارة و الثقافة الإسلاميتين العربيتين بسخاء و جدارة ـ و أن يعرفوا أوضاعهم السياسية و الثقافية و الدينية و ما يمثلونه أو يستطيعون ان يمثلوه من دور في حضارة هذه البلاد و حضارة العالم، و ما لهم من قضايا و مشكلات يعالجونها، كأنها بلاد ـ كاوروبا و اليابان ـ ليس فيها شعب مسلم، و ينصرفون إلى بلادهم لا يعرفون عن الشعب الإسلامي في الهند إلى معلومات ضئيلة سطحية مبعثرة، و قد يعرفون عن البونيين و الجينيين أكثر مما يعرفونه عن المسلمين الذين يشاركونهم في العقيدة و الثقافة و الحضارة، و الذين كانوا بناة الهند الجديدة و صانعيها، و الذين هم من أغنى شعوب العالم علماً و إنتاجاً و حكماً و إدارة و آثاراً و مخلفات، و لا يزالون مصدر قوة و أمل ... إلى هؤلاء و أولئك جميعاً أقدم هذا الكتاب".(٥)

و القارئ عند تصفحه لصفحات كتابي "المسلمون في الهند" و "الدعوة الإسلامية في الهند و تطوراتها" يصادف نفسه تطلع على الموضوع وفق المنهج و الغرض اللذين تبناهما الشيخ الندوي، و بذلك يتقمص كتاب "المسلمون في الهند" خير وثيقة في الموضوع.

أهم المعالجات:

أول سؤال يتبادر إلى الأذهان في موضوع المسلمين في الهند ـ ذاك القطر الضارب في الماضي العتيق، الشهير بثقافة الفيدا السنسكريتية و ديانة وثنية و آلهتها ـ مثل راما و كرشنا، و حروب مثل مهابهاراتا، و جبابرة مثل كورو و باندو، و علماء مثل آريابهتة و شعراء مثل كالي داس ... متى دخلها المسلمون؟

و كـيـف دخـلـوا؟ هـل دخلوها دخول ملوك يفسدون و يقتلون و يصلبون و يجعلون اعزة أهلها أذلة؟

الـمـنـهـج الـمـعـادي لـلإسـلام و المسلمين ـ المحبب لدى المتطرفين ـ لا يجيب على هذا السؤال إلا بالاحالة ـ الخاطئة ـ إلى سلطان واحد، لا غير، هو الـسـلـطـان محمود الغزنوي، و طبعي أن لا تنصف هذه الإجابة بالواقع التاريخي الـصـادق، فـالـسـلـطـان مـحـمـود الغزنوي و غزوه "و نهبه" للهند لا يمثل جميع الغزوات الإسلامية للهند، و لا يمثل لنا الصورة الحقيقبة للموضوع.

الـشـيـخ الـنـدوي يـهـمل الجزء الأول من السؤال: متى دخل المسلمون في الـهـنـد؟ فـعـنـصـر الـتاريخ فيه اكثر، و لكن كيف دخلها المسلمون؟ يرى الشيخ الـندوي أن المسلمين دخلوا في هذه البلاد: (١) دعاة مرشدين (٢) غزاة مجاهدين (٣) ملوكاً فاتحين (٤) علماء محققين.

فـالـمـسـلـمـون دخلوا في هذه البلاد حينما يدافع مجرد من كل مصلحة و مـنـفـعـة، ليحملوا إلى أهلها رسالة الإسلام الرحيمة العادلة، و ليخرجوا الناس من ضـيـق الـدنـيـا إلـى سـعـتـهـا، كـمـا فعل الدعاة المسلمون الذين ارتمى في أحـضـانـهـم مـئات من الأشقياء المعذبين، و أحبوهم أكثر من آباءهم و أولادهم، كـالـسيد علي الهجويرى و الشيخ معين الدين الأجميري و السيد علي بن الشهاب الـهـمـداني الـكـشميري. و حينما آخر دخلوها كغزاة فاتحين و ملوك طامحين، كـالـسـلـطـان مـحـمود الغزنوي و شهاب الدين محمد الغوري، و ظهير الدين بابر الـتـيـمـوري، و أسسوا دولة عظيمة خدمت البلاد و تقدّمت بها الهند في مختلف مجالات الحياة.

الـشـيخ الندوي يهمه الآن أن يعرف القارئ الفرق بين غزاة و غزاة، و ملوك و مـلـوك، فـهـنـاك فـارق كـبـيـر بـين الـغزاة المسلمين و المستعمرين الأجانب،

كـالإنـجليز و الفرنسين و البرتغالين الذين غزوا الهند في القرن السادس و السابع عـشـر الـمـيـلادي. إن الـغـزاة المسلمين كانوا مصممين على الإقامة في الهند، و عـلـى الاتـصال بها اتصالاً مباشراً مستمراً، معتقدين ان الأرض للّه يورثها من يـشـاء، و أن كـل مـا كـان لـلّـه من أرض و بـلاد فـهـو لـلمسلم عن طريق الخلافة و الـوصـايـة الـعـالـمية التي كلف بها المسلمون" فكانوا ينظرون إلى هذه البلاد كـوطن و مـدفن و مسكن، لا يبغون عنها حولا، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من نكاء و نبوغ و قوى و مواهب، و كانوا يعتقدون أن كل ما يضيفون إلى ثروتها، إنما يـضيفون إلى ثروتهم و يحسنون إلى أنفسهم و أجيالهم القادمة، لأنهم أهل البلاد و أنـه الـمـسـتـقـبـل، فـكـان نـظـرهم إلى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الأوروبـين الـمـسـتـعمرين، الذين يجلبون خيراتها إلى بلادهم الخاصة، و يحلبون الـبـلاد كبقرة مستعارة لا تقيم عندهم، و لا يجدون من بعد إليها سبيلا، و نلك سر عناية المسلمين بهذه البلاد و حرصهم على تقدمها و رفاهيتها". (٦)

كانت الهند تعتز بحضارة أصيلة عريقة في القدم و فلسفة عميقة و علوم رياضية دقيقة و خيرات عظيمة عندما دخلها المسلمون، و لكنها كانت منطوية عـلـى نـفـسـهـا، و عاشت قروناً طويلة في عالم محدود محصور، و حينما دخلها المسلمون و هو أرقى أمة في العالم المتمدن آنذاك. دخلوها يحملون ديناً جديداً، سـائـغـاً، مـعـقولاً، و علوماً اختمرت و توسعت و حضارة تهذبت و رقت حواشيها، و يحملون معهم محصول عقول كبيرة و نتاج حضارات منوعة متعددة، يجمعون بـين سـلامـة نوق الـعـرب و لـطـافـة حس الفرس و فروسية الترك. و يرى الشيخ الـنـدوي أن أغرب هدية و أطرفها حملها المسلمون إلى الهند هي: توحيد الإسلام الـنـقـي الـذي لا يـرى الـوسـاطـة بين العبد و ربه في العبادة و الدعاء، و لا يعترف بـالآلـهـة و الـمـظـاهر و حلول اللّه في بعض البشر أو الموجودات، و كان للإسلام تـأثـيـر عـمـيـق في الديانة الهندوكية و بخصوص في فكرة العبادة للّه في ديانة

بـهـكـتـى و دعـوة كـبـيـر داس، و هذه نقطة أشار إليها الباحث الهندي المعروف بانيكير في كتابه الشهير "استعراض للتاريخ الهندي"(٧).

و الهدية الثانية التي جاء بها الإسلام في الهند هي المساواة الإنسانية التي لـم يـكن لـلـهند يهديها، فتصور المساواة الإنسانية لن يجد مكاناً في نوع النظام الـطـبـقـي الـذي يـشـيد به ـ مثلا ـ منو الهندي في كتابه: "منو سمرتي" و هذه حـقـيـقـة قـررهـا جـواهـر لال نهرو رئيس وزراء الهند سابقاً في كتابه: "اكتشاف الهند"(٨)

و الهدية الثالثة هي احترام المرأة و الاعتراف بحقوقها و كرامتها، (٩).

الـشـيـخ الندوي يشير إلى العلوم الجديدة التي حملها المسلمون إلى الهند بـجـنـب الـعلوم الدينية، و منها: علم التاريخ، فقد كانت الهند فقيرة في التاريخ، و قـد قـال الـمؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون أن دور الهند التاريخي لم يبدأ إلّا بـعـد الـمـغـازي الإسـلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين، و يـنـكـر مـعـطـيـات سـلاطـين الـمسلمين و علماءهم الثقافي و الصناعي، مثل تـأسـيـس الـمـصـانـع في عهد ملك كجرات السلطان محمود بن محمد "بيكره" (م ٩١٧هـ) و تـأسـيس المستشفيات و دور العجزة و الحدائق العامة و المنتزهات و الترع الكبيرة و البرك العظيمة، و في كل هذا و ذاك يحيل الشيخ الندوي إلى ما كـتـبـه أبوه العلامة عبد الحئ الحسني في كتابيه "نزهة الخواطر" و "الهند في العهد الإسلامي" (١٠).

الـشـيـخ الـنـدوي يـؤكد لنا مراراً أن المسلمين في الهند أوفياء لوطنهم، لا يـتـشـاغلون عن خدمته و التقدم به في ميادين العلم و الصناعة و المدنية، و هم أوفـيـاء لـديـنـهـم و ثقافتهم الإسلامية لا يتخلفون عن ركبها و لا ينقطعون عنها،

و قد نراهم في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة و مأخذ الزمام، على أن "الجمع بين الثقافتين اللتين تتناقضان كثيراً و تلتقيان قليلاً، و إن الوفاء لوطنين ـ مادي و روحي ـ مهمة عسيرة، لا نعرف شعباً من شعوب العالم كلف بها، ثم نجح نجاح مسلمي الهند"(١١).

إن الوفاء للدين الإسلامي و الثقافة الإسلامية كان يتقاضى من المسلمين في الهند أن يولوا اللغة العربية عناية كبيرة، و حقاً إننا نجد هذه العناية الكبرى باللغة العربية لدى مسلمي الهند، حيث نجدهم قاموا بإثراء المكتبة العربية و الإسلامية برصيد تخطت شهرته و سارت به الركبان، الشيخ الندوي يذكر لنا من ذلك الرصيد كتباً مهمة ألفتها عبقرية الهند المسلمة، و يخص بالذكر عدداً من الأعلام و المؤلفين، نخبة من المتقدمين و عدد من معاصريه الذين نبغوا في العلوم و المعارف، و يجللهم بأجمل الجمل و أليق التكريم(١٢)، و يستطيع الشيخ الندوي أن يتحف ذهن القارئ بمعلومات رئيسية ترسم فيه صورة واضحة جلية للموضوع، على ذلك هذا الموضوع لا يستطيع الباحث أن يستوعب جوانبه المختلفة إلاّ في مجلدات كبار، فهناك آلاف من العلماء و المؤلفين الذين ألفوا الكتب و الرسائل باللغة العربية في الهند، في عشرات من المواضيع و أنواع من العلوم و الفنون: عالية و آلية على السواء، و يمكن أن نقدر الوضع في هذا بالاحالة إلى الدراسات المخصصة التي قام بها الباحثون في الموضوع ورائى الموسوعات أو أشباه الموسوعات التي ظهرت حتى الآن، مثل "تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين، و "معجم المؤلفين" لعمر رضا كحالة، و موسوعة كارل بروكلمان، و "نزهة الخواطر" للعلامة عبد الحئ الحسني، و "مساهمة الهند في اللغة العربية" للسيد زبيد أحمد ، وغيرها من الكتب و المؤلفات(١٣).

و يسلط الشيخ الندوي ضوءاً على المجلدات و الصحف العربية التي صدرت في الهند في فترات مختلفة، مثل مجلة "البيان" الشهرية الصادرة من

لـكـنـاؤ (لأصـحـابـهـا الـشيخ عبد اللّه عمادى و الأستاذ عبد الرزاق المليح آبادي الـنـدوي) و صـحـيـفـة "الـجامعة" الأسبوعية الصادرة من كولكتا، و كان رئيس تـحـريـرهـا مـولانـا أبو الكلام آزاد، و مجلة "الضياء" الشهرية الصادرة من ندوة العلماء، لكناؤ للأستاذ المرحوم مسعود عالم الندوي، و مجلة "البعث الإسلامي"، و جـريـدة "الـرائـد" الـصادرتان من ندوة العلماء، لكناؤ، و جريدة "الكفاح" التي تـصـدرهـا جـمعية علماء الهند من دلهي، و "صوت الأمة" التي تصدره الجامعة الـسـلـفـيـة ببـنـارس، و "دعـوة الـحـق" التي كانت تصدر من دار العلوم ديوبند و "الداعي" الصادرة الآن مكانها، و يشيد الشيخ الندوي بالدور الذي يمثله خريجو نـدوة الـعـلـمـاء فـي خـدمـة العلوم العربية و الإسلامية، قائلاً: "و قد خرجت دار الـعـلـوم الـتـابـعـة لـندوة العلماء طائفة من الكتاب البارعين في اللغة العربية، و أوجـدت نـشـاطـاً أدبـيـاً مـلـحوظاً في الهند، و محصولاً ذا قيمة أدبية لا يجمل لـمـؤرخ الأدب الـعربي أن يغفله إذا أراد أن يستوعب الحركة الأدبية في الأقطار الإسلامية و ينكر دارسها المختلفة"(١٤).

الـشـعـب الهندي شعب ممتاز، ضمن بقاء نبوغه في مختلف شعب الحياة و مـجـالاتـهـا و فـي أصناف العلوم و الفنون و الإدارة و السياسة، فهناك رجال في العلم و الدين و الإدارة و السياسة عن نظيرهم في العالم الإسلامي، و يتجمل بهم تاريخ الإسلام العام، مثل الحاكم العبقري شيرشاه السوري (م ٩٥٢هـ) و السلطان أورنـك زيـب عـالـمـكـيـر (م ١١١٨هـ) و الـسـلـطـان الـمحدث الفقيه مظفر حليم الـكـجراتي (م ٩٣٢هـ) من الملوك و السلاطين، و مثل الوزير عماد الدين الكيلاني الـشهير عجمود كاروان (م ٨٨٦هـ) و الوزير عبد العزيز الكجراتي المشهور بآصف خـان (م ٩٦١هـ) و الـوزيـر الأمـيـر صـاحـب الـسـيـف و القلم عبد الرحِيم بير خان (م ١٠٠٥هـ) من الـوزراء و من الـدعـاة الـمـجـددين الـشـيـخ أحـمـد بن عبد الأحد

السرهندي (م ١٠٣٤هـ) و السيد أحمد بن عرفان الشهيد (م ١٢٤٦هـ)، و الشيخ الندوي يؤرخ لكل من هؤلاء و يسجل لنا نبذة من أخبارهم التي تدل على نبوغهم و عبقريتهم في شتى ميادين العلم و الإدارة و السياسة و الدعوة الإسلامية(١٥).

المؤرخ الإسلامي و المتتبع لتطور الفنون الأدبية في الشعوب الإسلامية يلاحظ حقاً ما أصيب به العالم الإسلامي من انحطاط في التفكير و التأليف، بعد الغارة المغولية، و بذلك فقد الابداع و الابتكار، إلّا في النادر، و نجد هذا الانحطاط ملموساً في شكل واضح بعد القرن الثامن، حيث ساد الإعياء الفكري و الاسترخاء الأدبي في أكثر نواحيه، و احتل الأدب ذاك النوع من الأسلوب الذي تفردت بها المقامات لبديع الزمان الهمداني و أبي القاسم الحريري و كتابات القاضي الفاضل، و لم تكن الهند بمعزل عن مثل هذا التيار الذي لا يوصف إلا بالعقم، فجميع ما كتب في الهند في الزمن التالي نجده يرضخ تحت وطاءة هذا الكابوس، مهما كانت الكتابات في التفسير أو الحديث أو الفقه أو علم الكلام، أو الفلسفة أو الشروح أو الأغراض الأدبية الخاصة. اللّهم إلا شخصيات فذة و نابغين نابهين خرقوا هذا القانون في الهند و خارجها، مثل شخصية العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، و نبغت في الهند شخصيات لم يعجبها هذا المشوار، يقول الشيخ الندوي بهذا الخصوص: "وجد فيها في فترات كثيرة رجال يستحقون أن يعدوا من نوابغ الإسلام، و يبدو في مؤلفاتهم و أفطارهم شيء كثير من الابتكار و الابداع و الطرافة و الشذوذ عن الأسلوب المألوف المعروف في ذلك العصر، كالشيخ شرف الدين أحمد بن يحى المنيري البهاري (م ٧٧٢هـ) صاحب الرسائل البديعية في التربية و حقائق الشريعة، و الشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي اللّه الدهلوي (م ١١٧٦هـ) صاحب "حجة اللّه البالغة" و "إزالة الخفاء" و الشيخ رفيع الدين الدهلوي (م ١٢٣٣هـ) صاحب "أسرار المحبة" و "تكميل

الأذهـان" و الـشـيـخ إسـمـاعـيـل بن عـبـد الـغـنـي الـدهلوي (م ١٢٤٦هـ) صاحب "الـعبقات" و "منصب الإمامة" الذين يجد القارئ في رسائلهم و مؤلفاتهم كثيراً من الأفـكـار الـطريفة و التحقيقات الجديدة و الاستنباطات اللطيفة التي تخلو عـنـهـا كتب أكثر معاصريهم".(١٦) و يضيف قائلاً: "أما الثقافة العربية فلا يزال الـشـعب الهندي متمسكاً بها، محافظاً عليها، منتجاً فيها، و تدل الآثار و القرائن عـلـى تـكـون مـدرسـة أدبية خاصة فيها، في الأدب العربي و الكتابة الإسلامية، تجمع بين البراعة الأدبية و الإيمان العميق و الدعوة الصريحة القوية". (١٧)

الـلـغـة الـعـربية لغة الإسلام الرسمية، و لغة الثقافة الإسلامية العالمية، و طبعي أن لا يهملها شعب مسلم يسكن في الهند، و يهملها هذا الشعب المسلم، كـمـا رأينا، و هذا الشعب له لغة خاصة، لغته الأم، و المسألة ذات أبعاد منوعة، فـالـمسلم الهندي الذي يسكن في شمال الهند يتكلم اللغة الأردوية، و الذي يسكن فـي ولايـة بـنـجـال يـتكلم اللغة البنجالية، و ثالث يتكلم اللغة البنجابية ، و رابع يـتـكـلـم لغة من لغات جنوب الهند، و هكذا دواليك. فالمسلم الهندي يتكلم لغات عـديدة، و لأجل أن لغة دينية و ثقافته الدينية و فكره الإسلامي هي اللغة العربية فطبعي أن تؤثر هذه اللغة في عدد من اللغات الهندية التي يتكلم بها المسلمون، فـاللغة العربية مارست تأثير جذرياً عميقاً على اللغة الأردوية، أشهر و أرقى لغة هندية يتكلمها المسلمون.

الـشـيخ الندوي عالج هذا الموضوع في حديث أنيع من الإذاعة الهندية في دلـهـي من قسمها العربي، و شرح لنا عددًا من الكلمات ذات الأصل العربي و التي تـسـتـخـدم فـي الـلـغـات الـهـنـديـة، مـثـل "دام" (الدرهم) و "كيرانت" (قيراط) و "أشرفـي" (الأشـرف) و "فـيـرز" (الفراز) و "قليه" (قلية، بالتشديد) و "كباب" و "سـلـفـه" و قـالـين (الـقـالـى) و "راج" رئـيـس الـبـنـائـين (الراز) و "مسترى"

(المسطرى) و "خراد" (الخراط) و "ساهول" (شاقول)، الحديد الذي يربط في خيط طويل لتسوية الجدران، و "كنى، كونيا" (الكونية، أى الزاوية القائمة) و "قلعى" (القلعى، الرصاص الجديد) و "احدى" (احدى، الرجل الكسول الذي يقضى وقته في بطالة) و "تماشه" (التماشى) وغيرها من الكلمات.(١٨)

للشعب الهندي حضارة يعرفها الشيخ الندوي كحضارة إسلامية، معالجاً في مبدأ الأمر قضية الحضارة و عوامل تاليفها، إن الحضارة تتكون من مبادئ للحياة و الأخلاق، و الحضارة لا تكون في معزل عن التمأش المحلي و الاختلاط، و للمسلمين في الهند حضارة هي "يزيج من التاثير الهندي الإسلامي، و يبعث ذلك على الروعة و الجمال، و يضمن أن لن يعيشوا في البلاد كعابر سبيل أو غريب، بل أن يعيشوا فيها كمواطنين آمنين"(١٩).

الشيخ الندوي يصف حضارة المسلمين في الهند بكلمة "الحضارة الإبراهيمية" لها سمات ثلاث أساسية هي: الإيمان باللّه و استحضار ذاته و عقيدة التوحيد و التصور لشرف الإنسان و مساواته بصورة دائمة و إجبارية.(٢٠) و هناك سمات فرعية للحضارة الإبراهيمية، أمثال إعمال اليد اليمنى في الأمور الحسنة و الأكل بها، و شرب الماء بها، و الإعطاء و الأخذ بها، و قيود في اللبس، و تقدير الفنون الجميلة، و القرى و سعة الصدر و إطلاق اليدين،(٢١) و هذه آداب أثرت أثراً كبيراً في التقاليد الهندية، بل انحفت الهند و تراثها الحضاري و التمدني للمسلمين بهدايا ثمينة لا تنفك عن الحضارة الإسلامية الهندية، و أنها ملك يفتخر به، و لا نجد له نظيراً في الدول الإسلامية الأخرى، و هي مقاومة مسلمى الهند لتيارات الحضارة الغربية، و جمودهم في وجه غزوها العدواني بنجاح و قوة و حفظهم لكيانهم و شخصيتهم الممتازة و تفكيرهم العميق و تصوفهم، و كل ذلك نتيجة مختلف العوامل الاجتماعية

و الـفـكـريـة و الـحـضـاريـة التي ظلت تستمر جنورها في هذه البلاد منذ قرون، فـوضـعـوا أساساً لحضارة إسلامية هندية بديعة، و أوجدوا طبيعة كانت عصارة الحضارة الإسلامية العالمية و الحضارة الهندية و فلسفتها في وقت واحد"(٢٢).

إن الـشـعب المسلم الهندي حافظ على كيانه و شخصيته الإسلامية و دبر رسائل لتطوير رصيد الفكر و الثقافي عبر نظام خاص للتعليم و التربية، فأسس عـدداً كـبـيراً من المدارس و المعاهد التعليمية في القرى و المديريات و المدن، عـدد يـزيـد يـوماً فيوماً، و من مزايا المنهج للتعليم في تلك المدارس و المعاهد: الإخـلاص و الإيـثـار، و الـتـكـريـس عـلـى الـعمل، و الصلات الوثيقة بين الطلبة و الأسـاتـذة، و إصـلاح الـباطن و العلاقة مع رجال القلب، و بكل هذه الخصائص و الـمـيزات إن هذه المدارس و المعاهد الشعبية الدينية تكوّن شخصيتها مقابل الـجـامـعات و الكليات و المدارس و المعاهد الحكومية للتعليم و التربية، و التي تـبـنت منهجاً علمانياً، و تدرس العلوم و الفنون الحديثة من وجهة نظر علمانية، الـشـيـخ الـندوي يخص بالذكر عددًا من المدارس في الهند كان لها ـ و لا يزال ـ دور كـبـيـر فـي تـعـليم الشعب الهندي المسلم، مثل دار العلوم ديوبند، و مظاهر الـعـلـوم بسهارنفور، و المدرسة العالية في كولكاته و رامفور، و شمس الهدى في بـتـنـه، بـيـهار، و سلطان المدارس و المدرسة الناظمية و مدرسة الواعظين في لـكـنـاؤ لـلـشـيـعة الإمامية، و المدرسة النظامية بحيدرآباد، و جامعة دار الهدى بـكـريـم نـكـر، و جـامـعـة دار السلام بعمر آباد، و الباقيات الصالحات في ويلور، و الـمـدرسة السلفية ببنارس، و جامعة الفلاح، و جامعة الرشاد و بيت العلوم في أعظم كره، و الجامعة الرحمانية في مونكير، ببيهار(٢٣).

و هـنـاك مـدارس و جـامـعات مدنية تعلم أبناء المسلمين و شبابهم العلوم و خـيـراتـهـا و إدارتـهـا، مـنـهـا جـامـعـة على كره الإسلامية، و الجامعة الملية

الإسلامية بنيو دلهي، و الجامعة العثمانية بحيدرآباد، و تتوسط بين المدارس القديمة، و الجامعات المدنية دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي تأسست في لكناؤ في ١٣١٢هـ بيد الشيخ محمد علي المونكري و زملاءه المخلصين، الذين خافوا على المسلمين من المحافظين و المتطرفين، و من اعتزال العلماء عن الحياة، و تخلفهم عن ركب الثقافة و العلم، و من العصبيات المذهبية و المشاجرات الفقهية التي قويت و نشطت في العهد الأخير.

الشيخ الندوي من أبناء ندوة العلماء النابغين و النابهين، لنستمع إلى هذا النابغة يعرف لنا ندوة العلماء: "تأسسَت ندوة العلماء و دار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط و الاعتدال و الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع، و بين الدين الخالد الذي لا يتغير، و العلم الذي يتغير و يتطور و يتقدم، و بين طوائف اهل السنة التي لا تختلف في العقيدة و المنصوص، و قامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية، و أن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير و التجدد، فيجب أن يتناوله الإصلاح و التجديد، في كل عصر و مصر، و أن يزاد فيه و يحذف منه بحسب تطورات العصر و حاجات المسلمين و أحوالهم، عينت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم ـ الرسالة الخالدة و تدريسه ككتاب كل عصر و جيل، و عنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه و أمينة خزائنه، و وجهت عنايتها إلى تعليم هذه اللغة الكريمة كلغة حية من لغات البشر سيكتب بها و يخطب، لا كلغة أثرية دارسة لا تتجاوز الأحجار أو الأسفار، كما كان الشأن في الهند، و قللت قسط بعض العلوم القديمة التي لا تفيد كثيراً، و أبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينية و أمته، و اجتهدت أن تخرج رجالاً مبشرين بالدين الإسلامي الخالد لأهل العصر الجديد شارحين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها

أهل العصر و بأسلوب يستهوى القلوب، أمة وسطاً بين طرفى الجمود و الجحود، و قد نجحت في مهمتها نجاحاً لا يستهان بقيمته، فأنجبت رجالاً هم خير مثل للعالم المسلم العصري، لهم آثار جميلة خالدة في الأدب الإسلامي و علم التوحيد لأهل العصر الجديد، و السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة و السلام ـ و التاريخ:.(٢٤) حقاً، إن ندوة العلماء نجحت في مهمتها نجاحاً يعز مثيله من بين المدارس الشعبية الأخرى، بل و من بين الجامعات الحكومية في الهند، و شخصية الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي خير مثال لهذا النجاح في العصر الحديث.

الشيخ الندوي يتميز تفكيره و أسلوبه بميزة قلما تخلو كتاباته عنها، و هي: الانصاف بمعاصريه على كل حال، إنه لم يترفع في اي حال، و في أي زمن، و لم يقلل من شأن العلماء الذين عاصروه، أو الذين قاموا بخدمات لا يستهان بقيمتها في حياة المسلمين العلمية و التربوية و الدينية في الهند، في العصر الحديث، فالشيخ الندوي يشيد بالذكر لمدارس أخرى تأسست على طراز ندوة العلماء، مثل مدرسة الإصلاح في اعظم كره التي أسسها الشيخ حميد الدين الفراهي عام ١٩٠٩م، و "لهما عناية خاصة بالتفسير و فهم القرآن على طريقة مؤسسها الشيخ الفراهي"(٢٥) كما يذكر لنا المجامع العلمية التي لها خدمات جليلة في البحوث و التاليف، مثل دار المصنفين في أعظم كره التي تأسست في عام ١٩١٤م، و ندوة المصنفين التي نشأت في دلهي في عام ١٩٣٨م، و دائرة المعارف بحيدر آباد و التي تأسست عام ١٨٨٨م. و يذكر لنا من المكتبات العامة الهندية الشهيرة في العالم بكتبها النادرة و آثارها الثمينة و مخطوطاتها النادره: مكتبة خدا بخش في بتنه، و مكتبة رضا في رامفور و المكتبة الآصفية في حيدر آباد، و مكتبة مولانا آزاد في علي كره، و مكتبة دار العلوم ديوبند،

و مكتبة الشيخ ناصر حسين الكنتورى في لكناؤ، و مكتبة العلامة شبلي النعماني في لكناؤ.(٢٦)

كان للمسلمين دور كبير في تحرير الهند من براثن الاستعمار الإنجليزي، و المسلمون انفسهم كانوا ولاة البلاد و سادتها حين احتل الإنجليز هذه البلاد، و بدأ الأخطبوط الإنكليزي ينفث سمومه و يبتلع هذه البلاد قطعة قطعة و إمارة إمارة، و يسجل لنا الشيخ الندوي الدور الذي مثله المسلمون في مكافحة الإنجليز، بدأ من السلطان فتح علي خان الشهير بسلطان تيبو (١٢١٣هـ/١٧٩٩م) و كان للعلماء و المشائخ دور قيادي في حركة التحرير هذه، و أشهرهم مولانا أحمد الله و مولانا لياقت علي، و الحاج امداد الله التهانوي، و الشيخ محمد قاسم النانوتوي، و الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي و الحافظ محمد ضامن الشهيد، و المسلمون دفعوا ابهظ ثمن و أغلاه لهذا الجهاد، كما نجد في أمثال الشيخ يحى علي العظيم ابادي و شقيقه الشيخ أحمد الله العظيم آبادي، و الشيخ عبد الرحيم الصادق بوري، و الشيخ محمد جعفر التهانيسري و المفتي مظهر كريم الدريابادي و قد لعب نخبة من زعماء المسلمين و قادتهم دوراً عظيماً في هذا الجهاد، مثل مولانا أبو الكلام آزاد، و مولانا محمود الحسن الشيخ الهند الديوبندي، و مولانا محمد علي و شقيقه مولانا شوكت علي، و محمد علي جناح، وغيرهم (٢٧).

الشعب الهندي المسلم شعب ممتاز، ممتاز في سلوكه و طبيعته و اتجاهاته و منهج حياته، يرى الشيخ الندوي أن هذا الشعب يمتاز باتساع فكره و حرصه على الاتصال بالعلم و تمرده على حدود العنصرية و القومية الضيقة و الوطنية المحدودة و نزعته الدائمة إلى العالمية و الآفاقية، و ذلك سر اندفاعه إلى كل حركة ترمى إلى الوحدة الإنسانية و الجامعة الإسلامية"(٢٨) و يسجل لنا

المؤلف بحق أن: "من خصائص هذا الشعب الإسلامي الهندي شدة تعلق قلوب أفراد بمهد الإسلام و منزل الوحي و مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و الحنين إلى مكة و المدينة، فقد تغنى بذلك شعراءهم قديماً و حديثاً، و عاش الشعب الإسلامي الهندي في هذه الأمنية العزيزة اللذيذة العامة و الخاصة، حتى عرف ذلك عنه"(٢٩).

الشيخ الندوي في تعريفه للمسلمين في الهند و تاريخهم و مآثرهم و أعمالهم الجليلة يستطيع أن يرسم أمام القارئ صورة طلية رائعة تبهر الأبصار و تأثر القلوب، لأن القارئ يتعرف على شعب له رصيد حضاري و ثقافي و سياسي، و قد تفرد من ميزات تجعله إنساني النزعة العام و عالمي الأفق، فله تاريخ، بل هو صنع تاريخياً، و أثرى العلوم و الفنون، بل أصّل بعض العلوم الجديدة، و ألف آلافاً من الكتب، و شيد حصوناً و عمارات يتجمل بها التاريخ و الحال و المستقبل، و أسس مدارس محافظة و جامعات متحررة و مجامع علمية، و مكتبات تعرف في العالم بنوادرها، و دفع لحركة تحرير البلد أبهظ ثمن و أغلاه، و له "حضارة إبراهيمية" و فيه علماء يشبهون مجامع مستقلة في ذواتهم، و صوفية ملكوا أزمة القلوب، و فيه وطنيون مثل مولانا آزاد الذي في عهد رئاسته و تحت إشرافه و توجيهه نالت الهند الاستقلال" و لا يخطر في بال القارئ في تتبعه لهذا الشريط الرائع من الصور المبهرة أنه يمكن أن تكون مشكلات لهذا الشعب أيضاً، و لكن المؤلف يفاجاءه بحكاية مشكلات "يعانيها اليوم و يحاول حلها و التغلب عليها، كان بعضها نتيجة أخطائه ، و بعضها نتيجة رواسب الماضي و مخلفاته الفكرية و السياسية، و بعضها نتيجة وضع الأحوال و الحوادث التي مرت بها الهند في العهد الماضي" (٣٠)

و لا شك، فهناك مشكلات يواجهها الشعب الهندي المسلم، و الشيخ الندوي يذكر لنا أهم المشكلات، فالمشكلة الكبرى في نظره هي مشكلة الدعوة

الإسلامية، لقد انتشر الإسلام في الهند عن طريق الدعوة و الهداية، الدعوة الإسلامية أذعنت القلوب، قلوب الهنادك، و كان من الممكن المتوقع أن يصبح الإسلام ـ لو جرت الأمور مجراها الطبيعي ـ أعظم قوة في القارة الهندية، ثم أعظم قوة في آسيا، و هناك مشكلة الأحوال الشخصية، الحكومة الهندية تود أن تلغى قانون الأحوال الشخصية للمسلمين "على أن بقاء قانون الأحوال الشخصية هو الضمان الوحيد لتمسك المسلمين بصبغتهم الدينية، فإن التعليم الجديد و الثقافة القومية قد قضت على كثير من خصائصهم"(٣١) و هناك مشكلة التعليم، إن ديانة الأكثرية تريد أن تفرض شعائرها و آلهتها و مقدساتها و أساطيرها الدينية في المقررات الدراسية و التي تتنافى مع تعاليم الإسلام، بل هي تطعن في الشخصيات و المؤسسات الإسلامية، و هناك مشكلة اللغة الأردوية.

و مجموع هذه المشكلات تمخض جنيناً شريراً تخلق، و شب، فاصبح كابوساً مزعجاً، وليته في المنام! و لكنه في الواقع الشيخ الندوي يتخذ موقفاً متفلسفاً من هذا الواقع المؤلم، و مغزى هذا التفلسف أن هذه المشكلات ضرورية طبيعية، لأن البلد لم يسغ الجمهورية إساغة كاملة" هذه رؤوس المشكلات التي يعانيها الشعب المسلم الهندي في هذه الفترة التي لا بد منها لكل بلد بقى تحت الحكم الأجنبي مدة طويلة، و لم يسغ الجمهورية إساغة كاملة، و لم يتعوها بالمعنى الصحيح"(٣٢).

المشكلة أن مصطلح "الحكم الأجنبي" مشكلة في نفسه، صحيح أن الإنجليز كانوا أجانب و مستعمرين، و كان حكمهم أجنبيا، لكن هناك أفراد من الأكثرية المتطرفة الآن تعتبر آباء المسلمين الهنديين "أجانب" و حكمهم "أجنبي" و هذا هو السر في تعقد المسألة و تحولها إلى الغوزة طائفية لا يرضاها إلا التوتر و القتل و النهب و الاحراق.

دور سماحة الشيخ الندوي في حل قضايا المسلمين الهنود

بقلم: د/ جمشيد أحمد

أنجبت الهند العلماء و المفكرين و الأدباء البارزين في كل زمان، و يحتل سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه اللّه مكانة مرموقة من بينهم بمزاياه الخاصة و خلقه العالي و سلوكه المتميز. كانت شخصيته تحتوي على جوانب عديدة حيث كان عالماً ربانياً و مفكرا كبيرا و أديباً بارعاً و مفسراً جليلاً و محدثاً عظيماً و مصلحا بليغاً و زعيماً سياسياً. و حينما ندرس شخصيته الفذة يظهر انه كان كاملاً في جميع هذه الجوانب فيبدو أنه مفسر حينما يفسر الآيات القرآنية و محدث حينما يشرح الأحاديث النبوية و أديب بارع حينما يكتب الشذرات الأدبية و مفكر حينما يشرح الإسلام و زعيم سياسي حينما يتحدث عن قضايا المسلمين الهنود، يقول الأستاذ واضح رشيد الندوي مشيراً إلى هذه الميزة :"إنه كان مجموعة شخصيات امتزجت فيه مزايا زعماء الاصلاح و الارشاد و الذين أثروا التاريخ الإسلامي بمآثرهم، كان من ميزته أنه كان جامعا لهذه الشتات كان عالما محققا و مصلحا ربانيا مرشدا و إنه كان زعيما سياسيا يخوض معركة الحياة و يتخذ مواقف جرئية".(۱)

إن سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه ادى دورا كبيرا كزعيم سياسي حيث تحدث عن قضايا المسلمين الهنود و حلها بكل جراءة و وضوح و ما خاف في ذلك

لومة لائم و بذل أقصى جهوده الموفقة لحل القضايا المعقدة السياسية و الدينية حتى كما يقول الأستاذ واضح رشيد الندوي "قد أجبر الحكومة الهندية في مناسبات مختلفة على تغيير سياستها بل تغيير قوانينها و أحكامها بتدخله الشخصي".(٢)

إن مسلمي الهند يواجهون المشكلات العديدة منذ الاستقلال منها مشكلة الدعوة و مشكلة الأحوال الشخصية و مشكلة التعليم و المشكلة اللغوية و مشكلة الأمن و السلامة و المشكلة الاقتصادية و غير ذلك و لكن "المسألة الأساسية في الهند هي اعادة الحكومة إلى التمسك بالدستور العلماني و الحياد في السلوك مع مواطني البلاد أولا و إزالة الكراهية و العداء ضد المسلمين التي تتصاعد بنشاطات الحركات الطائفية ليعيشوا كمواطنين بدون خوف و ذعر و يشاركوا في تقدم البلاد و إصلاح أحوال المسلمين و تصحيح عقيدتهم و تعليمهم و توعيتهم و منعهم من اللجوء إلى أعمال طائشة تثير سخط رجال الحكم و الأغلبية"(٣) لان كل مشكلة يواجها المسلمون في الهند، هي نتيجة التهاون في تطبيق الدستور العلماني.

إن سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه قد أدرك مشكلات الأمة الإسلامية في الهند و كتب حولها في كتابه القيم "المسلمون في الهند" بكل بسط و تفصيل فيقول " و للشعب الإسلامي الهندي مشكلات يعانيها اليوم و يحاول حلها و التغلب عليها، و كان بعضها نتيجة أخطائه و بعضها نتيجة رواسب الماضي و مخلفاته الفكرية و السياسية و بعضها نتيجة وضع الاحوال و الحوادث التي مرت بها الهند في العهد الماضي و لا شك أن جميع هذه عارضة طارئة، ستنحل إذا أثبت الشعب الإسلامي جره و احتماله و عالج الأمور بحكمة و اناة و رفق و قدرت له القيادة الرشيدة المتزنة الجرئية".(٤) و إليكم نبذة ما يقول سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه عن مشكلات الأمة الإسلامية في الهند و حلها.

١ـ مشكلة الدعوة الإسلامية:

عـنـد سماحة الشيخ الندوي رحمه الله هي المشكلة الكبرى التي يواجهها المـسـلـمون في الهند اليوم لأن الدعوة الإسلامية لم تزل تعمل عملها و تبذل كل جـهـدها فلذلك دخل عدد كبير من غير المسلمين في الإسلام طوعا لما يمتاز به الـدين الإسـلامـي من المبادىء الحكيمة المعقولة و وجود عقيدة التوحيد النقية و الـعـدل و الـمـسـاواة و عـدم وجـود طـبـقـات مـتـفـاوتة إلى آخر عهد الحكومة الإنـجـلـيـزيـة لـكن حـيـنـمـا نـالـت الـهـنـد الاسـتقلال من الاستعمار البريطاني و صـارت بـلـدا عـلـمـانيا تواجهت الدعوة الإسلامية المشكلات العديدة فلذلك لم تـسـتطع أن تعمل عملها بكل حرية و سهولة فبطأت حركة الدعوة الإسلامية في الـهـنـد و لـم يـضـف إلى المجتمع الإسلامي الهندي دما جديدا إلا بقليل.(٥) أشار سـمـاحـة الـشيخ الندوي رحمه الله إلى أسباب بطء حركة الدعوة الإسلامية في الهند فقال:"و نشبت المعركة السياسية بين المسلمين و مواطينهم و حميت في الأيـام الأخـيـرة و تـوتـرت مـنـهـا قلوب الطائفتين و امتلأت ضغنا و حقدا وشكا و اتـسـعـت شقة الخلاف و كان من نتيجتها انفصال الطائفتين و انقسام الهند.... و لكن الذي يهمنا الآن أن هذا الوضع السياسي الذي جرت إليه الأحوال و الظروف أو لـجـأت إليه الهند طائعة أو مكرهة خلف مرارة في القلوب و شكا في قلب كل طـائـفـة بـالأخـرى و زهـدا و انـصـرافا عن كل ما تتسم به تلك الطائفة من دين و عـقـيـدة و ثـقـافـة و حـضـارة، بل و كراهة لما تتبناه و تتزعمه بطبيعة الحال و كـان ذلـك حـاجـزا كـبـيـرا فـي سـبيل انتشار الإسلام في الهند، لأنه دين الدولة الـمـتـنـافسة القائمة لها بالمرصاد و دين شعب قامت بينه و بين الشعب الهندي مـعـارك سـيـاسـيـة و حـروب طـائـفـيـة و مـناوشات كلامية، فيبعث ارتفاع عدد الـمـسـلمين نسبيا بالمواليد أو بدخول أفراد الطبقات المتخلفة المضطهدة في

الإسلام قلقا و خوفا في أوساط الأغلبية فيفكر بعض الزعماء في قمع نشاطات الدعوة و تحويل النسل.

اضف إلى ذلك أن الدول التي تتسمى بالإسلام و المجتمع الذي يدين بالإسلام على الحدود لا يمثلان مع الأسف في الأخلاق و السياسة ما يزيد ثقتهم بالإسلام و يبعث على اجلاله و اكباره"(٦) و لكن مع ذلك لم ييئس الشيخ الندوي من هذا الوضع الطارئ و يرجو أن الدعوة الإسلامية سترجع و تعود إلى ماضيها و تضيف دما جديدا إلى المجتمع الإسلامي الهندي و تمنحه مهتدين جددا سيثبتون نبوغهم و عبقريتهم في تقدم البلاد فيقول "لاشك أن امتداد الأيام و تحسّن العلاقة بين باكستان و الهند و تغلب العقل على العاطفة سجل هذه المشكلة و يبدأ الإسلام سيره و نشاطه من جديد إذا قام المسلمون بدعوة اسلامية رقيقة خالصة مخلصة لا تشوبها السياسة و الطموح و الكبرياء، دعوة لا تقصد إلّا هداية الناس و إسعاد النفوس و خدمة الخلق و النصح الخالص و الاشفاق على مصير بني آدم و تحفظهم من مهالك الدنيا و الآخرة و وفق المسلمون لاخراج كتب في شرح تعاليم الإسلام و عرض السيرة النبوية في اللغة الهندية و اللغات الاقليمية في أرقى أسلوب عصري و شكل جذاب و تغلغلوا في المجتمع الهندي بدعوتهم و أثبتوا تفوقهم الروحي و الخلقي و اخلاصهم و وفاءهم لبلادهم و حرصهم على تقدمها و رفاهيتها".(٧)

٢ ـ مشكلة الاحوال الشخصية:

إن بقاء الاحوال الشخصية لاي أمة هو مسئلة اساسية لحياتها أو موتها فيسعى كل قوم أن يحفظ أحواله الشخصية بأي قيمة فالمسلمون في الهند أيضا لم يزالوا يبذلون كل جهودهم في الحفاظ على احوالهم الشخصية، لان

بقاء الأحوال الشخصية و حفاظها هو ضمان للأمة الإسلامية الهندية بأن تعيش بمعتقداتها الصافية و ثقافتها العالية و لأن معنى الغاء الأحوال الشخصية هو نوبان الأمة الإسلامية في الهند. يقول سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه عن هذه المشكلة و أخطارها" و المشكلة الثانية التي تلي المشكلة الأولى و قد تفوقها في الخطورة و النتائج، لأن المشكلة الأولى إنما تقف سدا في سبيل انتشار الإسلام و توسعه، حين كانت المشكلة الثانية تهدد وجود الشعب المسلم باسلاميته و ثقافته و معتقداته".(٨)

أدى الشيخ الندوي دورا كبيرا في الحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية حينما تفاقم الوضع إثر صدور حكم من المحكمة العليا في قضية شاه بانو و محمد أحمد و اقتراحها بتنفيذ القانون المدني الموحد على جميع طبقات الشعب كليا مع أن الحكومة الهندية لم تتخذ اجراءا لتغيير قانون الأحوال الشخصية رغم الأصوات التي ترفع من حين لحين بدمج الأحوال الشخصية إلى القانون المدني الموحد. و خاف المسلمون على عقيدتهم و اسلاميتهم و تشخصهم فوقفوا صفا واحدا للاحتجاج ضد الحكم و اقتراح المحكمة العليا في قيادة الشيخ الندوي رحمه اللّه حتى كما يقول سماحة الشيخ رحمه اللّه "رضخت الحكومة لمطالب المسلمين و اتخذت مشروع القانون الخاص بحقوق المرأة رغم معارضة الأغلبية في البلاد التي شنت حملة ضد أي تعديل في الدستور، و قد هدأت هذه العاصفة باتخاذ التعديل و لكن لا تزال ترتفع أصوات بفرض قانون موحد للأحوال الشخصية و يواصل المسلمون كفاحهم لتخييب مثل هذه المطالبة"(٩).

أشار الأستاذ واضح رشيد الندوي إلى مجهوداته المهمة في الحفاظ على الأحوال الشخصية فقال "و كان لرسائله و لقاءاته الشخصية و محاولته لاقناعه

بقضية المرأة المسلمة المطلقة دور فعال في اجراء التعديل في قانون المراة المسلمة المطلقة"(١٠).

و يقول عن دوره كرئيس مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند "قاد هذه الحركة بمنهجه الخاص لعدم المجابهة مع الحكومة أو الأغلبية بل بتفهيم القضايا الإسلامية و الرجوع إلى الدستور العلماني و حل القضايا في المحكمة لا على الشوارع و بقرع أبواب القضاء و القانون بدلا من حركة المقاومة و وسائل العنف، إنه يرى أن تغيير القلوب و إثارة الضمير الإنساني خير من تغيير الحكام"(١١).

٣ـ مشكلة التعليم:

عند سماحة الشيخ الندوي هي المشكلة الثالثة التي يواجهها المسلمون الهنود حيث تبنى واضعوا المناهج الدراسية و مولفو الكتب المقررة للتدريس على الأسس التي تتنافى مع تعاليم الإسلام و تتناقض مع عقيدة التوحيد البسيطة فيصور هذا المنهج الدراسي الهند كما يقول سماحة الشيخ الندوي "كبلد ليس فيه ديانة غير الديانة البرهمية و معابدها و احتفالاتها و اعيادها و تقاليدها و مراكزها الدينية و الروحية"(١٢) كما اقتصر في الكتب الدراسية على شخصيات شعب خاص و ديانة خاصة فاعرض مؤلفوها ــ في تصميم و تفكير ــ عن الرجال الإسلاميين الذين ادوا دورا بارزا في تقدم البلاد و يتجمل بهم تاريخ الهند العام و لو ذكروا بعض الشخصيات الإسلامية فلم يود حقهم و لم يحسنوا تصويرهم و نسبوا إليهم ما يحط من شأنهم و ما كان للمسلمين أن يتعلم أولادهم، وفق هذا المنهج الدراسي الذي يبعث فيهم استهزاء الشعائر الإسلامية و يبعدهم عن الإسلام و يقربهم إلى الردة الدينية. فهو سبب

يبعث قلقاً عظيما و اشفاقا و حذرا في المجتمع الإسلامي الهندي فقاموا بسد هذا الباب لكى تحفظ عقيدة الأطفال المسلمين و إسلاميتهم و شعائرهم الدينية، فأسسوا المدارس و الكتاتيب و طلبوا من الحكومة أن تصلح برامج التعليم الرسمي و تسحب هذه الدروس التي تنافى مع العقيدة الإسلامية و تحافظ على علمانية المعارف كما يقررها الدستور، و عزموا على انشاء كتاتيب و مدارس تعلم أطفال المسلمين التعليم الديني في أوقات الفراغ و انشاء مدارس تعلم المناهج الدراسية المقبولة في المعارف مع مادة الديانة و اضافة دروس تعاليم الإسلام"(١٣) و كل ذلك في قيادة سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه فلعب الشيخ الندوي في هذا المجال دورا بارزا و بذل كل الجهد لتحقيق الأهداف التعليمية لأطفال المسلمين. أشار الأستاذ واضح رشيد الندوي إلى دوره في المجال فقال"شارك سماحته مشاركة فعالة في نشر التعليم الديني في المسلمين و تربيتهم تربية دينية لمنعهم من الذوبان في الثقافة اللّادينية، فكان من موسسي هيئة التعليم الديني و رئيسا لها، و تدير هذه الهيئة آلافا من الكتاتيب الدينية التي تدرس المقررات الدراسية العصرية بجانب الموضوعات الدينية"(١٤).

٤ ـ المشكلة اللغوية:

إن المسلمين في الهند ينطقون اللغة الأردوية التي نشأت باختلاط العناصر المختلفة من أهل الهند و كانت مجموعة من اللغات المختلفة فأصبحت "لغة تمثل القومية الهندية خير تمثيل و أصبحت لغة الجمهور و لغة الثقافة و العلوم و الآداب الرفيعة و الصحافة و السياسة و أصبحت أداة التفاهم بين الولايات الهندية و المناطق المختلفة التي لكل منها لغة محلية خاصة.... و هي اللغة الوحيدة التي يفهمها أكثر أهل الهند في كل منطقة و ولاية (١٥) لكن

هذه اللغة العذبة لم تحظ بالعناية اللائقة و المكانة التي تستحقها مع أن الدستور قد تكفل بصيانة كل لغة يتكلم بها عدد يعتد به.

٥ ـ المشكلة الاقتصادية:

هي مشكلة مهمة يواجهها أكثر المسلمين في الهند لها أثر بعيد في حياتهم فإنهم تخلفوا عن الركب في مجال الصناعة و التجارة و المناصب و الوظائف.

إن جميع المشكلات المذكورة التي يواجهها المسلمون في الهند فهي في الحقيقة مشكلة واحدة تتصل بعضها ببعض لو حلت واحدة منها انحلت كلها لذلك دعا الشيخ الندوي الأمة الإسلامية الهندية أن تتمسك بالدين و الشريعة فى كل حال.

إن سماحة الشيخ الندوي رحمه اللّه قد ادى دورا كبيرا في حل جميع المشكلات التي يواجهها المسلمون و قضى سائر حياته كما يقول الأستاذ سعيد الاعظمي الندوي "يستعرض أحوال المسلمين في كل مكان و ما يعيشونه من ضعف أو وهن و محن و يهتم بكل ذلك غاية الاهتمام و يفكر في إعداد الوسائل العفيفة التي تتكفل برفع معنويات المسلمين و انقاذهم من الأوضاع السيئة التي يعيشونها و يقتنعون بها."(١٦)

سلط الاستاذ واضح الرشيد الندوي الضوء على دور سماحة الشيخ في حل قضايا المسلمين بالتفصيل فقال"شعر سماحة العلامة الشيخ السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي خطورة الوضع، و أدرك بفراسته و دراسته للتاريخ و متابعته للأحداث أن مستقبل المسلمين في خطر إذا لم يتخذوا مجهودا جبارا لإزالة سوء الظن بهم و مكافحة الكراهية السائدة و الشحناء المتصاعد ضدهم و لم

تـبـدأ حـركـة لمعالجة النزاعات الطائفية باستمالة قلوب رجال الأغلبية و كسب تـائييدهم و ضمهم إلى صفوف القادة المسلمين و تحويل عطفهم إلى قضاياهم و حـمـلـهـم عـلـى الـعـمـل و الاجتهاد لمكافحة الكراهية الطائفية و مجابهتهم لاخـوانـهـم فـي الـعـقـيدة، و كان هذا الطريق الذي اختاره الشيخ الندوي يختلف اخـتـلافـا بـائـنـا عن طريق الزعماء المسلمين الآخرين الذين كانوا إما مسالمين مـتـسـامـحـين يـلازمـون الـصـمـت و إمـا مـتهورين يواجهون كل قضية بالعنف و الـمـجـابـهـة مع الأغلبية و رجال الحكم، و كان هذا الطريق يحدث مشاكل في سبيل حل قضايا المسلمين و يثير الكراهية في النفوس.

كـتـب سـمـاحته رسائل إلى كبار قادة البلاد و زعماء الحركات و المنظمات الـشـعـبـيـة و الاجـتماعية و السياسية و جمع المثقفين من رجال الأغلبية على مـنـابـر مـخـتـلـطـة الـعـنـاصـر، و حثهم على تفهم الظروف و مواجهة العناصر الـمـتـطرفة، فإن التطرف يعرض البلاد للحرب الأهلية لأن النظام و القانون إذا كـان فـي موضع الخطر فان الأعمال الانشائية و العملية و الأدبية لا تستطيع أن تـسـتـمـر، و اخـتـار سـمـاحـتـه أسلوب الاقناع و التفهيم و قدم نماذج من الخلق الانـسـانـي الـنـبـيـل و حـاول لأن يـحـدث في القلوب العواطف الانسانية و يمحو الـشـحـناء و الكراهية و خاطب الشعب الهندي كانه يتحرق لمستقبل البلاد و كأنه هو المنذر المخلص للوطن.

أقـام سـمـاحـتـه اتصالات بالحكام و كتب رسائل إلى كبار الوزراء و الحكام يـسـتـلـفـت انـتـبـاههم إلى ايجاد الوئام الطائفي في الهند و مكافحة الطائفية و الـعـنصرية و الفساد الخلقي، بعيدا عن كل نشاط سياسي حزبي، و التزم الحياد فـكـان يـقـيـم الاتصال بكل حاكم مهما كانت ميوله الحزبية أو السياسية و يبعد نـفسه عن كل اغراء مادي و سياسي و يثبت أنه لا يريد مقابل ذلك إلا النصـــــح

و لا يجرى وراء أى مصلحة مادية، و في الوقت نفسه واصل جهوده لتوعية المسلمين و تعليمهم و تربيتهم و معالجة قضاياهم و تهدئة اعصابهم و التوسط بينهم و بين الحكومة"(١٧).

ينتهي هذا المقال على قول الشيخ الندوي الذي أبدى فيه الرجاء أن تكون هذه المشكلات ستنتهي فيعيش المسلمون بكل اطمئنان و هدوء "هذه رؤوس المشكلات التي يعانيها الشعب المسلم الهندي في هذه الفترة التي لابد منها لكل بلد بقي تحت الحكم الاجنبي مدة طويلة و لم يسغ الجمهورية اساغة كاملة و لم يتعودها بالمعنى الصحيح و لكن نرجو أن هذه الفترة لا تطول لانها غير صالحة للبقاء في هذا العصر المتحرر الجمهوري و سيغلب العقل على العاطفة و الوعي السياسي على العصبية الطائفية و العقلية الضيقة، و حينئذ تنحل هذه المشكلات و ينال الشعب الاسلامي كل ما يستحقه من الحرية و الكرامة و المساواة كجزء من أجزاء هذا الوطن العزيز و ركن من أركان هذه النهضة المباركة، إذا أثبت جدارته و استقامته و صبره و اعتماده على اللّه، و للّه الامر من قبل و من بعد، و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه"(١٨).

الهوامش:

١ ـ الأستاذ واضح رشيد الندوي: العالم كله ينعى سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي، البعث الإسلامي (عدد ممتاز عن فقيد الأمة الإسلامية) المجلد الخامس و الأربعون، الاعداد ٤ ـ ٥ ـ ٦، نوالحجة ١٤٢٠ ـ محرم و صفر ١٤٢١، ص ٢٠

٢ ـ نفس المصدر ص ٢١

٣ ـ الأستاذ واضح رشيد الندوي: المنهج السياسي لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي و دوره في حل قضايا المسلمين في الهند، نفس المصدر، ص ٢٤

٤ ـ سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: المسلمون في الهند، ص ١٨٧

٥ ـ انظر للتفصيل: نفس المصدر ص ١٨٧ ـ ١٨٩

٦ ـ نفس المصدر: ص ١٨٩ ـ ١٩٠

٧ ـ نفس المصدر: ص ١٩١

٨ ـ نفس المصدر: ص ١٩١ ـ ١٩٢

٩ ـ نفس المصدر: ١٩٥

١٠ ـ الأستاذ واضح رشيد الندوي: المنهج السياسي لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: البعث الإسلامي (عدد ممتاز عن فقيد الأمة الإسلامية) المجلد الخامس و الأربعون، الاعداد ٤ ـ ٥ ـ ٦ ذو الحجة ١٤٢٠ ـ محرم و صفر ١٤٢١، ص ٢٤٧

١١ ـ نفس المصدر: ص ٢٤٩

١٢ ـ المسلمون في الهند: ص ١٩٧

١٣ ـ نفس المصدر: ص ١٩٩

١٤ ـ الأستاذ واضح رشيد الندوي: المنهج السياسي لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: البعث الإسلامي (عدد ممتاز) ص ٢٤٩

١٥ ـ المسلمون في الهند: ص ٢٠٠

١٦ ـ الأستاذ سعيد الاعظمي الندوي: فقيد الأمة الإسلامية و خسارة القدوة الإيمانية، البعث الإسلامي (عدد ممتاز) ص ١٣

١٧ ـ الأستاذ واضح رشيد الندوي: المنهج السياسي لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، نفس المصدر ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢

١٨ ـ المسلمون في الهند: ص ٢١٤



الشيخ أبو الحسن الندوي
و قضايا الأمة العربية

بقلم: الدكتور عبد الحليم عويس

ينطلق العلامة الشيخ أبو الحسن علي بن الشيخ عبد الحي بن السيد فخر الدين الحسني، المعروف بأبي الحسن علي الحسني الندوي (نسبة إلى ندوة العلماء دار العلماء بلكناؤ - الهند).. ينطلق في حبّه للعرب، و اهتمامه الكبير بقضاياهم من مجموعة من الحقائق الدينية و الحضارية و العرقية.

و نوضح في السطور التالية هذه الحقائق التي جذبت الشيخ الندوي إلى العرب..

لقد أرسل اللّه نبيه محمداً صلى اللّه عليه و سلم في الجزيرة العربية، و بعثه بعثة نبي، و لكن بعثته ـ كما يقول الشيخ الندوي ـ كانت بعثة مقرونة ببعثة أمة، بخلاف كثير من بعثات الأنبياء..

إنها كانت بعثة ثنائية!!

و هذا ما لا يفطن إليه كثير من المتأملين في القرآن الكريم!!

و إنني ـ و الحديث للشيخ الندوي ـ في دراسة مقارنات الديانات، و الكتب السماوية، لا أجد هذا الوصف الدقيق الشامل، و هذا الخط الفاصل بين أمة

و أمة، أمة قلّدت مسئولية ليس فوقها مسئولية إلاّ مسئولية النبوة فقط، فكانت بـعـثة النبي الكريم محمد صلى اللّه عليه و سلم بعثة مقرونة مشفوعة مرتبطة بـبـعـثة أمة، هذا هو الشيء الذي اثر في مصير الإنسانية، و كانت تجربة جديدة في تاريخ الديانات، و في تاريخ مصاير الامم، و في تاريخ الاتجاهات.

و فـي ضـوء هـذا، فـإن جـريـمة العرب في حق الإسلام ـ حين يتخلون عن رسالـتـه ـ جريمة جماعية، نلك لان بعثتهم بعثة جماعية، هكذا كانوا منذ نزل الـقـرآن يطلب منهم أن يحافظوا على شروط "خير أمة".. و حتى اليوم، فمازال العرب، و من خلفهم المسلمون، مدعويين للعودة إلى رسالتهم العامة، و ابتعاثهم الجماعي لملء الفراغ العالمي الكبير..

و بـتـحـديـد دقـيـق، و انطلاقاً من حبه الكبير للعرب، و من وعيه بحقيقة مـكـانـتهم يتوجه الشيخ الندوي بخطابه إلى العرب، مشيراً إلى الفراغ العالمي، و دور العرب في ملئه قائلاً في محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات العربية: "إن هـذا هـو الـفـراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني، و لا يملأ هذا الفراغ إلاّ المسلم، و لا تملأ هذا الفراغ إلاّ الأمة العربية الإسلامية".

و بالإضافة إلى هذا الباعث الإسلامي الحضاري ثمة باعث نفسي و عضوي آخر يدفع الشيخ الندوي للاهتمام الدءوب بالقضايا العربية..

فـالـشـيـخ أبو الـحـسن علي بن أحمد المعروف بعبد الحي بن السيد فخر الـديـن الـحسني، ينحدر من سلسلة النسب الكريم الذي ينتهي إلى أمير المؤمنين الـراشـد الـرابع عن طريق السيد محمد الثاني بن ابي محمد عبد اللّه الأشقر بن الـسـيـد محمد صاحب النفس الزكية، إبن عبد اللّه المحصن بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن أمير المؤمنين علي ابن إبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ.

و لقد كان هذا النسب الكريم الذي يملأ الشعور به كيان أفراد الأسرة سبيلاً للحفاظ على الخصائص العربية و الإسلامية و انتقالها من بطن إلى بطن عبر القرون..

و قد كان أفراد الأسرة يشعرون بأنهم ـ كما يذكر الدكتور السيد قدرة اللّه الحسيني ـ حماة للعقيد الإسلامية الصحيحة من التوحيد الخالص، و نبذ العقائد الشركية، و ما أكثرها في محيط المجتمع الهندي..

و كانوا يشعرون بأن عليهم أن يعتنوا عناية زائدة بالعلوم الدينية دراسة و تعليماً و نشراً..

و بأنهم يجب أن يكونوا السباقين في مجال الغيرة على الإسلام و الحماس في الدفاع عنه، و القيام بتحركات عسكرية و حركات جهادية إذا اقتضى الأمر ذلك.

و منذ برز اسم الشيخ أبي الحسن الندوي في الثلاثينات من القرن العشرين، و جهوده لم تتوقف أينما حل عن الصدع بالحق، حتى في عناوين الكتب و المحاضرات التي يوجهها للعرب، كانت هذه الصراحة واضحة.. و حسبنا عن عناوين هذه الكتب و المحاضرات أن نقدم العناوين التالية: ١ـ اسمعي يا مصر! ٢ ـ اسمعي يا سوريا! ٣ ـ المأساة الأخيرة في العالم العربي. ٤ ـ اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت). ٥ ـ اسمعوها من صريحة أيها العرب! ٦ ـ الخطر الأكبر على العالم العربي (عاصفة يواجهها العالم الإسلامي و العربي). ٧ ـ كيف يستعيد العرب مكانتهم؟

الشيخ الندوي و عودة العرب لقيادة سفينة الإنسانية:

احتل اهتمام الشيخ أبي الحسن الندوي بشخصية النبي الكريم محمد

صلـى اللّه علـيه و سلم و بالجيل العظيم الذي صنعه الرسول الكريم صلى اللّه علـيـه و سلـم من الـصحـابـة و التابعين و تابعي التابعين، و جلّهم من العرب، مساحة كبيرة من فكره!!

إن علـى هؤلاء الـعـرب ـ كـما يؤكد الشيخ الندوي ـ أن يدركوا أنهم بدون محـمد ـ عليه الصلام و السلام ـ و القرآن الكريم، ما كان بإمكانهم أن يصنعوا هذا التحول الخطير في التاريخ!!

و فـي كـثـير من المواضع كأن الشيخ الندوي ينقل للعرب كلمات جعفر بن أبي طـالـب رضـي اللّه عنه للنجاشي، وغيرها من تلك الكلمات التي تصف وضع الـعـرب قـبـل الإسـلام، و نلـك لكي يدرك العرب عظم التحول الذي أحدثه الإسلام فيهم.

و حـتـى عـنـد مـا يـتـحـدث الـشيخ الندوي عن أمجاد العرب العلمية إنما يـتـحـدث عنها كنفحة من نفحات النبوة المحمدية، و النبي الأمي، و نلك لتذكير العرب بهذا المجد حتى يعرفوا معالم الطريق المحدّد لهم للإقلاع الحضاري، فلا طريق لهم إلّا طريق محمد و الإسلام، و حتى الحماس العلمي العربي، إنما انبثق من الـنـبـوة الـمحمدية، و من تعاليمها، و بتوجيه الإسلام انطلقت حركة علمية عـالـمـيـة خـالـدة مـسـاحـتـها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية، و مساحتها الـمـكـانـيـة من أكـبـر المساحات المكانية، و مساحتها المعنوية أوسع من كلتا المساحتين.

و لـئن كـانـت أجـنـاس أخرى قـد سـيـطـرت عـلـى العالم عن طريق الغزو و الـغـلـب، أو عن طـريـق الـعبقرية العقلية، فإن العرب ما دخلوا التاريخ إلّا عن طـريـق الإسـلام وحـده، فـلـم يغرس اللّه حبهم في النفوس و القلوب، و لم تنتشر

لغتهم هذا الانتشار الواسع، و لم يكتب لها الخلود و البقاء، و لم تدون بها العلوم الكثيرة.. لم يتحقق كل ذلك إلاّ بفضل القرآن الكريم و الشريعة الإسلامية..

موقف العرب من المدنية الأوربية (المادية) في فكر الشيخ الندوي:

كان موقف العرب خلال القرنين الآخيرين من الحضارة الأوربية بشقيها المادي الشيوعي و المادي العلماني مناط اهتمام الشيخ أبي الحسن، فكراً، و حديثاً، و جهاداً، و دعوةً..

و كان يؤلمه أن هؤلاء العرب الذين حكمت قيمهم و علومهم الدنيا عشرة قرون، ينسحقون هذا الانسحاق الشنيع، و يركعون هذا الركوع الذليل المخجل ـ حكاماً و مثقفين ـ أما هذه المدنية الأوربية التي يسميها الشيخ (بالمسيح الدجال) غير مستوعبين لحقيقة القيم التي يملكونها، و الرسالة العالمية الربانية التي نيطت بها.

و كان كتاب الشيخ الندوي: "الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية" من أشمل و أعمق ما قدمه الفكر الإسلامي في فضح الفكرة الغربية، و في تتبع نواحي سقوط العرب ـ حكاماً مثقفين ـ في حبالها.

و مع أن الكتاب لم يكن محصوراً في الدائرة العربية، بل كان شاملاً لآفاق الصراع على امتداد العالم الإسلامي، إلاّ أن العالم العربي الذي لا يزيد سكانه عن سدس المسلمين قد أخذ حيّزاً من الكتاب يزيد في مساحته عن نصف الكتاب، إذا ما استثينا المساحة التي تتحدث عن قضايا فكرية، و تغريبية عامة، سواء في مجال تشخيص المرض، أم في مجال تأصيل علاجه من منظور إسلامي حضاري.

و هـذه الـمـساحة ـ في حد ذاتها ـ دليل قوي على ما يوليه الشيخ الندوي لقضايا العالم العربي في فكره.

و قـد كـانـت مـصـر أولـى الـبـلاد العربية التي تناولها كتابه السالف الذكر، و أشـار الـشـيـخ عـلـي مصر بحفر قناة ثقافية روحية هي أنفع للبشرية من قناة السويس، حيث تصل إرادة الشرق الضعيف باستطاعة الغرب التائه، و لكن مصر رغـم مـحـاولات الـمصلحين فيها كانت ضعيفة عن هذا الدور، بما صنعه تلامذة أوربا و روسـيـا فـي مـصـر و الـعـراق و سـوريـا و تـونس، من فساد و إفساد لهذا المشروع الحضاري الميمون!!

و فـي غـيـر موضع من كتبه يشخص الشيخ الندوي أسباب نجاح محاولات تـغريب المسلمين، و وسائل علاج هذا المرض الخبيث، و ينتهي إلى دعوة العرب و الـمـسـلـمين إلـى مـا يـسميه (بالموقف الثالث)، و هو الموقف الذي يأخذ من الـحـضـارة الـغـربـيـة بـعـض ما توصل إليه العلم و الصناعة بعيداً عن الأفكار و القيم و المفاهيم و المثل، و صبغ الحياة بطريقة مادية.

و لـقـد تـعددت دراسات الشيخ الندوي ضد هذه الغارة التغريبية و المادية، و هي لم تتقف عند حدود كتابه العظيم: "الصراع بين الفكرة الإسلامية، و الفكرة الـغـربـيـة"، بل أضاف إليها الشيخ دراساته التي نراها داخلة في صلب القضية، و مـنـهـا كـتـابـه عن: "روائـع إقـبـال"، و "ردة و لا أبـابـكر لها"، و حول "الإسلام و الـحـضـارة الإنـسـانـيـة و واقع العالم الإسلامي"و"حاجة البشرية إلى معرفة صـحـيـحة"، و"مجتمع إسلامي"، و"الأمة الإسلامية: وحدتها و وسطيتها و آفاق المستقبل".

الشيخ أبو الحسن الندوي و القومية العربية:

و في تحليل الشيخ الندوي لحركة القومية العربية، و عواقبها يرى انها أخطر من كل الحركات القومية التي ظهرت في العالم الإسلامي، لأن الأتراك، والإيرانيين، و الأكراد، و الأفغان، كانوا جزءاً من الملة الإسلامية، و يعد انحرافهم انحراف ملة، أما العرب فلم يكونوا ملة فحسب، و إنما كانوا منبع الدعوة الإسلامية، و حملة لوائها الأولين، و روادها السابقين، و كان بلدهم المنبع الأول للإسلام.

و يقول الأستاذ الندوي: لقد عقد اللّه بين العرب و الإسلام للأبد، و ربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عز للعرب إلا بالإسلام، و لا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلّا إذا قاد العرب ركبه و حملوا مشعله.

الشيخ أبو الحسن الندوي و قضية فلسطين:

كان موقفاً طبيعياً من داعية كبير يعيش الهموم العربية بكل كيانه، و يتفاعل معها تفاعل العربي المؤمن الملتزم، أن تكون قضية فلسطين، من القضايا الرئيسة التي يوليها الشيخ اهتمامه..

بيد أن معالجته للقضية الفلسطينية كانت تقوم على الرؤية الإسلامية التي ترى في هذه الكارثة نتيجة لا سبباً، و عقاباً إلهياً، لا أمراً ابتدائياً..

و يرى الشيخ الندوي أن قضية فلسطين سهلة هينة، و انتصار العرب مضمون، إذا كانوا أحراراً، متمردين على الشهوات، و مصممين على الكفاح و الجهاد.

الشيخ الندوي و أزمة الخليج:

على غير توقع من أحد، وقع ذلك الحادث المروع، الذي تمثل في هجوم

الـرئـيس الـعـراقـي صـدام حـسـين على الكويت في الثامن من أغسطس ١٩٩٠م مـجـهـضـاً كل محاولات وحدة الصف العربي التي يسعى في سبيلها أكابر الدعاة أمثال الشيخ أبي الحسن الندوي.

و كـعـادتـه يـحـلـل الـشـيـخ الـنـدوي الـحـدث الخطير من جوانبه الدينية و الخلقية و المبدئية، و يسميه: "المأساة الأخيرة في العالم العربي".

و لـقـد بـلـغ الـهمّ من الـشـيـخ الندوي كل مبلغ، فتراه يقول: لقد أقلق هذا الـحـادث ذهـنـي و فـكـري، و أقضّ مضجعي إلى حدّ لا أذكر أني تأثرت مثله قبل حـدوث هـذه الفاجعة في حياتي، لأني ـ و ذلك فضل اللّه و تقدير العزيز العظيم ـ مـنـذ أن تطورت في القدرة على الكتابة، الخطابة، و الدراسة، كرست ما كنت أمـلـكـه من قـدرة مـحـدودة لـلتعبير، و ما توفر لدى من وقت، على قضايا العالم العربي.

الـشـيـخ أبـو الـحـسـن الـنـدوي و مـحـاولات التفاعل مع القادة و المفكرين العرب:

عـلـى الـرغـم من أن أكـثـر الـحكام العرب لم يألفوا مراسلة الدعاة أو تلقى الـنصائح منهم، فقد أتيح للشيخ أبي الحسن الندوي، بأسلوبه الحكيم، أن ينصح كـثـيـراً مـنـهـم، سـواء بـطـريقة الالتقاء بهم مباشرة، أم بطريقة الكتابة إليهم، و كتابه رسائل الأعلام حافل بعدد من المراسلات المتبادلة بينه و بينهم.

و كـمـا كـان يـحـرص عـلـى أن تـكون (الدعوة) مناط أحاديثه مع الرؤساء و الـمفكرين، فكذلك، كان محور (الدعوة) مناط تركيزه في حواراته مع الـحـركـات الإسلامية.

إن الـشـيخ يرى ـ و قد ذكر ذلك بوضوح في خطابه لأقطاب هذه الـحركات ـ أن الـدعـوة هـي الـبـذرة، و أن الـوصـول إلـى التمكين السياسي في الأرض هو

الـثـمرة، و أن الاهتمام يجب أن يتجه إلى البذرة، و يترك أمر الثمرة للّه سبحانه يمنحها عند ما تتوافر الأهلية، و تتحقق الشروط.

و بـعـد: فهذه بعض آرائه في قضايا العالم العربي، و هي آراء مسلم ملتزم ثاقب الرؤية تنضح تحليلاته صدقاً و إخلاصاً و عمقاً..

فجزاه اللّه عن العرب و المسلمين خير الجزاء.

و صلى اللّه تعالى على خير خلقه محمد و على آله و صحبه أجمعين.



الشيـــــخ النـــــدوي

حامل لواء العربية في القارة الهندية

بقلم: الأستاذ محمد حسن بريغش

من أبـرز مـميـزات الـشـيـخ أبـو الـحـسن الـندوي شخصيته الموسوعية، و جـوانـبـه المتعددة: فهو العالم الداعية، و الأستاذ المربي، و المفكر و المثقف، و الأديب و الـمـؤرخ، و الـمصلح ...، و كل هذه الجوانب كانت تمثل ذلك النموذج الحي الإنساني، و الداعية الإسلامي الذي تجاوز محيط الموطن، و البلد، و اللغة، و القارة، و البيئة الخاصة، إلى العالم الرحب، و الإنسانية المكرّمة، و الدين الذي اختاره اللّه ليكون منهجاً للعالمين، و ديناً لبني البشر جميعاً.

الـكـثـيـرون من الـمـسلمين و الدعاة يتحدثون عن عالمية الإسلام، و لكن الـقـلـيـلـين مـنـهـم من يـسـتـطـيـع تـحقيق هذا المعنى في دعوته، و نشاطاته المختلفة: العلمية، و التربوية، و الفكرية، و الأدبية.

و الشيخ أبو الحسن الندوي ـ يرحمه اللّه تعالى ـ كان مثالاً لهذا النوع من الـعـلـمـاء و الدعاة، بثقافته الموسوعية الشاملة من ناحية، و عدم اقتصاره على دراسـة عـلـم واحد، و التخصص به، و كذلك بتوجهه إلى العالم الإسلامي كله من شـرقـه في الهند، و شعوب شرق آسيا، و إلى حدود المغرب الأقصى على شواطيء الأطـلـسـي، و من أوربـا و أمريكا إلى جنوب إفريقيا، و كتبه و أحاديثه و رحلاته، و موضوعات فكره و تراجمه تؤكد ذلك بصورة واضحة.

و كان لنشأة الشيخ في أسرة علم و فكر و دعوة و صلاح (١) اثر في حياته هذه، حيث بدأ اهتمامه بالكتب و القراءة و الطالعة، ثم الكتابة منذ نعومة أظفاره، و يبدو هذا الأثر كبيراً في تربية الشيخ و نشأته الدينية و الخلقية و العلمية، فأبوه السيد عبد الحي الحسني من العلماء، و الكتّاب المشهورين في الهند، و من كبار المؤلفين في القرن الرابع عشر الهجري، حيث ترك مؤلفات كثيرة أضحت مرجعاً للكتّاب و الباحثين، مثل كتابه: "نزهة الخواطر" الذي يعد موسوعة علمية تشتمل على تراجم نحو خمسة آلاف كاتب و عالم في الهند، و قد طبع الكتاب في مجمع اللغة العربية في دمشق في ثمانية مجلدات، و كذلك كتابه: "الثقافة الإسلامية في الهند" إلى جانب كتب كثيرة في التاريخ و الأدب و الطب، و بلغت مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتاباً في اللغات العربية و الأردية، و الفارسية (٢)، و أكثرها يعد مرجعاً في بابه، و يدل على علم و مواهب كثيرة.

و أمه السيدة خير النساء كانت من الفضليات، كانت تحفظ القرآن الكريم، و ذات ثقافة دينية جامعة، و تقول الشعر، و تحافظ على العبادات و الأذكار و الأدعية، و كانت كثيرة الدعاء، و قيام الليل، نُشرت لها عدة كتب، و مجموعات من الشعر، و هي من المربيات النادرات اللواتي، يعرفن كيف ينشئن أولادهن على الدين و الخلق و العلم و الاستقامة (٣)، و يذكر المؤلف كيف كانت والدته تحثه على أداء الصلوات الخمس، مهما كانت الظروف، و تحفظه سور القرآن الكريم، و تلقنه الكثير من الأمور بطريقة عملية.

و من ذلك أنها كانت لا تتساهل معه ـ بعد وفاة والده ـ إذا تعدّى على أبناء الخادم أو الخادمة أو أي طفل من أطفال الفقراء و المساكين، أو عامله بالعجب و الكبر، أو إهانة، أو احتقره، بل تعاقبه على ذلك، ثم تأمره بأن يطلب العفو من هذا الطفل المسكين، و يتصاغر أمامه، مهما كان ذلك، و لو شعر بالإهانة و جرح

الـكـرامـة، و بـهذا تربى الطفل على الخوف من العجب و الكبر و الظلم و العداء، و عـرف أن إيـذاء شـخـص و كسر قلبه و احتقاره كبيرة من الكبائر، و أصبح هذا الخلق بعد ذلك سبيلاً للاعتراف بالخطأ، و الإقرار بالغلط في جميع حياته.

و من الامـور الـتـي اثـرت فـيه أيضاً حرص والديه على أن يكون طعامهم حلالاً بعيداً كل البعد عن الحرام و الأموال المريبة (٤).

و إلـى جـانـب إتـقان الشيخ منذ الصغر للاردية، و تعلّم الفارسية، حرصت أسرته على تعليمه العربية، و بدأ ذلك في أواخر عام ١٩٢٤م (٥).

و تـولى تدريسه العربية أحد الأساتذة (الشيخ خليل بن محمد) الذي اختار كـتـابـاً من كتب القراءة المقررة في مصر لتعليمه مع طالب آخر العربية، و كان يـتـلـقـى هـذه الـدورس فـي البيت، و إلى جانب هذا الكتاب كان يختار لهما كتباً أخـرى، و يـعلمهم النحو من أحد الكتب القديمة السهلة، و كان هذا الأستاذ يلزم تـلـمـيـذيـه الـتـكلم بالعربية أثناء الدروس، فإذا تكلم أحدهما بالاردية، أو أخطأ بـالـعـربـيـة دفـع بـعـض الـفـلوس القليلة غرامة عن خطئه، و كان يحرص في تـعـلـيـمـهـمـا عـلـى صحة القراءة مع الفهم، و يلزمهما حفظ بعض النصوص الـشـعـريـة و الـنثرية، ثم اختار لهما بعض الكتب لقراءتها، و الاستزادة من فهم الـعـربـيـة و تنوقها، و الاطلاع على تراثها مثل كتاب: "نهج البلاغة"، و "مقامات الـحـريـري"، و "دلائـل الإعـجـاز"، و "الـقصائد العشر"، و يذكر الشيخ الندوي ــ يـرحـمـه اللّه ــ اثر معلمه: "و قدرته المدهشة في صبغ الطلاب بآرائه و أفكاره، و تأثيره الكبير فيهم، و نفخ الروح في الكتاب الذي يدرسه الطلاب، و إنشاء الذوق الـصـحيح، و الملكة الصالحة في الفن الذي يتناوله، و تقريب الطلاب إلى مؤلف الكتاب نوقاً و مسلكاً و مشرباً" (٦).

و كان الأستاذ، كما يصفه الندوي: "صاحب ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية و آدابها و لغتها، و نقل هذا التذوق إلى الطلاب"، و كان لهذه الميزة عند الأستاذ أثره الجم في تعلم الشيخ الندوي العربية، و تذوق آدابها، بل محبتها و إتقانها في وقت مبكر.

ثم قدر لهذا الطالب الناجح أن يقوم بصحبة أحد أقربائه برحلة إلى لاهور، كجائزة على نجاحه، و كرمز للسرور و التشجيع له، و كانت لاهور ـ آنذاك ـ اكبر مركز ثقافي و ادبي و صحافي في شبه القارة الهندية، و في هذه الرحلة التقى بالشاعر الكبير الدكتور محمد إقبال، الذي احتفى به، و قدمه قريبه للشخصيات العلمية هناك بانه ابن مؤلف كتاب "كُلِ رَعْنا"، و هو من كتب والده الذي يترجم فيه لكثير من الشعراء المجيدين بالاردية، حيث كان لهذا الكتاب شيوع و اهمية في الهند، و عرف الشاعر إقبال بأن هذا الفتى الصغير، و كان عمره آنذاك (ما بين ١٥ ـ ١٦/ سنة) قد ترجم بعض اشعاره نثراً للعربية.

و تعرف هناك إلى عدد من الأساتذة و العلماء، و لا سيما من كان مشهوراً بالعربية، و له مؤلفات كثيرة فيها، و منهم الأستاذ الدكتور محمد شفيع الذي نال لقب (نجم باكستان) فيما بعد، لمكانته العلمية و الأدبية.

و اطلع هذا الأستاذ الشهير على بعض مقالات الندوي آنذاك، و كتاباته بالعربية، ثم نصحه بأن يتخذ العربية موضوعه، و يركز عليها، و يختص بها.. و كان لهذه النصيحة أثرها ـ أيضاً ـ في ضلوع الشيخ بالعربية و إتقانها، و زيادة اهتمامه بها.

ثم استمر في دراسة الحديث الشريف، و التفسير، و بقية علوم الشريعة، حتى توسعت ثقافته، و ازدادت معارفه، و قويت لغته.

و من أهـم الأحداث التي عمقت فهمه للعربية و حبه لها قدوم الشيخ تقي الـدين الـهـلالي إلى دار العلوم في ندوة العلماء، و يصفه الشيخ الندوي بأنه: "من أساتـذة اللغة العربية، و فضلائها المعدودين الذين يحتج برأيهم، و حكمهم على صـحة الكلمات و أصالتها.."(٧) و أن نشر الطرق الصحيحة لتعليم العربية الذي بدأها أستاذه الأول الشيخ خليل، قد تمّ و بلغ كماله على يد الأستاذ الهلالي.

و اسـتـفـاد الـنـدوي من الـشـيخ الهلالي فائدة كبيرة، و استفاد من دروسه و مـجـالسه، و قرأ عليه ديوان النابغة، ثم تابع الندوي اطلاعه على كتب العربية، و دراسـة الأمـهـات من كـتـب الـنـثر و الشعر، و التراجم و النقد، و ابتدأ في ذلك الـوقـت بـكـتـابـة الـمـقالات، و ترجمة الموضوعات المهمة من الأردية للعربية، و نـشـر بـعـضـهـا في مجلة "الـمنار" التي كان يصدرها السيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده.

ثم توالت كتاباته في العربية التي نشرها في عدد من المجلات المشهورة، مثل: "المنار"، و "الفتح" التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب.

و بعد هذه الرحلة العلمية التي تتلمذ فيها على كبار العلماء و المربين في عـصـره عـين مـدرساً في ندوة العلماء في عام ١٩٣٤م، و كان عمره عشرين سنة، و كـان تـعـيـيـنـه فرصة لزيادة الاطلاع و القراءة على العلوم الإسلامية و العربية لإثـبات جدارته في التدريس، و زادت علاقته بالعربية و اهتمامه بالأدب عندما ما درّس تـاريـخ الأدب الـعـربي للسنة العالمية الأخيرة في ندوة العلماء، و كذلك في تـدريـسـه لـعـدد من الأبـواب الحديثية في صحيح البخاري، مثل: (كتاب الوحي، و كـتـاب الإيـمـان، و كـتـاب الـعلم)، و كان يشعر بلذة و متعة في شرح الأحاديث و تدريسها للطلاب.

و ألف في هذه المرحلة كتابه الشهير (سيرة السيد أحمد الشهيد) الذي نال شهرة، و قبولاً في الأوساط العلمية و الإسلامية.

و في عامي ١٩٣٤م و ١٩٣٥م زار للمرة الثانية و الأخيرة الشاعر محمد إقبال، و اطلع على شعره في ديوان (ضرب كليم) فزاد إعجابه بالشاعر، و تأثر بشعره، و عرف فيه سمو الأفكار، و جمال النغمة، و حلاوة الجرس.

كما اطلع على البحوث التي كتبت عن الشاعر، ثم كتب (روائع إقبال) الذي يوضح فيه سبب إعجابه بالشاعر، و تأثره بشعره بعد أن أصدره كموضوعات في مجلة "الفتح"، و اختار نماذج رائعة من شعر إقبال، و ترجمها بأسلوبه الأدبي الجيد.

و ازداد حبه للأدب، و العربية، و لذلك حرص في دار العلوم ندوة العلماء على إصلاح مناهج تدريس اللغة العربية في الكلية، و عمل على تأليف كتاب لمادة الأدب العربي يحتوي على مختارات من النصوص الأدبية الجميلة، و البعيدة عن التكلف اللفظي، و الحلي البديعية المتكلفة.

و تقديراً لجهوده في تعليم العربية، و اهتمامه بها، و كتابته فيها اختير في عام ١٩٥٧م عضواً في المجمع العلمي بدمشق الذي أصبح فيما بعد (مجمع اللغة العربية)، و لفت في مقال له في مجلة المجمع الحاجة إلى استعراض الأدب العربي و تاريخه استعراضاً جديداً، و استخراج كثير من النصوص الأدبية الجيدة التي لا تزال مغمورة و مطمورة تحت الركام، و دعا في هذه المقالة إلى الخروج من النظرة الضيقة للأدب، إلى نظرة شاملة تتنوق مختلف النصوص الأدبية من كتب التاريخ و التراجم و الحديث و السيرة.. إلخ، و ترجم هذه الآراء بما اختاره في كتاب المختارات لعدد من العلماء و الدعاة و الأدباء، مثل: الحسن البصري، و ابن السماك، و الغزالي، و ابن الجوزي، و البستي، و التوحيدي، و ابن

تـيـمية، و ابن القيم، و ابن خلدون، و عمر بن عبد العزيز، و الرافعي، و كرد علي، و سيد قطب، و الزيات، و علي الطنطاوي و غيرهم (٨).

و كـذلـك وضـع سـلـسـلـة من الـكـتب للمراحل الأولى في ندوة العلماء في العربية بدلاً من كتب القراءة التي كانت تُشترى من مصر، و تدرس للطلبة، و كان ذلك في عام ١٩٤٤م.

كـمـا ألـف في هذه الفترة "قصص النبيين" للأطفال، التي نجحت نجاحاً كـبـيـراً في حسن اختياره للألفاظ، و الأسلوب المناسب لسن الأطفال، فضلاً عن اخـتـيـار الـحـوادث و الموضوعات التي ترسخ مفهوم العقيدة الصحيحة، و حب الإسـلام، و عـمـق الإيـمـان، و كـره الـكـفـر و الشرك، و التزود بالسلوك، و الأخلاق الحسنة، و طُبع هذا الكتاب في أكثر بلدان العالم العربي طبعات كثيرة.

أخـتـتـم هـذه الـسلسلة بسيرة خاتم النبيين محمد صلى اللّه عليه و سلم بأسلوب جميل و بسيط يتلاءم مع سن الأطفال و الفتيان.

لـقـد كـان تـعـلّم الـشـيـخ الـندوي للعربية منذ صغره و إتقانه لها أثره في أسلوب تفكيره، و دعوته، و خروجه من إطار الإقليمية الضيقة إلى رحابة العالم الإسلامي، و بالتالي أصبح له شأن بين الدعاة، و الكتاب، و المفكرين الإسلاميين، و فـتـح ذلـك لـلـشـيـخ الندوي آفاقاً رحبةً ليخاطب المسلمين في جميع الأقطار الـعـربـيـة، و لـيـوثـق الصلة مع المصلحين و المفكرين و الأدباء في شتى أنحاء الـعـالم الإسلامي، بل دفعه ذلك لإنشاء المقالات المناسبة لمخاطبة شعوب الأمة الـعـربـيـة في الحجاز، و مصر، و الشام، و المغرب الغربي، و يعيد الشيخ الندوي هـذا الاهـتـمـام بـالـعـربـيـة، و النتائج التي حصل عليها لأخيه الأكبر الذي تولى تـربـيـتـه بـعـد وفـاة والده، و تركيزه على تثقيف أخيه الصغير بالثقافة العربية

الادبية، و هذا يدل على بعد نظر من أخيه، في الوقت الذي لم تكن هناك علاقات سياسية، و ثقافية، و اقتصادية بين الهند و العالم العربي، و لم يكن شأن للعربية في المدارس الإسلامية في الهند، و كان بعضهم يعد تعلّم العربية إضاعة للوقت.

و لكن نظرة أخيه المربي الثاقبة جعلت الشيخ الندوي يتقن العربية، ثم يبدأ الكتابة بالعربية، و مراسلة المجلات الشهيرة، ثم يقوم بالسفر إلى البلدان العربية مرات عديدة، و الاستفادة من هذه الرحلات فائدة عظيمة، حيث وجد فرصة لعرض آرائه، و التعبير عن مشاعره أمام الأوساط العلمية، و الأدبية، و الفكرية في العالم العربي، و مخاطبة كبار رجاله و العِلية من فضلائه و علمائه، و تبادل الآراء مع أصحاب الأقلام و المفكرين فيه (٩).

و نتج عن ذلك عدة مؤلفات حملت هذه الآراء، و جمعت المقالات و الموضوعات التي كتب فيها في هذه الفترة، مثل: (مختارات من العرب) الذي ألفه في عام ١٩٤٠م، و (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي ألفه في عام ١٩٤٤م، و كان له أثر كبير، و نال اهتماماً و عنايةً بالغةً لما تضمن من معلومات و آراء و حقائق بالغة الاهمية، و للأسلوب الأدبي المملوء بالصدق و الحماس و التدفق، كما كتب عدة رسائل، مثل: إلى ممثلي البلاد الإسلامية، أحاديث صريحة مع إخواننا العرب و المسلمين، ارتباط مصير الإنسانية و مسيرتها بقيام المسلمين بواجبهم، و أريد أن أتحدث إلى الإخوان، أسبوعان في المغرب الأقصى، الإسلام فوق القوميات و العصبيات، اسمعوها مني صريحة أيها العرب! اسمعي يا إيران! اسمعي يا زهرة الصحراء! اسمعي يا سورية! اسمعي يا مصر! أكبر خطر على العالم العربي المؤمرات و المخططات الدقيقة العميقة لقطع العرب عن الإسلام، إلى الراية المحمدية أيها العرب! بين الجباية و الهداية، بين الصورة و الحقيقة، بين العالم و جزيرة العرب، بين نظريتين،

تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية، دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية و إسعادها، دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء و تكوين الدعاة، و حماية الأقطار الإسلامية من التناقض و المجابهة، ردة و لا أبابكر لها، الطريق إلى المدينة المنورة، العرب و الإسلام، عاصفة يواجهها العالم الإسلامي و العربي، العرب يكتشفون أنفسهم، العوامل الأساسية في كارثة فلسطين، الفتح للعرب المسلمين، من دون أحد، من غار حراء، نحن الآن في المغرب، نظرة جديدة إلى التراث الأدبي، نفحات الإيمان بين صنعاء و عمان، مذكرات سائح في الشرق العربي، ثلاثة أيام في لبنان، و غيرها من الرسائل و الكتب و المقالات.

لقد كان لتعلمه العربية نتائج أخرى أفادت الدعوة و الفكر عموماً، كما أفادت في تبني تعليم العربية في ندوة العلماء، و في جميع المدارس و الجامعات الإسلامية في القارة الهندية، يهتمون بالعربية دراسة و تدريساً اهتمامهم باللغة الأردية، أو غيرها من اللغات الهندية.

و كان لتأثير الشيخ أبو الحسن الندوي ـ يرحمه اللّه ـ في ندوة العلماء و برامجها، و معه كثير من إخوانه و طلابه نتائج حسنة في ظهور دراسات و بحوث في اللغة العربية، و ترجمة العديد من الكتب و الأشعار من الأردية للعربية، و بالعكس و زيادة التقارب بين أبناء الدعوة في الهند، و الأقطار العربية، فضلاً عن إنشاء عدد من المجلات التي تصدر باللغة العربية، و تنشر الكثير من الموضوعات و البحوث المختلفة، و آخرها مجلة: "البعث الإسلامي"

إن اللغة العربية هي لغة كتاب اللّه عزّ و جل، و لغة رسول اللّه محمد صلى اللّه عليه و سلم، و لغة الحضارة الإسلامية الواسعة المتمثلة في الكنوز

الكثيرة من المؤلفات والمخطوطات في مختلف العلوم و المعارف.

و الاهتمام بها جزء من الاهتمام بهذا الدين، و الحرص عليه مرتبط ـ أيضاً ـ بالحرص على العقيدة و الدين.

و ما زالت أذكر و أنا أحضر حفلاً في مدينة (أورنغ آباد) في الهند، بمناسبة انعقاد ندوة أدبية، حيث وقف أحد الطلبة الصغار من القسم الإعدادي (المتوسط)، و ألقى كلمة في العربية لم يخطيء فيها بكلمة أو حرف أو حركة، كلمة بليغة مؤثرة جعلتني لا أتمالك نفسي من ذرف بعض الدموع تأثراً، و هو يقول: إننا نحب العربية، لا لأنها لغة الشعوب العربية، و لكن لأنها لغة القرآن الكريم، كتاب الله المنزل من السماء، و لغة رسول الله صلى الله عليه و سلم رسول رب العالمين.. و مضى في خطبته هذه يتحدث عن مزايا العربية و ارتباطها بالإسلام و أهميتها في مجال العلم.

فذكرت هذا، و أنا أرى و أسمع في العالم العربي، كيف تنتهك العربية على أيدي أبنائها، و كيف تهجر إلى العاميات و إلى اللغات الأخرى، افتتاناً و تنكراً و إثماً.

رحم الله الشيخ الندوي، حامل لواء العربية في القارة الهندية، و صاحب المؤلفات الكثيرة، و الداعية الذي امتد تأثيره على امتداد العالم الإسلامي كله، و العالم الزاهد الذي ترك للمسلمين كثيراً من الرسائل و المؤلفات التي مازالت تنبض بالإخلاص و الحياة، و تؤثر في العقول و القلوب.

الهوامش:

١ ـ في مسيرة الحياة: ج/١، ص/٦.

٢ ـ انظر كتاب: "العلامة السيد عبد الحي الحسني" تاليف الدكتور السيد قدرة اللّه الحسيني.

٣ ـ السابق: ص/١٧٥. و كتاب في مسيرة الحياة: ٤١/١.

٤ ـ في مسيرة الحياة: ٧٢/١ ـ ٧٣.

٥ ـ أي كان عمر الشيخ آنذاك عشر سنوات لانه ولد في ٦/ محرم الحرام ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٤م.

٦ ـ في مسيرة الحياة: ٧٩/١.

٧ ـ المرجع السابق ج/١، ص/٩٧.

٨ ـ انظر: كتاب مختارات من أدب العربي ـ للشيخ أبي الحسن الندوي.

٩ ـ في مسيرة الحياة: ج/١، ص/١٧٢ ـ ١٧٣.



النقد المعياري ..
عند الشيخ أبي الحسن الندوي

بقلم: أ. د. منجد مصطفى بهجت

النقد Criticism أو Critique لغة يقترن بمعان كثيرة، فهو: نقد الدراهم، أي تمييزها، و له معان أخر كثيرة تنكرها المعاجم. و أم اصطلاحاً، فله تعريفات كثيرة، منها: أنه تعبير عن موقف كلي متكامل في النظر إلى الفن عامة، أو إلى الشعر خاصة، يبدأ بالتذوق.. و يعبر منه إلى التفسير و التعليل و التحليل و التقويم، خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى، كي يتخذ الموقف منهجاً واضحاً، مؤصلاً على قواعد جزئية أو عامة، مؤيداً بقوة الملكة بعد قوة التمييز.

و أما المعياري في اليونانية Critierion(١)، فهو على صيغة "مفعال" التي تدل على اسم الآلة، مثل "المسبار" و "المكيال" و "الميزان".

و المعيار في لسان العرب من المكاييل(٢)، ما عُيّر، و العيار ما تمايزت به المكاييل، فالعيار صحيح واف، و عايرت به: أي سوّيته، و المعيار بالكسر العيار(٣).

يقال: عايروا ما بين مكاييلكم و موازينكم، و هو فاعلوا من العيار، و لا تقل عيّروا، و عيّرت الدنانير، و هو أن تلقي ديناراً ديناراً فتوازن به ديناراً ديناراً، و في المحيط: عيّر الدنانير، وزنها واحداً بعد واحد(٤).

و فرق الليث بين: عايرت، و عيّرت، فجعل عايرت في المكيال، و عيّرت في الميزان..(٥)، و جعل الرازي "عاير" في المكيال و الميزان و خطأ "عيّر"(٦) فالعيار و المعيار يلتقيان مع النقد في أنهما يختصان بالدراهم و الدنانير، ثم استعير المعنى للأدب بإصدار الأحكام عليه.

و لم أستطع الوقوف على كلمة "المعيار" مفردة أو مركبة "النقد المعياري" في كتب المصطلحات الأدبية المتوافرة بين أيدينا(٨). و أما لفظة "عيار" فقد جاءت في المعجم المفصل: و عيار الشعر: هو إذا عرض على الناقد الحصيف فقبله و اصطفاه، فيسمى الوافي، و إذا مجّه و لم يعجبه سمي ناقصاً، فعيار الشعر: الطبع، و النقاء، و الإيقاع، و الفهم، و سلامة الوزن، و صحة المعنى، و عذوبة اللفظ(٩).

و أقدم من استخدام لفظة "عيار" عنواناً لكتاب هو: ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، و قدّم معياره النقدي على أساس من التذوق الفني دون سواه، و أكد ضرورة ثقافة الشاعر، و اتباعه السنة العربية أو الموروث(١٠).

و يضع معيار الشعر المحكم المتقن، ذلك إذا نقض بناؤه، و جعل نثراً، لم تبطل فيه جدوة المعنى، و لم تفقد جزالة اللفظ(١١).

و المفهوم الأخير يطلق على "الأدب العالمي"، ذلك الأدب الذي لو نقل من لغته إلى لغات أخرى حافظ على قيمته و أهميته و تأثيره. و إذا انتقلنا إلى هذا المصطلح عند النقاد الغربيين، وجدنا أن T.C.Eliot استخدم المصطلح عنواناً لمجلة نقدية أصدرها لسنوات، و من الطريف حقاً أن يلتقي إليوت ـ مع فارق الزمن و النزعة الفكرية ـ مع ابن طباطبا في مفهوم الشعر في أهمية التراث، الذي سماه ابن طباطبا الموروث في النقد، و اتباع السنة، يقول إليوت: "فالحس

التاريخي يرغم المرء أن يكتب و هو لا يحس أن جيله بأكمله، يسكن في عظامه و حسب، بل أن يحس أن أدب أوروبة برمته، منذ هوميروس، و معه أدب بلاده برمته يقفان معاً، و يشكلان نظاماً في آن معاً، معه.

و لا يكتفي إليوت بهذا القيد على الشاعر، بل يسحبه على النقد كذلك "إن جزءاً من مهمة النقد هو الحفاظ على التراث، و أن مهمة الناقد أن ينظر إلى الأدب نظرة مستمرة، فيراه كاملاً واحداً"(١٢).

و لذلك خطّأ إليوت النقد الماصر له آنذاك في توجيهه نحو إيجاد مزايا ينفرد بها الشاعر عما سواه، و خطّأ محاوَلة فرز خصائص في الشعر تجعله متفرداً.

كيف نفسر هذا التشابه بين هذين الناقدين: الأصبهاني و الأمريكي، و ليس لدينا دليل على اطلاع المتأخر على ما كتبه السابق بحوالي ألف عام؟ و الراجح عندي أن أصالة الآراء النقدية تجعلها تلتقي و إن تباعدت بها الأزمان و الثقافات و الأعراق.. و الذي نريده بالنقد المعياري في بحثنا هو تجلية الأحكام النقدية ذات البعد المعياري، التي يمكن أن تكون مقاييس ثابتة و أحكاماً راجحة، في موضوعات الأدب عامة و الأدب العربي خاصة.

إن الشيخ الندوي يمكن أن يوازن بالنفر القلائل من العلماء، أمثال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، و ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، و ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) و ابن عبد البر (٤٦٣هـ) من حيث تنوع ثقافته، و إسهاماته المتنوعة في مجالات أصول الدين و مقارنة الأديان، و الكتاب و السنة و السيرة و التاريخ، و الدعوة و العقيدة، و الأدب و النقد، و قد أتاحت ثقافته المبكرة هذا التنوع، في خوض مجالات العلوم الشرعية و الإنسانية من باب واسع.

و يرى علي الطنطاوي أن معرفة الندوي باللغات الثلاث (العربية، و الاردية، و الإنجليزية) فضلاً عن الفارسية اتاح له أن يكون ثلاثة في واحد، و أنه جمع الفضل مثلثاً(١٣).

و ليس ادل على هذا التنوع، من الاطلاع على جهود الاخ محمد طارق زبير، في رسالته الصغيرة التي جاءت في تسع و ثلاثين صفحة، جمع فيها عناوين رسائل و كتب الشيخ، مرتبة على حروف المعجم(١٤)، و بلغت مؤلفاته مائة و ستة و سبعين بين رسالة و كتاب و بحث، و قد سلخ سبعين عاماً في التاليف، إنا علمنا أنه الف أول كتاب سنة ١٩٣٠، و كان في السنة السادسة عشرة من عمره، إذ أنه ولد سنة ١٩١٤م، و بقي على نلك حتى فارق الحياة ١٩٩٩م. حقاً لقد واصل كلال الليل بكلال النهار، و لا ينقطع عن الكتابة و حضور مؤتمرات رابطة الادب.

و لنا وقفة مع بواكير الاديب:

ـ ١٩٢٩ ترجم قصيدة القمر لمحمد إقبال(١٥).

ـ ١٩٣٠ نشر مقالته في مجلة المنار عن سيرة أحمد ابن عرفان الشهيد.

ـ ١٩٣٢ نشر مقالته عن القيمة الأدبية في الحديث النبوي.

ـ ١٩٣٤ نشر رسالته عن شاعر الهند أكبر الإله آبادي. فهو خلال السنوات الخمس الثانية من عقده الثاني يقدم أربعة أعمال أدبية، بما يدل ـ بشكل واضح ـ على النضج المبكر.

و البيئة التي أحاطت بالشيخ كان لها أثرها الكبير، و لا سيما البيت و "ندوة العلماء"، و العلماء الذين كانوا يقصدونها، أمثال تقي الدينَ الهلالي، و خليل بن محمد اليماني، و قد استمرت صلاته بالأول بعد ان ترك ندوة العلماء.

و فضلاً عن مؤلفاته المذكورة، لم يكن من العلماء الذاهلين عن مجتمعهم، بل تفاعل مع ما حوله على مستوى العالم الإسلامي تفاعلاً كاملاً، و انتصر لقضايا المسلمين السياسية و الثقافية بشكل واضح، من خلال المؤتمرات العالمية التي كان عضواً بارزاً فيها.

و لما كان عام ١٩٤٧م انفتح على العالم الإسلامي، برحلاته إلى دول آسيوية و إفريقية، و أوروبا و أمريكا، و ألقى المحاضرات في معظم الجامعات العالمية، و المؤسسات العلمية فيها، و منح الجوائز و شهادات التكريم من أكثر من جهة، و لم يكن حريصاً على الشهادات التي ربما قدح تسلمها في مروءته و شخصيته، و لهذا ترك بعضها و لم يتسلمها(١٦).

بين الأدب و النقد:

و نتوقف عند الشيخ بين الأدب و النقد، و كنت أشرت إلى أنه صاحب ثلاث نظريات، اثنتان في اللغة و الأدب، و ثالثة في تعليمها(١٧)، و النظرية مجموعة من الآراء و الأفكار القوية، و المنسقة و العميقة و المترابطة، و المستندة إلى نظرة في المعرفة أو فلسفة محددة، تدرس الظاهرة... في سبيل استنباط و تأصيل مفاهيم تبين حقيقته و آثاره(١٨) و إذا كان النقد تابعاً و لاحقاً بالأدب، إذ إن معظم المنظرين في اللغة و الأدب مارسوا النقد من خلال أحكامهم على النصوص التي كانت بين أيديهم، فإنك لا تستطيع أن تفصل بين معالم شخصية أبي الحسن أديبا و بين معالمها ناقداً، فقد تكاملت فيه الصفتان، و اجتمع فيه الأمران، و لنا أن نتساءل مجموعة من الأسئلة في محاولة للإجابة عليها:

ـ أكان الشيخ مبدعاً؟ و ما ميادين إبداعه؟

ـ أكان الشيخ ناقداً؟ و ما أبعاد ميادين نقده؟

ـ هل قدم نظرية نقدية متكاملة؟ و هل استطاع أن يقدم تطبيقات عليها؟

ـ ما المعايير النقدية التي اعتمدها؟ و ما خصائصها؟

و نـقـرر أولاً أن صورة الشيخ المبدع نستطيع التوصل إليها من خلال كتب الاخـتـيـارات فـضـلاً عن قـصـص الـنبيين التي ألفها للأطفال(١٩). و من ميادين الإبـداع إسـهـامـه فـي فـنون النثر الأخرى، مثل أدب الرحلات، و السيرة الذاتية، و أدب التراجم، و أدب التقديمات.

و لا يـقـع اهـتـمامنا في حديثنا هذا بجوانب الأديب المبدع، و لكن لا بأس من أن نـؤصـل أولية الشيخ الندوي في مجال التنظير للأدب، فهو تاريخياً أول من تـقـدم بـفـكـرة الأدب الإسـلامـي و أول من تبنى الدعوة إليه في العصر الحديث، و كـان هـذا فـي مـطـلـع حـيـاتـه حـين بلغ السادسة و العشرين حيث ألف كتاب مختارات من أدب العرب سنة ١٩٤٠م.

ثـم جـاء سيد قطب في مقالاته المنشورة سنة ١٩٢٥م، ثم جمعها في كتابه (في التاريخ.. فكرة و منهاج).

جاء شقيقه محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) سنة ١٩٦١م.

و بـعـده نـجـيـب الـكـيلاني في كتابه (الإسلامية و المذاهب الأدبية)، سنة ١٩٦٣م.

ثم عماد الدين خليل في (النقد الإسلامي المعاصر) سنة ١٩٦٣م (٢٠).

لـقـد واكـب الـشـيـخ حـركـة الأدب الإسـلامـي عـلـى الـمـستويين الفردي و الجماعي، الفردي من خلال مؤلفاته و كتاباته، و الجماعي من خلال إقامته أول مـؤتـمـر لـلأدب الإسلامي عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م و ذلك في ندوة العلماء بمدينة لكناؤ، و قد انتخب رئيساً للرابطة مدى الحياة.

ليس بين أيدينا كتاب نقدي خالص، له و لعل أبرز آرائه النقدية جاءت مبثوثة في كتابة نظرات في الأدب، و تأتي آراؤه الأخرى في دراساته الأدبية، و مع ذلك، فإن النظرية النقدية جاءت ذات معالم واضحة نستطيع ان نسجلها.

و يرى د. بن عيسي بطاهران الندوي كانت له نظرات نقدية جديدة في الأدب، فتحت أبواباً أمام الدارسين، و لفتت أنظارهم إلى الكثير من القضايا و المقاييس و القواعد في الأدب الإسلامي و نقده (٢١).

يرى الشيخ الندوي أن النقد للأدب بمثابة الميزان للعمل الأدبي (٢٢)، فهو يستخدم لتقويم عمل من الأعمال الأدبية و تقييمه (٢٣)، و هو ينفع لضبط الأعمال الأدبية، و قد بدأ العمل النقدي في العرب، و جرى بصورة طبعية خلال قرونهم الماضية، و يرى أن القرآن الكريم أفيد منه في تحديد قواعد منه، و استمر مترابطاً مع البلاغة.

كما يشير إلى التيارات الفكرية الجديدة التي غزت الفكر الإسلامي، و إلى طبيعة هذه الاتجاهات لدى الغرب، فقد كانت منبثقة أو منطبعة بطبيعة اتجاهات أبنائه، المادية و المسيحية، و العلمانية و الإلحادية بحكم حياتهم، و هي لا تتلاءم مع طبيعة العرب و اتجاهاتهم، التي انطبعت بالبيئة العربية، المختلفة طبيعياً و اجتماعياً و فكرياً عن طبيعة الحياة في الغرب، و انطبعت بالنظرة الإسلامية السارية في مجالات حياتهم. فإذن تفتقر القواعد النقدية لدى الغرب إلى النظرات فاحصة، تنقي النقد من لوثات لا تتلاءم مع طبيعة الحياة العربية، و اتجاهاتها الإسلامية.

و يقول في موضع آخر: "لقد مضى علينا قرون كامل، و أوروبا تغتصب شبابنا و عقولنا، و تنبت في عقولنا الشك و الإلحاد و النفاق، و عدم الثقة

بالـحـقـائـق الإيـمـانـيــة و الـغـيبية، و الإيمان بالفلسفات الجديدة، الاقتصادية و الـسـيـاسية، و نحن معرضون عن مقاومتها، معتمدون على ما عندنا من تراث، مـضـربـون عن الإنـتـاج الـجـديـد، حـتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي"(٢٤).

فـهـو يـؤكـد عـلـى أهمية قيادة العالم الأدبية، و تأتي هذه القيادة مقرونة بـالـعـلـم و الـفـكر، يقول: "إن القيادة العلمية و الفكرية و الأدبية للعالم كله من واجـبـات الـمـسـلـمين، و هي حق للأمة الإسلامية، و ماذا سيجرّ من شقاء و بلاء لـو تـخـلـت هـذه الأمـة عن مـنـصبها و دورها القيادي، و ما تلحق بها كذلك من خسائر و أخطار (الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض و فساد كبير) (٢٥).

و من الجوانب التي تكشف لنا عن شخصية الندوي النقدية، ثقافته الأدبية الـعـمـيـقـة، و تـذوقـه لـلـنـصـوص الأدبـيـة عـلـى اختلاف أنواعها، يقول الشيخ الطنطاوي في مقدمة مختارات من أدب العرب: "حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فـإذا هـو قـد نـفـض كـتـب الأدب و الـتـاريـخ نـفـضـاً، و حرثها حرثاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه"(٢٦).

و يـقـول مـحـمـد المجذوب:(٢٧) "و متتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأن لـعـبـارتـه الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب، الذين تعمقوا سر الكلمة، و تفاعلوا به، و كان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه، و تلك هي الخاصة الرئيسية..."

و لـقد وصف الشيخ الطنطاوي أسلوب الندوي بأنه (نغمة علوية)، "يا أخي الأسـتـاذ أبـا الـحـسن! لـقد كدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية"(٢٨).

أمـا الشيخ القرضاوي، فقد نوه بملكته الأدبية، و قلبه الحي ضمن خصال ستة، جعلها من المواهب و القدرات التي أعطيها الشيخ في دعوته(٢٩).

و من نـمـاذج الأمـثـلـة الـتـي تدلك على أن الشيخ أوتي ملكة و موهبة في الـتـذوق الأدبي، ــ و هـي أول خـطـوة في إدراك النقد ــ قوله يصف أسرار جمال الحديث النبوي: "ما ظنك ببشر، ذلّ بالقرآن لسانه، و امتزج القرآن بلحمه و دمه، و جـرى فيه مجرى الروح، و أخذ بقلبه، و استأثر بلبه، بل أشرب في قلبه القرآن، و تـمـكن منه ما اللّه أعلم به، فإن لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي ــ فكما قال أخـونـا الشاعر مصطفى صادق الرافعي ــ قد جاء من سبيله، و إن لم يكن له من دلـيـل، فـقد كان هو من دليله، قد عبّد له الوحي طريق الكلام و ذلّله كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً(٣٠).

النقد المعياري:

نـجـد الـنـقد المعياري عند القدماء(٣١)، كما يجيء عند المحدثين بأسماء مـخـتـلفة(٣٢)، و لا بد لنا ــ إذ نحن بصدد التوقف عند الأحكام النقدية المعيارية عـنـد الـشـيـخ أبـي الـحسن ــ أن نشير إلى جهود الباحثين في هذا المجال، فقد تـوقـف بن عـيـسـى باطاهر عند جوانب التأصيل الإسلامي للنقد، و وظيفة النقد الإسـلامي عند الشيخ، و صفات الناقد المسلم، و أن النقد وسيلة لا غاية، و القيم و أثرها في النقد الإسلامي، كما توقف عند نظرات الشيخ النقدية التطبيقية في الشعر و النثر(٣٣).

و سـاق فـي هـذه الـمـوضـوعات جوانب من نقدات الشيخ و آرائه. و جاءت الإشـارة إلـى آراء الـشـيـخ أبي الحسن النقدية عند أنور الجندي، في سياق تأصيل نظرية الأدب الإسلامي(٣٤).

و نبـه الـدكـتور عبد الباسط بدر إلى خصائص كتابة الشيخ الندوي، فرأى فـي نـظـراتـه فـي الأدب أنـها تنظير للأعراف و القواعد و المقاييس، و ريادة في دروب الأدب الإسلامي و نقده(٣٥).

و كان تعريف الشيخ المبكر للأدب الإسلامي:

"إنـه تـعـبـير عن الـحـيـاة، و عن الـشـعـور و الـوجـدان في أسلوب مفهم مؤثر"(٣٦).

و التعريف هنا لا يشير إلى الإسلام و علاقته بالأدب، لأن ذكر الإسلام متقدم فـي الـسـيـاق، و قـد عـلـق الـشـيـخ على تعريفه حينما سئل عن مصطلح الأدب الإسلامي فقال: "يعني عندي بمعناه الواسع الهادف البناء"(٣٧).

و أمـا مفهوم الأدب الإسلامي عنده على لسان رابطة الأدب الإسلامي، فهو: "التعبير الفني الهادف عن الحياة و الكون و الإنسان وفق التصور الإسلامي"(٣٨).

و يـرتـبـط مـفـهـوم الأدب الإسلامي في الإشارة إلى معالمه المهمة "ذلك الأدب الطبعي الذي يحمل الكلام المرسل، و التعبير البليغ، يحرك النفوس و يثير الإعجاب، و يوسع آفاق الفكر و يغري بالتقليد، و يبعث في النفس الثقة"(٣٩).

و لابـد لـلأديـب الـحـاذق أن يتشرب بلبان التراث العربي، الذي يحتوي على أنـفـس مـا انـتـجـتـه الـقـرائح البشرية، و أبدعته العقول السليمة، و فاضت به خواطر، و سالت به محابر، من أدب و شعر، و تاريخ و فن، و حكمة(٤٠).

"و أن الـمـكـتـبـة الأدبـيـة، تـكـاد تـكـون ركازاً أدبياً، تنتظر همماً عالية، و نـظـرات واسـعـة، و أيـدي أمينة قوية، و تصوراً للأدب صحيحاً واسعاً، و هياماً بـالـجـمـال و الـقـوة و الـحـيـاة، و بلاغة التعبير، و دقة التصوير، و مس القلوب،

و إثارة النفوس، و القدرة على تحريك العاطفة، و حاسة الجمال(٤١) و يرفض أن يسير الادب على خط واحد كما رسمه القدماء، و كان أحق بأن يتغير من الجمود و التقليد، و لا يقع فريسة العصبية التقليدية، و يصبح أسيراً للعادات و الرسوم، و في هذا ينكر محمد إقبال على المحافظين فيقول: "إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم"(٤٢).

و الجودة الفنية لا ترتبط بالأديب على إطلاقه، فالنظر يكون إلى ما قيل قبل النظر إلى من قال. جاء هذا في سياق الإنكار على الأوساط التعليمية و الادبية في الهند.

و نرى الكاتب الواحد يجود قلمه مرة، و يتراجع أخرى، إذا كتب في موضوع علمي أو ديني، و إذا تناول موضوعاً ادبياً تكلف الإنشاء.. فقد سقطت كتب (أطواق الذهب) و (المدهش) للزمخشري، و ابن القيم و ليس لهما أية قيمة.

أما (صيد الخاطر) و (تلبيس إبليس) و (المفصل) و (الكشاف) فهي جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء.

في الوقت نفسه يرى أن لعمالقة الادب و كباره فعالية و اثراً، في الشعراء و الأدباء الذين يأتون من بعدهم "فإن الأدب لا يقدر على التاثير حتى يكون وراءه شخصية قوية، تفرض أثرها، و تفرض فكرها، و مدرستها و منهج فكرها، على هذه اللغة و على الشعراء و الكتاب من أمثال مولانا جلال الدين الرومي (٦٧٢هـ) و الشيخ مصلح الدين الشيرازي(٦٩١هـ) و محمد إقبال(٤٣).

و أكثر ما يتجه الحديث في التجربة الشعورية، أو الفنية، و معايير النقد فيها تقوم على أربع: العاطفة، و المعنى، و الاسلوب، و الخيال(٤٤).

* * *

فـالـعـاطـفـة أو الانفعال و المشاعر عند الشيخ ركن ركين، و أساس هتين يـقـوم عـلـيـه الـعـمـل الأدبي، و الـعـاطفة و الطبع صنوان لا يفترقان، و ليست الـعـاطـفـة المطلوبة المجردة من المغزى و الهدف، فالنص الأدبي شعراً أو نثراً لابـد أن يـكـون فـاعـلاً و مـؤثـراً، ذا رسـالـة هادفة.. و يختار لنا قول محمد إقبال: "لا بـارك الـلّه فـي نسيم السحر، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور و الخمول، و الـذوي و الـذبـول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم و الأدب لوعة الحياة الـدائـمـة، و مـا قـيـمـة شـرارة تلتهب سريعاً و تنطفيء سريعاً؟ و ما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة، لا تحدث اضطراباً في الأمواج، و لا اضطراباً في البحار؟ لا نـهـضـة للأمم إلاّ بمعجزة، و لا خير في أدب و لا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى(٤٥).

و حـيـنـمـا تـحـدث عن رقة أشعار محمد إقبال يُبرز أهمية العاطفة "إنني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون، و لـه ضمير واع، و لـه نفس مرهفة الحس، و لـه عقيدة جازمة، يتألم بما يسبب الألم، و يفرح بما يثير السرور" (٤٦).

و نـتـأمـل فـي الـفـاظ الـقلب و الضمير و النفس و العقيدة، إذ هي مراكز الـعـاطـفـة، و لننظر في صفات القلب و الضمير "حنون و واع" و صفات النفس و العقيدة "مرهفة حازمة".

و عـلـى أن النقد الأدبي أفاض الحديث في الطبع و الصنعة، فإن المرزوقي (ت ٤٢٨هـ) يـخـتـصر ذلك فيقول في التفريق بينهما: "و الفرق بينهما أن الدواعي إذا قـامـت فـي الـنـفـوس، و حركت القرائح أعملت القلوب، و إذا جاشت العقول بمكنون ودائعها تبعت المعاني و درّت أخلافها"(٤٧).

و في مجال التطبيقي لهذا المعيار، يتجلى بوضوح حين يقتبس لنا من شعر محمد إقبال، و تبرز فيها بوضوح أهمية المشاعر و العاطفة، يجيب محمد إقبال الذين لاموه على توجهه على كبر سنه إلى المدينة "ياإخواني! الا تعرفون أن الطائر يهيم على وجهه في الصحراء، و يحلق في الفضاء، فإذا أدبر النهار، و أقبل الليل، تنكر و كره، و رفرف بجناحيه إلى وكره، يطير إليه ليأوي فيه، و المدينة وكر الروح، و وكر العقيدة، و وكر الإيمان... فكيف لا أطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي"(٤٨).

و يقرر ان سبب تفوق إقبال يعود إلى ثلاثة اسباب: قوة شخصيته، و قوة العقيدة و قوة العاطفة"(٤٩).

إن هذا الزخم من العواطف الذي امتاز به شعر إقبال جعل الندوي يعترف فيقول: "و اشهد على نفسي، أني كلما قرات شعره جاش خاطري، و ثارت عواطفي، و شعرت بدبيب المعاني و الاحاسيس في نفسي... و تلك قيمة شعره و أدبه في نظري"(٥٠).

و يعلل سر تفوق المدرسة الأدبية الإسلامية في الهند(٥١) في المديح النبوي، حيث يقول: إنهم لم يستطيعوا السفر لزيارة الرسول صلى اللّه عليه و سلم، فاستعاضوا عن السفر بالشعر، "و لم يزل السفر يزيد القلب و الشوق، و هو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيء و لا يعوقه شيء، و إذا امتلأت الكاس طفحت، و إذا طفحت فاضت، و لا بد أن يعقب الرّيّ السكر، و لا بد ان يعقب السكر التغني، و ما أجمل ما قال الشاعر العربي:

سقوني و قالوا: لا تغنّي و لو سقوا

جبال سُلَيْمَى مـا سُقيت لغنّت

و انجراف العاطفة عند بعض المذاهب أضعف أشعارهم"(٥٢).

و حين يحدثنا عن زيارته للرسول صلى اللّه عليه و سلم، لا يستطيع أن يعبر بالألفاظ و الكلمات، عن الأشواق و السرور و اللذة التي عاشها، " و في القلوب أشواق و لوعات، و في العيون دموع غزار، و على اللسان أبيات من الشوق و الحب، و قصائد في مديح النبي الكريم عليه أفضل الصلوات و التسليم"(٥٣).

و حين تحدث عن شاعرية ظفر علي خان، وصف أسلوبه بأنه يتدفق كتدفق العين المتفجرة(٥٤).

و اختار لرسالته (إلى ممثلي البلاد الإسلامية) نموذجاً جيداً للأدب الإسلامي الدعوي ـ على حد قوله ـ كان في رسالته حرارة و اندفاع، و لوعة قلب، و حرقة نفس، و دعوة إلى ثورة (٥٥).

لقد كانت العفوية و تجنب التكلف مبدأ لدى الشيخ الندوي في كتاباته، و قد التزمه في كتابه (في مسيرة الحياة)، فصرّح أنه حينما يتحدث عن قصة حياته الشخصية يتحدث "في غير ما تكلف و اهتمام"(٥٦).

***

و أما الركن الثاني: المعنى، فيطلق عليه المحدثون لفظ "المضمون".

حينما يتحدث عن إقبال: "إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو الطموح و الحب و الإيمان.. هذا المزيج الجميل في شعره و في رسالته.. و هي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب و رسالة، يبعثان الطموح و سمو النفس، و بُعد النظر، و الحرص على سيادة الإسلام"(٥٧).

و لا يصح للأديب المسلم أن يجمع بين الكتابة في الموضوعات الإسلامية و غير الإسلامية، و بذلك يفقد أدبه هزة في النفوس المسلمة، و تأثيراً في

القلوب المؤمنة، و قد وصف الدكتور طه حسين الذي خالفه الراي في كثير من الامور، بانه يحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده، و لا يتحمس له، و تلك صناعة لا يحسنها كل واحد(٥٨).

و وظيفة الادب و غايته، هو انه وسيلة بناء و إصلاح و خير، يؤثر في النفوس، و يغير في الاتجاهات و الميول، و يحدث الانقلاب في الأخلاق و العمل و التفكير(٥٩)، و اما ادب التسلية و الترفية. و ادب الغزل و المدح، فله قيمة في مكتبة الادب و في قلوبنا.. و لكنه ليس الكل، و ليس الغاية التي يقبل عليها الإنسان بالقلب(٦٠).

فالأدب ليس أداة تسلية و إلهاء نفس، و إزجاء وقت، أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء فحسب، إن الادب من بين أكبر الوسائل للوصول إلى الاهداف النبيلة، و للتاثير في النفس الإنسانية، و الحرص على سيادة الإسلام و تسخير الكون لصالحه، و السيطرة على النفس و الآفاق، و لإنعاش الإنسان و تنشيط مشاعر الإنسانية المعاصرة إلى خير الإنسان، و بناء حياته(٦١).

و من أسباب تاليفه (في مسيرة الحياة) ـ و هو كتاب ادبي يدخل في باب السيرة الذاتية ـ استعادة الذكريات، و التأمل في صنع اللّه، و تنكره قوله اللّه تعالى: [سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد] السجدة: ٥٣ (٦٢).

و من معايير النقد الحديث ما يؤيد منهج الندوي أنه يجمع الفائدة و المتعة، حين يؤدي العمل الأدبي وظيفته تادية ناجحة، فإن نغمتي "الفائدة و المتعة لا يجوز أن تتعايشا فقط، بل يجب أن تندمجا"(٦٣).

***

و أمـا الأسـلـوب و مـا يطلق عليه المحدثون الشكل، و ارتباطه بالعاطفة، فـيشير إليه بقوله: "التعبير الدقيق من خواطر و مشاعر، و وجدانات، و كيفيات نفسيه عميقة دقيقة، و وصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة"(٦٤).

و انسياب الأسلوب بعفوية مهم جداً، و لأجله رفع الشيخ الندوي دعوته إلى الـنـظـر فـي كـتب التراث، للوقوف على نصوص جديدة، ممثلة للأدب الحقيقي، فـيـه "عـربـيـة فنية، و أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة"(٦٥) و هذه القطع الأدبية تـتـفوق في "قوتها و حيويتها، و سلاستها و سلامتها، و في بلاغتها و جمال لغتها، على دواوين أدبية، و مجاميع و رسائل.."(٦٦).

"تـلـك الـقـطـع الـجـمـيـلـة مليئة بالحياة، بعيدة عن الشروط و الصفات، و التقاليد المفسدة له، الطامسة لنورده، التي لا بد فيها من السجع، و الصناعة، و البديع، و المحسنات اللفظية"(٦٧).

و يـرتـبـط بـالأسـلـوب عـنـايـة الـشيخ بالأدب المطبوع، و استثقاله للأدب المتكلف و المصنوع "إنه أدب طبعي و كلام مرسل، و تعبير بليغ"(٦٨) و يقول في موضع آخر: "الوصف الدقيق، و التعبير الرقيق، و عدم التكلف و الصناعة.."(٦٩)، و يشير إلى بلاغة الراوي العربي باقتداره على الوصف و التعبير و التصوير(٧٠).

و يـشـيـر إلـى قـطـعـة نـثـريـة أخـرى فـيقول: "لطيفة السبك، بارعة في التصوير"(٧١).

و يـثـنـي على ظفر علي خان، الذي كان من كبار شعراء عصره، فقد وصفه بـان لـه اقتداراً عجيباً على القوافي الصعبة، و البحور العويصة، و امتاز بجزالة اللفظ، و حلاوة الجرس (٧٢).

***

و يصل بنا الحديث إلى **العنصر الرابع** و هو الخيال، **فهو** جزء من الأسلوب، و وسيلة من وسائله القوية.

و يشير إلى أهمية الخيال في النص الأدبي، في المختارات التي اختاروها "تكون مادة لغوية، و منبعاً فيّاضاً للخيال، و التعبير و الكتابة"(٧٣).

و في موضع آخر يشير إلى الخيال بتعبير "القدرة البيانية"(٧٤).

و من جماع هذه الأركان الأربعة تتجلى لنا أبعاد التجربة الفنية و أركانها، فيقول: "كأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة، قد أبدع فيها الفنان، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان"(٧٥).

و بهذا نكون قد وقفنا عند أبعاد النقد المعياري عند الشيخ أبي الحسن الندوي، نسأل اللّه أن يتقبل منا عملنا و يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

هوامش:

١ ـ أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية و آدابها، كلية معارف الوحي و العلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

٢ ـ الأرض اليباب، ترجمة د. لؤلؤة، ص١٤، (ط٢، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت ١٩٩٥م).

٣ ـ لسان العرب، مادة "عير"

٤ ـ مختار الصحاح، مادة "عير"

٥ ـ المحيط، مادة "عير"

٦ ـ لسان العرب، مادة "عير"

٧ ـ مختار الصحاح مادة "عير"

٨ ـ ينظر، جبور عبد النور: المعجم الادبي، معجم المصطلحات الادبية، مجدي و هبة، و كامل المهندس.

٩ ـ المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، ٦٦٥/٢

١٠ ـ بتحقيق الدكتور طه الحاجري، و الدكتور زغلول سلام، القاهرة ١٩٥٦م، و ينظر تاريخ النقد الادبي، إحسان عباس، ص١٢٤.

١١ ـ المرجع نفسه، ص٧، و ينظر تاريخ النقد الادبي ص١٣٧.

١٢ ـ مقدمة الارض اليباب، د. عبد الواحد لؤلؤة ص١٤، و جاءت آراء اليوت هذه في دراسة مبكرة له، عنوانها "التراث و الموهبة الفردية".

١٣ ـ مقدمة "في مسيرة الحياة"، ١٢/١.

١٤ ـ مؤلفات سماحة الداعية الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي بالعربية، مكتبة حراء، لكهنؤ ١٩٩٨.

١٥ ـ في مسيرة الحياة ١٢٨/١.

١٦ ـ ينظر في حياته و البيئة العلمية "في مسيرة الحياة"، ٤٤/١ و ما بعدها.

١٧ ـ ينظر مقالنا في مجلة المجتمع: أبو الحسن الندوي الداعية الأديب، العدد ١٣٨٦، ص٥٢.

١٨ ـ في نظرية الأدب، ص١٣ (د. شكري عزيز الماضي، ط١، ١٩٨٦م).

١٩ ـ من كتبه التي تضمنت آراءه الأدبية، "شخصيات و كتب"، و "الطريق إلى المدينة"، و "روائع إقبال".

٢٠ ـ جهود الشيخ أبي الحسن الندوي، ص ٤٦ ــ ٤٧.

٢١ ـ الأدب الإسلامي و نقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي ص ٨٨ مجلة إسلامية المعرفة العدد ١٢ سنة ١٩٩٨م.

٢٢ ـ من كلمته التي أرسلها إلى الملتقى الدولي الثاني للأدب الإسلامي في الدار البيضاء ١٢ ــ ١٥/ أبريل/١٩٩٨م، مجلة الأدب الإسلامي، العدد١٨، ص١٠٤.

٢٣ ـ يستخدم الشيخ لفظ "تقويم" و "تقديم"، و كأنه يفرق بينهما في الدلالة المعجمية،

و ليس الامر واضحاً في المعاجم العربية في هذا التفريق.

٢٤ ـ الإسلاميات بين كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين، ص٨٠، نقلاً عن بحث بن عيسى باطاهر، إسلامية المعرفة، العدد ١٩٩٨/١٢م.

٢٥ ـ من خطابه الختامي في مؤتمر رابطة الادب الإسلامي في جامعة الهداية، جي فور ٢٢ ـ ٢٣ يونيو ١٩٨٦م، "في مسيرة الحياة". ١٦٧/٢.

٢٦ ـ مقدمة "مختارات من أدب العرب"،٦/١.

٢٧ ـ علماء و مفكرون عرفتهم، ١٤٦/١.

٢٨ ـ مقدمة كتابه "الطريق إلى المدينة".

٢٩ ـ مجلة البعث الإسلامي، ع١، مجلد ٤٢، رمضان ١٤١٧هـ.

٣٠ ـ جهود الشيخ أبي الحسن الندوي، ص١٥٢.

٣١ ـ تناول النقد القديم ضروباً من النقد المعياري، و لعل انضجها ما عرف بـ"عمود الشعر" الذي تناوله الامدي (ت ٣٧٠هـ) و الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، ثم استكمل على يد المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، فقد حدده بسبعة شروط، ثم وضع لكل شرط معياراً، يقول: "انهم كانوا يحاولون شرف المعنى و صحته، و جزالة اللفظ و استقامته، و الإصابة في الوصف، و من اجتماع هذه الثلاثة، كثرت سوائر الأمثال، و شوارد الأبيات، و المقاربة في التشبيه، و التحام أجزاء النظم و التئامها، على تخير من لذيذ الوزن، و مناسبة المستعار منه للمستعار له، و مشاكله اللفظ للمعنى، و شدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عامود الشعر.. "و قد جعل المعايير التي تقوم عليها هذه الشروط: العقل الصحيح، و الطبع، و الرواية، و الاستعمال، و الذكاء و حسن التمييز، و الفطنة و حسن التقدير، و الطبع و اللسان، و الذهن و حسن الفطنة، و طول الدربة و دوام المدارسة.

و قدم ثلاثة مستويات في النقد هي: (١) أحسن الشعر و أصدقه، (٢) أحسن الشعر و اكذبه، (٣) أحسن الشعر و اقصره.

لان تجويد قائله فيه مع كونه في أسار الصدق يدل على الاقتدار و الحذق، و لان قائله اختار الغلو و اسقط عن نفسه تقابل الوصف و الموصوف، فامتد فيما يأتيه إلى اعلى الرتبة، و ظهر قوته في الصياغة، و تمهره في الصناعة، فتصرف كيف شاء.

٣٢ ـ شرح ديوان الحماسة ص: ٩ ـ ١٢، ط القاهرة ١٩٥١م

٣٢ ـ و منهم الدكتور محمد مندور الذي قدم خمسة معايير بعد استقرائه لجهود النقاد في دراسته المبكرة، النقد المنهجي عند العرب، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٩ (دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت)، و هي: (١) مقاييس شعرية تقليدية (٢) مقاييس لغوية (٣) مقاييس بيانية (٤) مقاييس إنسانية (٥) مقاييس عقلية.

٣٤ ـ الأدب الإسلامي و نقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي. ص١١٠ و ما بعدها، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ١٢ ، ١٩٩٨م.

٣٥ ـ أسلمة المناهج و العلوم، ص ١١٧، ١١٨، دار الاعتصام القاهرة، ط١٩٨٦م.

٣٥ ـ مقدمة "نظرات في الأدب"، ص ١٨

٣٦ ـ نظرات ص: ٣٥

٣٧ ـ مجلة الأدب الإسلامي، المجلد١، العدد٢، ص٢٩.

٣٨ ـ مجلة الأدب الإسلامي في مقال: "شبهة المصطلح"، د. عبد القدوس أبو صالح، ع ٨ ص٦، و يلاحظ أن النظام الأساسي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية عرف الأدب الإسلامي بأنه: "التعبير الفني الهادف عن الحياة و الكون و الإنسان وفق الكتاب و السنة". ينظر النظام الأساسي، ص٢٣ (ط٢، ١٩٩١م).

٣٩ ـ نظرات في الأدب، ص٢٢.

٤٠ ـ مختارات من أدب العرب، ٣/١.

٤١ ـ مقدمة "الأدب الإسلامي و صلته بالحياة"، ص١١.

٤٢ ـ الأدب الإسلامي فكرته و منهاجه، ص٤٧.

٤٣ ـ نظرات، ص١٠٨.

٤٤ ـ ينظر "النقد الادبي"، لاحمد امين، ص٢٢، و أطلقت الفاظ مشابهة عن العاطفة "الاحاسيس و المشاعر"، و عن المعنى "العقل و الفكر"، و عن الأسلوب "اللغة و الإيقاع و الموسيقى"، عن الخيال "المخيلة و الصورة".

٤٥ ـ نظرات في الأدب، ص١٠٦.

٤٦ ـ نفسه، ص١٠٥.

٤٧ ـ شرح حماسة أبي تمام، ص١٢، تحقيق أحمد أمين و عبد السلام هارون، ط القاهرة، ١٩٥١م.

٤٨ ـ نظرات في الأدب، ص ١٠٥.

٤٩ ـ السابق، ص١٠٥.

٥٠ ـ نفسه، ص ٨٣.

٥١ ـ نفسه، ص ٧٩.

٥٢ ـ صورتان متضادتان، ص١٠٥.

٥٣ ـ في مسيرة الحياة، ١٩٦/١.

٥٤ ـ نظرات في الأدب، ص ٨٣.

٥٥ ـ في مسيرة الحياة، ١٩٨/١.

٥٦ ـ نفسه، ١٩٦/١.

٥٧ ـ نظرات، ص٨١.

٥٨ ـ مختارات من أدب العرب، ١٤٠/١.

٥٩ ـ في مسيرة الحياة، ٢٥١/٣.

٦٠ ـ نظرات في الأدب، ص ٩٠.

٦١ ـ نفسه، ص٨١ ــ ٨٢ ، ١٠٥، و ينظر ما جاء في كلمته التي ألقاها في مؤتمر بالهند، مجلة الأدب الإسلامي، ع١٩ ص ١٢٥.

٦٢ ـ في مسيرة الحياة.١/٢١ ــ ٢٢.

٦٣ ـ نظرية الأدب، ص٢٩، رينيه ويليك، و أوستن وارين، ترجمة محي الدين صبحي، بيروت، ١٩٨٧م.

٦٤ ـ نظرات في الأدب، ص٢٢.

٦٥ ـ السابق، ص٣٠.

٦٦ ـ نفسه، ص ٣٠.

٦٧ ـ نفسه، ص ٣١.

٦٨ ـ نفسه، ص ٢٢.

٦٩ ـ نفسه، ص ٢٣.

٧٠ ـ نفسه، ص ٢٣.

٧١ ـ نفسه، ص ٢٣.

٧٢ ـ نفسه، ص ٨٣.

٧٣ ـ مقدمة مختارات من أدب العرب،١/٦.

٧٤ ـ نظرات في الأدب، ص٢٣.

٧٥ ـ نفسه، ص ٢٣.



آراء الشيخ أبو الحسن.. اللغوية

بقلم: د/ محمد عبد السلام آزادي

بعد أن اضمحل نفوذ العرب و العربية في القرون الأخيرة في الدول الإسلامية و العربية، أخذت اللغة العربية تنحط درجاتها(١)، إلى أن أصبحت منفصلة عن الحياة اليومية، و المكاتب الرسمية، و مجالس الخلفاء و الحكام، و ركنت إلى أقلام المطرزين، و أصحاب الحرف الأدبية المنمقين. و جاء بعدهم الاستعمار، ففهم أن نهضة اللغة العربية هي نهضة للإسلام، فأخذوا يتآمرون ضد اللغة العربية، حيث صرفوا عنايتهم إلى اللهجات العربية الإقليمية، و حاولوا وضع القواعد المعيارية لهذه اللهجات، لتكون بديلة للفصحى، و خوفوا الناس من الفصحى بأنها صعبة، و ليس التمكن من ناصيتها سهلا، و لا طائل في ممارستها، لأنه لا علاقة بينها و بين الحياة المعاصرة، و نادوا لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، و اختاروا لها أنصارا و أعواناً من بني العرب، و طالبوا بخلق اللغة العربية الوسيطة، لتكون سهلة و وسطا بين العامية و الفصحى، و دعوا إلى استخدام اللغة العامية(٢). و من مظاهر التآمر ضد اللغة العربية اختفاء المفردات العربية الفصحى من جزء كبير من الحياة، و اقتصار اللغة العربية القديمة على الموضوعات الدينية، و في المواعظ و الخطب(٣).

فكل هذا الظواهر السالبة استدعت المعنيين باللغة العربية و بالإسلام أن يفكروا من جديد، و يحرروا العربية من هذه القيود، و أن يجعلوها ذات صلة

بالدين الإسلامي الحنيف، و مستجيبة لحاجات العصر و متطلبات العالم المعاصر. و يعد الشيخ الإمام أبو الحسن الندوي، رحمه اللّه، ممن تصدوا لهذا التيار الجارف، و ممن تقدموا بالبديل المناسب لابناء المسلمين، فكان في ذلك نذيرا و بشيراً، حيث إنه حذر المسلمين من هذه الهجمات الشنيعة، و حيث قام بتوجيه مصير اللغة العربية إلى اللون الإسلامي، كتابةً و خطابةً و نقداً و نثراً. و له آراء ذات قيمة بالغة في مسيرة اللغة و تطويرها، و نحن نذكر هذه الآراء من خلال النقاط التالية:

ضرورة صياغة اللغة العربية صياغة دينية في رأي الشيخ:

إن اللغة العربية لغة القرآن و الحديث و التراث الإسلامي الضخم، فليس لاحد أن يكون ذا بصر و بصيرة في الدين بدر التمكن من ناصية هذه اللغة، فلهذا نرى الشيخ الندوي يكرر "إن اللغة العربية فهي لغة الإسلام و مفتاح كنوز الكتاب و السنة"،(٤) و هذه الناحية تظهر أهمية اللغة العربية.

و هناك ناحية أخرى لفضل اللغة العربية و هي أن هذه اللغة تحمل أنفس الاهمية الادبية منذ عصور قديمة، فاللغة العربية في رأي الشيخ: "باب تلك المكتبة العامة الزاخرة، التي تحتوي على أنفس ما أتمنى القرائح البشرية، و ابدعته العقول السلبية و فاضت به خواطر، و سالت به محابرات أدب و شعر، و تاريخ و فن، و حكمة، و مساحة زمنية واسعة، كمساحة التاريخ الإسلامي، و مساحة مكانية شاسعة كمساحة العالم الإسلامي (٥) و لا شك أن القرآن أكسب اللغة العربية البقاء إلى القيامة، و أتاح لها التحرر من قبل الجاهلية، فضلاً عن أن حملة الإسلام اتخذوها وسيلة لبثّ دعوتهم الجديدة فزادوا عليها رونق البيان، و طوروا إلى لغة عالمية، كان يتكلم بها نصف سكان الارض بعد الفتوحات

الإسلامية، يقول الشيخ: "إن الثورة العالمية البناءة التي قام بها الإسلام، استخدم اللغة و الأدب سلاحاً في دعوته و نشاطاته، استخداماً لم تستخدمه أي ديانة أو حركة، فقد كان أفضل دعاة الإسلام و أقوى ممثليه، من ملكوا ناصية البيان، و برزوا في الخطابة و الكتابة في لغته"(٦) فكانت اللغة العربية حينئذ في خطبة الجمعة و في الخطابات الرسمية و الاجتماعية و السياسية، و كانت يتداولها الناس في معيشتهم اليومية، و تصدر بها الدواوين الشعرية، و الكتابات الأدبية. و كانت موارد اللغة العربية آنذاك عذبة، نقية صافية، اللفظ الخفيف و التعبير الدقيق الرقيق، مما يطرب الناس و يملؤهم سرورا و لذة، و ثقة و إيماناً بعبقرية هذه اللغة، و رغبة في دراستها و التوسع فيها (٧).

إذن كان الفضل في تطور اللغة العربية و خروجها إلى أوسع ما يكون من نطاق ـ في رأي الشيخ الندوي ـ للقرآن الكريم و لحديث الرسول صلى الله عليه و سلم، الذي كان أفصح العرب(٨)، و لاندفاع حملة القرآن و الحديث إلى العالم كله، فكانت حواشي اللغة العربية بيد هؤلاء المسلمين مهذبة، و عباراتها رقيقة، و ألفاظها صقيلة، و استمرت تنمو و تغزر لفظاً و معنىً، إلى أن جاء دور المتكلمين المقلدين للعجم، فهدموا ما بنى السلف في عمارة اللغة، و أصبحت اللغة العربية مقيدة و مكبولة بأيدي المطرزين المنمقين بالزخرفة البديعية. ثم بعد المحن الطويلة للغة العربية، جاء العصر الحديث على أنقاض النهضة الحضارية الغربية. و لكن العربية واجهت مشكلات عدة من أعداء الإسلام، الذين شنوا أنواعا من الهجوم عليها منذ بداية النهضة الحديثة. فقد ظهرت اللغة العربية ـ على حد قول الشيخ ـ "عربية الوضع إفرنجية الروح، إسلامية اللغة، جاهلية السبك"(٩)، و لمقاومة هذا التيار الفاسد، ارتأى الشيخ أن إعادة اللغة العربية إلى حوزتها الإسلامية تتطلب منا الالتفات إلى الأمور التالية:

المفردات و المصطلحات:

يـقـرر الـشـيـخ بـدهية تكوّن اللغة، فهي تتكون من المفردات و التراكيب، فقال: "إنه لا يتصور اللسان بدون مفردات و تراكيب"(١٠)، فللمفردات و التراكيب دور خـطـيـر فـي إبـراز الـخـواطـر و الأفكار. فإن جاءت المفردات و الألفاظ في الـجـمل عفوية بدون تصنع و تكلف، و كانت سهلة ميسورة الفهم، أثرت في قلوب الـنـاس، و كـانـت هـي سـر عبقرية اللغة العربية، و قد كشف الشيخ النقاب عنه حـيـنـمـا حـلـل عـناصر عربية سلفنا الصالح، فإنهم يختارون في كلامهم "اللغة النقية الصافية، و اللفظ الخفيف، و التعبير الدقيق الرقيق" (١١).

و كـذلـك تؤثر الكلمات التي تصدر عن الصدق و الإخلاص في قلوب الناس، يـقـول الـشـيـخ الـنـدوي: إن الـكـلـمـات الـصـادرة عن لسان الصادق في التجربة الـشـعورية ستكون ــ و لا شك ــ معجزة من الأدب، لأنها أفلاذ كبده، و قطع قلبه، و دمـوع عـينيه، و سوف تملك القلوب و تبكي آلاف البشر قرونا طوالاً (١٢). فاللغة الـمـتـكـونـة من الـكلمات التي هي أفلاذ الكبد، و قطع القلب، و التي صدرت مع دمـوع تـذرفها الـعيون، لو اقترنت بها التصورات الإسلامية الصادقة أصبحت لغة إسـلامـيـة مـؤثـرة، و هذا ما وجدناه في العصور الذهبية للغة العربية. و قد رأى الـشـيـخ لـلـكلمات درجة حرارة و برودة (Temperature)، فلا توضع كلمة ذات حـرارة مـتـصـاعدة مكان كلمة منخفضة، فضلا عن أن توضع كلمة ذات حرارة مـكـان كـلـمة ذات برودة(١٣)، و بهذا تكتسب اللغة حلاوة و لذة، و قد مثل الشيخ لذلك بروايات طويلة من الحديث يرويها أحد الصحابة، أو إحدى الصحابيات، من حـوادث حـيـاتـهـم أو تـفـاصـيـل إحـدى رحـلاتـهـم.. جـاءت فـيـها اللغة اليومية و بـسـاطـتها. و التعبير الصادق عن المشاعر و العواطف.. تُعدّ أسمى نماذج اللغة العربية بعد كتاب اللّه تعالى(١٤).

و من ثم علينا انتقاء الكلمات التي تحمل المعاني العقدية المعششة في عميق القلب، و تحمل صدق ما يختلج في النفس، في صورة جيدة مرموقة. و قد وجد الشيخ هذه الحقيقة حينما حلل دعاء الرسول صلى اللّه عليه و سلم، الذي ابتهل به إلى اللّه، بعد أن رضخته أحجار اهل الطائف، و كان الدعاء الذي استجلب به رحمة اللّه، و استمطر سحابة كرمه حاوية "كلمات كانت أشد تاثيراً، و أدق دلالة على المعاني، و أقل في المباني، و أحسن وقعاً في النفوس و جذبا للقلوب، و سحرا للأذهان و العقول"(١٥)

نعم، إن لكل كلمة مفاهيم و معاني،(١٦) و لهذا على أهل اللغة أن يختاروا المفهوم الإسلامي، أو ما هو أقرب له، و الشيخ الندوي لم يغض النظر عن هذا الجانب، فقد استخدم كلمة "مراوغة" في عبارته مرة، فقال "مراوغة فكرية من فرعون" عندما ذكر الصراع بين سيدنا موسى و بين فرعون، و علق عليه بقوله: "المراوغة قد تطلق في المخادعة المذمومة، و المقصود هنا جيئة و ذهاباً من مكان إلى مكان، و القيام بحركة مفاجئة في اتجاه جديد، كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه، و أقرب كلمة إليه في اللغة الإنجليزية "Dodge"(١٧) و بهذا لفت أنظار اللغويين إلى هذا الجانب، بأن يختاروا المعنى الطيب من معاني الكلمة في سياق الجملة، ليظهر من خلاله المعنى. الذي لا تنفر منه الطبيعة الإسلامية في اللغة. و اختيار الكلمات و انتقاؤها، في سبيل إضفاء التصور الإسلامي على اللغة محمود و مطالب به، فهو من متطلبات البلاغة و البيان الساحر، و هو من عناصر اللغة الممتازة، و لكن إذا كان الانتقاء لإظهار البراعة الكلامية، و رغبة في التشدق و التفيهق، و إذا كان الاختيار للإتيان بالكلمات الغريبة لإبراز تمكنه المرموق من ناصية اللغة فهو مذموم. لأن هذه الكلمات المصطنعة و المتكلفة، تعكر صفو اللغة، و تنقص سلاستها، و تذهب بهاءها و رواءها(١٨).

إنّ الـحـيـاة تتجدد كل يوم، و تدخل في اللغة أسماء المستحدثات كل يوم، فـهـنـاك لـغة تقر هذه الأسماء على هيئتها، بوصفها دخيلة، و لكن اللغة العربية لـكـونـها لغة واسعة غنية بثروتها، يمكن لها أن تستخدم تلك المستحدثات، التي تـاتـي اكـثـر مـا تـاتـي عن طـريـق الـغرب في هذا العصر، تستخدمها بطريقتها الـمـألـوفـة: الـتـعريب و التوليد، و لا تتطرق إلى الدخيل إلاّ إذا اضطرت إليه(١٩) فـفي هذه الحالة نرى الشيخ عوّل في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة الـعـربـيـة. فـإذا وجـدهـم و افـقـوا عـلـى كـلـمة في مستحدث ما له أصل عربي و اشـتـقـاق صـحـيـح أخـذهـا و اسـتـخدمها حيث "لا يلجأ الطالب في استعمال الـكـلـمـات الأعـجـمـيـة أو الـدخـيـلـة أو يـكـون له لسان أخرس في المناسبات العصرية"(٢٠).

إنـما اللغة أداة التواصل بين أفراد الأسرة و المجتمع، يعبرون بها عما في ضـمـائـرهـم من حـب و بـغـض، فـي جدهم و هزلهم،(٢١) فقد بذل الشيخ جهوداً لـيـجـعـل الـلـغـة العربية مرنة، بالاستجابة إلى أساليب عصرية، و لغة مفهومة لـلـقاريء الحديث، و سعى إلى "أسلوب جديد مبتكر"، على حد قوله، لأنه لم يكن امـامه إذ ذاك مثال أو نموذج يجمع بين: قوة الدعوة، و العاطفة الدينية، و القلم الـقـوي البليغ، و اللغة العذبة السلسة. إنما كانت لديه إما مقالات ادبية خالصة، مـثـل كـتـابـات الـسيد مصطفى لطفي المنفلوطي، و مصطفى صادق الرافعي، و الـدكـتـور طـه حـسـين، أو مـقالات علمية تحليلية ناقدة، مثل كتابات الدكتور احـمد امين، و عباس محمود العقاد، و العلامة محمد كرد علي، و لـم يكن حينئذ طـلـع عـلـى الأفـق الـعـربـي نـجـم كـسـيـد قـطـب، و مصطفى السباعي، و علي الـطـنـطاوي.. "لذلك لم يكن لي إلاّ أن أبتكر أسلوبا و أنهج نهجاً جديداً"(٢٢) و من أبرز مناحي ذلك الأسلوب المبتكر، كما يراها الدكتور عبد الباسط بدر، أن الشيخ

الندوي يمسك الخيوط الذهبية الثلاثة: الأدب و الفكر و الدعوة في آن واحد، و يرى هذه الميزة نادرة جدا في عصرنا بالذات، و أن هذا الأسلوب يتجلىٰ في محمد إقبال و سيد قطب و في الشيخ الندوي(٢٣).

و من حلل هذا الأسلوب وجد السر كامنا أيضا في استخدامه الموفق الكلمات القرآنية و الحديثة، و روح القرآن و الحديث في كلامه المرتجل العادي، فكلماته بليغة دائماً، تخرج من قلبه، و تحمل الفكرة بطريق مختصر، و تدعمها بشواهد مناسبة فتصب في وجدان السامع و تملأ قلبه (٢٤)، فقد قال عن هذه الميزة: "التزمت في كتاب قصص النبيين للأطفال أن يكون في لغة القرآن، و توضع الآيات الكريمة في محالها كالفص في الخاتم"(٢٥).

و أما المصطلحات فنجد الشيخ فيها حذراً جدا، لأنها في نظره: "كالخارطة للسفن و المراكب و الطائرات، فأدق خطأ في خطوطها التي تضبط المراكب و الطائرات، و تحدد الجهات و الغايات، قد يكون سببا لضياع هذه البواخر و الطائرات أو انحرافها عن الغاية المقصود"(٢٦) ففي هذه العبارة أوجز الشيخ الندوي أهمية المصطلحات، و خطورة الخطأ في معانيها، و لفت النظر إلى الاستخدام الصحيح لها، لأن الخطأ في وضعها، و التحريف في استخدامها، و الزيادة أو النقص في مدلولاتها، و استعمالها في غير ما اصطلح عليه الأقدمون، يؤدي إلى إساءة في اللغة العربية. فلهذا أثنى على العلماء الذين انشأوا لغة إسلامية جديدة في الهند، تسمى الاردية، أثنى عليهم لعدم تحريفهم في الكلمات و المصطلحات، التي جاءت عن طريق العربية، فكانوا يهتمون بحفظ كلماتهم (الصوفية و الدعاة و المصلحين) بنصها و فصها(٢٧).

و يرى ان أن المصطلحات مما لا يترجم إلى اية لغة من لغات العالم، مهما بذلت الجهود، و قطعت إلى ترجمتها السبل، فمثلا كلمة "الحكمة" فقد

عـد الـشـيـخ أمـرا مـسـتـحيلاً ترجمة هذا المصطلح فقال: لا اعتقد أن الكلمة البـلـيـغـة العربية "الحكمة" من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى(٢٨). فـكـان من طـريـق الـتـاصـيـل الإسلامي للغة الهندية الوثنية، و جعلها إلى اللغة الإسـلامـيـة الأرديـة اسـتـخـدام تـلـك المصطلحات الإسلامية، بدون اللجوء إلى الـتـرجـمـة، فـلا بد أن نهتم بإبقاء المصطلحات الإسلامية القديمة على هيئتها و حـالـهـا، بـدون تـحـريف في تحديد المعنى، و انحراف في استخدامها. و أما في استخدام المصطلحات العلمية الحديثة، فقد رجع إلى استخدامات المجمعات الـلـغـوية الـعربية. و لكنه ـ نعتقد لتنبهه التام للفوضى التي تحدث في اختلاف الـمـصـطـلـحات في موضوع واحد ـ اعتمد على مجمع واحد و هو مجمع فؤاد الأول للغة العربية(٢٩).

الأساليب و التراكيب:

و لـلأسـلـوب اتـجـاهان في الدراسة اللغوية الحديثة، اتجاه يعتني بالابنية الـلـغـويـة و وظائفها، حتى تراكيبها داخل النظام اللغوي، و توظيف الكلمات في الـجـمـل تـوظيفا صحيحاً و كذلك استخدام الأبنية اللغوية استخداما متقنا في الـعبارات، و اتجاه يهتم بالنظام التركيبي في اللغة، و كل هذا يؤدي دوراً خطيراً في تجلية المعنى، الذي يجول في خاطر الشخص(٣٠).

و إذا كـان الأسـلـوب هـو مرآة الاديب بل و قد قيل: إن الأسلوب هو الإنسان نـفـسه،(٣١) و على الاديب أن يلتجيء إلى الأسلوب لتجلية فكره، فاسلوب الاديب هـو شـخـصـه و فـكـره، و قـد عنى الشيخ الندوي بدراسة الكلمات التي لها صلة بـالـفكر، و التي تحدث تغيير اللغة و تنميتها إلى اللغة الدينية، و ذلك حينما أخذ بـدراسـة الـنـصـوص الـقرآنية و الـحديثية، و نصوص روايات الصحابة و الرواة، و الادبـاء و الـكـتـاب الـمـطـبـوعـين، و الشعراء غير المهنيين، و اكتشف مكامن

السحر في تلك النصوص. ففي كتاب "روائع من أدب الدعوة في القرآن و السيرة" دراسة عميقة متانية لأسلوب القرآن و الحديث.

يقول الشيخ في سر الإعجاز القرآني: إن إعجاز القرآن كامن في ألفاظه و تراكيبه، و فصاحته اللغوية و بلاغته المعنوية، معانيه و محتوياته(٣٢) و اكد عليه مرارا و تكرارا مع الاعتراف بأن هناك وجوهاً عدة للإعجاز القرآني، (٣٣) و قد حلل بعض الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، لتذوق الإعجاز القرآني و الحديثي، و لتوضيح أسلوب الكتاب و السنة في كتابه "روائع من أدب الدعوة في الكتاب و السيرة"، و تطرق في ذلك إلى أمور تعنى بها الدراسة اللغوية الحديثة، منها:

الكلمات و دورها في تأدية المعنى، فإن كل كلمة تحمل مفهوماً معيناً، بل تحمل مفاهيم، فاختيار الكلمات الموفق لمفهوم دقيق أوسع يضفي على اللغة جاذبية و لذة، و معنى واسعا، و قد حلل الآية [ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة..] (النحل ١٦ : ١٢٥)، فقال: "استحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى "ادع" و هو لا يختص بالخطابة، و لا يختص بالكتابة، و لا يختص بالوعظ و النصيحة، و إنما قال: "ادع" الدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها و الأساليب كلها.. و قال: "ادع إلى سبيل ربك" ما حدد و ما عين شيئا معينا خاصاً، فمثلا تدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده، و إلى العقيدة الصحيحة، و تحثون على الصلاة، و تدعون إلى مكارم الأخلاق و إلى الفضيلة، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و "سبيل ربك" يحوي كل شيء، إنه يمتد و يسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الأديان السماوية، و آفاق الحاجات البشرية و الحياة الإنسانية(٣٤).

و قـال فـي قـولـه تعالى: [إذ قال لأبيه يا أبت لِم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر، و لا يـغـنـي عـنـك شيئا] (مريم ١٩ : ١٤)، أوّلاً تتأملون في قوله "يا أبتِ" لهجة فيها الـرقـة، و فيها البر، و فيها التواضع.. فالولد إذا خاطب أباه بقوله: "يا أبت" أثار فيه الحنان الأبوي، و كان يمكن لإبراهيم أن يصيح فيقول: "يا سيدي، أو يقول: يا شـيـخ الـكـهان، لأنه كان كاهنا، و لكنه يقول: يا أبت، تعمد إبراهيم هذه الكلمة، لـيـصـل بـهـا إلـى أعماق قلبه، و يثير فيها الحنان.. فالولد مهما بلغ الغضب من والـده إذا ناداه بقوله: يا أبت.. رق و تهيأ لسماع كلامه".(٣٥) و لننظر إلى تحليله لـكـلـمـة: "و لا الضالين" من سورة الفاتحة، فإنه حلل المفاهيم التي تحوي هذه الـكـلـمة، و شرح كيف نابت عن تلك المفاهيم في آن واحد، و هذا هو قوة الكلمة التي تؤدي المعنى الذهني، في أدق صورة و أوسعها(٣٦).

و مـنـهـا دور الـتـراكيب في تجلية المعنى، فقد درس الشيخ ميزة تراكيب الـكتاب و السنة، و ما أثر عن السلف الصالح، و وضح بماذا تمتاز هذه التراكيب، و لـماذا تتفوق على جميع الأساليب العربية. فقد حلل الآيات القرآنية ٤١ ـ ٤٥ من سـورة مـريـم، الـتـي تحمل نصوص دعوة إبراهيم، فقارن بين أسلوب تلك الآيات الـتـي كـانـت مـوجهة لأبيه، و بين أسلوب الآيات التي توجه بها إلى قومه، و جاء بـنـتـيجة واضحة المعالم، بأن إبراهيم فرق بين الأسلوبين، أسلوب الدعوة لأبيه، و أسـلـوب الـدعـوة لـقومه. ففي الأول اتخذ أسلوباً فيه لين، و فيه اقتراح، و فيه تـودد، و لـلـكـلـمـات فـيـهـا وقـع خفيف، و التراكيب فيها إخبار هادىء، "لم يبدأ بـالأشـيـاء الـتـي تـعتمد على الذكاء النادر، و تعتمد على بحوث علمية أو نظرات فـلـسـفـيـة، إنـمـا اخـتار الشيء الذي يفهمه الطفل، لأن والده كان في الطفولة الـعـقـلـيـة، و إن كان مقدما في السن، فخاطبه كما يخاطب الطفل: (يا أبت لم تـعـبـد مـا لا يـسـمـع و لا يبصر و لا يغني عنك شيئا)، و في الثانية: أسلوب جدال

و مناظرة، فيه تحد و توجيه إلى الأمور الفلسفية، فيه سؤال إنكاري عما يفعلونه: [اتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه و قومه ما تعبدون قالوا: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون] (الشعراء ٦٩ ـ ٧١).

و قد حلل التوكيد في قوله تعالى [اياك نعبد و اياك نستعين] (الفاتحة ٤:١)، فوصل إلى النتيجة أنه "كل تأكيد" عرفته لغة العرب التي نزل بها القرآن، و اختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية.. و في أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية..(٣٧) و هكذا تحمل التراكيب الأفكار في أمانة و دقة، و هي تعطي اللغة السمات التي يقصدها المتكلم.

و منها إمكانية استثمار الموقف الخطابي في فهم القرآن الكريم، فالموقف الخطابي (Speech Situation) أو الظرف الكلامي (Event of Speech) هو الظرف المعين الذي يتبادل فيه الناس الحديث، و عناصره: الوضع المعين، و المشاركون في الخطاب و أدوارهم و التفاعل بينهم، و الرسالة و مفتاحها و طريقة إيصالها(٣٨) و الموقف الخطابي يفيد التفاعل بين المقال و المقام، إي يدرس العلاقة بين الكلام و مقتضى الحال، و له عناصر فوق لغوية، و هي الوسائل المعينات التي تساعد الخطيب لتوضيح ما يريده، ما عدا الحدث اللفظي كحركات اليد و غيرها(٣٩).

و إذا نظرنا في معالجة الشيخ الندوي في بعض الآيات القرآنية و النصوص الحديثية، اتضح لنا إمكانية استثمار الموقف الخطابي لفهم القرآن و الحديث في العصر الحديث.ـ كما فهمه الجيل الأول. لننظر في تفسيره آيات الدعوة في سورة يوسف (٣٦ ـ ٤١) [و دخل معه السجن فتيان، قال: أحدهما إني

اراني اعصر خمراً، و قال الآخر: إني اراني أحمل فوق راسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل ان يأتيكما... قضي الأمر الذي فيه تسفتيا] فقال: "و قبل أن نشرح هذه الآيات نريد أن نخيل لأذهانكم المحيط الذي قامت فيه هذه الدعوة، و الأجواء التي اكتنفتها"(٤٠) فاستحضر المواقف الحاسمة التي مر عليها يوسف عليه السلام، ليبرز أهمية هذه الايات و المعاني التي يمكن أن تؤدي، و صور لنا الأجواء التي أحاطت يوسف عليه السلام، و أوقفنا جوار تلك الأجواء، التي كثيرا ما نواجهها في حياتنا العادية.

و قال و هو يصور الأجواء، و ملامح شخصيات المشاركين في الخطاب القرآني [لا يأتيكما طعام ترزثانه إلا نباتكما بتأويله..] قال سيدنا يوسف "لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويل هذه الرؤيا"، حتى يطمئنا انهما لا يحتاجان إلى جلوس طويل، و لا يملان، و لا يأتي السجان فيقول اذهبا إلى مكانكما، و من الذي أذن لكما بالحضور هنا؟ فقال: (لا يأتيكما طعام..) "يأتيكما" و كانت مصر على جانب كبير من الحضارة، و تنظيم الحياة المدنية، فالمفروض انه كانت هناك مواعيد مضبوط للطعام، و كان وقت الطعام قد حضر، فلذلك قال (لا يأتيكما طعام...) ثم هناك نكتة... و هي أن بين المسجونين و بين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية، فلما نكر الطعام أثار فيهم الشوق، و انتعشت قلوبهم لسماع نكر الطعام، فالطعام حبيب إلى كل إنسان، و لكنه إلى المسجون احب و الذ و اشهى، فوجد فرصة ليقدم إليهم الدعوة إلى التوحيد...(٤١) و هكذا قد فسر النصوص الدعائية التي ابتهل بها الرسول صلى اللّه عليه وسلم بعد أن جرحه أهل الطائف.(٤٢) فالشيخ الندوي بتطرقه إلى اكتشاف العلاقة بين الالفاظ و التراكيب و الفكر، يوجه الأنظار إلى اتخاذ

طريقة القرآن و الحديث و التراث الإسلامي الرائعة في الكلام العصري، و أظهر كيف و أين يكمن السحر في الكلام.

و هناك اتجاه آخر في دراسة لغوية حديثة للأسلوب، و هو الذي يحدد البواعث و الأسباب التي جاء لأجلها هذا الأسلوب و قد عني الشيخ أيضا في هذا المجال، ففي كتاباته عن جمال الأدب و روعته، أشار إلى سر الأسلوب الجذاب، الذي يمتلكه القرآن و الحديث، و بعض روايات الصحابة، و أصحاب السير، و الأدباء المطبوعين، و قد دعا مرارا و تكرارا إلى اتخاذ ذلك الأسلوب مع صياغة عصرية. يقول "و الذين اتخذوا الأدب سلاحا لهدم الخلق و العقيدة لابد أن نقاومهم بأدب قوي دافق بالحياة، و كتابة أصيلة مشرقة الديباجة، و أسلوب من أحدث الأساليب و أقواها، و لا يتأتى ذلك إلّا بالتضلع من الأدب القديم و مصادره، و نقد الأساليب الجديدة، و الاطلاع الواسع عليها، و الممارسة للكتابة و الإنشاء"(٤٣).

إذن هو ينادي أصحاب التربية و أولى الألباب و الآداب أن يتسلحوا بالأسلوب القوي، على طراز أحدث و أسمى، بالرجوع إلى الأدب القديم و مصادره، و اكتساب الأساليب الحديدة في الكتابة و الخطابة، و يحث على اتخاذ مخططات دقيقة، لإعادة الثقة في شبابنا الحياري، و ذلك المخطط يحتاج إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب، يحتاج ذلك إلى الحكمة و الموعظة الحسنة، [و جادلهم بالتي هي أحسن]، يحتاج إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة، و أن يكون عندنا تلك المقدرة البيانية، و الطلاوة الأدبية، و حلاوة التعبير، التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام، و أن تنفذ في عقول الشباب، و في نفوسهم عن غير هذا الطريق.(٤٤)

و هـنـا يذكر الأسباب التي تكسو الأسلوب الحلاوة و الجذب، منها القوة في الـكـتـابـة، و اكـتـسـاب الـمـقدرة البيانية، و التزين بالطلاوة و الأدبية، و التعبير الـحلو. و حينما حلل سحر القصائد للشاعر محمد إقبال، ابرز أن سحرها مكنون فـي الـعـقـيـدة الـتـي كان يحملها، و العاطفة التي شرح صدره لها، و النور الذي تـمـكن فـي قـرار قـلبه، حيث يقول: "إن شاعرنا العظيم محمد إقبال كان - و قد شـهـدت ذلك بعيني و أشهد بذلك بجوار المسجد ـ إذا ذكرت المدينة ـ فضلا عن الـرسـول صـلـى اللّه عليه و سلم - دمعت عينه و لم يتمالك.."(٤٥) و عدّد الفضل الـذي جـعـل لـغة إقبال عذبة، فذكر منه قوة العقيدة، و تحديد الهدف في الكتابة و قـوة الـعـاطـفـة كـل هذه العوامل أدت دوراً فعالاً في تنمية الأسلوب، و تزيينه بـزيـنـة الإسـلام. ثم في إشارته إلى اتخاذ أحدث الأساليب العصرية في الـحـديث، و الـديـبـاجـة الـمـشـرقـة في الكتابة، و المقدرة البيانية، و الحلاوة في التعبير، و الكلام النابع عن المشاعر و العواطف الصادقة، و التعبيرات الجميلة البسيطة الأخاذة تطلع على أسرار الأسلوب المرموق في اللغة العربية.

عناصر تنمية اللغة:

يـرى الـشـيـخ أن جـمـيـع الـلـغـات تتغير إلى الازدهار بعناصر أربعة(٤٦)، و بـالـتالي تعد هذه العناصر القوي الداخلية في التأصيل الإسلامي للغة العربية، و العناصر هي: الضرورة، العاطفة، الاندفاع، النفع و الفائدة.

و نـحن هـنا نحاول أن نحلل هذه العناصر على نهج الشيخ، أولا: الضرورة، فـهـي تـنـجـلـي عـنده في اتخاذ جماعة من الناس اللغة العربية وسيلة لهم، في حـركتهم و دعوتهم و ثورتهم، حتى لا يجدون سواها وسيلة، و لا يعدون غيرها أداة لإيـصـال أفـكارهم إلى العامة. ففي عصر الانحطاط لم تكن للجماعة المسلمة

حـركة قوية دينية أو سياسية أو اجتماعية، و لا دعوة و ثورة تجبرهم على اتخاذ اللـغـة الـعـربية وسيلة مهمة، يرى الشيخ أن بين الحركة و اللغة الصلة القوية الـدائـمة... "فإنها اكبر سلاحها، و أسهل وسيلة إلى خطاب العامة و التوصل إلى عـقـولـهـم و قلوبهم و للُّغَةُ إذا رافقت حركة قوية و سارت في ركبها، فإنها تقطع احـيـانـا مـسـافـة قرون ـ لسعتها و رحابة صدرها، و رقيها و ازدهارها و تأثيرها و قـوتـهـا ـ في أعوام و شهور، و تستفيد منها ما لا تستفيد من رعاية الحكومات و إشراف الـمـؤسسات التعليمية و عنايتها بها"(٤٧) و أكبر دليل على ذلك ازدهار اللـغة العربية بعد خمولها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، حينما بدأ الـشـعـب الـعـربـي الإسـلامـي طـرد الاستعمار، و بدأت الحركة الدعوية و الثورة الـعسكرية الدينية في مختلف البلدان الإسلامية، و اتخذ العرب مرة ثانية لغتهم وسـيـلـة مـهـمـة لإيـصال الدعوة التحريرية إلى عامة الناس، "حتى عادت اللغة العربية تنشط و تنهض، و تسلك سبيل الحياة في حماس و قوة."(٣٨)

و خـيـر مـثـال لـه نشاة اللغة الاردية، فإنها بذرت نواتها في القرن التاسع الـهـجـري، إلا أن ثـمارها أينعت، و ساقها قويت، و أصبحت لغة هندية إسلامية، بـعـد أن اتـخذها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في الخطب و التواصل، لما وجد فـيـهـا سـهـولـة، فـكـانـت أداة وحـيـدة في ثورتهم الإسلامية، و دعوتهم الدينية، و رسـائـلـهـم الإصـلاحـية، و كانت واسطة بين أهداف الحركة و القائمين عليهم و بين عامة من الناس(٤٩).

و أمـا الـعـاطـفـة فـتـتـمـثـل فـي استخدام اللغة للتعبير عما يختلج في الـنـفـوس، و يـتـهيج في القلوب، و يشتعل في الضمائر، فالذين يكتبون متشبهين بـالـمـمـثـلـين تـنـعـدم لـغـتـهـم من العاطفة، لأن الممثلين "قد يمثلون الملوك فـيـتـصـنعون ابهة الملك و مظاهره، و قد يمثلون الصعاليك فيتظاهرون بالفقر،

و قـد يـمـثـلـون الـسـعـيـد، و قد يمثلون الشقي، من غير أن ينوقوا لذة السعادة، أو يكتووا بنار الشقاء، و قد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه، و قد يـهـنـئـون من غـير أن يشاركوا السعيد في أفراحه.."(٥٠) و من نلك ينطمس نور لـغـتـهـم.و لـلـعاطفة أيضا نصيب في حياة اللغة و رقيها و ازدهارها، فإذا كانت عـامرة بالدين، و مليئة بالروح الإسلامية، كانت الكلمات التي تدل على المدلولات الدينية في مكامن القلب تتشوق للخروج عبر لسانه:

إن الكلام لفي الفـؤاد و إنمـــا جعل اللسان على الفؤاد دليلا (٥١)

و خـيـر مـعـين عـلـى تـجـلـيـة العاطفة الصدق، فاللغة العربية تكون في مائدتها الإسلامية إذا صدرت الكلمات وفق ما في ضمائر المسلمين، من الإيمان و حرارته، و من العقيدة و شلالها، و في نلك يقول الشيخ الندوي: "فإذا كان هؤلاء الـمـتـحـدثـون (من الـعـرب) لا يـرضـى ضـميرهم بما يقولون، و يعرفون ان هذه الكلمات في غير محلها، و إنما هو كله مصالحهم المالية، فيا لانحطاط النفس الـبـشـريـة، و يـا لرخص السلعة الغالية، و يا لضيعة الكلمات العامرة بالمعاني، و يـا لـشـقـاء الـلـغـة العربية بأهلها!!"(٥٢) و الاستجابة للعاطفة الصادقة، و ترك الـنـفـس الـمـفـعـمـة بـالإيمان على سجيتها يضفي على اللغة الرونق و البهجة و الـلـذة، و هـذا هو سر لذة بعض الروايات الطويلة، التي يرويها الصحابة الرواة عن مواقف حياتهم.

و أمـا الـعـنـصـر الثالث فهو الاندفاع، و لم يفسر لنا الشيخ ما هو الاندفاع، و ما هو المدلول الذي أراد بهذه الكلمة، فإذا كانت مطاوعة "دفع" ـ كما هو من مـعـانـيـهـا ـ فـيـقـال: دفـعـه فاندفع،(٥٣) فمعناه أن تـخـرج الكلمات و العبارات اسـتـجـابـة لـمـا يـدفـعـه قـلـبـه لـلـكلام، فهو استجابة العاطفة و المسايرة مع

استجاشة النفس، فلا يتكلم إلا عندما تحرضه عاطفته، و لا يكتب إلا من دافع نفسه له. و يظن الباحث أن هذا المعنى يطابق المقام، فإن الأديب أو الشاعر مهما حاول التنميق و التحسين و التحبير، فإنه يبقى فاشلا فيه إذا لم يستجب للدوافع النفسية التي يحس بها في قرارة قلبه. فإن كان من الدوافع الخارجية، كالتكسب و طلب الشهرة فاللغة لا تكتسب تلك الروائح التي تخرج بها الكلمات عندما تختلط بعبير القلوب، و في هذا المعنى يقول الشيخ عندما وضح السبب لفقدان الجمال التعبيري عند الكتاب أهل التصنع: "كان غالبها (الكتابات) يُكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب، أو تحقيق رغبة المجتمع، أو حبا للظهور و التفوق، و هذه كلها دوافع سطحية، لا تمنح الكتابة القوة و الروح و لا تسبغ عليها لباس البقاء و الخلود، و لا تعطيها التأثير في النفوس و القلوب، و الفرق بينها و بين الكتابات المنبعثة من القلب و العقيدة كالفرق بين النائحة و الثكلى..."(٥٤)

لقد أبدع الشيخ حينما صور الكلام غير النابع عن القلب و العقيدة، بالصورة التي لا حركة فيها و لا حياة، و أما الكلام النابع من قرارة النفس فهو كالإنسان الحي، الذي فيه حركة و حياة، و أروع من ذلك تشبيهه المتكلم بدافع خارجي، بالنائحة التي تتباكى على الفقيد، فإنها لا تبكي عن شعور حقيقي بالحزن و المصيبة التي حلت بها، بل تبكي لأنها تتقاضى النقود من أصحاب الفقيد، فلا يؤثر بكاؤها في أحد من الناس، و أما الثكلى التي تبكي على فقيدها لما فجعها موت فقيدها، و لما تكابد من آلام و حسرة و لما تخرق الأحزان نياط قلبها، فبكاؤها يبكي الحاضر و يشجي السامع. إذن إن اللغة تتطور و تترقى إذا كانت تصدر عن اندفاع، و إذا كان الاندفاع مع العقيدة و الإيمان تتزين اللغة بذلك الرونق، و بهذا تصبح اللغة دينية.

و الــعـنصر الرابع هو النفع و الفائدة، فلما كانت اللغة العربية نافعة لأهل البلاد المفتوحة، حيث وجدوا لغة تحمل الدين و الحضارة الجديدة، و كانت أداة مـهـمـة لـلـتواصل و تبادل الآراء، و الاتصال بالدوائر الرسمية، ازداد إقبال العجم عـلـى اللغة العربية، و إذا لم يجد أحد في اللغة العربية فائدة تذكر، لا من ناحية الـدين و لا من نـاحـيـة الـحركة الإسلامية و الدعوة الدينية، و لا توجد هناك نفوذ عـربـيـة فـي المملكات الإسلامية، انحسرت اللغة العربية عن دورها، و أصبحت اللغة مقصورة على الذين يحترفون الأدب، و يمتهنون الإنشاء العربي حيث "يأتي عـلـى الـناس زمان لا يفهمون فيه من كلمة الأدب إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع و أدب تقليدي، لا قوة فيه و لا روح و لا جدة و لا متعة.."(٥٥).

الخاتمـــــة:

هـذه هـي آراء الـشـيـخ الإمـام أبـي الـحسن علي الحسني الندوي اللغوية، و عـلـى هـذا الأسـاس الـف الـشـيخ كتبه لتعليم اللغة العربية، و عليه تقوم ندوة الـعـلـمـاء بلكناؤ، الهند بتدريس اللغة العربية، لهذا نرى تميزا واضحاً في عربية الـمـتـخـرجين فـي الـندوة، فـي كـتـابتهم و خطابتهم. و هذه النظريات جديرة بـالاهتمام من قبل الباحثين و اللغويين، و يمكن إجراء البحوث اللغوية بالمقارنة مـع النظريات اللغوية الحديثة. أسأل اللّه المولى الكريم أن يتغمده اللّه برحمته الـواسـعـة، و يـجـعـل مجهوداته في ميزان حسناته، يوم لا ينفع الإنسان مال و لا بنون إلا من أتي اللّه بقلب سليم.

ـــ المراجــع و المصـــادر ـــ

١ ـ إبراهيم مدكور، اللغة المثالية، مجلة مجمع اللغة العربية المصري، المجلد٧، السنة ١٩٣٥، ١٤.

٢ ـ ينظر احمد حسن الزيات، لغتنا في ازمة، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ١٠، السنة ١٩٥٨م، ٤٦. و محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان العقل و الشرع، (فيرجينا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٦م)، ١٨٩ ـ ١٩٣.

٣ ـ أنور الجندي، أسلمة المناهج و العلوم، (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٦م)، ٩٨ ـ ١١٠.

٤ ـ أبو الحسن الندوي، مختارات من ادب العرب، مقدمة، (الهند: مطبعة دار العلوم ندوة العلماء، ط١، ١٩٤٠م)، ٣، و أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، (الهند: مطبعة ندوة العلماء، ١٩٨٨م)، ٥/١.

٥ ـ الندوي، مختارات من أدب العرب، مقدمة الطبعة الاولى، (الهند: مطبعة ندوة العلماء، ط/١، ١٩٦١م)٣٦.

٦ ـ الندوي، في مسيرة الحياة، ٢٢٢/٢.

٧ ـ أبو الحسن الندوي، نظرات في الأدب، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٨٨م)، ٢٨.

٨ ـ هذا معنى حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد عن أبيه قال: قال رجل يا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ما أفصحك! ما رأينا الذي هو أعرب منك! قال صلى اللّه عليه و سلم: حُقَّ لي: فإنما انزل القرآن علي بلسان عربي مبين. ينظر: السيوطي، المزهر، تحقيق: جاد المولي و الأخران، (بيروت: المكتبة العصرية، ط/١. ١٩٨٨م). ٣٥/١.

٩ ـ الندوي، القراءة الراشدة، ١٠/١.

١٠ ـ أبو الحسن الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، (الهند: المجمع الإسلامي العلمي، ط٢، ١٩٩٤م)،١٣.

١١، ١٢ ـ الندوي، نظرات في الأدب (دمشق: دار القلم،ط/١، ١٩٨٨م)،٢٨.

١٣ ـ أبو الحسن الندوي، شخصيات و كتب، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٩٠م)٧.

١٤ ـ الندوي، في مسيرة الحياة. ١٤٢/١.

١٥ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٢٨.

١٦ ـ ابن طباطبا، (محمد بن أحمد). عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، (مصر: مكتبة المعارف، د. ت)، ٥ ـ ٦ و أيهم عباس حمودي القيسي، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، (بيروت: عالم الكتب، ط/١، ١٩٨٦م)، ٣١٦.

١٧ ـ أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن و السيرة، (الكويت: دار القلم للنشر و التوزيع، ط٤، ١٩٩٤م)، ٥٩.

١٨ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٢٨ ـ ٢٩.

١٩ ـ صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، (بيروت: دار العلم للملايين. ط/١٠، ١٩٨٣م)، ٣٢٠ ـ ٣٢١.

٢٠ ـ الندوي، القراءة الراشدة، ١١/١.

٢١ ـ الندوي، مختارات من أدب العرب، مقدمة الطبعة الأولى، ٥.

٢٢ ـ الندوي، في مسيرة الحياة، ١٧١/١.

٢٣ ـ الندوي، نظرات في الأدب،٦.

٢٤ ـ المرجع السابق، ٨.

٢٥ ـ الندوي، في مسيرة الحياة. ١٤٥/١.

٢٦ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٧، و أبو الحسن الندوي، كلمة الرئاسة للندوة العالمية للأدب الإسلامي، الأدب الإسلامي فكرته و منهاجه، (الهند، مطبعة ندوة العلماء، ط/١، ١٩٨٥م)، ٤٢ ـ ٤٣.

٢٧ ـ الندوي، في مسيرة الحياة.٢٢٢/٢.

٢٨ ـ الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن و السيرة، (الكويت: دار القلم للنشر و التوزيع، ط/٤، ١٩٩٤م)،١٥.

٢٩ ـ الندوي، القراءة الراشدة،١١/١.

٣٠ ـ عبد المنعم خفاجي، و السعدي فرهود، و عبد العزيز شرف، الأسلوبية و البيان العربي، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٢م)، ١٣.

٣١ ـ قاله جورج بوفون، ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٥م)، ٣٦.

٣٢ ـ الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، (الهند: المجمع الإسلامي العلمي، ط/٢، ١٩٩٤م)، ٣٢.

٣٣ ـ المرجع نفسه، ٣٤ ــ ٣٥.

٣٤ ـ الندوي، روائع من أدب الدعوة، ١٤.

٣٥ ـ المرجع نفسه، ٢٠ ــ ٢١.

٣٦ ـ أبو الحسن الندوي، تأملات في القرآن الكريم، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٩١م)، ١٢ ــ ١٣.

٣٧ ـ المرجع نفسه، ١١.

٣٨ ـ أحمد شيخ، موقع اللغويات في إسلامية المعرفة، (بحث مقدم للندوة العلمية بالجامعة الإسلامية بماليزيا، ١٩٩٦م)، ٣٣.

٣٩ ـ Richard. Longman Dicionary of Linguistics نقل عنه الدكتور أحمد شيخ عبد السلام، موقع اللغويات في إسلامية المعرفة، ص٣٣.

٤٠ ـ الندوي، روائع من أدب الدعوة في الكتاب و السيرة، ٣١ ــ ٣٢.

٤١ ـ الندوي، روائع من أدب الدعوة، ٣٩ ـ ٤١. و للتفصيل يراجع من الكتاب، ٣٠ ـ ٤٣.

٤٢ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٣٦ ــ ٤١.

٤٣ ـ الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط/٥، ١٩٨٧م)، ٩٤ ــ ٩٥.

٤٤ ـ المرجع نفسه. ١١٠.

٤٥ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ١٠٥.

٤٦ ـ الندوي، مسيرة الحياة. ٢٢٢/٢.

٤٧ ـ الندوي، في مسيرة الحياة. ٢٢٢/٢.

٤٨ ـ إبراهيم مدكور، اللغة المثالية، ١٣.

٤٩ ـ الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢ ـ ٢٢٣.

٥٠ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٣٢.

٥١ ـ بيت منسوب إلى الأخطل، وليس موجودا في ديوانه، ينظر: جماعة من العلماء، شرح العقيدة الطحاوية، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٨، ١٩٨١م)، ١٨٤.

٥٢ ـ أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (الرياض: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية الإسلامية، ط/٣، ١٩٨١م)، ٣٦٠.

٥٣ ـ المعجم الوسيط، مادة د. ف. ع (مصر: مجمع اللغة العربية، د. ط. د. ت).

٥٤ ـ الندوي، نظرات في الأدب، ٣٢.

٥٥ ـ المرجع نفسه، ٢١.



الأدب الإسلامي و نقده
عند الشيخ أبي الحسن الندوي

بقلم: الأستاذ بن عيسى باطاهر

تمهيد:

يعدّ الأدب أحد الفنون المهمة التي تسهم في توجيه الثقافة و المعرفة لدى الشعوب، و في بناء الإنسان الفعال القادر على صناعة التاريخ، و المشاركة بإيجابية و عمق في الدفع الحضاري. و نظراً لهذه الأهمية المنوطة بوظيفة الأدب ربط كثير من الدارسين و المفكرين بين ازدهار الأدب و صحة الامم و عافيتها، و بين انحراف الأدب و مرض الأمم و دمارها، و ذلك لما للأدب من خصائص تتصل بنفوس الناس، و ترتبط بروح الأفراد و الجماعات، فضلاً عن كونه ـ و باطراد في جميع العصور ـ أحد عناصر التربية الضرورية لتوجيه الإنسان نحو الترقي الحضاري.

و قد عرفت الحضارة الإسلامية منذ ميلاد فكرتها الأولى في غار حراء قيمة الكلمة أداةً للتغير، و مكانة الأدب مفجراً للطاقات، و موجهاً للأفراد و الجماعات، فكان الإعلان الأول كلمة تدعو للقراءة و المعرفة [إقْرا]، تبعتها كلمة أخرى تدعو للقيام و الحركة [قُمْ]، ثم كان فيض القرآن بآياته و سوره في ذلك الثوب البلاغي الرائع مادتهم، يقيمون عليه تصوراتهم و يستلهمون منه

و جـهـتـهـم، ثـم كـان الـحـديـث النبوي الشريف بياناً للشريعة، و مصدراً للهداية و الـمـعـرفـة، و مـنـبـعاً للأدب الجميل لا يستغنى عنه الأديب المسلم في تكوين فكرته و تحديدها، و بناء رؤيته و تشكيلها.

و في إطار هذه الحضارة تشكل تراث متميز، و أدب حي عبر عن شخصية الأمـة و ثـقـافـتها، و دافع عبر العصور عن هويتها و عن خصوصيتها حين كانت تـبـرز فـي الآفـاق من حين لآخر الأخطار و التحديات، و كان سلاحاً قوياً في أيدي الـمـخـلصين من أبناء الامة يرتّون به كيد الحاقدين، و تأويل الجاهلين و تحريف المشككين.

و لـم يـكـن هـذا الأدب الـحـي الذي شهده التاريخ الإسلامي وحده سائداً في الساحة الثقافية، فقد كان هناك أدب يناقضه في المبدأ و الاتجاه، بعضه يرغب فـيـه أهل الضلال و البدعة، و بعضه يحبه أهل التكلف و الصنعة، و بعضه مؤيد من أهـل الـريـاسة و السلطة، و بعضه ممزوج بافكار أهل الأهواء و الغفلة، مما أدى إلـى إضـعـاف القاعدة الفكرية الداخلية، و القوة الروحية للأمة، و أسهم منذ البداية في ذلك السقوط الحضاري الذي عاشه المسلمون في سنوات الضعف.

و شهد العصر الحديث تحديات كثيرة، و أخطاراً متنوعة بسبب الاستعمار والـتـمـزق و الـتخلف، و بسبب الصراع الحضاري بين الشرق و الغرب. و قد كانت الـفـرصـة سانحة أمام كثير من بلاد العالم الإسلامي للنهضة و الإقلاع الحضاري و بـخـاصـة بعد حصولها على استقلالها، و لكن بسبب فقدان الاستعداد النفسي، و غـيـاب الرؤية الحضارية الواضحة، و بتاثير المناهج المستوردة التي سيطرت عـلـى الـحـياة الإسلامية بمستوياتها المختلفة و غير ذلك من الاسباب، لم نشهد أية نهضة حضارية تجلب احتراماً في عالم التمدن المتسارع، حتى قامت جهودٌ

إسلامية مخلصة لتعلن رفضها لمبدأ التغريب و البدء في بناء المشروع الحضاري الإسلامي لإعادة الأمة إلى استئناف حياتها الإسلامية الراشدة.

و قد كان للأدب حيز من الاهتمام في العمل الإسلامي، فبذلت جهود لإعادة الأدب إلى دائرة الرؤية الإسلامية في التعبير عن الحياة و الكون و الإنسان، و ظهر مفكرون و أدباء دعوا في أعمالهم إلى ضرورة الاهتمام بالأدب الإسلامي، نذكر منهم الشهيدين: حسن البنا و سيد قطب رحمهما اللّه و الشيخ أبا الحسن الندوي، و الأستاذ محمد قطب، و رائد القصة الإسلامية الأديب الراحل نجيب الكيلاني رحمه اللّه.

و يعد الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه اللّه احد الرواد الأوائل الذين اهتموا في هذا العصر بالأدب الإسلامي، و قد كان له حضور متميز في مجال الكتابة و النقد و التنظير، و قد توجت جهوده في السنوات الأخيرة بإقامة رابطة عالمية للأدب الإسلامي. و هذا البحث قراءة نقدية سريعة لبعض جوانب فكره في ميدان أسلمة الأدب، مع التناول السريع لبعض آرائه في النقد الإسلامي.

حول الأدب الإسلامي

١ـ مفهوم الأدب الإسلامي:

إن مصطلح الأدب الإسلامي ـ مذهباً أدبياً ـ قد استقر وجوده بين الدارسين و تلك بدهية تنطق بها نصوصه العديدة، و بحوثه المتجددة، و أصبح اتجاهاً و حقيقةً و اقعةً. و هو مصطلح ظهر في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي منذ الخمسينيات، و قد حدد مفهومه انطلاقا من رؤية واضحة فقال: الأدب الطبعي الجميل هو التعبير البليغ الذي يحرك النفوس، و يثير الإعجاب، و يوسع آفاق الفكر، و يغري بالتقليد و يبعث في النفس الثقة.

فـهـذا الـمـفـهـوم يـشـمل مجموعة من الخصائص و المقومات الشكلية و الـقـيـمـيـة و الـجمالية التي إذا توافرت في الأدب الإسلامي منحته قوة الإقناع و الإمـتـاع، و أعـطته صفة البقاء و الخلود. فالأدب من حيث المقومات الشكلية لابد أن يكون بعيداً عن الصناعة و التكلف، يأخذ من الأشكال أجملها و أقربها إلى الـطـبيعة الإنسانية السوية، و هو أدب بليغ هدفه توصيل المعنى إلى القلوب في أحـسن صـورة من الألفاظ: و هو من حيث المقومات القيمية أدب ملتزم برسالة فـي المجتمع بما يحمل من قيم إيجابية تقوم السلوك، و توسع المدارك، و تبعث فـي الـنـفـس الـثـقة و الفاعلية، و هو من حيث المقومات الجمالية أدب جميل يـوظـف الـجـمـال فـي إبـراز الأبعاد القيمية، لأن القيم في الرؤية الإسلامية هي المقياس الأول للجمال.

و يـأتـي تـركـيـز الشيخ الندوي الشديد على الوظيفة المعرفية و التأثيرية لـلأدب الإسـلامـي فيقول: "الأدب الإسلامي في أوسع معانيه هو تعبير عن الحياة و عن الشعور و الوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا غير".

و يـرى الـشـيـخ الندوي أن عنصري الإخلاص و الصدق في الأدب الإسلامي هـمـا اللذان يهبانه هذا البعد الوظيفي لأنهما يمنحانه الروح و القوة و الحيوية، و يجعلانه معبرا عن حقيقة أبدية خالدة.

٢ ـ وظيفة الأدب الإسلامي:

إن الأدب بـنـحـو عـام رسـالـة فـي الحياة، و هو ليس عبثية او فناً مطلقاً يـقـصـد مـنـه مـجـرد الـفن كما هو رائج في كثير من المذاهب الأدبية الغربية. و نـقاد الأدب المنصفون لا ينكرون أبداً قضية الالتزام في الأدب. و إذا نظرنا إلى الأدب الإسـلامـي وجـدنـاه مـرتبطاً برسالة سامية في المجتمع الإسلامي، و بهذه

الرسالة يكتسب مكانته و قيمته الحقيقية بوصفه راعياً لقيم الخير في المجتمع، و موجها للثقافة النافعة التي تسهم في البناء الحضاري. و من هنا حرص الشيخ الندوي على بيان هذا البعد الوظيفي للأدب الإسلامي فقال: "حاجتنا و حاجة هذا العهد، و حاجة العالم العربي بصفة خاصة، هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة، الذي يحمل رسالة سامية سماوية، إنسانية إسلامية علامية".

فهذا الأدب الملتزم بالرؤى الإسلامية، الحامل لقيم الحضارة، له وظيفته الخطيرة في المجتمع، لأنه ملتزم بحمل قضايا الفكر و المعرفة و الثقافة السليمة، و قيم الخير و العدل وفق ما جاء في الكتاب و السنة لمزجها بقلوب الناس و عقولهم لبناء الفرد المسلم فالمجتمع المسلم.

و هذا الالتزام ليس قيداً على حرية الأديب، كما يعتقد دعاة التحرر في الفن و الأدب، بل هو ميزة الأدب الجاد، و روحه التي تهبه خصوصية المنشا و الهدف، كما أن الالتزام ـ قضية ـ حقيقة مقررة، و خطة مسلم بها في عالم الفن و الأدب.

و يستدل الشيخ الندوي على أهمية هذا البعد الوظيفي للأدب الإسلامي بما تركه أبناؤنا و كتابنا القدماء من أدب حي أسهم في ذلك الانقلاب الحضاري المتميز فقال: "كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، أو يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم و عقيدتهم مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم، و يفيض خاطرهم و يتحرق قلبهم، فتنهال عليهم المعاني، و تطاوعهم الألفاظ، و تؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من القلب فلا تستقر إلاّ في القلب.

٣ ـ الأدب الإسلامي و التسلية:

الأدب الـهـادف و الـجـاد مـنـاف لـلتسلية الرخيصة، و بخاصة حين تصبح الـتـسلية غاية أولى لقارئ الأدب، الباحث عن المتعة الزائلة قتلاً للوقت، و تسبة للنفس، دون إعطاء القيم الإيجابية في الأدب أي اعتبار. و هذا بلا شك مما يبعث الـسـلـبـيـة و الركود في المجتمع، و يعطل الكثير من الطاقات الحية في الأمة. و قـد أشار الشيخ الندوي إلى هذا المعنى فقال: "الأدب ليس أداة تسلية أو إزجاء وقـت (أو قـتـل وقـت كـمـا يـقـول بـعـض الأدباء) فـحسب، و إنما الأدب من أكبر الـوسـائـل لـلـوصـول إلى الأهداف النبيلة و للتأثير في النفس الإنسانية". فالأدب الإسلامي في نظر الشيخ الندوي ينبغي الا يكون هدفه الأول تسلية القارئ و مده من الوسائل و المضامين الإمتاعية فقط، بل هو أداة إيجابية لها أثر تغييري في الحياة لأنه وسيلة المهمة في البناء النفسي و الدفع الحضاري، و تغيير النفوس، و تـمـكينها من تجاوز السلبية و العجز، و بخاصة حين يأخذ الأديب المسلم على عـاتـقـه مـسؤولـيـة تـوجـيـه الـثـقافة نحو العمل الجاد، و مد المجتمع بالقيم الإيجابية الحضارية.

و نـفي التسلية الرخيصة عن الأدب الإسلامي لا يقتضي بالضرورة القضاء عـلـى جـانـب المتعة فيه، لأن الإمتاع غاية لا يمكن إلغاءها من الأدب، و إلاّ فقد تـمـيـزه الـفـنـي بوصفه أدبا، و القرآن الكريم نفسه أعطى هذا الجانب حقه من الاهـتـمـام، حـتـى عُدّ الامـتـاع الوجداني من الغايات الأساسية التي يهدف إليها الأسـلـوب الـقـرآنـي. إن الأدب الإسـلامـي أدب جـاد يـجـمـع بين الإمتاع و الإقناع، و تـمتزج فيه المتعة بالمنفعة، و تنتفي عنه التسلية المؤذية، لأنه أدب نابع عن الـرؤيـة الإسـلامـيـة الـتـي تـهـدف إلـى غرس الإيجابية في الـحياة. يقول الشاعر الإسـلامـي الـكـبـير محمد إقبال: "لا بارك اللّه في نسيم السحر إذ لم تستفد منه

الحديقة إلاّ الفتور و الخمول، و الذوي و الذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم و الأدب لوعة الحياة الدائمة. ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً و تنطفئ سريعاً؟ و ما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج و لا اضطراباً في البحار؟ لا تنهض الامم إلا بمعجزة، لا خير في أدب و لا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى".

٤ ـ الأدب الحي و الأدب المزخرف:

إن الأدب في تكوينه العام مرتبط بالنفس الإنسانية، لأنه تعبير صادر عن قواها الوجدانية و الفكرية، فهو يحيا بحياتها، و يجمد بجمودها، و تارة يكون كالكائن الحي بما فيه من قوة في العاطفة و العقيدة، و تارة يصبح جامداً لا حياة فيه بعد التجرد من إشعاع الروح و عمق التجربة.

و قد اهتم الشيخ الندوي اهتماماً كبيراً في كتاباته بهذا البعد الحيوي في الأدب الإسلامي فقال: "إنني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون، و له ضمير واع، و له نفس مرهفة الحس، و له عقيدة جازمة، و له هدف معين، يتألم بما يسبب الألم، و يفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت جامد، أشبه بالحركات البهلوانية و الرياضيات الجمبازية".

هذا هو الأدب الحي الذي يستطيع أن يبعث في النفوس روحاً جديدة بما يحمل من خبرة صادقة، و أفكار حية، و قيم نافعة، أما الأدب الجامد، الذي يسميه الشيخ الأدب المزخرف، فهو أدب فاقد للمنهج السليم، بعد ما التصقت به شروط و صفات و تقاليد أفسدته، و طمست نوره، فلا بد فيه من السجع و الصناعة، و لا بد فيه من البديع و المحسنات اللفظية، و لا بد فيه من تقليد من يُعَدُّ في الطبقة الاولى من الأدباء.

يـذهـب الـشـيـخ الندوي إلى محنة الأدب العربي تكمن في تسلط أصحاب الـتـصـنـع و الـتـكلف على الأدب، أولئك الذين يتخذون حرفة و صناعة، و غايتهم الأولى إثـبـات الـبـراعـة فـي الـتـنـمـيـق و الـتحبير، و إحراز الشهرة و المنفعة الـشـخـصـيـة، بعد التملق للأشخاص أو للهيئات، و أصبح هذا الأدب السائد بين الناس في هذا العصر كأنه تماثيل و صور لا حياة فيها.

و يـسـتـدل الـشـيـخ الـنـدوي على الأدب الإسلامي الحي بما وصل إلينا من كـتـابـات علمية و دينية عن علمائنا القدماء، و قد كتبها أناس لم يحترفوا الأدب و لـم يـجـعـلـوه صـنـاعـة، و قد كان لهذه الكتابات تأثير كبير في الناس على مر الـعـصور، و مازال تأثيرها مستمراً إلى الآن، و السر وراء تأثيرها يكمن في قوتها و جمالها، و كونها كتبت عن عقيدة و عاطفة، هذا إلى جانب تحررها من السجع و البديع و من التكلف و الزخرفة.

و يـؤكـد الـشـيـخ أن الـروح الـتـي تبعث في الأدب الحياة و البقاء و الخلود كامنة في صدق التعبير عن العقيدة و العاطفة. فإذا كان الأديب متحلياً بالصدق و الإخـلاص فـي الـتعبير عن فكره و عاطفته، فإن أدبه سيؤدي غايته من التأثير و الإقـنـاع، لأن الكلام إذا خرج من القلب كان محله القلب، و هذا هو الأدب الحي الـذي يـسـتـطـيـع أن يحرك النفوس و يبعث فيها الثقة و الرغبة في العمل الجاد المثمر.

و عن كـيـفـيـة وصول الأديـب المسلم إلى هذا المستوى الراقي من الأدب يـقـول الـشيخ الندوي: "إن الإيمان و صفاء النفس، و الاشتغال بالله و العزوف عن الـشـهـوات يمنح صاحبه صفاء الحس، و لطافة النفس، و عذوبة الروح، و نفوذاً إلـى المعاني الدقيقة، و اقتداراً على التعبير البليغ، فتأتي كتابته كأنه قطعة من نفس صاحبها، و صورة لروحه".

إن الأدب الإسلامي الذي يسهم في التغيير الحضاري هو الأدب الحي الذي يدخل في النفوس فيمنحها القدرة على تجاوز السلبية و العجز، و يكسبها الفاعلية و النشاط و الإرادة لتفجير الطاقات المعطلة، و تزويد العقول و القلوب بالأفكار الحية حتى تصل إلى المستوى الذي يؤهلها إلى التغيير الإلهي، قال اللّه تعالى: (إن اللّه لا يُغيّرُ ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم) [الرعد: ١١].

٥ ـ الأدب الإسلامي و قضايا الحضارة:

إن الأدب ـ لكونه أحد عناصر التربية في المجتمعات المتمدنة ـ يسهم إسهاماً فعلياً في بناء الحضارات أو يكون سبباً في هدمها، فقد يكون الأدب مقوماً أساسياً في التربية و البناء و التوجيه، و يصبح قوة دافعة للشعوب نحو التغيير و تجاوز المعوقات و السلبيات، و قد يكون على النقيض من ذلك حين ينحرف عن مساره الإيجابي، و يصبح معوَلاً من معاول الهدم، يروج للقيم الهدامة، و الأفكار القاتلة، و ينخر في الجسم السليم فيصيبه بالشلل، و التاريخ يدعم هذه الحقيقة بشواهده الكثيرة، و خاصة تاريخ الحضارة الإسلامية.

و الحضارة الإسلامية في أيام عزها مثال يحتذى به في قيم الخير و العدل و الموازنة بين الحاجات الروحية و المادية، فقد أعطت الحضارة الإنسانية المفهوم السليم الذي ينبني على فكرة التوحيد، و مساواة البشر أمام اللّه، و احترام الإنسان المؤمن الفعال الذي يؤدي بسلوكه و عمله رسالة الحق و الخير و الجمال.

و قد كان الأدب الإسلامي وجهاً مشرقاً من وجوه الحضارة الإسلامية في أيام ازدهارها و قيادتها للعالم، و ذلك بمساهمته الحقيقية في توجيه الثقافة و شحذ الهمم، و بعث روح العمل و الفاعلية بين أبناء الأمة، و كان سلاحاً فعالاً

فـي أيـدي الدعاة و المخلصين، و في بث الدعوة، و قمع المنكر و البدعة. و حين بـدأ إشـعـاع الـحـضارة الإسلامية بالأفول، رأيت الأدب يتجه اتّجاهاً سلبياً غلبت عـلـيـه الـصـنـعـة و النفاق، و الشهوة و الانحراف، و بدأ يفقد شيئاً فشيئاً قيمته الروحية و الاجتماعية التي فيها حياة الأمة بكاملها.

فـالأدب الإسـلامـي ـ أو الأدب الـحـي كما يسميه الشيخ الندوي ـ مرتبط ارتـبـاطـاً وثـيـقـاً بازدهار الحضارة و نهضة الأمة، لأنه الروح التي تحيي الجسد و تـبـعـث فيه الحركة و النشاط، و قد نقل الشيخ الندوي هذا المعنى عن الشاعر الإسـلامـي الـكـبـير محمد إقبال الذي قال: "لا خير في نشيد شاعر، و لا في صوت مغن، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة و الحماس".

و إذا كـان الـشيخ الندوي في تناوله لموضوع النهضة الإسلامية و شروطها الـمـوضـوعية قد أعطى تطوير العلوم و تنظيمها، و أسلمتها و استقلالها أهمية كـبـيـرة، فـإنـه على غرار ذلك لا ينسى البعد الحضاري للأدب و أهميته في البناء الـحـضـاري. فـكـثـيـراً مـا كان يكرر هذه الجملة : إننا نحتاج إلى أدب ينفخ في نفوسنا حياة جديدة. أي أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى أدب حي يحمل رسالة حـضـاريـة تـغـيـيـريـة، تـهـدف إلـى تـكـوين الـفـرد المسلم فالمجتمع المسلم، و تغيير القيم و أنماط السلوك السلبية التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم، و ذلك بـإثـارة الرغبة في النفوس للعمل الجاد، و ببث الفاعلية المتوقدة لصنع شيء له قـيـمـة فـي الـحـيـاة، و بـنـاء حضارة ترضى الله و رسوله صلى الله عليه و سلم و تجلب احترام الآخرين.

و قـد لـفـت الـشيخ الندوي أنظار المعنيين بالأدب و الكتابة و دراسة الأدب و تـاريـخـه إلـى ضـرورة الاعتناء بهذا الجانب المهم في الأدب، الذي يستطيع أن

يـغير الاتجاه من السقيم إلى السليم، و من سيطرة الأهواء و الغرائز إلى سيطرة الأخـلاق و القيم النبيلة، و من الاستسلام للكسل و الكساد و الخمول إلى الحرص عـلى الحركة و النشاط و الفاعلية، إذ الخروج من هذا المأزق الحضاري يقتضي الاسـتعداد الروحي و الاستعداد الصناعي و الحربي و الاستقلال التعليمي، و وجود الـرؤيـة الحضارية الواضحة، و البناء النفسي المتكامل، فليست القيادة بالهزل، إنـمـا هـي جـد الـجـد، فـتحتاج إلى جد و اجتهاد، و كفاح و جهاد، و استعداد أي استعداد.

٦ ـ أدب الرّحلات:

أولـى الشيخ أبو الحسن الندوي عناية خاصة بأدب الرحلات و مارسه كتابة و تـنـظيراً منذ الخمسينيات محاولاً التجديد فيه شكلاً و مضموناً، و قد وجه جل اهـتمامه إلى ربطة بالرؤية الإسلامية، و إدخاله في دائرة الأدب الإسلامي بعد ما لاحـظ أن كـثـيـر من الأدب لا ينطلق من مبادئ واضحة في الفكر و التصور، و لا يـعـبـر بصورة جيدة عن عاطفة الأديب و عقيدته، مما يفقده طابعه الفني الذي يـمـنـحه الحياة و الجمال، و يخرجه عن خطّة الالتزامي بوصفه تجربة إنسانية تـسـتحق الذكر و التنويه. و آراء الشيخ النقدية في هذا الفن الأدبي تتمحور حول ثلاثة مقاصد.

أولاً: يركز الشيخ الندوي على أهمية النظرة الشاملة للمجتمع الذي يكتب عـنـه الـرحـالـة، فـقـد لاحـظ أن كـثـيـراً من كتب الرحلات يغلب عليها الجانب الـجـغـرافـي، و تـعـتـنـي بالآثار و المشاهد أكثر من أي شيء آخر، و لا تتناول في الـغالب إلّا جانباً من جوانب الحياة يتلاءم مع ذوق الأديب. فإذا كان الرحالة أديباً مـثـلاً اقـتصر على ذكر الأدباء المشهورين و تصوير الحياة الأدبية في تلك البلاد،

و إذا كـان مـؤرخـاً اهتم بذكر الجوانب التاريخية و كل ما يمت بصلة إلى ماضي تـلـك الـبـلاد. و هـذا لا يـعطي صورة متكاملة عن المجتمع و الحياة، و العلاقات و انماط السلوك السائدة، و العادات و التقاليد وغيرها من الأمور المهمة في أدب الرحلة.

ثـانـيـاً: يـنـبـه الشيخ الندوي أيضاً إلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث و الـمـشـاهـدات من قـبل الأديب لتبقى المشاعر و الانطباعات حية في الذاكرة. لأنـه إذا مـر عـلـيـهـا زمـان و لـم تـسـجل فستفقد حيويتها و صدقها، فالأحداث و الـمـواقـف أشبـه بـالظلال و الأمواج لا تدون و لا تبقى في الذهن، و لا يستطيع الأديـب أن يـسـتـعـرضها بدقة و عناية بعد مرور فترة من الزمن، و لا يستطيع أن يستعيد ما شعر به، و ما ترك الحادث فيه من أثر نفسي.

ثالثاً: و يؤكد الشيخ الندوي دائماً أهمية ظهور ذات الأديب و شخصيته في أدب الـرحـلـة، فـلا بد أن يعكس عاطفته و عقيدته في عمله، لأن هذا العمل إذا تـجـرد من الـعـاطـفـة و الـعقيدة و المشاعر تحول إلى آلة تصوير باردة تؤثر في الـنفس، و لا تصلح للبقاء و سنقف الآن عند كتابين في أدب الرحلات طبق فيهما الـشـيـخ هـذه الآراء وفـق رؤيـتـه الإسلامية للأدب و هما كتاب مذكرات سائح في الشرق العربي، و كتاب أسبوعان في المغرب الأقصى.

أ ـ مذكرات سائح في الشرق العربي:

خـرج الـشيخ الندوي سنة ١٩٥١م في رحلة إلى بلدان المشرق العربي ليدرس أوضـاع هـذه الـبـلـدان الـديـنـية و العلمية و الاجتماعية، و ليستفيد من تجارب علمائها و رجالاتها، و ليعرف ببلاده شبه القارة الهندية و تجربة الدعوة و الإصلاح فـيـهـا. و قـد حـرص في هذه الرحلة ـ كما ذكر ـ على تسجيل كل حديث، و كل

انطباع في يومه غالباً، و أن يتحرى الدقة في النقل، و الصحة في الرواية، هذا فضلاً عن حرصه على تصوير المجتمع بنظرة متكاملة، و إبراز شخصيته و مشاعره و أفكاره و ما يجول في خاطره حول كل حادث و موقف عاشه أثناء الرحلة، و قد تميز هذا الكتاب بجملة من الخصائص الفكرية و الأسلوبية تتمثل فيما يأتي:

أولاً: إن قارئ هذه المذكرات يدركِ أن كاتبها حريص على رسم صورة متكاملة الجوانب للمجتمع الذي عايشه في تلك المرحلة من حياته. و يستطيع القارئ أن يأخذ فكرة واسعة عن الحياة الفكرية و الثقافية و السياسية و الاجتماعية، و أن يعرف التيارات الثقافية، و المستويات الحضارية لتلك المجتمعات المتنوعة، مما يعطي هذا العمل قيمة تاريخية و حضارية مهمة فضلاً عن القيمة الأدبية و الفكرية التي أكسبته طابعه المتميز.

و الدارس لهذه المذكرات يلاحظ اهتماماً كبيراً بالجوانب الدعوية و الأدبية، لعلاقتها المباشرة بشخصية الكاتب، فهو رجل يحمل رسالة فكرية حضارية و يعيش الهم الإسلامي، و يحس و يشعر بآلام المسلمين و مشكلاتهم في هذه البلدان التي زارها، و هو من ثم رجل فكرة و دعوة يريد التعبير عن مشاعره و تجسيد عقيدته بجلاء و وضوح في هذا العمل، و هو الأمر الذي طالما أكده في نظراته النقدية لأدب الرحلات.

و يمكن إجمال القضايا المعروضة في المذكرات هذه في فكرة واحدة و هي أن الشيخ الندوي يتألم للواقع الإسلامي المؤسف بمستوياته المختلفة، فهناك ازمة حضارية في البلاد العربية، و السبب يعود إلى تفسخ في الأخلاق، و استبداد في الحكومات، و الاستقصابات الحزبية في السياسة، و انصراف بالكلية عن الدين، و عبادة المادة.

و لا سبيل إلى التحضر إلّا بوجود الشعور الديني الصحيح القوي في الشعب. و لا يكون هذا إلّا عن طريق الدعوة العامة، و الاتصال بالشعب و تربيته الدينية و إيجاد الوعي في طبقاته ثم في الجمع بين العلم الديني و المعارف العصرية.

و يؤكد الشيخ الندوي ان استعادة روح التحضر إلى المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تكون إلّا بالجمع بين العاطفة القوية، و العقل الصحيح، اي بتحقيق شروط الإقتناع التام لقوى النفس المسلمة لتتولد لديها الإرادة الكافية للانطلاق نحو العمل و الحركة و الإبداع.

و مما يجذب الانتباه في هذه المذكرات اهتمام الشيخ الندوي بموضوع أسلمة الأدب، و ضرورة قيام جبهة قوية ضد الأدب المنحرف الذي اثر تاثيراً سيئاً في الامة و اسهم في إفساد الطبائع و الاخلاق، و شارك مشاركة اكيدة في تردي الأمة الحضاري.

ثانياً: تميز اسلوب الكاتب في هذه المذكرات بوضوح العبارة، و سلامة الألفاظ، و دقة المعاني. فالكاتب كما يظهر يحب لاسترسال في الكتابة مع البعد عن التكلف و التصنع مما أكسب كتابه أسلوباً يجمع بين الفائدة و المتعة، و قد جاء الكتاب و كأنه قطعة من مؤلفه، فالأسلوب هو الرجل كما قرر النقاد، و يكفيك أن تقرأ هذا الكتاب لتعرف جوانب كثيرة من شخصية كاتبه، و منهجه في الكتابة الادبية.

ب ـ أسبوعان في المغرب الأقصى:

قام الشيخ ابو الحسن الندوي برحلة إلى المغرب الاقصى سنة ١٩٧٦م لحضور مؤتمر حول الجامعات الإسلامية، و كان أن قضى اياماً زار خلالها مناطق من هذا البلد الجميل، و اطلع على آثاره و مكتباته، و تعرف على شعبه

و علـمـائـه، و كتب هذه المذكرات معبرا فيها عن مشاعره و انطباعاته باسلوب جميل بليغ.

يـغـلـب عـلـى هذه المذكرات الطابع التاريخي، غير أن كاتبها حريص على تـسـجـيـل انـطـباعاته عند كل مشهد أو موقف يتعرض له، فجاء الكتاب مصوراً لـجـوانـب من الـحياة بمستوياتها المختلفة في هذا البلد الإسلامي، و معبّراً عن شخـصـيـة الـكـاتب الذي ينطلق دائماً من فكره و عقيدته و عاطفته الإسلامية حين يتعامل مع الاشخاص أو الافكار او الاشياء.

و يـرى كـاتب هذه المذكرات أن أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ و الـعـوز و أشد مـا يـقـاسـيـه من أزمات، هو الضعف الإيماني و الفساد الخلقي و الـتـزعـزع الـعقدي، يقول: "ألق نظرة على العالم الإسلامي و انظر ماذا يعوزه، إنـه غني بكل شيء، بعدد أفراده، و بوسائله و بثرواته، و بثقافته و بنكائه، و لكنه عـلـى الـرغـم من نلـك كـلـه لا يملك ثقلاً في الميزان العالمي، و لا دوراً مؤثراً في اتـجـاهـات العالم و أوضاعه و حوادثه، و الأزمة الإيمانية هي سبب هذا التراجع الحضاري".

و يـدعـو الـشـيـخ الـنـدوي إلـى ضرورة التمسك بقيم الحضارة الإسلامية، و طـابـع الأمة الخاص، و الاستفادة من الحضارة الغربية في مجالاتها الإيجابية و تـجـاربها المفيدة التي تتفق مع تعاليم الإسلام، كى يعود للأمة عزّها و مكانتها في العالم.

و يـبـقـى أن نـشـيـر إلى أن هذه المذكرات كتب باسلوب جميل مؤثر، على الرغم من ترجمتها من الاردية إلى العربية.

في النقد الأدبي

١ ـ التأصيل الإسلامي للنقد:

قبل الحديث عن آراء الشيخ الندوي النقدية التي شملت موضوعات أدبية متنوعة، لا بد من الحديث عن أهمية النقد في ظل المفهوم الإسلامي الشامل، و هي أهمية لها خصوصيتها و مذاقها المتميز من زاوية أن الإسلام وضع مقاييس لعملية الإبداع، كما أن وضع مقاييس لتقويم هذه العملية وفق التصور العام الذي تجتمع فيه قيم الخير و الحق و الجمال كما هو مفصل في كتاب اللّه، و كما بينته السنة النبوية الشريفة.

و لا نريد أن نقف عند تفسير المفاهيم الكثيرة حول كلمة نقد، و هل النقد علم أم فن؟ و يكفينا القول إن النقد وسيلة تقويمية للأدب و الفن، و سواء قام هذا التقويم على قواعد علمية أو على مجرد الذوق و التأثر و الانفعال، فإن الغاية من النقد هي التقويم الإيجابي لعلمية الإبداع الأدبي، لأن العلاقة بين الأدب و النقد علاقة تكاملية، يوجد كل واحد منهما الآخر، و يسهم كل منهما في تطوير الآخر، و مع خصوصية كل من الأدب و النقد في الوسائل المستخدمة إلّا أن الغايات و الأهداف قد تكون واحدة عند خطاب المتلقى، و بخاصة عند أولئك الذين يعدون النقد فناً يساهم في تربية الذوق السليم لدى الإنسان و تنميته، و الأخذ بيده نحو معرفة عناصر الكمال و الجمال في فنون الأدب على اختلاف أشكالها.

و النقد في أيامنا هذه أصبحت له قواعده و مناهجه الخاصة، و أصبح له جمهوره العريض. و قد تفنن الغربيون في تطوير نظرياته حتى أصبح ما أنجزوه في ذلك مثلاً أعلى عند بعض النقاد العرب و المسلمين يستمدون منه آراءهم،

و يقلدونه حذو الحافر بالحافر، مما ولد ظواهر نقدية غربية في الساحة الثقافية.

و قد كان تلقيب هؤلاء النقاد بلقطاء الموائد الغربية عند بعض الدارسين نتيجة للأخطار التي يتعرض لها الأدب الإسلامي بفعل الأفكار التخريبية التي يروجها دعاة التغريب و التي ظهرت ملامحها منذ بدايات هذا القرن عند أدباء و كتاب من أمثال طه حسين و سلامة موسى و لويس عوض وغيرهم.

إن الآثار السلبية لمدارس النقد الغربي في النقد العربي الإسلامي أمر جلي يلاحظه كل ممارس و متابع لأحوال الحركة النقدية في مسيرتها المعاصرة، و قد أشار إلى هذه الإشكالية بعض النقاد منهم سيد قطب و نجيب الكيلاني رحمهما اللّه، و قد تنبه أيضاً إلى ذلك الشيخ الندوي منذ وقت مبكر حين دعا دعوة صريحة إلى ضرورة التحرر من رق الفلسفات الغربية، و الحضارة العصرية و نظرياتها غير الدينية.

و ما تنبغي الإشارة إليه أن النقد الغربي في عمومه أصبح لا يقيم وزناً للقيم الخلقية في الفن و الأدب، حيث أن الاهتمام بالقيم الجمالية سيطر على أغلب الرؤى النقدية، و لذلك أصبحت المعايير الخلقية و الدينية و المضامين الفكرية، غيرَ ذاتِ مغزى للعمل الفني، و أصبحت مهمة الناقد هي تفسير الأشكال الأدبية بالدرجة الأولى، و ليس الحكم على المضمون بالجودة أو الرداءة. و مثل هذه الأحكام النقدية التي تأثر بها الكثير من أدبائنا و نقادنا، و بخاصة عند دعاة الحداثة بمفهومها التغربي كما هو رائج هذه الأيام في أسواق الدعاية و الإعلام، قد ظهر خطرها الجسيم على الفكر الإسلامي، و على الأدب الجاد، و على مستقبل الثقافة الذاتية التي هي الحصن الحصين الحافظ لهويتنا الإسلامية و وجودنا الحضاري.

و قد ظهرت مثلُ هذه الدعوات النقدية الرامية إلى استبعاد القيم الخلقية عـنـد طه حسين حين قال: "الكلام لا يكون أدباً حتى يكون فيه هذا الجمال الذي تـجـده فـيـمـا تنتجه الفنون الجميلة الأخرى، و ليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون، ليكن موضوعه جميلاً أو قبيحاً، محبباً أو بغيضاً، فليس يعنيني من الادب إلاّ مـا يـحـدث فـي نـفـسـي ما يحدثه الأثر الفني من الشعور بالجمال، فالجمال مـقـيـاس أساسي للحكم على الأدب، و حيثما وجد الجمال في الكلام كان الأدب، و حيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون".

و المعايير الجمالية التي ينطلق منها النقاد الغربيون و من سار في فلكهم من نقادنا المعاصرين في فهم الأعمال الأدبية و تذوقها معايير قلقة لا تثبت على مـبدأ، و لا يمكن الاتفاق عليها دون الرجوع إلى ثوابت فكرية، إذ للجمال مقاييس مـخـتـلـفة تحددها الديانات الإلهية، و الفلسفات البشرية، و الثقافات المتباينة. و عـلـى هذا الأساس من التذوق الجمالي تنشأ الأفكار كما يقول المفكر الإسلامي مـالـك بن نـبـي، و تـتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة من الحضارات بطابع مميز.

فـالـجـمـال لا بـد لـه من مرجعية، و تتمثل مثل هذه المرجعية أساساً في قـاعـدة فـكرية محددة. و مع أن الجمال أحد العناصر التي يقوم عليها الأدب، إلاّ أنه أيضاً أحد مرتكزات العملية النقدية التي تساعد على فهم النصوص الادبية و تـفـسـيرهـا، و لـكن يـبـقى الجمال عنصراً حيوياً من عناصر أخرى كثيرة لها حضورها الدائم في عملية الإبداع الأدبي و ما قد يثار حولها من أحكام نقدية.

إن الـحـاجـة إلى تأصيل النقد وفق هذه المعطيات أصبحت ضرورة ملحة فـي هـذه الأيام، و ذلـك لـبـلـورة نـظرية نقدية إسلامية تقف في وجه النظريات

الـغـربـيـة، و تـسـهـم فـي تـقـويـم الأدب الـمـنـحرف المنتشر في الساحة الفنية و الأدبيـة، و تواكب مسيرة الأدب الإسلامي الذي خطا خطوات راسخة في الربع الأخـيـر من هـذا الـقـرن. و مـهـما كانت قلة مصادر النقد الأدبي الإسلامي فإنها بـلاشـك سـتـسـهـم ـ بتوافرها في قادم الايام ـ في إزالة الشبهات المترسبة في أذهـان كـثـير من ابـنـاء الأمة الإسلامية فتتضح الصورة الصافية للأدب الجاد، و النقد الملتزم.

و عـلـى الرغم من الجهود القيمة التي قدمها بعض المفكرين المعاصرين مـثـل سيـد قـطـب، و أبي الحسن الندوي، و نجيب الكيلاني، و عماد الدين خليل وغـيـرهم، لتأصيل خصائص المذهب الإسلامي في الأدب و النقد، إلّا ان الطريق مازال طويلاً، و هذا ما أشار إليه الشيخ الندوي في بعض كتبه حين دعا في عمق إيـجـاز إلـى الـنـقـد الإيـجـابـي الـذي ينبغي أن يحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسـلامـي من أفـكـار المستشرقين وغيرهم من أصحاب النظريات الغربية، قال: "أمـا بـدون الـجـمـع بين هذا العمل الإيجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية، و أبـحـاث عـمـقـيـة حـول الـمواضيع الإسلامية مع الإحالة إلى المصادر بضبط و إتـقـان، و الـفـهـارس الـمـفـصـلـة المفيدة المتنوعة، (و ذلك كله مما يعد من خـصـائـص المستشرقين)، و الإفادة من مواد لم تستخدم بعد، و كتب و مظان لا يـتـبـادر إلـيها الذهن، و ليست في صميم الموضوع و لا من التاريخ الرسمي الذي يـدور حول البلاط و الأسر الحاكمة و الحروب و الحوادث الجسيمة، و كل ذلك مع تـحر للدقة و الوجازة و البعد عن التنميق و الاستطراد، و بين العمل العلمي و هو المحاسبة العلمية في أسلوب علمي نزيه، و كلام وقور رزين، و لفظ موزون، بعيد عن الـتـهـكـم و الـتـنكيت، و التجني و الافتراض، فإن كل ذلك يفقد النقد قيمته الـعلمية و وقعه النفسي، و بدون الجمع بين هذا و ذاك لا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير المستشرقين المسمومة، و سيطرتهم العلمية".

فـبـمثل هذا العمل الإيجابي الجاد الذي يحرص الشيخ على أن يتبناه أهل الاخـتـصـاص، يـمكن تأصيل الفن الإسلامي بعامة، و بلورة رؤية نقدية إسلامية تـعـيـد لـلـنـقـد أثـره الإيـجـابـي في الحياة، و تزيل الغشاوة و الاضطراب اللذين أحـدثـهـمـا الـنـقـد الغربي بمدارسه المتباينة، و بأفكار رواده المتناقضة، و بآراء مـسـتـشـرقـيـه المشوسة. فمنطق الفكرة الإسلامية في ميدان الفنون قائم على أسـس الـتـصـور الإسـلامـي الـذي لا يعرف سوى الإيجابية و الفاعلية في الحياة، و ينأى عن العبث و الفوضية و العدمية و الإفلاس و ما إلى ذلك.

فـالـفن الإسـلامي ـ كما أصله الدكتور عماد الدين خليل ـ يأبى الانحراف مـمـثـلاً فـي تـألـيـه الإنـسـان (كـلاسـيكيا)، و إغراقه الذاتي الأناني (رومانسيا)، و تمجيد لحظات الضعف البشري (واقعاً)، و تصوير الانحراف الفكري أو النفسي أو الأخـلاقـي (وجـوديـاً)، فليس ثمة عبث و لا جدوى كما يرى البرت كامو، و ليس ثـمـة لا مـعـقـولـيـة للحياة و الوجود كما يرى كافكار، و ليس ثمة حرية أخلاقية مـطـلـقـة من كـل قـيـد كـمـا يـرى سارتر، ذلك أن الفن الإسلامي يستمد تجاربه الـبـاطـنـيـة من خـلال الحقيقة لا الزيف، و من الاستقامة لا الانحراف، فللوجود غـايـة [أفـحـسـبـتم أنما خلقناكم عبثاً و انكم إلينا لا تُرجعون] (المؤمنون:١٥٥)، و لـكـدح الإنـسـان جـدوى [يـا أيّـهـا الإنـسـان إنـك كـادح إلـى ربك كدحاً فمُلاقيه] (الانشقاق: ٦)، و للحياة معقولية لأنها صدرت عن إرادة اللّه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها و لا من خلفها.

٢ ـ وظيفة النقد الإسلامي:

إن الـنـقـد فـي الـرؤية الإسلامية الشاملة رسالة تعليمية و توجيهية، و هو شـريـك الأدب و الـفن بـنـحـو عـام فـي بـنـاء الـذوق الـسليم و تربيته لدى الناس، و تـزويدهم بالغذاء الفكري و الروحي، و إشراكهم في المتعة النظيفة، و إدخالهم

في عالم الأفكار الموجهة للطاقات نحو الخير في المجتمع، و المفجرة للقوى المؤمنة برسالة الحق و الخير و الجمال، في سبيل تأدية وظيفتها الحضارية الإيمانية في زمن سيطرت فيه الفلسفات المادية، و المدنيات الوضعية.

فالنقد في الرؤية الإسلامية نقد ملتزم، و هذا الالتزام نابع من تصور الناقد المسلم و ثقافته و تميزه الحضاري. و النقد ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة يُلْجَؤُ إليها لتقويم الأدب و الفن و جعلهما في خدمة الرسالة الإلهية. و النقد الإسلامي الملتزم يسعى ـ كالأدب الإسلامي ـ إلى أن تسود الإيجابية و الفاعلية في الحياة، و يعمل على تقويم السلوك الإنساني وفق التصور الإسلامي، و من هنا يأتي تميز المفهوم الإسلامي من المفاهيم النقدية الأخرى.

و مع وضوح الرؤية النقدية الإسلامية في مبادئها النظرية العامة، إلّا أن النقد التطبيقي الإسلامي الذي يتناول الأعمال الادبية المتنوعة بهذه الرؤية هو الذي ينبغي ان يتحقق سريعاً و بقوة و كفاءة لإزالة الشبهات المطروحة في الطريق، و توضيح معالم النظرية النقدية الإسلامية، و كشف العيوب و المزالق التي تقدمها النظريات الغربية، بالمنهج العلمي المؤصل، و هذا ما أشار إليه الشيخ الندوي حين دعا إلى النقد الإسلامي العلمي الذي يحسن التعامل مع النظريات الغربية الخطيرة على العقيدة و السلوك، قال: "لقد مضى علينا قرن كامل و أوربا تغتصب شبابنا و عقولنا، و تنبت في عقولنا الشك و الإلحاد و النفاق، و عدم الثقة بالحقائق الإيمانية و الغيبية، و الإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية و السياسية، و نحن معرضون عن مقاومتها، معتمدون على ما عندنا من تراث، مضربون عن الإنتاج الجديد، معرضون عن فلسفتها و نظمها و محاسبتها محاسبة علمية، و نقدها و تشريحها كتشريح الأطباء الجراحين، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة، و بالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة،

حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان و العقيدة، و ملك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيل لا يؤمن بمبادئ الإسلام و عقيدته.

و فضلاً عما نكره الشيخ الندوي عن وظيفة النقد الإسلامي المنتظرة منه، فإن الرسالة الكبرى هي تصحيح الخطأ الذي وقع فيه النقد الحديث حين تحول في كثير من المواقف إلى نوع مقيت من الدعاية و الإعلام، و أصبح ميداناً للجدال المذموم، يبيح تشويه القيم، و انحراف السلوك. و قد غلبت عليه هذه الصفات السلبية حتى ضاع الكثير من القيم الجمالية و الأخلاقية من جراء الصداقات و التشرنم، و سيطرة القيم المادية في مجالات الأدب المختلفة و بخاصة في السينما و المسرح.

٣ ـ صفات الناقد المسلم:

نكر في السابق أن النقد الإسلامي رسالة تعليمية و توجيهية، و هو في تكامله مع الأدب الإسلامي ضرورة حياتية في المجتمع الإسلامي، فهما مثل الروافد المائية النظيفة التي تمد النهر بالغذاء و الماء و الاستمرارية. و لتحقيق هذه الغاية السامية لا بد من وجود الأديب المسلم بالدرجة الأولى، ثم الناقد الأمين الذي يستطيع أن يقوم بواجبه، و يؤدي وظيفته حارساً لقيم المجتمع المسلم، و ينوق طعمها الطيب في حضارة الأجداد، و تقديمه للرؤي الإيمانية المقومة للسلوك المعوج، و منح الإنسان التوازن الروحي و المادي، و التصور الصحيح عن حقيقة وجوده و مهمته في الحياة.

و لنتساءل: ما الشروط التي من شأنها إيجاد هذا النوع من النقاد، و تشكيل هذه الرؤية الإيجابية لديهم؟ و هذا هو الجانب الذي نبه إليه الشيخ الندوي في بعض كتبه، إذ حدّد شروطاً واضحةً لناقد الأدب تجمع بين

الخصائص الذاتية و المهارات الموضوعية. فالناقد الأدبي في حاجة إلى الشجاعة و الصبر و الاحتمال، فضلاً عن رحابة الصدر، وسعة النظر. و فضلاً عن ذلك كله ينبغي الا يكون ضيق التفكير جامداً متعصباً لفهمه للأدب متعصباً لبلدٍ أو لطبقةٍ أو لعصرٍ، بل يجب ان يكون حر التفكير، واسع الأفق، بعيد النظر، متطلعاً إلى الدراسة و التجربة، واسع الاطلاع على الكنوز القديمة.

و مثل هذه الصفات التي يركز عليها الشيخ الندوي في غاية الأهمية في النقد الإسلامي، و لعل الشيخ ـ في حدود علمنا ـ هو أول من أشار إلى هذه الصفات الجامعة بين الاستعدادات الذاتية ـ مثل الشجاعة و الصبر و رحابة الصدر ـ و الموضوعية العلمية مثل سعة الاطلاع، و حرية التفكير، و عدم التعصب، و التجربة، و هي صفات من شانها ـ إن توافرت في ناقد موهوب ـ بلورة رؤية نقدية سليمة تسهم في بناء الأدب و تطويره، و تشكيل الذوق السليم لدى المتلقّي، و ذلك يمده بما يحتاج من قيم جمالية و فكرية و اخلاقية.

و قد جرت العادة عند نقاد الأدب ـ كما هو شائع بين الدراسين ـ على في التركيز على الصفات المتعلقة بعملية النقد، و ذلك بالإشارة إلى التجرد التام من الالتزام، و التعامل مع العمل الأدبي في شكله بالدرجة الأولى، ثم مضمونه، دون أن يكون للناقد أي أثر في فهم هذا المضمون و توجيهه وفق المبادئ التي يؤمن بها، إذ الالتزام ـ كما يزعمون ـ يقيد حرية الأديب و الناقد على حد سواء.

و إيمان الشيخ العميق برسالة الناقد المسلم يندرج ضمن إيمانه بالرسالة الكبرى التي تنتظر المسلم في الحياة، و هي رسالة الدعوة إلى الله التي صداها في جلِ كتابات الشيخ، فقد ملأت قلبه و روحه، و أخذت مساحة كبيرة من فكره و عقله. فكثيرا ما عبر عن الحاجة إلى رجال ينقطعون إلى الدعوة، و يقفون لها

علمهم و مواهبهم و كفايتهم، و لا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، و لا يحملون لأحد حقداً، ينفعون و لا ينتفعون، و يعطون و لا يأخذون.

٤ ـ النقد وسيلة و ليس غاية:

إن إزالة اللبس و الخلط اللذين قد يقع فيهما كثير من دارسي الأدب و النقد في تحديد هوية فن أو علم من حيث هو وسيلة أو غاية، قضية ذات أهمية كبيرة، و خاصة في الرؤية الإسلامية التي تفرق في نظرتها المطردة بين الوسائل و الغايات، و تَعُدّ التفريق بينهما ضرورياً و مهماً منذ البداية لوجود الضوابط الشرعية و العقدية التي تُعني بهذا الأمر عند الحديث عن أية حركة أو سلوك إنساني في الحياة. و لذلك كان من واجب الأدباء و النقاد و المفكرين المسلمين تحديد هوية النقد الإسلامي بعَدّه وسيلة فنية و علمية يُلجَأ إليها لأداء غايات سامية في المجتمع، و يردون بذلك على أولئك الداعين إلى النقد غاية في حد ذاته، و اعتبارهُ فناً من الفنون التي يأتي التعبير عنا بحرية مطلقة لتكون إحدى غايات الإبداع.

و قد أشار الشيخ الندوي ـ و هو الأديب المسلم، و الناقد الملتزم ـ إلى هذه القضية معتبراً أن الفنون جميعها وسائل ينبغي أن يكون هدفها بعث الحياة و الروح المتجددة في النفوس الخامدة، و القلوب الجامدة، و هي غاية حضارية تميز رغبة الشيخ و طموحه الغامر بالتفاؤل، الحريص دائماً على إعادة الأمة الإسلامية إلى مركز القيادة و السيادة كما ذكر في كتابه الطريق إلى السعادة و القيادة للدول و المجتمعات الإسلامية الحرة، فقد قال بجلاء و وضوح: "الحقيقة أن الأدب و الشعر، و الفنون الجميلة، و الحكمة و الفلسفة، و التأليف و التصنيف، ليس من وراء كل ذلك إلاّ غرض واحد، و هو أن تتولد في صاحبه

حياة جديدة، و إيمان جديد، و بالتالي في الأمة الإسلامية التي هو عضو فيها، و المجتمع الذي هو جزء منه".

و تُعَدُّ نظرية "الفن للفن" الرائجة في النقد الغربي المعاصر من أبرز النظريات التي تجعل الإبداع الفني و النقد مستقلين عن الغايات العلمية، و القيم الخلقية، و لذلك قال كروتشه (Croce): "إن القيم الأخلاقية أيضا يجب الا تكون لها أهمية عند تقويمنا للعمل الفني و تذوقنا له، فنحن في نقدنا للعمل الفني لا نعيب على الموضوع ذاته، بل الطريقة التي يعالج بها الكاتب ذلك الموضوع، و إذا كان التعبير الفني كاملاً فلا يهمُّنا الموضوع".

فالفن عندهم ليس له غاية، و لا اعتبار بعد ذلك للقيم الأخلاقية و الاجتماعية و العملية إذا كان الهدف هو التقويم الصحيح للعمل الفني، و هذا مخالف تماماً للنظرية النقدية الإسلامية التي تجعل الفنون و الآداب و الأبحاث النقدية وسائل في خدمة الأفكار و التصورات و المبادئ الدّينية و الأخلاقية.

٥ ـ القيم و أثرها في النقد الإسلامي:

عند الحديث عن القيم و مسألة حضورها في النقد بنحو عام، و في النقد الإسلامي على وجه الخصوص، لابد من الإشارة إلى أن هذا الموضوع له وجود قوي في الأفكار و الفلسفات المتعلقة بتطور المجتمعات عند كثير من المفكرين الغربيين و المسلمين، ذلك أن قضية القيم ذات علاقة مباشرة بالمجالات الروحية و الثقافية و السياسية و الاقتصادية، وغيرها من مجالات الحياة الحيوية. و لا نريد في هذا المقام التفصيل في هذا الموضوع، إذ نحن ملتزمون بالحديث عن نظرية النقد الإسلامية كما جاءت ملامحها في كتابات الشيخ الندوي، و لكن نشير إلى أن الإشكالية التي يعرض لها بعض المفكرين

الغربيين خاصة، و المتمثلة في وحدة منظومة الحضارة الغربية، و أنه لا يمكن رفـض فـكـرها المادي و قيمها الخلقية النفعية و الأخذ بتقنيتها العلمية فقط، و أنـه إذا الـمـسلمون التقدم العلمي و الصناعي من منظومة الحضارة الغربية، فـلا بد لهم من الانخلاع عن شخصيتهم الحضارية، و قيمهم الروحية و الخلقية، و الانـدمـاج كـلّيـاً فـي بـوتقة الحضارة الغربية، إذ ليس بإمكانهم القيام بعملية انـتـقـائـيـة، لأن غـياب القيم التي ولدت العلم و الصناعة المتقدمة سيحول دون الإنجاز المطلوب.

و فـي مـجـال الـنـقد النظري رفض علماء اجتماع كبار منهم ماكس فيبر فـكـرة وجـود عـلاقـة مـبـاشـرة بين البنية الاقتصادية التحتية و البنية الثقافية الـفـوقـيـة، و ليس هذا فحسب بل رفض فكرة وجوه هذه العلاقة. و هو يشير إلى أن الـطـبـيـعـة الـوراثـية للمؤسسات السياسية الإسلامية هي التي أعاقت ظهور الـمـقـدمـات الضرورية للراسمالية، و بالأخص القانون العقلاني، و سوق العمالة الحرة، و المدن المستقلة، و الاقتصاد النقدي، و الطبيعة البرجوازية.

فـالـقيم الإسلامية ـ في نظر فيبر وغيره ـ هي المعوقات الأساسية للنمو الـحـضـاري فـي الـبـلاد الإسـلامية، و خاصة في الجوانب المادية و الاقتصادية، و هـذا أمـر يـرفـضـه الواقع التاريخي للأمة الإسلامية، و ترفضه تجارب العصر الـحـاضـر، عـنـد بعض الدول كاليابان و دول شرق آسيا الناهضة، و هي متمسكة بـقـيـمـهـا الأخلاقية و الثقافية، و لعل الانفصام بين الأمة و القيم الإسلامية هو أبـرز عـوامـل الـتـخـلـف كـمـا يـرى الـمـفـكـرون المسلمون المنصفون، و منهم الـشـيـخ الـندوي الـذي تـنـاول هـذا الـمـوضوع في جل كتاباته، و ما من مناسبة أو حـديـث إلّا و تـجد له دفاعاً قوياً عن القيم و الأخلاق و المبادئ الإسلامية التي هي جوهر المسلم و شخصيته و تميّزه الحضاري.

يقول الشيخ الندوي عن أثر النظام التعليمي الغربي بمناهجه المضللة، و افكاره المقصية للقيم الإيجابية، و قد طُبق في الأقطار الإسلامية: "قد اتفقت كلمة العقلاء و أهل التجربة، على أن خسار الأمة و البلاد في هذا النظام التعليمي، و في هذه المعاهد و دور التعليم الحديث كانت أكبر من ربحها، فقد استنفد دعاة التعليم العصري الحديث جهودهم و أموال المسلمين في إنشاء هذه المدارس و إقامتها، و استخلصوا لها أفلاذ أكباد المسلمين و خيرة شبابهم، فكان غاية ذلك بعد مدة قليلة فوضى فكرية هائلة، و اضطراب و تناقض في الأفكار و الآراء، و شك و ارتياب في الدين و استخفاف بفرائضه و واجباته، و ثورة على الآداب و الأخلاق، و ضعف و انحطاط في الأخلاق و السيرة، و تقليد للأجانب في القشور و الظواهر".

و مسألة المناهج التربوية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنقد و وظيفته الضرورية في تمحيص المواد، و اختبار النصوص، و بلورة المفاهيم و تقويمها وفق المنهج الإسلامي، و نقدها بميزان القيم الروحية و المبادئ الأخلاقية المشكلة لثقافة الأمة. و هذا ما جعل الشيخ الندوي يشير إلى ضرورة وضع مناهج للتعليم الإسلامي تقوم على النقد الإسلامي للعلوم و الكتب الذي شاد بنيانه علماء المسلمين، و يجب أن تدوّن هذه العلوم من جديد تدويناً إسلامياً، و تؤلف فيها كتب مبتكرة، و تشبع بالروح الدينية، و تستخرج منها نتائج لا تعارض الدين.

و يقول عن وظيفة النقد المؤصل في التربية و التعليم: "و الحاصل أننا في البلاد الإسلامية في حاجة ملحة إلى نظام تعليمي إسلامي في الروح و الوضع، و السبك و الترتيب، لا يخلو كتاب من الكتب التي تعلم مبادئ اللغة إلى آخر كتاب يدرس في العلوم الطبيعية أو الآداب الإنجليزية من روح الدين

و الإيمان، هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي، و يكتب بقلم مسلم".

و حين تحدث عن الإسلام و الحضارة الإنسانية دعا إلى القيام بدراسة نقدية عميقة لتاريخ الشعوب و الأمم و البلاد و المجتمعات، و ذلك لمعرفة خصائص الحضارة الإسلامية، للاهتداء بها في تغيير العقيدة و إصلاحها، و القضاء على آثار الجاهلية و الفلسفات و الوثنية و التقاليد الموروثة، و تحويل تيارات الفكر من وجهة إلى وجهة، و التغيير الثوري في القيم و المثل.

أما عن الوظيفة المنتظرة من الأمة الإسلامية للتأثير في الحضارة الإنسانية و توجيهها اليوم فلن يتحقق إلاّ بالإيمان العميق بالشخصية المميزة للحضارة الإسلامية، و رسالتها المستمدة من الهداية الربانية التي جاء بها الوحي، و التعاليم النبوية المستفادة من السنة، ثم بالابتعاد عن قيم الحضارة الغربية التي تتحكم فيهاالمادية، و يسود في روحها العداء للدين، و الثورة على الأخلاق و القيم.

ثم يستشهد بموقف الشاعر الإسلامي الكبير العلامة محمد إقبال من الحضارة الغربية حيث قال: "إن روح هــذه المدنية ما عادت عفيفة طاهــرة".

ولن تتحقق هذه الوظيفة أو المهمة إلاّ بالقضاء على الأزمة الروحية و الأخلاقية داخل جسم الأمة الإسلامية، و قد عبر عن ذلك في كتابه ربانية لا رهبانية حيث قال: "انظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى اللّه و الربانية، و تزكية النفوس من زمان، و ندر فيها وجود الدعاة إلى اللّه، و تجديد الصلة باللّه و إصلاح الباطن، بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها، أو بفعل عوامل أخرى، إنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم، و لا التعمق في

التفكير، و لا فضل من ذكاء، و لا غنى من أدب، و لا نسب قريب بلغة الكتاب و السنة، و لا نعمة، من استقلال، إنها أزمة روحية و خلقية لا علاج لها، و مشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها... و لا علاج لكل ذلك إلّا في التزكية النبوية التي نطق بها القرآن، و بعث لها الرسول، و في الربانيــــة التي طولب بها علماء[و لكن كونوا ربّانين بما كنتم تعلّمون الكتاب و بما كنتم تدرسون] (آل عمران: ٧٩).

إن اهتمام الشيخ الندوي بالقيم الأخلاقية و المبادئ الإسلامية لكونها تحمل أبعاداً واسعة في حياة الفرد المسلم بالدرجة الاولى، و في حياة الامة الإسلامية الشاهدة على الناس بحضارتها، و بقيمها و مبادئها الطاهرة، ثم في حياة الإنسانية المتعطشة إلى القيم الروحية، و المثل و الأخلاق، و إلى المبادئ التي تساهم في تقويم البناء المتصدع في صرح الحضارة الحديثة.

و يمتد هذا الاهتمام ليشمل قضايا الأدب و النقد، و هما نشاطان لا ينفصلان عن نشاط المسلم و حركته في الحياة، فالأدب تعبير عن الحياة و الشعور و الوجدان و الأفكار و التصورات و القيم و المبادئ، و النقد هو تقويم الأدب و توجيهه فنياً و جمالياً و فكرياً و خلقياً نحو التطور و البناء و أداء الغاية المنشودة منه في الحياة. و كما أن الأدب لا يمكن تجريده من القيم و المثل و المبادئ التي يؤمن بها الأديب سواء كان هذا الأدب إسلامياً أو غير ذلك من الآداب العالمية، فإن النقد لا يمكن تجريده من القيم و الأخلاق العملية، بدعوى الموضوعية و الحرية، و بحجة أن الناقد فنّان وظيفته الأساسية هي البحث عن الجمال المتجسد في الأشكال الفنية للأعمال الادبية، اما نقد المضمون فليس من وظيفة النقد في شيء مادام الجمال ماثلاً في الشكل و طريقة التعبير، كما يزعم أصحاب هذا الموقف.

و لـعـل اهـتـمـام الـشيخ الندوي بالأبعاد القيمية في سلوك الفرد المسلم، و فـي فـاعـلية المجتمع الإسلامي و نشاطه و مساهماته في المد الحضاري، هو الـحكم العام الذي ينبغي أن ينسحب على حركة المسلم في نشاطه الإيجابي في الـحياة، و ممارسته العملية النقدية و الفنية هي من النشاطات الضرورية التي تـمنح البقاء و الاستمرارية و الفاعلية للثقافة الإسلامية، و هي عمل شاق يحتاج إلـى الـقـدرة الـفـنـيـة، و قـوة الـشـخـصية لدى الناقد، فضلاً عن الإيمان العميق بـالمبادئ و القيم و التصورات الإسلامية التي لا بد أن يكون لها حضور قوي يمنح النقد الإسلامي تميّزه و أصالته.

و تتجلى رؤية الشيخ في هذه القضية في المبدأ الواضح الذي يرى فيه أن الإيـمـان و صفاء النفس، و الاشتغال باللّه، و العزوف عن الشهوات، يمنح صاحبه صفاء حس، و لطفاة نفس، و عذوبة روح، و نفوذاً إلى المعاني الدقيقة، و اقتداراً عـلـى التعبير البليغ، أي أن القيم الروحية و الأخلاقية يحتاجها الأدب الجاد كما يـحـتـاجـها النقد الهادف السليم، لحمل الرسالة السماوية السامية، و هي رسالة الإسلام إلى الإنسانية.

و ينبّه الـشـيـخ إلـى تـلك العناصر المهمة التي يجب أن تشغل بال النقاد دائـمـاً و هـي أسـاس الـمـبادئ الخلقية فيقول: "إن أهم عناصر الأدب الإخلاص و الـصدق، و هـمـا الـلـذان ظـل يتغافل عنهما معظم نقاد الأدب، و اللذان يهبان الأدب روحاً و قوة و حيوية، و يجعلانه حقيقة أبدية خالد.

إن هذه القيم التي تشكل العناصر الحيوية في النقد يتغافل عنها كثير من الـنـقـاد الـمـتأثرين بالرؤية الغربية في الفن ـ و خاصة مذهب الفن للفن ـ التي تـرى أن قـيـمـة الـفن تـوجـد فـي مـمارستنا له، و ليس فيما يقال عن تأثيره في

السلوك، و هذا ما أكّده الأديب الإسلامي الكبير نجيب الكيلاني ـ رحمه اللّه ـ حين قال: "معظم النقاد الجماليين يزعمون أن المعايير الخلقية و الدينية و الفلسفية هي غير ذات مغزى تجاه قيمة العمل الفني، و إذا كان للمحتوي (المضمون) من أهمية فهي في خلود ما يساهم فيه في إطار الانطباع الجمالي العام".

و الرؤية النقدية الإسلامية تؤكد دائماً أن الفن الصحيح هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال و الحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، و الحق هو ذروة الجمال، و من هنا يلتقيان في القمة التي تلتقى عندها كل حقائق الوجود.

و هي ترى أيضاً أن القيم هي مقياس الجمال في نظر المسلم، و أن الفكرة الجميلة هي عماد العمل الادبي، و أن إلغاء مبدأ القيم من حقل الممارسة النقدية يعني السقوط في شراك المذاهب النقدية الغربية التي تحرص دائماً على إبعاد مبدأ القيمة عن العملية النقدية.

و يرى الشيخ الندوي أن الجمال و قوة التأثير في العمل الأدبي الناجح يعودان إلى قوة العقيدة و العاطفة، و الالتزام و الإيجابية، فقد اتسمت بعض الكتابات العلمية و الدينية لدى علمائنا القدماء بالجمال و البراعة و التأثير، و السبب الكبير في ذلك هو أنها قد كتبت عن عقيدة و عاطفة، و عن فكرة و اقتناع، و عن حماسة و عزم، فضلاً عن تحررها من السجع و البديع. و هذا كله يؤكد الموقف الواضح من مسألة القيم الدينية و المبادئ الأخلاقية التي يجب أن يكون أثرها قوياً في النقد الإسلامي.

نظرات نقدية تطبيقية في الشعر و النثر

أ ـ في عالم الشعر:

إن الكلمة لمن روح القدس كما يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي رحمه اللّه، فهي حين تدخل إلى سويداء قلب الإنسان تحوله إلى إنسان ذي مبدأ و رسالة. و قد التزم الشيخ الندوي في حياته الحافلة في مجال الدعوة بقاعدة الجمع بين الإيمان و العمل و العلم، و كان ينظر إلى الكلمة الطيبة ـ أو ما كان يسميه بالأدب الحي ـ بوصفها الروح الباعثة للحياة في جسم الأمة الإسلامية، و كانت نظرته الحضارية الإسلامية العميقة في فكره و ثقافته هي مقياس التقويم لديه في كل شأن من الشؤون التي تهم المسلمين في هذا العصر.

و قد تميز الشيخ بمواقف نقدية جريئة، و نظرات جديدة إلى الأدب، و خالف كثيراً من النقاد و الدارسين الذين اعتادوا أن لا ينظروا إلى الأدب إلّا من زاوية الصناعة و الفن، و لا يعدون ـ في غالب الأحوال ـ إلّا أداة تسلية أو آلة طرب، أو طريقة إظهار براعة، أو وسيلة تحقيق مآرب، فالأدب عنده من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، و التأثير في النفس الإنسانية، و الإسهام في بناء الحضارة.

و من هذا المفهوم الإيجابي للأدب انطلق الشيخ في الدراسة و البحث عن هذا النوع من الأدب الحي في تاريخنا القديم و الحديث، فعثر على نماذج رائعة في مجال النثر الفني كان يمكن أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية، و لكنها أفلتت من نظر المؤلفين و الناقدين لأنها لم تدخل في رحاب الأدب المصنوع. و أما في مجال الشعر فقدم لنا نموذجين أثرا تأثيراً كبيراً في حياته كما يبدو. أما النموذج الأول فهو شعر جلال الدين الرومي، و هو يمثل الجانب التراثي، و أما الثاني فهو شعر محمد إقبال، و هو من الشعراء الذين عاصرهم

و عرف الكثير عنهم. و قد كان للشيخ نظرات نقدية في دراسته لهذين النموذجين كشفت عن ملامح و أهداف إنسانية دقيقة لها قيمة كبيرة في الأدب سنقف عند بعضها في هذا العرض.

مع جلال الدين الرومي

١ ـ الحب في شعر جلال الدين الرومي:

إن الاهتمام بالتعبير الصادق عن الحب و العاطفة في الأدب، و بخاصة في الشعر قد جعل الشيخ الندوي يطلق حُكْمَه النقدي السافر الذي يتحلى في أن الأدب إذا تجرد من العاطفة القوية كان محاكاة أو مضاهاة، فقوة العاطفة هي التي تضفي على الأدب القوة و الخلود و صلاحية الانتشار و الحلول في قرارة النفوس.

والحب من الملامح الإنسانية الرائعة، و هو في تساميه و تجرده من الرغبات و الأهواء البشرية قيمة تدل على الغنى و السمو و الكرامة، و قد حفل شعر جلال الدين الرومي بالحديث عن الحب و عجائبه و تصرفاته و قيمته عند من يعرفه و يدرك معناه، و تبدو نظراته إلى هذه العاطفة الإنسانية ـ كما فصلها و حدد ملامحها الشيخ الندوي ـ بكونه جالباً للمعجزات، و قاهراً للأسقام و العلات، و منقذاً لأصحابه من بحر الحياة، و عالماً ماموناً من الآفات و العاهات.

فهو كما يقول الرومي: "يحول المرّ حلواً، و التراب تبراً، و الكد صفاء، و الألم شفاءً، و السجن روضةً، و السقم نعمة، و القهر رحمة، و هو الذي يلين الحديد، و ينيب الحجر، و يبعث الميت و ينفخ فيه الحياة، و يسود العبد.

و هـذا الـشـعـور قـد لا يـمـر بـنفوس الغارقين في عالم المادة، لأن ملكهم و دولـتـهـم غـيـر دولـة الشاعر: "بارك اللّه لعبيد المادة و عباد الجسم في ملكهم و امـوالـهـم، لا نـنـازعـهـم في شيء، أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزال و لا تحول".

و الـحـب سـفـيـنة نجاة في بحر الحياة الهائج، فقد رأى شاعرنا ان كثيراً ممن لا يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجي، و لكننا ما رأينا سفينة الإيمان و الحب تغرق".

و يـكـشـف الـشيخ من هذا النابض بالمشاعر الملتهبة، و الصور الدقيقة، عـالـم الـقـلـب الحي الفائض بالحياة و الحرارة الذي لا بد أن يحتضن هذا الحب لـيـعـيـد لـلإنسان كرامته، أما العقول الباردة، و الغرائز الفانية، فتعجز عن أداء هـذه الوظيفة، فقد ذكر الرومي حديث القلب و ماله من مكانة و كرامة في حياة الإنـسـان، و مـا يـحـويـه من عـجـائب و كنوز، و ذكر أن الإنسان يحمل في جسمه روضة أُكُلها دائم، و ربيعها قائم، و انه يحمل في نفسه الصغيرة عالماً أوسع من هذا العالم المادي.

٢ ـ قيمة الإنسان في شعر جلال الدين الرومي:

هـذه قـضـيـة كبيرة في الآداب العالمية اليوم، و هي تأخذ حيزاً كبيراً من اهـتـمـام الأدبـاء و الـنقاد المدافعين عن كرامة الإنسان. و يرى الشيخ الندوي أن قـضـيـة التعبير عن قيمة الإنسان و شرفه جاءت بسبب ما أصيب به الإنسان من استـهانة بقيمته من قبل الحكومات المستبدة، و الفلسفات الخاطئة، و الأديان الـمـحـرفـة، و مـا نـتـج عن ذلـك من فـسـاد في المجتمع، و مقت شديد للحياة، و قـنـوط من الـمـستقبل، و رغبة في الفناء، و قد نشأ عن ذلك أدب متشائم ينظر

إلى العالم و إلى الحياة بمنظار أسود، و أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته، و يعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية.

و في هذا المجتمع العاق و المتبرم من ابنه الشرعي الإنسان، قام جلال الدين الرومي ممثل الفكرة الإسلامية الصحيحة ليثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم، و الشعر المتراجع المنهزم، و بدأ يتغنى بكرامة الإنسانية في حماسة و إيمان و بلاغة حتى دب في المجتمع دبيب الحياة، أصبح الإنسان يشعر بكرامته و حقيقة وجوده، و انطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى (الاعتزاز بالإنسانية).

و قد اختار الشيخ الندوي من شعر الرومي نماذج رائعة عرضها في أسلوب جميل، تترجم نظرته لإيجابية إلى الإنسان، و الذي يرى فيه خلاصة هذا الكون، و مجموع أوصاف العالم، و هو غاية هذا الخلق، لأجله خلق العالم، و هو القطب الذي تدور حوله رحى الكون، تجسيده الكائنات، و قد فرض الله طاعته على جميع الموجودات، و دعاه إلى الاعتراف بقيمته، و الاعتزاز بوجوده، و الا يبيع نفسه رخيصة إلا لأكرم المشترين، و هو الله تعالت قدرته.

إن الأثر الايجابي لهذه الأفكار في حياة الإنسان المؤمن بالله تمتد إلى آفاق عريضة، فشعوره أولا بذاته و قيمة نفسه، ثم الاعتزاز بالإنتساب إلى الله، و الارتباط بكل ما في الوجود، يجعله يحيا عزيز النفس، عالي الراس، أبياً للضيم، عصياً على الذل و الهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة و العدم و الفراغ، يشعر بأثره و رسالته في الحياة، و انه يملك شيئاً ذا قيمة يمكن ان يقدمه للآخرين.

وقفة مع إقبال:

كـان مـحـمـد إقبـال ـ شـاعـر الإسـلام ـ من أعظم رجال الفكر و الدعوة و الأدب فـي هـذا الـعـصـر، فـقـد جمع في شخصيته بين الفكر الثاقب، و العلم الـواسـع، و الـقـلـب الـواعـي، و الـعـقـيـدة الـقوية الصادقة، و الرؤية الحضارية العميقة.

و قـد لا يـوجـد شـاعـر مـعاصر أثراً تأثيراً كبيراً في الشيخ الندوي كما أثر إقـبـال، بل إن الشيخ نفسه يرى أنه ما من شاعر أو أديب أو كاتب في شبه القارة الـهـندية إلّا و قد تأثر به في قليل أو كثير، و ليس لأحد أن يدعي أنه قد تحرر من هـذا الأثر، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه أو عكس اتجاهه تماما، فكلّهم قد خضعوا له من حيث يشعرون، و من حيث لا يشعرون.

و يـرى الـشـيـخ أنـه مـا نـال شـاعـر أوربـي فـي الـلـغات الحية مثل اللغة الإنـجـلـيـزيـة، و الألمانية، و الفرنسية، و الفارسية، و العربية مثل هذا الاهتمام سـواء فـي سـيـرتـه أو شـاعـريـتـه أو مدرسته راجع إلى قوة شخصيته أولًا، و قوة العقيدة ثانياً، و قوة العاطفة ثالثاً.

و يـحـلـل الشيخ هذه العناصر التي منحت القوة و الجاذبية و الجمال لأدب إقـبـال فـيـرى أنها في قوة العقيدة عنده، و هي إيمانه العميق بصلاحية الإسلام لـلـخـلود، و أنه هو الرسالة الخاتمة المختارة التي تملك إنقاذ الإنسان من براثن الـجـاهـلـيـة، و عبادة الإنسان، و عبادة الشهوات و الأوثان، ثم في إعجابه القوي بـشـخـصـية الرسول صلى الله عليه و سلم الفلسفية الواسعة العميقة من التعبير الوجداني المتدفق عن حبه و مبادئه و آماله.

١ ـ نظرة إقبال إلى الشعر و الأدب:

كان إقبال يعتقد أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز حتى يستمد حياته و قوته من أعماق القلب، فغاية الأدب أن يبعث في الذات القوة، و يثير فيها الحرارة و العشق و النزوع إلى عالم الروح، و يفيض على المجتمع الحياة و الحماس و قد قال: "لا خير في نشيد شاعر، و لا في صوت مغن إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة و الحماس، و لا خير في ادب و لا شعر إذا تجردا عن تاثير عصا موسى".

و كان إقبال ينفر بطبعه من الأدب و الفن الذي تكون غايته الأولى المتعة و التسلية و قتل الوقت، يقول:

الدين و الفن و التدبير و الخطـــب   و الشعر و النثر و التحرير و الكتـب

إن تحفظ (الذات) هذي فالحياة بها   أو لم تطق ذاك فهي السحر و الكذب

و كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفن وسيلة لفهم حقائق الحياة، و هو رسالة عظيمة في الحياة، يقول:

الشعر فيه من الحياة رسالـــة   أبديــة لا تقبل التبديـــلا

إن كان من جبريل فيه نغمة   أو كان فيه نفخ إسرافيـــلا

و يرى الشيخ الندوي أن نظرة إقبال هذه إلى الشعر و الأدب كانت في الحقيقة ثورة في تاريخ الأدب و في تاريخ الشعر، و ذلك بما أحدثه من تاثير عميق في الأدب الحديث، و بما قام به من تأثير في بلورة مدرسة جديدة في الشعر و الأدب في شبه القارة الهندية.

٢ ـ الرؤية الحضارية في شعره:

كان إقبال ـ كما نكر سابقاً ـ يؤمن إيماناً عميقاً بصلاحية الإسلام للخلود، و بقدرته على حل مشكلات الإنسانية، و قد انعكست هذه الرؤية الواضحة في شعره، يقول:

كم أصاب الإنسان في هـــذه الأرض من اسكندر و من جنكيز

و يقول التاريخ في كل عصـــر خطر فرط قـوة لعزيـــــز

و هي سم بغير دين، و بالديــن دواء لكـــل ســـم نجيــز

و عن هذه الرؤية الواضحة يقول الشيخ الندوي: "إن محمد إقبال له فضل كبير في انه استخدم شاعريته الموهوبة السليقية لصالح الإنسانية، و استخدمها لصالح الإسلام، إنه كان يستطيع أن يتصدّر دست الأدباء و الشعراء فيسلمون له الزعامة و الرئاسة، و قد نال نلك كثير من إخوانه المعاصرين، و لكنه أبى إلّا ان يستخدم كل شاعريته، و كل مواهبه الشعرية و الأدبية لخدمة الإسلام و الإنسانية، فأعاد بنلك الإيمان و الثقة بالإسلام و الحب للرسول صلى اللّه عليه و سلم".

و كان إقبال يعتقد أن البعث الإسلامي القادم سيكون على أيدي المسلمين المؤمنين بمادئهم و قيمهم، العاملين في ميادين الحضارة و العلم و الكفاح بهمة و عزم و نشاط.

و لقد كان إقبال كما يرى الشيخ الندوي النموذج الطيب لقيادة حركة البعث الإسلامي بشعره الإسلامي البليغ، و رؤيته الحضارية الواضحة، و هو النموذج الذي ينبغي أن يرزق العالم العربي بمثله للقيام بدور القيادة و الثورة في عالم الأدب و الشعر.

ب ـ في مجال النثر

صفحات من النثر الفني:

تجلى الإبداع النقدي عند الشيخ الندوي في اكتشافه لصفحات مشرقة رائعة من النثر في الإبداع العربي، هذه الصفحات التي غفل عنها النقاد و دارسو الأدب لقصور نظرتهم، و ضيق فهمهم، و ذلك بعنايتهم بالأدب الصناعي المنمق الموجود في دواوين الشعراء و كتب الرسائل و المقامات وغيرها من أنواع الأدب الذي يتخذ في الغالب صناعة و حرفة.

و قد استعرض الشيخ مكتبة الأدب العربي من جديد، فلاحظ أن هناك نوعاً من الأدب النثري الطبعي الجميل لم يحظ بدراسة الأدباء و الباحثين و عنايتهم مثل ما حظي به الأدب الصناعي، مع أنه يملك خصائص كثيرة منها: الكثرة، و فضل السبق، و عبقرية اللغة العربية و أسرارها، و البعد عن الصناعة التكلف. و يتجسد هذا الأدب على وجه الخصوص في كتب الحديث و السيرة و في بعض الكتب العلمية و الدينية، و في كتب الطبقات و التراجم و الرحلات.

و يرى الشيخ أن هذا الأدب ثورة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة، ٨٥ و ذلك بما يمتاز به هذا الأدب من خصائص فكرية و جمالية تفتق القريحة، و تنشط الذهن، و تقوي الذوق السليم، و تعلم الكتابة الحقيقية.

و السر في فضل هذه الكتابات العلمية و الدينية و قوتها و جمالها ليس في التحرر من الصناعة و التكلف فحسب، بل في كونها كتبت عن التزام و إيمان بالعقيدة، و عن عاطفة متدفقة بالحماس و العزم. لقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لانفسهم لنداء ضميرهم و عقيدتهم مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم و يفيض خواطرهم و تترحق

قـلـوبـهـم، فتنهال عليهم المعاني و تطاوعهم الألفاظ، و تؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من القلب فلا تستقر إلا في القلب.

و يـقـدم الـشيخ الندوي أدلة تطبيقية كثيرة على رأيه، فيذكر نصوصاً من كـتـب الـحديث و السيرة و التاريخ و المعاجم، ثم يقف منها وقفات نقدية دقيقة لـيـكـشـف عن أسرار الجمال و الإبداع فيها في ميزان الرؤية الإسلامية في الأدب و الفن.

و قـد قـام الشيخ بمراجعات نقدية رائعة لأدب التراجم و التقديمات و أدب الرحلات، أضافت الكثير من العناصر التأصيلية إلى النقد الإسلامي، الذي يسعى إلى بلورة نظرية متكاملة في النقد تقف في وجه النظريات الغربية الوافدة.

الآفاق العالمية للأدب و النقد الإسلاميين:

عـرف الـشـيـخ الـنـدوي ـ و هـو الأدب الإسـلامي العـالمي ـ بأفقه الواسع، و نظرته العالمية إلى الأدب و النقد الإسلاميين، و قد ترجمت جهوده في دراسات و أبـحـاث و مـحـاضـرات امـتـدت لأكثر من خمسين سنة، و قام بتأسيس رابطة عـالـمـيـة تُعْنـى بـشؤون الأدب الإسلامي إبداعاً و دراسةً و نقداً، و هي أول رابطة تـجـمـع الأدبـاء و الـبـاحثين الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم و لغاتهم لإعادة الأدب و الـنـقد إلى الدائرة الإسلامية، و بلورة النظريات وفق الرؤية المنبثقة من كتاب اللّه و سنة رسوله صلى اللّه عليه و سلم.

و قـد عـرض الـشـيـخ في بعض كتبه جوانب مشرقة عن المدرسة الأدبية الإسـلامية في الهند، و هي مدرسة حافظت على أصالتها الإسلامية، و مشاعرها الـديـنـيـة، و عـبرت عن القضايا الإسلامية المختلفة باللغة الأردية و الفارسية، مـمـا يؤكد العالمية التي يسير نحوها الأدب الإسلامي، على الرغم من الاختلافات

القومية و العرقية التي حاول الاستعمار الغربي غرسها في النفوس، لتترسب الأنانية والفرقة بين أبناء الأمة الواحدة.

إن تاثر الشيخ و إيمانه الكبير بالإسلام و مبادئه و حضارته المتميزة، و حبه الكبير لشاعر الإسلام محمد إقبال الذي علمه الطموح و الحب و الإيمان، جعله ينظر إلى الفكر الإسلامي بالدرجة الاولى، و إلى الأدب الإسلامي و نقده اللذين هما وليدا هذا الفكر، برؤية إنسانية واسعة، و بافق إسلامي عالمي، تجتمع فيه الإنسانية، و قيم الحق و الخير و الجمال، بعد التحرر التام من جميع النزعات الوطنية و القومية و الأقلية الضيقة.

الخاتمة:

يعد الشيخ أبو الحسن الندوي ـ حفظه اللّه ـ أحد الرواد الأوائل الذين اسهموا في صورة المشروع الحضاري الإسلامي و تأسيسه في النصف الثاني من هذا القرن، فشارك في مسيرته بفكر عميق، و رأي سديد، و عزيمة ماضية، في تزويد هذا المشروع الحضاري بالأدب الحي الذي يبعث الحماس و الحيوية و الفاعلية في الأمة.

و قد داب الشيخ على الدعوة إلى بناء أدب إسلامي متميز و تشكيله، ليقف في وجه الأدب المنحرف الذي أصبح معادياً للقيم، و مجانباً للاخلاق، و مثبطاً للهمم، و حدد الشيخ الأطر العامة لهذا الأدب الذي لا بد أن يطلق من الرؤية الإسلامية، و يعبر عن المشاعر و الافكار بصدق و إخلاص حتى يحقق غايته من التأثير و الإقناع.

و اهتم الشيخ بالنقد، و دعا إلى تأصيله و بلورة نظرياته، ليؤدي وظيفته في حراسة القيم و المبادئ و الأخلاق، و يحفظ المجتمع الإسلامي من التحديات

و الهجمات العلمانية الهادفة إلى قتل الروح الدينية لدى الأمة، و عزل شبابها عن الإيمان و القيم و المبادئ التي تميزهم إسلامياً و حضارياً.

و قد كانت له نظرات نقدية جديدة في الأدب فتحت أبواباً أمام الدارسين، و لفتت أنظارهم إلى الكثير من القضايا و المقاييس و القواعد في الأدب الإسلامي و نقده.

و يمثل الشيخ الندوي ـ و هو من رواد الأدب الإسلامي الأوائل ـ النموذج الحي في مسيرة أسلمة الأدب الإسلامي و تأصيله في النصف الثاني من هذا القرن، فجزاه اللّه عن الإسلام و المسلمين خير ما يجازي به عبادَه المؤمنين المجاهدين.



أسلـــــــــوب
سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
للدراسات القرآنية

بقلم: البروفيسور ضياء الحسن الندوي

لـقـد كـثرت المذاهب و الآراء في البحث عن أفضل طريق و أحسن أسلوب لـتـفهمّ كتاب و تنقّب أثر من الآثار العلمية في هذا العصر، عصر التقدم العلمي و الـرقـى الـمـدهـش، عـصـر الـكمبيوتر و الإنترنيت و ما إلى نلك، و إذا كان هذا الـكـتاب كتاباً سماوياً نزل به الروح الأمين على أفضل خلق اللّه محمد صلى اللّه علـيـه وسـلـم ـ الـقـرآن الـكـريـم الذي ظل منذ نزوله على صاحبه عليه الصلاة و الـسلام جارياً على لسان و قلب المؤمن به فإن كثرة المذاهب و تعدد الآراء في تفقد طريق أفضل و أسلوب أحسن ليس مما يبعث على الحيرة أو الإستغراب.

و بـمـا أن الـقـرآن حـاجة البشرية جمعاء بكونه دستوراً للحياة النبيلة في هـذه الـمـعـمـورة لابـد أن يـسـعى إلى فهمه و إدراك معانيه كل عضو من أعضاء الأسرة الإنسانية و يكد ذهنه و يبذل جهده في التوصل إلى رسالته الخالدة.

هـنـاك أساليب عديدة لفهم القرآن و تفهيمه في الهند و في شبه القارة بل الأصح أن يـقـال فـي كل قطر يقطنه المسلمون خارج العالم العربي، فهناك من يـفـضـل كـتـب الشرح و التفسير قبل دراسة القرآن مباشرة. و آخر يؤثر مطالعة الـفـلـسـفة و الكلام على مطالعة القرآن راساً. و البعض لا تحرف أبداً إلى قراءة

و فـهـم كـتـاب الـلّـه إجـلالاً لـه و تعظيماً، بل يكتفى بمواعظ الواعظين و خطب المدرسين و تلاوة أئمة الصلاة على انه ليس من ما يتعسر فهمه و يصعب إدراك تـعـليماته لأنه من كلام ربّ العالمين المنزل على رحمة للعالمين، و لكن مشكلة الـشـعـب غـيـر العربي مشكلة اللغة، لا يعرف معظم أفراد الشعب اللغة العربية التي هي بمثابة مفتاح للكتاب و السنة النبوية.

و لذا أكد القائمون على دار العلوم التابعة لندوة العلماء منذ تأسيسها على تعليم اللغة العربية كلغة حية و على تمرين الطلبة و تدريبهم على التعبير كتابة و خـطـابة و نقاشاً و محاورةً عما في الضمير، و وضعوا من أجله منهجاً دراسياً عـصـرياً تحتل فيه دراسة اللغة العربية و الأدب العربي مكانا لائقاً لأنها كما ذكر هـي المفتاح و الأداة القوية للتعمق في المعاني السامية و التعاليم و التوجيهات الراشدة التي جاء بها القرآن الكريم في صالح البشر.

لا تـزال دار الـعـلـوم لندوة العلماء تجرب هذا المنهج الدراسي. و لها شرف الـسـبـاق فـي هـذا الـمـضمار. منذ حوالي قرن كامل بنجاح تام، فقد أثمرت هذه الـتـجـربـة بـتـخـريـج جـمـاعـة كبيرة من المدرسين و العلماء و المثقفين الذين يـدرسـون الـمتون القرآنية و يدرسونها قبل أن يستعينوا بأي شرح أو تفسير و ذلك مـا يـسـاعـد الـطـلـبـة و المدرسين في تفهم المعاني القرآنية فهماً خالصاً غير مـشـوب باكدار التفلسف و تعقيدات المنطق، تقدمت ندوة العلماء لفكرة خاصة و نـظـريـة تـكـاد تـكون نادرة حين بدءها، نظرية الإنتفاع بكل قديم نافع و جديد صـالـح، و لـم تتمسك بفضل هذه الفكرة بالمناهج القديمة يقدمها كما لم تتنفر بـفـضل تلك الفكرة الـخصبة مرة أخرى من كل حديث لحداثتها بل اختارت قصد الـسـبـيـل و اتـخـذت جادة الـعـدل و الإعـتدال و التزمت موقف الدعوة بالـحكمة و الـمـوعـظـة الحسنة، و اعتبرت الـحكمة ضآلتها لتكون أحق بها حيث وجدتها،

هـكذا فتحت ندوة العلماء لأول مرةٍ في بلادها النائية عن مهد العروبة و الإسلام، فـتـحـت بابـاً عـريـضـاً و مدخلاً كريماً إلى دراسة القرآن و دلت على مبادئ تدبر الـقـرآن و الإنـتفاع به و سلطت أضواء على وجوه الإعجاز و العلوم القرآنية. فإن كـتـاب الـلّه تـعالى يتحدث عن نفسه و يصف ذاته و ذلك ليضيئ لنا شتى جنبات الـقـرآن و مـخـتـلـف مزاياه و اعتباراته و تتجلى به جوانب شتى من جلال القرآن و عـظمته و اعجازه، كانت تخفى عن الأعين و تبقى وراء الستار فتتبدى للأنظار أجـلـى مـا تـكـون فـإذا جـمـعنا هذه الآيات المنثورة في المواضع المختلفة من القرآن الكريم و قمنا بالتأمل و إمعان النظر فيها، وجدنا إيانا أمام باب جديد إلى مـعرفة القرآن و فهمه و إدراك معانيه، من قطعية دلالته و عدم تعرضه للشكوك و ذلك من أكبر خصائصه و أبين مزاياه المعجزة، يقول:-

"ذلـك الـكتاب لا ريب فيه" و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين" و آيـة لـكـتـاب عـزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حـمـيـد"، تفرد القرآن بهذه الميزة لا يشاركها أي كلام بشري و لا يساميه ابداً أي كـتـاب صـادر من إنـسان، لأن مصدر القرآن هو العلم الإلهي و الوحي الإلهي الذي لا يـعـتـرضـه شيء من عـوارض الإنـسان و إن صفة علم اللّه عز و جل كصفاته الاخرى كلها أزلية ابدية:

"هو الاول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم"

يـكـمن سـر نـجـاح هـذا الأسـلـوب الـمباشر لفهم القرآن في التشديد على اخـتـيـار اللغة العربية وسيلة للحوار و التبادل العلمي و تعليمها كلغة حية حتى لا يـحـتاج القارئ و السامع إلى معاجم أثناء الحوار و الإستماع او اثناء المطالعة و القراءة. و في ضوء هذه الأسس سماحة الشيخ الندوي في تأملاته القرآنية خير مثال لهذا الفهم التلقائي و الإدراك المباشر لمفاهيم الكتاب الإلهي. فلنقم بجولة

قـصـيـرة مـع الأسـتـاذ السيد ابي الحسن علي الحسني الندوي رحمه اللّه، نقوم بجولة مع الأستاذ في كتاباته القيمة حول القرآن الكريم.

إنـه يـتـأمـل جمال سورة الفاتحة و جامعيتها و تأثيرها في الحياة فيقول: "هـي الـدرّة الـفريدة في المعجزات السماوية و قطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية.... و قد افتتحت بالحمد و هي الكلمة الجامعة بين الشكر و الثناء، و من الـكـلـمـات الـبـلـيـغـة المعجزة التي لا يمكن ترجمتها في لسان آخر... ثم يقرر الـمـصلي أن الربّ الذي يحمده و يستعين به و يعبده هو ليس ربّ قبيلة أو شعب أو أسـرة أو فـصـيـلـة أو بلد او وطن، إنما هو ربّ العالمين". و هذه عقيدة غريبة و ثـائـرة، ثـارت على جميع التقسيمات الزائفة المزورة التي جنت على الإنسانية أكبر جناية.

هـكـذا يـعـلن المسلم وحدتين و هما الدغامتان اللتان يقوم عليهما الأمن و الـسـلام و عـلـيـهـمـا قـام الإسـلام فـي كل زمان و مكان و هما وحدة الربوبية، و الـوحدة البشرية، وحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد أو وطن أو لون أو دم. فـالإنـسـان أخـو الإنـسـان من جهتين و الإنسان أخو الإنسان مرتين، مرة ـ و هي الأسـاس ـ لأن الـربّ واحـد، و ثـانية لأن الأب واحد، ثم يذكر المصلي من صفات الـربّ الـكريمة، الكثيرة ... صفة الرحمة التي هي اليق الصفات بموقف المسلم و هـو عـابـد خاشع داعٍ مبتهل، محتاج تائب آئب و المقام مقام الرجاء لا اليأس، و مقام التفاؤل لا التشاؤم.

ثم ينكر و يتنكر يوم الدين، يوم الجزاء و العقاب الذي يتجلى فيه ملك اللّه و مـلـكـوتـه في أروع مظهر، لا ينازعه فيه ملك زائف، ثم يعلن بكل تاكيد عرفته لـغـة الـعـرب "إيـاك نـعـبد و إياك نستعين"، و ما الحياة إلاّ عبادة و استعانة. ثم يـدعـوه لـلهداية للصراط المستقيم التي هي أعظم حاجاته و أعز مطالبه و هي

التي بعثت لها الانبياء و أنزلت لها الصحف و قامت عليها سوق الجنة، و هي التي لا قيمة لشيء إذا فقدت و لا نقصَ في الحياة و السعادة إذا وجدت.

"إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم، غير المغضوب عليهم و لا الضالين".

و يقول الأستاذ أبو الحسن: "هنا يتجلى اعجاز القرآن ثم يفيض سماحة الشيخ الندوي إن في بيان هذا الإعجاز القرآن بتفصيل كما ذكر كتابه "تأملات في دراسة القرآن"…. إن الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم تصف أبناء المسيحية، تكفي سببا في إيمان دارس منصف بالقرآن و إعجازه. ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن على لسان نبيه الأمي. وُلد في الصحراء و عاش فيها و التي يصدقها التاريخ في أذن جم، و يدهش المؤرخون عندما يفكرون في مدى صدق هذا التعبير: كلمة "الضلالة" كيف أجرى اللّه على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة حيث قال بالنسبة لليهود: "المغضوب عليهم" بينما قال بالنسبة للمسيحيين "الضالين" إن اللّه سبحانه أراد فرقاً واضحاً بينهم و بين اليهود إذ أطلق على اليهود: المغضوبية فمن قرأ تاريخهم شهد على صدق هذا التعبير.

و لندرس المحنة العظيمة و التوبة الكريمة في ابتلاء كعب بن مالك حيث أمره رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بأن يعتزل إمراته فيفعل و يلحقها بأهلها، "و في هذه اللحظات العسيرة يدعوه ملك غسان الكبير ليواسيه و يكرمه و كان أشد محنة امتحن بها محب يجفو الحبيب القريب و ينبذه المجتمع و تقصيه البيئة، خلال هذه الضائقة و الجفوة يطالبه ملك و يرسل إليه كتابا بأخبار برّه و قدّه و عطاياه الواسعة فيرفض ذلك في إباء و كراهية و تحقير، إنها معجزة نيرة للإيمان و التربية و سلطان العقيدة".

و على علاجه "أ فلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور و حصل ما في الصدور إن ربّهم بهم يومئذ لخبير" فإن الإيمان بالآخرة و تذاكر الموت يكشف الغطاء عن العين و يفيقه من سكرة الدنيا قال النبي صلى اللّه عليه و سلم و أكثروا ذكر هازم اللذات.

دعنا نشهد الصراع بين الإيمان و المادية بتأملنا في سورة الكهف التي نشأ على قراءتها و تلاوتها كل يوم الجمعة الأستاذ ابو الحسن الندوي لأن ذلك يعصم من الدجّال فقد استعاذ من فتنته النبي صلى اللّه عليه و سلم كثيرا و حثّ أمته على الاستعاذة منها حثاً شديداً و التي هي الفتنة الكبرى الأخيرة التي قال عنها: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجّال" ما هي الصلة المعنوية بين هذه السورة و بين هذه العصمة؟ التي أخبر بها الرسول صلى اللّه عليه و سلم يقول الأستاذ أبو الحسن رداً على هذا السؤال:

"اقتنعت اجمالاً بأن هذه السورة، هي السورة القرآنية الفريدة التي تحتوي على أكبر مادة و أغزرها فيما يتصل لفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجّال و يتولى كبرها و يحمل رأيتها، و تحتوي على اكبر مقدار من الترياق الذي يدفع سموم الدجّال و يبرء منها.... و إن في هذه السورة الكريمة من التوجيهات و الإرشادات و الأمثال و الحكايات ما يبيّن الدجّال و يشخصه في كل زمانٍ و مكانٍ و ما يوضح الأساس الذي تقوم عليه فتنته و دعوته و تهيء العقول و النفوس لمحاربة هذه الفتنة و مقاومتها".

إن هذه السورة خاضعة لموضوع واحد و هو كما يعينه الأستاذ أبو الحسن "بين الإيمان و المادية" أو "بين القوة المصرّفة لهذا الكون (هو اللّه) و بين الطبيعة أو الأسباب" و إن لهذه السورة إتصالاً وثيقا بالمسيحية و اليهودية فقد تعرضت للعقيدة المسيحية في بدايتها و ينذر الذين قالوا إتخذ اللّه ولداً. ما لهم

به من علم و لا لآباءهم كبرت كلمة "تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا".

و إن هـذه السورة تشدد الإنكار أو التشنيع على عبّاد الحياة الدنيا و منكري الآخـرة أو الـغـافـلين عنها: "قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً".

و أخـذ سماحة شيخنا يتأمل سورة الكهف التي على أربع قصص و هي أولاً قـصـة أصحاب الكهف و الرقيم و هي قصة الإيمان و النبوة و الثبات و التضحية و الجهاد، التي تتكرر في تاريخ الإنسانية، و في تاريخ الحق و العقيدة و دليلٌ على أن الأسباب كلها خاضعة للإرادة الإلهية، و هي دعوة سورة الكهف و دعوة الإيمان و الـقـرآن، "و لا تـمدّنّ عـيـنيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه و رزق ربك خير و أبقى". تدور سورة الكهف حول هذه النقطة و تشير إليها بكل مناسبة.

ثانياً قصة صاحب الجنتين، و هي أكثر وقوعا في الحياة اليومية و الحياة الـعـاديـة من الـقـصـة الأولـى. فـإذا تـمثلت قصة أصحاب الكهف في عقود من الـسـنـين فـقـصـة صاحب الجنتين تتمثل في كل مكان و حين. و إنها قصة رجل تـوفـرت لـه أسباب السعادة و الهناء و الرخاء و لـه جنتان من أعناب بينهما الزروع الكريمة، و هي غاية السعادة و الغبطة في الحياة المتوسطة. اقترف الرجل ديناً لا يغتفر و نسب سعادته إلى علمه و جهوده و ذكاءه كما فعل قارون من قبل فقال "إنـما اوتيته على علم عندي" قال الرجل و هو يفاخر صديقه الذي لا يساويه في هـذه الـرخـاء و الـغنى قال في صراحة بل وقاحة " أنا أكثر منك مالاً و أعزّ نفراً" و أعـلـن بعد ما "دخل جنته و هو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً، و ما أظن الساعة قائمة، و لئن رُددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً".

ثالثا: قصة موسى و الخضر، هذه قصة حياتنا اليومية التي تثبت في صورة واضحة صريحة رائعة أن وراء المعلومات و المكشوفات في هذا العالم و في هذه الحياة مجهولات كثيرة و أن ما يجهله الإنسان. أعظم إنسان في عصره، موسى عليه السلام ـ أكثر بكثير مما يعلمه. هذه القصة تتحدى التفكير المادي الذي يصر على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان. و على أن هذا الكون هو الذي أحاط به علماً و أن ليست الحقيقة إلّا ما تتراءى للعيون و أن الظواهر هي التي يصح عليها الحكم.

القصة الرابعة قصة ذى القرنين، و هي الأخيرة، قصة رجل جمع بين الإيمان و الصلاح و القوة الفائقة و تسخير القوى و الكائنات و الطاقات الموجودة الميسورة للإنسان و استخدام كافة الوسائل الموجودة في عصره و استخدم كل ذلك ـ يُعكس الطغاة المفسدين و الفاتحين الظالمين ـ في صالح الإنسان، و في خدمة البشرية، و بناء المدينة الصالحة.

و ينهج سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه اللّه في دعوته القرآنية بهذا المنهج الرائع بعرض نماذج بديعة من دعوة الأنبياء و الرسل عليهم السلام الذين ذكرت آثارهم الدعوية في القرآن الكريم للعظة و الاعتبار، و هما يشكلان لبنة أساسية في دعوة الإسلام التي يدعو إليها سماحة شيخنا في دراساته القرآنية و في دعوته إلى الإسلام و القرآن للناس جميعا، و هذه هي الميزة المميزة لأسلوب سماحة الشيخ الندوي قل أن يوجد نظيره في الدعوة و الدراسات الإسلامية المعاصرة.



موجز من منهج التراجم و معالم التجديد عند الشيخ أبي الحسن الندوي

بقلم: الدكتور الحسين العربي رحمون

يحاول هذا العرض توضيح العلاقة بين منهج الترجمة عند أبي الحسن الندوي، و معالم التجديد فيه، و بين مناهج المترجمين و المصنفين القدماء، منذ ظهور كتب الطبقات: طبقات الصحابة، و اللغويين، و النحاة، و الأطباء، و منذ انتشار تراجم الرجال، و طبقات الأدباء، و الشعراء، و المتصوفة، و الفقهاء و سير المصلحين و العلماء..

فقد نشأ أبو الحسن الندوي في "بيئة كانت هوايتها التاريخ و التراجم و السير.. و ولد في أسرة كان فيها مؤرخون و مؤلفون، و كان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال"(١)، فقرأ كتب التراجم، و عرف أنواعها و ضروبها، و خبر مناهجها و أساليبها، و عاين أهدافها و مراميها، ثم عمل على إثراء هذا الفن و إغنائه و تجديده و الإضافة إليه.

لذلك يمكن أن نتحدث عن مظاهر كثيرة للتجديد في أدب التراجم لدى الشيخ أبي الحسن الندوي:

١ ـ إن كتابة التراجم لديه هو بعث جديد للأساليب الأصيلة لهذا الفن، و قد كان الغرض من أدب التراجم هو المحافظة على موروث الأجيال السابقة من

العلوم و الآداب و الفنون، و رغم اختلاف مناحي مصنفات التراجم، و اختلاف مفاهيمها و مدارسها منذ ظهور: يتيمة الدهر ـ للثعالبي، و تاريخ علماء الأندلس ـ لابن الفرضي، مروراً بوفيات الأعيان ـ لابن خلكان، و المغرب ـ لابن سعيد المغربي، و الليل و التكملة ـ لابن عبد الملك المراكشي، و فوات الوفيات ـ لابن العساكر الكتبي، و الوافي بالوفيات ـ للصلاح الصفدي، و الدرر الكامنة ـ لابن حجر العسقلاني، وصولاً إلى ما كتب من التراجم في القرون الأخيرة، و التي شكلت دائماً ميداناً قائماً بنفسه بعيداً عن الكتابة المعجمية المحضة، أو الكتابة التاريخية الصرفة، أو السيرة الذاتية، أو فن الرحلة.

و كان المصنفون و المترجمون يعتمدون أغلب عناصر الترجمة المكونة من اسم المترجم و نسبه، و أصله، و كنيته، و ذكر مشايخه، و تلاميذه، و كتبه و مؤلفاته، و منزلته العلمية، و مركزه الاجتماعي، و عناصر شخصيته، و بعض أحداث عصره، و ماثوراته الشعرية و النثرية، و ذكر تاريخ ميلاده و وفاته.

و يعتمد الشيخ الندوي بعض هذه العناصر، و لكنه يركز على المنزلة العلمية للمترجم، و يبرز جوانب شخصيته المؤثرة، ليجعل منه قدوة تتبع، و نبراساً يحتذى، و بذلك ينقل هدف التراجم من تحقيق الهدف التعليمي، و الحفاظ على التراث التاريخي للأمة ـ كما هو عند المصنفين السابقين ـ إلى هدف آخر يتجلى في الجانب التربوي.

٢ ـ من هنا يظهر لنا أن ترجمته لعالم من العلماء، أو رائد من رواد الأمة الإسلامية، و مجددي دعوتها، في القديم و الحديث، لا يتم تقديمه كشخص يعرف به مجرد التعريف، أو ينقل أخباره و آثاره فقط، و لكن يقدمه للقارئ كموضوع للمعرفة، و مجال للتعلم، و مدرسة لها تاثيرها في حركة الدعوة لإسلامية المتجددة.

٣ ـ و من مـعالم التجديد أيضاً ربط تراجم الرجال بهذه الحركة التجديدية الإسـلاميـة الـعـامـة، و التي مافتئ علماء المسلمين يدعون إليها، لفهم الأسس الـقويمة و القيم الصحيحة لبناء المجتمع الإسلامي المعاصر، فهو لا يعتمد في تـراجـمـه عـلـى كـل الـفـئـات و الـطـوائـف من الـكـتـاب و الـشعراء و الفقهاء، و الـمـتـصوفة المشهورين و المغمورين، كما ألفنا ذلك في كتب التراجم، و لكنه يـخـتـار من الـرجـال ذوي التأثير العلمي و الأخلاقي و الديني، و لو تباعدت بينهم الحقب و العصور، لأن الهدف الاساسي هو تكوين خلية متماسكة قوية يكون لها التأثير السحري للدفع بحركة الدعوة الإسلامية الجديدة إلى الأمام.

٤ ـ إن أدب الـتـراجـم عـنـد أبـي الـحسن الندوي يكتسي طابعاً شمولياً من حيث المساحة الزمانية و المساحة المكانية.

فـهـو يـتـرجـم لعمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، كما يترجم للسيد قـطـب الـذي اسـتـشـهـد عام ١٩٦٦م أو للمرحوم مصطفى السباعي المتوفي عام ١٩٦٤م دون التزام بالتسلسل التاريخي، لأن الترجمة عنده تكتسي بعداً آخر أسمى و أجـل من ذكر تواريخ الرجال، و يتعدى ذلك إلى جعل هذا الفن من الكتابة رافداً من الروافد المتعددة للدعوة إلى التجديد و الإصلاح.

و من حـيـث الحيز المكاني، فهو يشمل كل العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقـصـاه، و ينقل إلى قراء العربية مآثر العلماء المسلمين في شبه القارة الهندية، ناهيك عن الأقطار الإسلامية الأخرى.

٥ ـ من عـنـاصـر الـتـجـديد في كتابة التراجم جانب الأسلوب، فهو أسلوب واضح رقـيـق، سـهـل مـمـتـع، يـنـقـل الـقارئ عبر المناطق، و المدن و الأماكن و الأقـطـار في جولات سياحية لا تمل، و يحبب إليه صور الإيمان، و صفاء الخلق

و الإباء، و علو الهمة، و يجعله يعيش متعة روحية من خلال الشخوص التي يقدمها، و يترجم لها بطريقة تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، بعيداً عن أساليب السجع و التأنق اللفظي، و بعيداً عن الأخبار و الأحداث و الأشخاص ممن لم يشغفوا بحب تعاليم الإسلام، و نشر الدعوة الإسلامية.

٦ - إن هذا النوع من كتابة التراجم عند أبي الحسن الندوي يجعلنا نطرح سؤالاً دقيقاً و حذراً في نفس الوقت، مؤداه: هل يكفي أن نعتبر هذه المظاهر التجديدية في فن التراجم أمراً طبيعياً يضاف إلى كتابة الترجمة، كما عهدناه عند المصنفين القدامى، أم لا بد من البحث عن مصطلح آخر ينضاف إلى فنون الكتابة في هذا المضمار؟

(١) شخصيات و كتب: ابو الحسن الندوي، دار القلم: ص/٧.



سماحة العلامة
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
و نماذج من أسلوبه الدعوي المتميز
في أدب السياحة

بقلم: الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي

في مستهل العام الحادي و الخمسين و تسع مأة و ألف الميلادي، المصادف عام سبعين و ثلاث مائة و ألف الهجري، قام سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي بجولة دعوية و سياحة علمية أدبية لبلدان الشرق العربي، و في مقدمتها مصر القاهرة، بلد الكنانة، و مقر الفراعنة، و مصرُ ذاتُ النيل الأزرق، و الأهرام الشامخة، مصرُ ذات الأزهر العتيق، و قبلة اللغة العربية و آدابها، و موئل الأدباء و الكتاب و المؤلفين، و مركز الإشعاع الديني بمراكزها الدينية و علمائها البارعين في العلوم الإسلامية، و قادتها المخلصين، و زعمائها البارزين، و حكامها العادلين.

لقد وفق العلامة الندوي إلى زيارة مصر التي كانت قد سبقت إليها معرفته كداعية مخلص، و مفكر إسلامي كبير، و كاتب باللغة العربية قدير، فقد كان كتابه الجليل الشهير: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" ظهر، و نزل في المكتبات و الأسواق، و نال إعجاباً كبيراً من قرائه العلماء و الدعاة و الأدباء

و الشباب، فصادف ذلك رحلته إلى مصر، و كان الناس متطلعين إلى لقاء هذا المؤلف العظيم الذي سد فراغاً كبيراً في الكتاب الإسلامي، و مكتبة الفكر و الدعوة، فلما وصل إلى القاهرة نال ترحيباً كبيراً من كل جانب، و التف حوله الشباب و الدعاة، و العلماء و الأدباء، و انفسح المجال الواسع للتبادل الفكري و الثقافي، و سنحت فرص اللقاءات و الزيارات و البحث و النقاش، و التعارف و الاطلاع، و كل ذلك في مصلحة الدعوة و الفكر الإسلامي الخالص، لا للاستجمام و طلب الراحة أو الاطلاع على الآثار التاريخية و الجغرافية، و التفرج على جمال الطبيعة و التنشق من الأجواء اللطيفة، و قضاء الوقت في نزهة سياحية أو متعة نفسية.

تميزت سياحته لبلدان الشرق العربي، و العواصم العربية بطابع دعوي و فكري، و لون توجيهي تربوي، يتطلع فيها صاحبها نحو التعرف على الأعمال الدينية و الحركات الفكرية، و التطورات العقلية التي يعيشها الشعب المسلم في مجالات الحياة المختلفة بتأثير الحضارات المادية الغربية، و العقل الأوربي الذي كان يقود الحياة الاجتماعية في هذه البلدان، و الأقطار إلى أمد طويل، و كانت مخلفاته باقية في المجتمع المسلم، و لم يكن أهله قد تحرروّا من آثاره بالكلية في أنماط حياتهم و نشاطاتهم، و حتى في طريق تفكيرهم، إن السائح العبقري الجليل أدرك بذكائه، و في ضوء مشاهداته أن أمة الإسلام في هذه الديار تعيش مرحلة الانتقال من عهد الاستعمار و الاستعباد إلى عهد الاستقلال و الانفتاح، فهي بأمس حاجة لأن تُعاد ثقافتها الكاملة بالإسلام إلى نفسها من جديد، و تُنقّى أفكارها من شوائب الحضارة الغربية، و إغراءاتها المادية التي لا تزال ملتصقة بغضون نفسها، و تُسبب لها إثارة شبهات حول صلاحية الإسلام في عصر التقدم العلمي و التطور الحضاري.

كان العلامة الندوي قد أعد العدة قبل أن يبدأ رحلته، و يقوم بهذه السياحة العلمية و الفكرية، إنه كان قد درس أوضاع العالم الإسلامي، و اطلع على جميع ما يجري فيه من ظروف سياسية و حضارية، و قد شاهد بعين قلبه كل ما وجد فيه من اتجاهات دينية، و ميول فكرية، و من إبداعات في الأساليب الدعوية، و من حركات قوية نابعة من الفكر الإيماني الخالص في سبيل الدعوة و الفكر الأصيل، و ما جدّ منه من تطرفات فكرية تدعو إلى تطوير الشريعة الإسلامية و صوغها في قوالب الحاجات المادية، و الظروف الحضارية، إنه كان قد عرف نفسية الشعب الإسلامي العربي، و واقعيته في مجال العلم و الدين و الحضارة.

كما أنه كان وطيد الصلة بالمراكز العلمية و الدينية في العالم الإسلامي، و يعرف مدى تأثيرها في نفوس الشعب و علاقتها به، و كان كثير القراءة للمؤلفات و الكتب و المجلات التي تصدر من العالم العربي، و مكتبات القاهرة، و دور نشرها، بأقلام رجال من العلم و الأدب و الدعوة و الإصلاح، ممن كانوا يتزعمون البلاد دينياً و علمياً، و أدبياً و فكرياً، فلما وفقه اللّه تعالى لزيارة الشرق العربي، و مصر الكنانة وجد نفسه مطمئناً لأداء المسئولية التي توخاها في هذه الرحلة، و إبلاغ دعوته النقية الصافية إلى طبقة العلماء و الأدباء و الدعاة و أصحاب الفكر، و الإشارة إلى مواضع الضعف و مكامن الداء في النفس و الفكر، فكان صريحاً في حواره و آرائه و نقاشه، و مبيناً الطريق الواضح النير لتصحيح الأفكار، و الخروج من زوايا الغموض إلى ساحة الوضوح و الاقتناع، فكان عمله أقرب إلى غربلة فكرية مصحوبة بالبراهين التاريخية، و الدلائل العلمية، بالنسبة إلى دعوة مجردة، و دعاية خالصة لا يدعمها دليل أو شهادة تاريخية.

خرج المفكر الإسلامي الكبير العلامة الندوي لسياحة الشرق العربي، و زيارة عواصمه الكبيرة، و بدأ رحلته من جدة إلى السويس على متن سفينة

أونـدا، الإيـطـالية برفقة من تلاميذه و أصدقائه، و كان سائق الشوق يحدو به إلى زيارة هـذا الـبلـد الـعـزيـز، و الـنـزول بأرضه، و الاطلاع على معالمه، و مراكزه و رجـالـه و أبنائه، و كان جد حنين لكي يبث أشواقه و آماله و آلامه، إلى أصحاب الامتيازات و المسئوليات، و قادة الفكر، و يحقق أمنيته التي طالما راودته لزيارة هـذا الـبلد العريق في العلم و الأدب و الدين، إنه تحدث عن هدف هذه السياحة، و الـغـرض الـذي أراده من خـلال هـذه الـرحلة المهمة في مقدمة مذكراته التي جمعها في كتاب: "مذكرات سائح في الشرق العربي"، يقول:

"خرج مؤلف هذا الكتاب: "مذكرات سائح في الشرق العربي" في رحلة إلى عـواصم الشرق العربي ليدرس وضع هذه الأقطار، الديني و العلمي و الاجتماعي، و يـتـعـرف بـرجـالاتـهـا، و قـادة الـفـكـر فيها، و يتذاكر معهم في الشؤون الدينية و الـعـلـمـية، و القضايا الإسلامية، و المناهج الإسلامية، و المشاريع التعليمية، و يـعـرّفـهـم بـبلاده شبه القارة الهندية.. و يستفيد بما جدّ في العالم العربي، من آراء و نـظـريـات، و نـشأ من حركات و دعوات، و نبغ من رجال و شخصيات، و قام من مـدارس فـكـرية و مؤسسات، و ظهر من أساليب، و ثار من مشاكل، و قد أراد الـلّـه أن يـنـشـأ قـبـل أن يـزور هـذا البلد، نشأة علمية، دينية أدبية، يتذوق الشعر و الأدب و الـتـاريـخ و الاجـتماع، و الحضارة و فلسفة الحياة، و قد مارس الحياة العلمية، و عمل في حقل الإصلاح و الدعوة، و باشر مهنة التعليم، و عالج الكتابة و التأليف، و عرف الأساليب الأدبية، و المدارس الفكرية و الاتجاهات المتعارضة فـي مصر و الشام، فزار هذه البلاد على بصيرة و بينة من الأمر، و بعد أن لم يكن ينقصه إلّا اللقاء".

أول كلمة:

و هـنـا أول كـلـمـة ارتـجـلـهـا في اجتماع ضمّ أعضاء البعثة التركية إلى

الأزهـر، و طـلـبـة سـوريـا و فـلسطين، فكانت كلمة فياضة بليغة تعبر عن مدى فكره النير نحو الإسلام في عصر العلم و الحضارة، جاء فيها:

"إن الإسلام رسالة خالدة ليس فيها قديم و جديد، إنما القديم و الجديد في الـحـضـارات و الأدب وغـيـرهـا، و كل جماعة تدمج نفسها و شخصيتها في هذه الـرسـالـة، و تـربـط حـيـاتـهـا بها يكتب لها الخلود و البقاء، و تخرج من سلطان الأزمـنـة و الأمـكـنـة الـخـاضـعـة لناموس التغير و الانقلاب، و تنتصر على القوى المادية، و على جميع المعارضات و المنافسات، و كان هذا سر انتصار الصحابة - رضي اللّه عنهم - و سر عظمتهم فقد قدروا قواهم و مواهبهم تقديراً صحيحاً، و وزنـوهـا وزنـاً دقـيـقـا فرأوا أنهم لا يستطيعون أن يجاوروا الفرس و الرومان في مـدنيتهم و ماديتهم و قوتهم الحربية، فأدمجوا أنفسهم في هذه الرسالة الخالدة الـتـي جـاء بـهـا مـحـمـد صـلـى الـلّـه عـلـيـه و سلم، و التي قضى اللّه بظهورها و انتصارها و نبوعها في العالم، و أخلصوا لها، و ربطوا حياتهم و مستقبلهم بها، بـحـيـث أصبحوا و الإسلام شيئاً واحداً، لا يعيش إلّا بهم و لا يعيشون إلّا به، فلما كـان ذلك و امـتـحـن الـلّـه قـلوبهم للتقوى استحقوا النصر من اللّه، و قضى اللّه بـظـهـورهم و غلبتهم و تمكينهم في الأرض، و كذلك إذا أخلصتم يا طلبة الأزهر لـرسـالـة الإسلام، و أدمجتم أنفسكم فيها، و ربطتم حياتكم و مستقبلكم بالقيام بـهـا، و الـدعوة لها، و قامت هذه الرسالة بكم و قمتم بها لانتصرتم، و خضع لكم الزمان و أطاعكم".

لقاؤه مع فضيلة شيخ الأزهر:

أثـنـاء وجـوده فـي مـصـر قـابل الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ عبد المجيد سـلـيم، شيخ الأزهر، و كانت معه جماعة من كبار الأساتذة و العلماء الأزهريين،

و رجال الوزارة، من بينهم الشيخ عبد اللطيف دراز، مدير الأزهر، و لما علم شيخ الأزهر صلة سماحته بندوة العلماء رحب به ترحيباً كبيراً، و انفتح معه في الحديث، و سأله عن الوضع التعليمي الديني في الهند، فتحدث سماحته عن المدارس الدينية الإسلامية في الهند، و ما مثلته من دور في تخريج علماء متشبعين بالهمة العالية، و روح المقاومة و الجهاد و التطوع و الاحتساب، و تحدث عن ندوة العلماء، و شرح له تلك الفكرة العالية، و الأهداف السامية التي قامت عليها، و ذكر له ما قامت به من إنجازات، و ما قدمته من آثار و نتائج موفقة في مجال التعليم و التربية، و الدعوة و الإصلاح، و التأليف و التدوين، و تمثيل فكرة الإسلام النقية الواضحة".

رأى العلامة الندوي عن الأدب الخليع المكشوف:

دار الحديث في دار الأرقم مركز شباب سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم حول الأدب الخليع، و الصحافة الماجنة، و ذلك مع الأستاذ حسين يوسف، رئيس شباب سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم، الذي كان يكتب في موضوعات إسلامية بقلم قوي مؤمن و إيمان صادق، و إنكار صارخ على الإلحاد و الإباحية و المجون، فتكلم معه سماحة العلامة الندوي بصراحة، و بيّن له ما لهذه الصحافة الخليعة من دور سيئ في إفساد الشباب المسلم، و إقصائه عن الأخلاق، و القيم المثلى، و قال فيما قال:

" لابد من تكوين جبهة قوية و معسكر ضد هذا الأدب المكشوف، و هذه الخلاعة و الاستهتار، و إنه لا يخلو من فائدة".

و قد وافق الأستاذ حسين يوسف رأي سماحته، و تحدث عما كان له من تأثير إيجابي للإنكار على الصحف و المجلات الخليعة و تهديدها: و ذكر أمثلة لذلك.

ثم سأله سماحة العلامة الندوي، و قال: كيف يُوجه الأدب التوجيه الديني؟

قال: الأدب يتجه إلى الدين بوجود حركة دينية، و حياة إسلامية، فإن الأدباء و المؤلفين يُنتجون ما يروج في السوق، و ما يقبل عليه الناس، فإذا كان في الناس إقبال على الدين، انتجوا ما ينال إعجابهم و تقديرهم".

محاضرته القيمة حول رسالة المسلمين في العهد الحاضر:

ألقاها في جمعية الشبان المسلمين، و ملخصها كما يلي:

إن الحياة الإنسانية تشتمل على ناحيتين الناحية الطبيعية، و هي التي تفرض على كل إنسان أن يأكل و يشرب و يتكسب و يحصل القوت و إذا مرض فيتعالج إلى غير ذلك من طبائع الحياة الإنسانية، و الناحية الثانية: هي الناحية الإيمانية و هو تلقي الإنسان الأحكام من خالقه و العمل بها، فيعرف ماذا يحل أكله، و ماذا يحرم، و من أين يكسب، و ما هي الطريق المشروعة للكسب، و تحصيل القوت، و جمع الأموال، و ما هي الطرق المحظورة، و ما غاية هذه الحياة و ما مصير هذا العالم، و ماذا يرضى اللّه، و ماذا يُسخطه، و الأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيان الناحية الأولى، فهي ناحية فطرية يهتدي إليها الإنسان بسائق فطرته: [و أوحي ربك إلى النحل* أن اتخذي من الجبال بيوتاً] الآية، و لم يبعثوا ليزيدوا في نشاطها، و يحثوا على زيادة العناية بها فإن العالم لم يزل يعاني طغيان هذه الناحية، و ثورتها على الناحية الإيمانية، و طالما تضخمت هذه الناحية، و كبرت على حساب الناحية الإيمانية، و إنما بُعثوا لينصفوا لها من الناحية المادية الطاغية، و يوجدوا التوازن الصحيح بين الناحيتين، و إذا أردتم أن تعرفوا رسالة المسلمين، فارجعوا إلى العَصر الذي بعث فيه النبي الكريم صلى اللّه عليه و سلم و تلمسوها، فإذا وجدتم أن الناحية

الطبيعية كانت كاملة غنية بل طافحة بالجوانب المادية، و لم يكن فيها نقص أو عوز، بل كانت قد طغت على الجانب الإيماني في حياة الإنسان، و قضت عليه حتى أصبح نسياً منسياً، و قد جدد النبي الكريم صلى اللّه عليه و سلم الجانب الإيماني، و إحياه و دعا إليه، و على أساسه أوجد أمة لا تزال تقوم بالدعوة إليه، و المحافظة عليه، و الاعتناء به، فأعلموا أنها هي رسالة المسلمين في كل عصر، و هي رسالتهم في هذا العصر، و إلى ذلك أشار النبي الكريم صلى اللّه عليه و سلم يوم بدر في دعائه للمسلمين و شفاعته لهم: "اللهم إن تُهلك هذه العصابة لن تُعبد" فذكر الغرض الحقيقي الذي بعث له المسلمون، و الذي يقوم بهم وحدهم.

و لقد كان لسماحته خلال هذه السياحة العلمية و الدينية أحاديث و محاضرات كثيرة كلها تدور حول الدعوة و الفكر الإسلامي، و بأسلوب دعوي متميز.

و من بين من لقيه من كبار العلماء و الأدباء و الدعاة عدا أولئك الذين مضى ذكرهم كثيرون، منهم: الأستاذ أحمد الشرباصي، و الأستاذ صاوي شعلان، و الأستاذ عبد العزيز كامل، و الدكتور محمد يوسف موسى، و الأستاذ أحمد لطفي السيد، و الشيخ حسنين محمد مخلوف، مفتي الديار المصرية، و الشيخ محمد الشربيني، و رئيس جبهة علماء الأزهر، و الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، مدير المعاهد الدينية بالأزهر، و الدكتور فهمي، و الأستاذ مصطفى مؤمن، و الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، و الأستاذ عبد المنعم خلاف، و الشيخ السيد الشرباصي، و الشيخ علي رفاعي، و الشيخ أحمد ماضي أبو العزائم، و الشيخ محمد صادق المجددي، و الأستاذ لقمان الهندي، شيخ رواق الهنود، و القائمة طويلة جداً.

أما المحاضرات و الأحاديث المهمة التي ألقاها سماحته، فنذكر منها ما يأتي:

محاضرة عن الدكتور محمد إقبال في دار العلوم، حديث إلى الطلبة الاتراك، دور الشباب في توجيه البلاد الإسلامي، و حديث مهم جداً مع سماحة المفتي السيد أمين الحسيني ـ رحمه اللّه ـ، حديث مع الأستاذ سيد قطب في منهاج الدعوة الإسلامية، حديث مع الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

لقد كان سماحته في جميع هذه الأحاديث و المحاضرات و اللقاءات و الكلمات معتمداً على التعبير العربي الجميل، و الكلام المؤثر القوي يتجلى فيه أسلوبه الدعوي و الفكري المتميز، و قد وفق بذلك إلى إنشاء مدرسة أدبية تخرج منها جيل من الادباء، و الكتاب الإسلاميين ممن عُرفوا باسلوب دعوي مبدع، و تلك هي المدرسة الأدبية التي كان لمؤسسها سبق في توجيه الأدب إلى الدين و الأخلاق الفاضلة، و إخضاع الأقلام للفكر الإسلامي النقي، و ليست رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي أنشئت تحت فكرة سماحته الأدبية الإسلامية العالمية، و التي تعقد لها ندوات علمية و أدبية في عواصم البلدان الإسلامية، و قد عقدت ندوة تكريم في العاصمة التركية العريقة في الإسلام لصاحب هذه المدرسة الأدبية، ليس كل ذلك إلا نفحة أدبية من نفحات هذا الرجل العظيم.



أدب الرحلة في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الندوي
بين العربية و الأردية

بقلم: د/ سمير عبد الحميد إبراهيم

[يتناول البحث الموسوم بأدب الرحلة في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الندوي نبذة مختصرة عن حياة الشيخ: مولده و تعليمه، و حياته العملية و أسفاره بالإضافة إلى دراسة أدب الرحلة في كتاباته الأردية و العربية]

فقد بدأ الشيخ أبو الحسن علي الندوي أسفاره و هو في مقبل حياته، فسافر إلى معظم مدن شبه القارة الهندية (قبل التقسيم)، سافر إلى لاهور حيث التقى بالمفكر الشاعر العظيم محمد إقبال، و عدد من علماء لاهور، كما سافر إلى ديوبند و غيرها، و اتصل بجامعة علي كره الإسلامية، و ألقى محاضرات بالجامعة الملية الإسلامية، ثم سافر بعد ذلك إلى معظم البلاد الإسلامية و بلدان العالم الأخرى.

أثرى الشيخ أبو الحسن علي الندوي الأدب الأردي و الأدب العربي على السواء بكتاباته التي ظهرت باللغتين الأردية و العربية، و ينطبق هذا على أدب الرحلة عنده، و على سبيل المثال ظهر كتابه من نهر كابُل إلى نهر اليرموك في بيروت عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م و كانت طبعته الأردية قد ظهرت قبلاً، و تختلف الطبعتان، فالطبعة العربية تخلو من الأشعار الفارسية الموجودة في الطبعة

الأرديـة، و اكتفى المؤلف في الطبعة العربية بما أورده من أشعار عربية، و صدر لـلشيخ أبي الحسن الندوي نوع عليه أن نطلق عليه أدب الرسائل، و إن كان يدخل ضـمـنـاً فـي أدب الـرحـلات و لـنـطـالـع كتابه كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز و الـجـزيـرة الـعـربية الذي صدرت طبعته بعد سنتين من صدور الطبعة العربية، و كـان عـنـوانـه بالأردية:"حجاز مقدس اور جزيره عرب اميدون اور انديشون كى درمـيـان" (أي الأراضـي الـحـجـاريـة الـمـقـدسـة و جـزيـرة الـعـرب بـين الآمال و المخاوف).

و إذا قلنا إن الرحلة في حياة الشيخ أبي الحسن الندوي هي الدافع لمعظم كتاباته فربما لا يُجانبنا الصواب في هذا القول، فالندوي عالم جليل، عالم متبحر فـي الـتـاريـخ الإسـلامـي و الـحـضـارة الإسلامية، حرص على أن يضيء مشعل الـحضارة الإسلامية في الهند، بنور التعليمات الإسلامية الأصيلة و المضي على درب سـنـة الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و لهذا اهتم كثيراً ببيان هذا الهدف في رحـلاتـه خـارج الـبـلاد و كـان دائما يضع نتائج رحلاته في كتاب يتضمن رحلته، و قد تناول البحث أمثلة على ذلك كثيرة.

و الـشـيـخ الـجـلـيـل أبـو الحسن الندوي عشق السفر لا للسياحة، ذلك لأن الإسلام الدين الحنيف يدعو إلى السفر طلباً للمعرفة، و طلباً للعلم، و نشراً للدين الـحـنـيـف بين الناس، و هكذا جعل الإسلام السفر تراثاً يتصل بالتاريخ الإسلامي لـدى جـمـيع الشعوب الإسلامية، و التاريخ الإسلامي لـه مكانة خاصة لدى شيخنا أبـي الـحسن علي الندوي، و من هنا كان السفر و الارتحال جزءاً أصيلاً من فكره، و كـان الـسـفـر و الارتحال هو الدافع لمعظم كتاباته بلا مبالغة، و إذا كانت كتب الـرحـلات تـقدم قصصاً و حكايات، قد يكون بعضها حقيقيا، و بعضها من نسيج الـخـيـال، إلا أن الامر يختلف عند شيخنا، فهو لا يقدم حكاية و لا قصة، بل يقدم رسالة سامية تحمل هدفاً سامياً و هو الدعوة إلى اللّه و رفعة شأن المسلمين.

و إذا بحثنا عن أسباب الرحلة عند الشيخ ابي الحسن وجدنا أن طلب العلم كان ـ في البداية ـ من الأسباب الرئيسية التي دفعته للرحلة خارج و داخل شبه القارة كما كانت رحلة الحج رحلة تاق إليها قلبه منذ صغره، كما يتضح من البحث، و إذا كان قد ارتحل لأداء مهمة عمل بجامعة أو مؤسسة فإنه يُحوّل هذه المهمة إلى هدفه الأساسي و هو الدعوة إلى الدين، و هذا واضح من خلال الكتب التي صدرت له بعد كل رحلة. و كان الشيخ يتجوّل أحياناً عبر التاريخ يغمض عينيه، و تتراءى أمامه صور الماضي، عظمة الإسلام فيظل يطالع هذا التاريخ حتى ينتبه الواقع، و قد أورد الباحث في بحثه نموذجا لرحلة الخيال عند الشيخ عبر التاريخ. ركزت رحلات الشيخ أبي الحسن الندوي كلها على هدف واحد، و هو الدعوة الإسلامية، و يتضح هذا من بيانه للأمور التي اعتنى بها و المنهج الذي سلكه في تدوين الرحلة، فهو لم يهتم بالأمور الجغرافية أو الاقتصادية إلا قليلاً، و ركز على الأمور الثقافية و الاجتماعية و الحضارية، فنراه يذكر الأحوال العلمية في البلاد التي زارها و يذكر العلماء و الأدباء و المدارس و حلقات الدرس و الأدب و الجامعات و المؤسسات التعليمية و الثقافية و ما إلى ذلك.

اما عن لغة الرحلة سواء ما كتب بالعربية أو الأردية فيكفي أن نشير إلى أن الشيخ أبا الحسن الندوي أديب يشهد له الجميع إذا ما كتب بالأردية أو العربية، و قد ساد الطابع الأدبي كتاباته و زخرت مادة رحلاته بالعناصر الأدبية مما يجعلنا نطلق على كتاباته "أدب الرحلة" بحق، فرحلاته صدرت على مستوى أدبي رفيع، ضمنها الأشعار و الأمثال و الحِكم، و زيّن سطورها بآيات القرآن الكريم و الأحاديث النبوية التي ربما احتاج إليها للتعليق على موقف أو الفصل في قضية ما، و كانت المشاعر الفياضة تغلب على شيخنا فتفيض

عـلـى أسـلـوبـه فـتـأتـى لغته العربية او الأربية رفيعة المستوى عظيمة التاثير و الإمتاع مما يجعل لرحلاته قيمة ادبية، نظراً إلى روعة الأسلوب الذي يصل بها إلى مستوى الخيال الفني في معظم الأحيان.

و لـم نـر ضرورة لتقسيم رحلات الشيخ أبي الحسن الندوي طبقا للموضوع لأن مـوضـوع رحـلاته كان رغم اختلاف الوسيلة هو الدعوة إلى اللّٰه و الدعوة إلى اسـتـعـادة الأمـجـاد الـقديمة، و لهذا نتبع الترتيب التاريخي قدر الإمكان لعرض رحـلات الشيخ أبي الحسن الندوي و إذا استعرضنا رحلات الشيخ الندوي فقسمها إلى خمسة أدوار:ـ

الـدور الأول: الـرحـلـة إلـى الـبـلـدان الـعـربـيـة، مصر و السودان و الشام و فـلـسـطـين مـع بـيـان الانـطـباع و الأخير للشيخ عن سلسلة رحلاته إلى البلاد العربية.

الـدور الـثـانـي: و تـشـتـمـل الرحلة على البلدان العربية و تركيا في فترة لاحقة.

الـدور الـثـالـث: الـرحـلات إلـى بورما و الكويت و الجزيرة العربية و أيضا رحلاته إلى أوربا بما في ذلك الرحلة الأندلسية.

الـدور الـرابـع: الرحلات المتعددة إلى السعودية و الكويت و دول غرب آسيا (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ـ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

الـدور الـخـامـس: رحلات مابعد عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م حين سافر الشيخ إلى الاردن و الـيـمـن و الـسعودية و شهدت هذه الفترة تأسيس رابطة الأدب الإسلامي الـعـالـمية، و شمل هذا الدور أيضا رحلات الشيخ إلى باكستان و الجزائر و تركيا

حيث حضر الجلسة الاستشارية الثانية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (١٩٨٦م) و ارتحل إلى ماليزيا و الإمارات العربية المتحدة.

رحلات الشيخ إلى أوربا في أعوام ١٩٨٥م/١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م/١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م/١٤٠٨هـ.



بعض الأساليب الأدبية العلمية
لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

بقلم: الأستاذ عميد الزمان الكيرانوي

يسعدني، و أنا أحاول أن أكتب، لأول مرة، حول بعض الأساليب الأدبية العلمية لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه اللّه ـ في ضوء كتبه: "روائع إقبال" و "إذا هبت ريح الإيمان" و "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، أن استهل الحديث بالإشارة إلى أن أول مرة تشرفت فيها بزيارة سماحته كانت في الخامس من شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ، اي قبل أكثر من أربعين عاماً... و قصة ذلك هي أنني كنت طالباً في دار العلوم ديوبند. و كنا قد أصدرنا أنا و بعض أصدقائي و زملائي في الدراسة من الطلاب جريدة سميناها "اليَقَظَة". و كانت هذه جريدة مطبوعة باللغة العربية صدرت من قِبل طلاب دار العلوم ديوبند دون رعايتها الرسمية و كان زميلي الأستاذ أرشد المدني، أحد كبار أساتذة دارالعلوم حالياً، سكرتير تحرير الجريدة، بينما أُسندت إليّ رئاسة تحريرها. و كنا نهتم بقراءة ما يتوفر لنا من جرائدَ و مجلاتٍ صادرةٍ باللغة العربية، و منها مجلةُ البعث الإسلامي. و كنت من المعجبين بسماحة الشيخ الندوي نتيجة اهتمامي بقراءة مقالاته المنشورة في هذه المجلة. و كنا نشتاق لزيارته. و قد تناهي إلى علمنا ذات يوم أن سماحته موجود في مدينة ميرت

فسافرنا إليها أنا و صديقي الأستاذ عبد اللّه السورتي (أحد كبار علماء كوجرات، مدير مدرسة فلاح دارين بتركيسر) و قد استقبلنا سماحته بِبِشر و لطف و حفاوة، و أبدى ارتياحاً كبيراً لإصدارنا جريدة "اليقظة"، و شجعنا كثيرا على مواصلة العمل لتطويرها. كما تفضل سماحته بكتابة كلمة قصيرة تضمنت انطباعاته عن الجريدة، و قد نشرناها بعدد اغسطس ١٩٦١م من "اليقظة"، و هذا نصها:

"بسم اللّه الرحمن الرحيم"

"و بعد! فإن صدور صحف و مجلات عربية من مؤسسات علمية و أوساط دينية في الهند رمز لإقبال الشعب الإسلامي الهندي على اللغة العربية من جديد، و شدة عنايته بها. و قد صدرت مجلات مختلفة في أزمان مختلفة في بيئات مختلفة يطول الحديث عنها، و لكن صدور صحيفة باللغة العربية من دار العلوم ديوبند حادث يسترعى الانتباه و يثير الاهتمام، و يستحق التهنئة و التشجيع، و تُعقد به آمال كبار، لذلك نهنئ القائمين على شؤون هذه المجلة على نشاطهم و يقظتهم، و نتمنى لهم التوفيق و النجاح".

"إن الأعداد القليلة التي وقعت إليّ و كُتب لي الاطلاع عليها تدل ـ و لا شك ـ على جدارة منشيئها، و على أنها نواة صحيفة أوسع و عمل أبرع. و قد أعجبت بخطها العربي الجميل و حسن الترتيب و سهولة اللغة. و كل ذلك يبشر بمستقبل أدبي زاهر، إن استمر العمل و تهيأت الأسباب، فلتتقبل أسرة "اليقظة" تحياتي و تهنئاتي . وفقها اللّه و سدد خطاها.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٣٨٠/١١/٥هـ.

كـانـت هـذه هـي الـمـرة الأولـى الـتـي تشرفت فيها بزيارة سماحته، و قد أعـقـبـتـهـا عـدة لـقاءاتٍ أتيحت لي فرصها بفترات غير متباعدة. ثم مرت فترة طـويـلـة لـم تـسـنـح لـي فيها مثل هذه الفرصة السعيدة، حيث شغلتني شواغل، و طالت فترة الحرمان، فيا لـه من حرمان و خُسران لا يُعوضان.

عـنـدمـا يـريـد أحـد أن يكتب شيئا عن شخصية علمية و اساليب كتابته. يـحـتـار و يـستصعب نلك، إذا كانت آثاره العلمية قليلة جدا، غير أن الأمر يزداد صـعوبة و استعصاء إذا كانت مؤلفاته كثيرة و متنوعة. و هذه هي المشكلة التي واجـهـتـنـي لـدى اعـتـزامـي كـتابة هذه السطور. فمن حق أي مفكر مؤلف غزير الانـتاج مثل سماحته أن يا يَكْتُب عن أساليبه الأدبية إلا من درس مؤلفاته دراسة فـاحـصـة تُمكّن المتتبع من الاستنتاج و التعقيب و الاستشهاد، على نحو أفضل و أمثل حين قيامه بالكتابة.

و قـرأت فـعـلاً كـتـاب سـمـاحـتـه: "روائع إقبال"، فأعجبت بأسلوبه الأدبي الرائع إعجاباً كبيراً. و إن أي شخص أوتي نصيبا من الفكر و النوق للأدب العربي لن يـتـردد فـي الـقـول بـأنـه لـم يـكـن من الـمـمـكـن تفسير كلام الشاعر الدكتور محمد إقبال و نقله إلى العربية بأسلوب أروع و أقوى، و على نحو أبلغ و أرقى مما نقله به سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي نقلاً أميناً مقرونا بالشرح و الإيضاح.

فـقـد وصـف إقبال، الذي كان شديد الانتقاد لنظام التعليم الحديث، الجيل الـذي نـهـل من مـنـاهـل هـذا الـنـظام، و نقله إلى العربية شيخنا الأديب الأريب الندوي، فجاء تصويره على النحو التالي:

"إن الشباب المثقف فارغ الاكواب، ظمْآن الشفتين، مصقول الوجه مظلم الـروح، مـسـتنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد في

هـذا الـعـالـم شـيـئـا. هـؤلاء الـشـبـان أشباه الرجال، و لا رجال، ينكرون نفوسهم و يـؤمـنـون بـغـيـرهـم. يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس و أديارا. شباب نـاعـم، رِخْوٌ رقـيـق في الشباب كالـحرير، يموت الأمل في مهده في صدورهم، و لا يستطيعون أن يفكروا في الحرية". (ص: ٦٠)

و لا يـخـفـى مـا فـي هـذه الـعـبـارة الـمسبوكة بجمل و تراكيب متساوقة مـتـنـاسـقة، من روعة البيان و قوة التأثير. و يمضي شيخنا الأديب الندوي في نقل كلام شاعر الإسلام فيقول:

"إن الأفـرنـج قـد قـتـلوه (أي الشباب المثقف بالثقافة العصرية) من غير حـرب و ضرب، عقول وقحة، و قلوب قاسية، و عيون لا تَعِفّ عن المحارم، و قلوب لا تـذوب بـالـقـوارع. كـل مـا عندهم من علم و فن، و دين و سياسة، و عقل و قلب يـطـوف حـول الـمـاديات قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة. أفعارهم لا تساوى شيئا. حياتهم جامدة واقفة متعطلة". (ص: ٦١)

يـتـبين لمتأمل في العبارة أن الكلمات التي ينتقيها الشيخ الأديب المفكر الـنـدوي هـي من أحـسـن مـا يمكن انتقاؤه للتعبير عن مثل هذا المعنى، و عندما يـسـتخدمها في صياغة العبارة يضعها في مواضعها وضع صائغ ماهر مصفوفة مـتـراصـة، إذا أُدخل عـلـيـهـا تـعـديـل أو تصرف فيها متصرف، فقدت ترابطها و تلاشت فصاحتُها.

و فـيـمـا يلي نموذج آخر من النثر الأدبي الرائع للشيخ الأديب الندوي يعبر فيه عن فكر إقبال قائلاً: "يتمنى الدكتور محمد إقبال للإسلام جيلاً جديداً، شبابه طـاهـر نـقي، و ضربه موجع قوى. إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشَري، و إن كان الصلح فهو في وَداعته كغزالي الحِمي، يجمع بين حلاوة العَسَل و مرارة

الـحـنـظل. هذا مع الأعداء و ذاك مع الأولياء. إذا نكلم كان رقيقا رفيقا. و إذا جد في الـطـلـب كـان شـديـدا حفياً. و كان في حالتى الحرب و الصلح عفيفا نزيهاً. آمـالـه قـليلة. و مقاصده جليلة، غني القلب في الفقر، فقير الجسم و البيت في الـغـنـى، غـيـور فـي الـعسر، رؤوف كريم عند اليسر. يظمأ أن أبدى له الماء مِنةً. و يـمـوت جـوعـاً إن رأى فـي الـرزق ذِلـةً. إذا كـان بـين الأصـدقـاء كان حريرا في الـنعومة. و إن كان بين الأعداء كان حديدا في الصلابة. كان طلا و ندىً، تتفتح به الأزهـار، و ترفّ به الأشجار. و كان طوفاناً تصطرع به الأمواج و ترتعد له البحار. إذا عـارض فـي سيره صخورا و جبالاً كان شلالاً. و إن مر في طريقه بحدائق كان ماءً سلسالاً."(ص:٧٠)

نـتـمـيـز هذه العبارة بأسلوب أدبي قوى حيث أفرغت فيها المعاني الجَزْلة فـي قـالِب من جـمـل و تـراكـيـب تـنـاسبها ضخامة و جلجلة و فصاحة، كما أن المعاني الرقيقة المستملحة قد أفرغت في قالب من ألفاظ تلائمها رقة و عذوبة و سلاسة. فإن جملا و تراكيب مثل: "كان طوفانا تصطرع به الأمواج، و ترتعد له الـبـحـار" و مثل: "و إذا عارض في سيره صخورا و جبالا كان شلالاً" تنطوى على كـلـمـات لـهـا رنين وطنين. أما التراكيب مثل "كان طلا و ندى تتفتح به الأزهار، و تـرف بـه الأشـجـار" و "مـاء سـلـسـال" و "حـريـر فـي الـنعومة"، "و "غزال في الـوداعة" و "حلاوة العَسَل" كلها تراكيب و ألفاظ تفيض روعة و سكينة و حلاوة تلائم المعاني المستملحة اللطيفة.

و مـمـا جـاء تـحـت عنوان "حديث الربيع": خيم سلطان الربيع. و انتشرت جـنـوده فـي رحـاب الـصـحـراء و أودية الـجبال. و قامت دولة الزهور و الرياحين. و دبـت الـحـيـاة إلـى الصخرات و الـحجارة، حتى كادت تنطق و تنطلق. و غشيت الـعـالـمَ سـحـابـةٌ من الـمـرح و السرور، حتى أبت الطيور أن تستقر في أوكارها

مرحاً. و انطلقت عيون الجبال تميس و تنساب كالحيات في الصعيد، تدب احياناً و تجري برفق و هدوء، و تتدفق أخرى و تجرى بقوة و سرعة، و إذا حبسها حابس فلقت الصخورَ و الهَضَبات، و شقت طريقها إلى الأمام. و إنها بحزيرها الدائم تغنى نشيد الحياة و تردد حقائقها". (روائع إقبال ص: ١٦٣)

تمثل هذه الفقرة ايضاً الأسلوب الادبي البارع القوي لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، فهي تحتوي على جمل و تراكيب في غاية من الروعة و البراعة و قوة التاثير. إذا أنها نصور منظراً طبيعياً خلاقاً تصويراً يكاد يجسد هذا المنظر و يُخيِّل إلى القارئ و كانه أمام منظر واقعي جميل ساحر فيتجاوب مع نغمات الطيور التي أبت أن تستقر في أوكارها مرحا، و يتفاعل مع نشوة الزهور و الرياحين و تدب الحياة في كل ما حوله من صحراء و أودية و جبال و صخور و هضاب و نجاد و وِهاد، و عيون تتدفق منها المياه فتتحول شلالا في أماكن، و تنساب انسياباً هادئاً في أماكن اخرى. و يتمتع القارئ الذي يشعر و كأنه المشاهد للمنظر و يسري النشاط في أحشائه، و تجيش عاطفته و تخطر على باله خواطر، و تفيض قريحته إذا كانه كاتباً، و تهيج شاعريته إذا كان شاعراً.

إن أي كاتب يملك قدرة هائلة على استخدام تعبيرات قوية متنوعة بحكم غزارة مادته من العلم و الفكر و اللغة التي تطيعه تعبيراتها و كلماتها و تأتيه تترى متدفقة من معجم ذاكرته للمفردات، مثل سماحة الشيخ ابي الحسن علي الندوي، لا يستريح لقيود تحد من حريته مثل قيود تفرضها الأمانة في الترجمة و الدقةُ في نقل الكلام من لغة صاحبه إلى لغة أخرى، لذلك يلاحظ قارئ كتاب "روائع إقبال" أن ما كتبه سماحته ــ و هو يغطى جزءا كبيراً من الكتاب ــ للتعريف بالشاعر و التمهيد لشعره أو التعقيب عليه لشرحه و تفسيره لا يعادل

أسلوبه الأدبي القوى المؤثر فيما نقله من كلام الشاعر إلى القالب العربي فحسب بل يفوقه أحياناً بما فيه من تعبيرات و تراكيب أروع و أقوى استخدمها و هو طليق حر غير مصفد بقيود لا تتمش مع فيضان قريحته و هو يكتب عن فكر شاعر أحبه لأنه رآه يوافق هواه، و يعبر عن ضميره و خواطره و ينسجم مع عقيدته و تفكيره و يتناغم مع عواطفه و مشاعره.

فيقول سماحته مثلاً: (و قد لا أكون موفقاً في الاختبار حيث يمكن اختيار ما هو الأروع إذا أُعيدت قراءة الكتاب) إن إقبال تخرج من مدرستين: مدرسة الثقافة العصرية و الدراسات الغربية، و مدرسة القلب و الوجدان، و يتحدث عن هذه المدرسة قائلاً: "إنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها و ما ضاع من تخرج منها.. إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين، و واضعي العلوم المبتكرين، و قادة الفكر و الإصلاح المجددين، الذين يشغلون المدارس و رجالها بتفهم ما قالوا، و دراسة ما كتبوا، و شرح ما خلّفوا، و تعليل ما ألّفوا و تأييد ما أثبتوا، و تفصيل ما أجملوا، فيتكون من كلمتهم كتاب و من كتابهم مكتبة... إنها مدرسة ما تُعَلِّم التاريخ بل تلد التاريخ، و ما تشرح الفكرة، و ما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار، إنها مدرسة توجد في كل زمان.... إنها تولد مع الإنسان، و يحملها الإنسان في كل مكان، هي مدرسة القلب و الوجدان، هي مدرسة تُشرف عليها التربية الالهية و تمدها القوة الروحية". (روائع اقبال ص: ٣٧)

و يقول سماحته و هو يتحدث عن عوامل ساهمت في تكوين سيرة إقبال و عقليته و شخصيته:

"كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته و رسالته، و مما انتفع به الإسلام انتفاعا عظيما، و قد عصمت الشاعر من التيه الفكري و الهيام الأدبي

اللـذين يصـاب بـهـمـا ادباؤنا و شعراؤنا و كتابنا و علماؤنا! فينتجعون كل كلأ، و يـهـيـمون في كل واد، و يكتبون في كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا، و يمدحون كل شخص" (ص: ٥١)

و يـقـول سـمـاحـتـه فـي مـقـدمة الكتاب: وجدته شاعر "الطموح و الحب و الإيـمـان".... كلما قرأت شعره جاش خاطري و ثارت عواطفي، و شعرت بدبيب المعاني و الاحاسيس في نفسي و بحركة للحماسة الإسلامية في عروقي.

و يـمـر القارئ بتجربة غريبة أثناء قراءة هذا الكتاب فهو يتأثر منذ البداية بـالـمـكـانـة الـفـكـريـة و الأدبية لشخصيتين معاً.. شخصية الشاعر و شخصية الـمـتـرجـم و الـشـارح لـشـعـره و كلما يتقدم في القراءة كلما يزداد هذا الشعور بـالـتـأثـر، و يُخـيـل إلـيـه و كأنهما يتجاوبانه و يحاول كل منهما أن يفرض عليه سلطانه و يستأثر بإعجابه، عن غير عمد في صراع غير متعمد، منشود محمود، غريب من نوعه.

و مـا أصـدق مـا قـالـه فضيلة الشيخ محمد رابع الحسني الندوي عن هذا الأثـر الأدبـي فـي كـلـمته التي تتصدر الكتاب من أن سماحته يعرض فكر شاعر الإسـلام الـدكـتـور مـحـمد إقبال خير عرض و أصدقه. كما أنه يقدم نماذج شعره منقولة إلى العربية نثراً بأدق ترجمة و أروعها يتبينها المطلع على اللغة العربية و الـلـغـة الـتـي عـبـر فـيـها الشاعر عن تأملاته و أفكاره، فإنه سيرى فيها الدقة و الـقـدرة عـلـى النقل الأمين و الروعة البيانية و ذلك لأن المؤلف كان يقرأ الشعر أولاً بـإمـعـان و يـنـفـعـل مـعـه انفعالاً فكرياً و أدبياً ثم كان يصوغه بقالب مشابه لأصلـه دقةً و بياناً، فأصبح الكتاب بذلك نموذجاً رائعاً جداً للتعريب... لم يعد به الـكـتـاب اسـتـعـراضـاً لـفـكـر الـشـاعر وحده بل صار نقلاً لبيانه الشعري أيضا و نصوصاً أدبية بذاتها في اللغة العربية.

و إنـنـي إذا اؤكـد هـذا الرأى الذي يتوافق مع رأيي و انطباعاتي عن "روائع إقـبـال" أقـول إن هـذا الـكـتـاب إذا كان يحتوي على روائع شعر إقبال المعبر عما جبل عليه المؤلف من "الطموح و الحب و الإيمان" فإنه يحتوي في الوقت نفسه عـلـى روائـع أدبية (و فكرية كذلك) لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي، غير أن روائـعـه الأدبـيـة و الـفكرية ليست مقصورة على هذا الكتاب ــ و ينطبق ذلك أيضا على روائع الشاعر ــ فحسب بل أنها منبثة في مؤلفاته الكثيرة القيمة.

إن كـل مـوضـوع يـقـتـضى ان يعالج بأسلوب خاص به. و ليس بإمكان كل كاتب أن يراعى هذا الأمر فينصف موضوعا يختاره وافيا بمتطلباته. أما الكاتب الـقـديـر مطاع اللفظ و الأسلوب فإنه يتبع في كل موضوع ما يلائمه من أسلوب من بـين أسـالـيـب أدبـيـة مـتـنوعة تختلف حسب اختلاف ما للمعاني من العمق و الـقـوة و الجزالة أو اللطف و الجمال و الاستملاح. و لا يتاتى اي أسلوب للكتابة إلا من خـلال مـا يـسـتـعمله الكاتب من تعبيرات و تراكيب فهي قوام كل أسلوب. و من ذلـك نـجـد من الأسـالـيـب مـا هـو أسلوب أدبي ساحر يفتن القارئ و يبعث الـنـفـس عـلـى الـنـشـاط و الـسرور، و يحرك العواطف و الـخواطر. و يمثل كتاب "روائع إقبال" أحد النماذج الرفيعة المستوى لهذا الأسلوب.

و من الأسـالـيـب مـا هـو رصـين رزين يـغـلـب عـليه طابع التاريخ إذا كان الـمـوضـوع الـمـعـالج به مما يتصل بالأحداث و الوقائع التاريخية. و هو ما نجد مـثـالـه، بـل خـيـر مـثـال لـذلـك، في كتاب سماحة الشيخ الندوي: "إذا هبت ريح الإيـمـان" فـقـد انتهج سماحته فيه أسلوباً رفيعاً يختلف عن أسلوبه في "روائع إقـبال". فيلاحظ القارئ أن هذا الأسلوب يتميز بغاية من الرصانة الرزانة فتندر فـيـه تـراكـيـب مـؤلفة من كلمات لها جلجلة و فخفخة و يوجد في معظمه من الاتـزان و الـهـدوء و الـتـسـلـسل ما يتلاءم مع الموضوع الذي يعالج تاريخ الدعوة

و الـجـهاد في الهند في القرن الثالث عشر الهجري. و قد ألقى فيه المؤلف الكبير أضـواء عـلـى حـيـاة قـائـد هـذه الدعوة و الجهاد و الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد و سيرة أصحابه و رفاقه في أمانة تاريخية.

غير أن الأسلوب المتبع في هذا الكتاب ليس أسلوباً جافاً خشبياً نجده في كـتـب الـتاريخ لأنه ليس كتاب تاريخ عام و إنما هو كتاب تاريخ للحركة و الدعوة و الـجـهـاد في سبيل الإسلام (و الوطن). و لذلك قُلت إنه أسلوب كتابة التاريخ بَيْد أنـه فـي الـوقـت نـفسه أسلوب يختلف نوعاً يقتضيه تاريخ الدعوة و الجهاد و ما يـنـطـوي عـليه هذا التاريخ من أمجاد و بطولات و تضحيات... و هي مما ينفعل مـعـه الـمؤلف انفعالاً إيمانياً دعوياً، فإن نفسه كانت مطبوعة ـ باعتراف منه ـ عـلى "الطموح و الحب و الإيمان" تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل ما من شأنه سيادة الإسـلام و تسخير هذا الكون لصالحه. و من هنا فإننا نلاحظ أن أسلوب سماحته فـي هـذا الـكـتـاب رغـم تـميزه بالرصانة أو الصبغة التاريخية تتجلى فيه أيضاً مـسـحـات من قـوة الـبيان و حماسة الإيمان. و لا أستطيع أن استشهد على ذلك بـإيـراد مـقـتـطـفات من الكتاب لا يتسع لها المكان فاكتفى بالاشارة إلى قبسات قصيرة.

من الـمـعـلـوم أن كـل موضوع له تشعبات و بعضها بمثابة ثنايا طريق من الـطـرق بـالـنـسـبـة لصلب الموضوع. و يغير الكاتب القدير أسلوبه عندما يعالج تـشعبا من هذه التشعبات، فاذا احتاج إلى وصف مكان و موقعه و ما في طريقه من وعـورة و وعثاء استخدم أسلوبا يلائمه. و تظهر هذه البراعة في كل ما كتبه شـيـخـنـا الـكـاتب القدير، و مما يدل عليه قوله مثلاً: و يمرون بشعوب و قبائل لا يفهمون لغتها و لا تفهم لغتهم. و قد لا يجدون إلا آبارا قد غار ماؤها و مَلُح ملوحة شـديـدة لا يـجدون غيره يبلّون به غلتهم، و يُسقونه ماشينهم. و قد يضطرون إلى

حـفـر آبـار و حُفَر فـي أنـهـار مالحة يفيض ماؤها بسرعة. و يمرون في طريقهم الـطـويـل الـذي يمتد على مئات من الأميال برمال وعاء و أرض تكثر فيها الوهاد و النجاد، و تلال من الرَمْل يتعب الانسان فيها إذا مشى خطوات قليلة. (٦١)

و عـنـدمـا نـقـرأ مثل هذه العبارات يخيل إلينا و كأننا نقرأ كتاباً من أجود كتب الجغرافيا وضعها كتاب من نوى الخبرة و التخصص في الموضوع.

أمـا أسلوب المفكر العلامة الندوي في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط الـمـسـلـمـين"، باكورة مؤلفاته فانه أيضا يتميز و يتكيف بالمباحث فيتغير لأن مـوضـوع الـكـتـاب هو تاريخ و تفكير و تحليل و استنتاج. و تنعكس هذه العناصر عـلـى الأسـلـوب مـجـتـمـعـة تارة، و على انفراد تارة أخرى، و فوق نلك كله هناك عـنـصـر هـام آخـر يُكسب هذا الأسلوب صفة متميزة، و نلك العنصر يتمثل في حـرص الـمـؤلـف على سيادة الإسلام و الإيمان بخلود رسالته. فهو يدرس التاريخ دراسـة مـوضـوعـيـة ثم يحلل حصاد دراسته تحليل باحث إسلامي و يستنتج من زاوية نظره الإسلامية النزيهة بأسلوب علمي متميز لا تحامل فيه و لا تعصب.

و لا حـاجـة بـنا إلى أن نستشهد على نلك بإيراد مقتطفات من هذا الكتاب الـشـهـيـر فهو غني عن التعريف به، كما لا يسعه المقام، لذلك أرى الاكتفاء بنقل جزء من مقتطفات أوردها المرحوم الأستاذ سيد قطب في "ظلال القرآن" ضمن تفسير لسورة العصر قبسها من الكتاب في البحث قائلاً:

"يـقـول الأسـتـاذ أبـو الـحـسن الـندوي في كتابه القيم: "ماذا خسر العالم بـانـحـطـاط المسلمين"... عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله، و تحت عـنـوان "عـهـد الـقـيـادة الإسـلامـيـة": الأئـمـة الـمسلمون و خصائصهم: ظهر الـمـسـلـمـون و تـزعموا العالم. و عزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التي

استغلتها و أساءت عملها و ساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً. و قد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم و تضمن سعادتها و فلاحها في ظلهم و تحت قيادتهم..

و أحذف جزءا طويلاً مما نقله الأستاذ سيد قطب مكتفياً بالجزء الأخير منه:

"إن الإنسان جسم و روح، و هو ذو قلب و عقل و عواطف و جوارح، لا يسعد و لا يفلح و لا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسباً لائقا بها، و يتغذى بها غذاء صالحا. و لا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني. و قد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك كانت إلا إذا كانت قيادة الحياة و ادارة دفة المدينة بيد الذين يؤمنون بالروح و المادة، و يكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية و الخلقية. و أصحاب عقول سليمة راجحة و علوم صحيحة نافعة". (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ١١٩)

صحيح أن الكتابة حول أي موضوع تتطلب اتباع أسلوب خاص به، و لا يتسنى مراعاة ذلك إلا لكاتب قدير مثلِ سماحة الشيخ الندوي. فقد تميزت أساليبه عن بعضها البعض من كتاب إلى آخر حسب موضوعه، و لكنها ليست متباينة و إنما هي متميزة بعضها عن بعض تميزا يمتشى مع الموضوع. و لابد من أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هناك روحاً جوهريةً تلازم هذه الأساليب و لا تفارقها و إذا فارقتها فلا يطول فراقها.. و لعل هذه الروح الجوهرية تتمثل فيما تفيض به مؤلفاته و كتبه من حيوية و حماسة للإسلام لأنه يكتب ـ كما أشار إليه الأستاذ فاروق حماده في التنويه بأساليب سماحته ـ بمداد الفؤاد و نور اليقين الذي ملأ أقطار قلبه.

و يقول الدكتور شكرى فيصل عضو المجمع العلمي العربي بدمشق (و أستاذ جامعة دمشق و المدينة المنورة) بصدد حديثه عن مميزات كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين": إن سماحته يستثمر التراكيب القرآنية و العربية استثماراً واسعاً و يختار العناوين و يلونها اختيارا و تلوينا طريفين. و اعتقد أن هذه ملاحظة هامة تعبر عن ظاهرة ليست مقصورة على هذا الكتاب و إنما هي ظاهرة عامة من أسلوب سماحته.

و من المعلوم أن كتب سماحة الشيخ الندوي كثيرة و متنوعة و هي على كثرتها و تنوعها إسلامية علمية فهي تمثل ركناً هاماً من المكتبة الإسلامية. و من حقه ـ كما قلت في البداية ـ أن لا يكتب عن أساليب الأدبية إلّا من اطلع على جميع مؤلفاته و سبر غورها.

أما بالنسبة لي فإن مؤلفات سماحته تمثل مدرسة بكاملها. و انا اعتبر نفسي طالبا مبتدئاً منها. فلم يكن بإمكان طالب مثلي أن ينصف مثل هذا الموضوع الهام. و لكن محاولتي هذه للإسهام فيما كُتب حول مؤلفاته ستكون شهادة تثبت التحاقي رسمياً بهذه المدرسة، و إذا قدر لي التخرج من هذه المدرسة الفكرية العلمية الأدبية فإنني قد أتمكن ـ بإذن اللّه ـ من ابداء آراء و ملاحظات يمكن أن يحسب لها حساب.



أبو الحسن النـــدوي

نظرة في كتابه

(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

بقلم: الدكتور محمد رجب البيومي

روع العالم الإسلامي بوفاة الداعية الكبير الأستاذ أبي الحسن الندوي، و قد كتبت عنه ترجمة مفصلة ستنشر في مجلة الأزهر، و لكني الآن أفرد هذا المقال للحديث عن كتابه الشهير "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

فما انكر أن كتاباً ملك عليّ مشاعري و استثار الأعماق الدفينة من وجداني كهذا الكتاب فقد كنت اقرا مبهور الانفاس مضطرم المشاعر و كنت أقطع القراءة لحظات لاصعّد آهة مكظومة او اجفف دمعة حائرة في الجفن إذ أنّ الكاتب الكبير. و كان حينئذ في صدر شبابه. قد ملك من الأسلوب المنطقي المؤيد بالحجج ما دلّ على رسوخ كبير في موضوعه و هو موضوع العالم جميعه قديماً و حديثاً، شرقاً و غرباً، لأن الشمول المحيط بتاريخ العالم قبل الإسلام و بعده قد فتح أمامي صفحات واسعة أرى فيها تسلسل التاريخ المطرد من مصبه إلى منبعه و كيف كان الإسلام ضوءاً مشعاً غمر العالم كله بنوره بعد أن كان يموج في ظلمات دامسة ما لها من انقشاع هذا في عهد ازدهاره، أما في عهد (انحطاط المسلمين) و الانحطاط لفظ اختاره الكاتب ليعبر عن المأساة الاليمة الموجعة

الـتـي يـحـملها في نفسه من جراء تأخر المسلمين، و قد أزعجني هذا اللفظ على صـحـة مـعـنـاه و مـوافقته للواقع الملموس، فكنت أوثر أن يخفف من وقع مدلوله فـيـكـون عـنـوان الكتاب ماذا خسر العالم بانحدار المسلمين، أو بتأخرهم، و أخال الرجل العظيم كان صريحاً في إيضاح الحقائق المؤلمة من تأثيرها باستبدال لفظ مكان لفظ، أقول أما في عهد الانحدار و توثب أوربا لقيادة العالم، فقد أزاح الكاتب عـنـا مـعـشـر الـمـسلمين ما نشعر به من مركب النقص إزاء أوربا لأن أبواقها في الـشرق و الـغـرب قـد جـعلت مدنيتها المثل الأعلى للتقدم البشري، و أهاب الذيول لدينا نبأ أن نخضع لتأثيرها الكلي في كل اتجاهات الحياة، و لا يعنون مجاراة أوربا فـي الـنـهـوض الـصـنـاعي و الإكتشاف العلمي في شتى فروعه المختلفة، فهذا ما نـريـده، و لا نـراه وقـفـا عـلـى أوربـا و حدها، فإنها كما نعلم و كما أشار الكاتب قد اقـتـبـست عناصر نهضتها من مدنية الشرق، و نقلت عنه آدابه و علومه حين كانت تغوص في بحر الظلمات، ثم نام العرب بخاصة و الشرق بعامة عن واجبهم العلمي حـين أفـاقـت أوربـا من سكرتها، فسبقت سبقها الظافر مادياً لا معنوياً لأن السبق الـمـعـنـوي الـظـافـر لـم يتح لأمة في الشرق و الغرب غير أمة الإسلام التي جعلت الأحـمـر و الأبـيض و الأسود سواء في شريعة اللّه و لا فضل لعربي على أعجمي إلا بـتـقـوى الـلّه، هـذا الـمستوى الحضاري الرائد لم تبلغه أوربا الهاجمة إلّا بدباباتها و طـائـراتـهـا و قذائفها النارية و غازاتها السامة، على شعوب الضعفاء في افريقيا الـسـوداء و آسـيـا الـجريحة لتنهب ما في ثرواتها من ركاز و ما تضمه أراضيها من كـنـوز دون أن تـرقـى بـهـذه الشعوب المسكينة، لأنها تؤمن بالطبقات الفاصلة بين قـارة و قـارة، و أمـة و أمـة، أمـا الـمـسـلـمون فينظرون إلى مآسي الدول الغاشمة المتجبرة و يرددون في أسف قول القائل:

ملكنا فكان العفو منـــــا سجية

فلما ملكتم سال بالدم أبطـــــح

و قد كنت أتهم نفسي في شدة إعجابي بهذا الكتاب المبدع، و لولا أن الإعجاز وقف على كتاب اللّه وحده، لقلت إنه الكتاب المعجز، و لكني رأيت كبار الكتاب المنصفين يقولون ما أقوله، و في طليعتهم أستاذي الكبير الدكتور محمد يوسف موسى الذي قال في مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب: "أشهد لقد قرأت هذا الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم، و أغرمت به غراماً شديداً حتى لقد كتبت في آخر نسختي و قد فرغت منه إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام، و كل هذا قبل أن أعرف المؤلف الفاضل، فلما سعدت بمعرفته و الحديث معه مرات عديدة عرفت أن مرد هذا كله. فوق ما فيه من ثمرات التوفر على البحث و نشدان الحق إلى معرفة الكاتب بالإسلام معرفة حقة، و أخذ نفسه في حياته به، و الإخلاص في الدعوة الصحيحة له، و أزيد على قول الدكتور محمد يوسف موسى فأقول: "إن التوفيق لم يرجع إلى معرفة الكاتب بالإسلام معرفة حقة فقط، بل يرجع مع ذلك إلى معرفة بالبلاء الثقيل الذي عم العالم بمجافاته الإسلام، و الذي مكّن الغرب أن يتحكم بقوته الباطشة في الشعوب، و في أثناء الازدهار الباهر الذي غشى العيون متأثرة بمدنية الغرب كان المؤلف الشاب يلمح الدودة الكامنة في جذع الشجرة، و السوس السارب في ساقها و فروعها رغم ما يلوح من اخضرارها الزائف، و قد عملت هذه المهلكات المبيدة عملها في الشجرة الممتدة حتى ارتمت على الأرض طريحة حين قامت الحرب العالمية الثانية فأكلت أوربا أول ما أكلت، و اللّه لا يهدي القوم الظالمين.

بدأ المؤلف حديثه بالكارثة العظمى التي حلت بالعالم حين انحدار المسلمون، إذ لو قدّر العالم جمعيه هول هذه الكارثة لاتخذ اليوم الذي وقعت فيه

يوم رثاء و حداد، و لكن الحادث وقع تدريجيا فلم يفطن به إلاّ بعد ان تفاقم الهول، لان المسلمين لم يكونوا في دولتهم المزدهرة كغيرهم من الامم المتسلطة بل كانوا العافية لجسم الإنسان، فهم روح الجسم البشري و حملة رسالة الأنبياء، و لتاكيد هذه الحقيقة بدأ المؤلف الكبير يتحدث عن العالم قبل الإسلام، فلم يقتصر على ما كان في دولتي الفرس و الروم و الجزيرة العربية كما تعلمنا في كتب التاريخ، و لكنه امتد بنظرته إلى العالم جميعه.. و إلى الطوائف الدينية من يهود و مسيحيين و هندوس و بوذيين حتى انتهى إلى قوله إنه لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، و لا مجتمع يقوم على الفضيلة، و لا دين صحيح يتصل بالسماء دون انحراف... و كان الخلاص من هذا البلاء على يد الإسلام... إذ كانت دعوته عالمية و إن نشأت في محيط الجزيرة العربية، كان خطاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لنفس البشرية أيا كان موقعها، و كانت أمته العربية لانحطاطها أحق الأمم بأن تواجه الإصلاح العظيم... و هي على ما اكتنفها من شرور أصلح الأمم للقيادة الجديدة لأن شرورها أهون من شرور غيرها، و إن كان المثل يقول ليس في الشر خيار، لقد كانت الديانات قبل الإسلام سطحية تافهة، يسجد فيها الإنسان لصنم يصنعه، و لكن الإسلام جاء المعجزة الكبرى و هي (الإيمان) هذا الإيمان الذي علم المسلمين و خز الضمير و محاسبة النفس، و عدم الخضوع لكائن بشري مهما كان ملكه لان اللّه فوق كل شيء، و بذلك نقلهم الإيمان من الأنانية إلى العبودية الخاصة بخالق الكون وحده، أما رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقد حول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية حتى لقد انطبق عليهم قول اللّه (افمن كان ميتاً فاحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) و من عجائب هذه الإنسانية عمر بن الخطاب الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب غافلاً عما حوله، فإذا به بعد الإسلام يلقى الدروس الخلقية على امم التكبر و الاستعلاء من فرس و روم، و خالد يُصبح سيفاً

من سيوف اللّه يقهر أعظم القواد في فارس و الروم معاً أبو عبيدة و سعد و عمرو بن العاص وغيرهم كثير كثير، يقول المؤلف (لقد صنع النبي صلى اللّه عليه و سلم من هؤلاء كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أفضل منها، و هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، و سر نجاحهم مهم أنهم لم يكونوا قادة و حكاماً بغير أصول خلقية رد تبتع من القرآن، و لم يكونوا خدمة جنس و شعب يسعون لرفاهيته وحده كمستعمري الغرب، و قد علموا أن الإنسان جسم و روح، و عقل و قلب و عواطف و جوارح و لا بد أن تنمو هذه القوى على نحو مناسب لا يطغى فيه الجسد على الروح، و لا العقل على القلب، و قد كان من أثر الإسلام انه أصلح المسيحية نفسها على يد من درسوا حقائق الإسلام، إذ رفض بعض النصارى عقيدة التثليث، و نشزوا عن الاعتراف الكهني، و دعوا إلى احترام المرأة تشبها بالإسلام و لكن زمام القيادة الإسلامية بعد عهد الخلافة الراشدة لم يسر في طريقه الطبيعي، إذ كان من المؤسف أن يتولى قيادة المسلمين رجال لم يحملوا عناصر القيادة الصحيحة، و تتابع الأمر.. و لكن إشراقات مضيئة ظهرت على يد عماد زنكي و نور الدين زنكي و صلاح الدين الأيوبي ممن قاوموا الصليبيين، و قد افتقد الإسلام أمثال هؤلاء القواد في محنته الحاضرة التي أصابته على أيدي الصليبيين الجدد في منتصف القرن التاسع عشر و ما يليه.

و قد خصص المؤلف فصلاً هاماً ليقارن فيه بين الحضارة الإسلامية و الحضارة الغربية الحديثة، فقال: إن الحضارة الغربية لها جذور أصيلة من حضارة الإغريق و الرومان و المادية هي سمتها الأولى، إذ أن الكسب و الابتزاز و الاستعمار هو هدفها الأول، و جاءت الشيوعية لتؤكد هذا النظر المادي، كما تغلغل هذا النظر لدى الطبيعيين من أشياع داروين الذين ينظرون إلى الكون على أنه تفاعلات متصلة و لا علة فيه سوى سنن الطبيعة، أما اللّه فغائب غير موجود، و بذلك ضاعت مبادئ الأخلاق و استراح القوم من وخز الضمير و زاد البلاء بظهور

القومية التي جعلت كل دولة تعتقد انها افضل الدول، و للأسف سرت هذه العدوى إلى الاقطار الإسلامية، عدوى التعصب للقومية متجاهلة روح الدعوة الإسلامية التي آخت بين المسلمين، و كان من نتائج هذه النعرات القومية في الغرب أن اصبحت أوربا معسكراً واحداً ضد الشرق كله، و قد ساعد الكشف العلمي الواثب إلى انتحار أورباء، لأن المخترعات الحديثة لم تتجه الوجهة الاخلاقية، بل اتجهت إلى التدمير و الاستئصال.. و قد قدم ابو الحسن الندوي إحصاءاً دقيقاً يقرر أن جميع الغزوات و الحروب في عهد رسول اللّه قد أتت على ١٠١٨ نفساً منهم ٢٥٩ مسلماً، اما المصابون في حرب سنة ١٩١٤م فقد بلغ عددهم ٢١ مليون نسمة و المصابون في حرب سنة ١٩٣٩م قد بلغ عددهم ٥٠ مليوناً، و لم تأت هذه الاهوال إلاّ بسبب المخترعات المبيدة من آلات جهنمية تقشعر منها الأبدان، لقد فقدت أوربا الدين ففقدت التعادل بين القوة و الأخلاق، و التوازن بين العلم و الدين، فلم تزل القوة و العلم في ارتفاع، و الدين و الأخلاق في انحطاط لأن البذرة العلمية التي القيت في تربة أوربا في نهضتها لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة (خبيثة) ثمارها حلوة، و لكنها سامة، أزهارها جميلة لكنها شائكة، فروعها مخضرة و لكنها تنفث غازاً ساماً، لا يرى و لكنه يسمم البشر، و لا صلاح لأوربا إلاّ باجتثاث هذه الشجرة من أصلها.

لقد تجدد رجاء الإسلام بظهور العثمانيين على مسرح الأحداث و فتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، و تفرد الشعب التركي تحت حكم العثمانيين بالحماسة و الطموح و تحلى بروح الجهاد، و سلم من الأدواء الاجتماعية، و لو تقدم الأتراك في فنون العلم لسبقوا أوربا جميعها في قيادة العالم، و لكن أوربا هي التي تيقظت من سباتها، و لم تضع الوقت الذي أضاعه المسلمون، و مع اخطاء الدولة العثمانية فقد كانت حصناً منيعاً للإسلام، و أخفقت كل محاولات اليهود معها لتكون فلسطين أرضاً يهودية، و لو لا دسائس

الـغـرب مـا قـام الـعداء بين تركيا و الـعرب على الوجه المعروف مما أدى إلى بعثرة الشمل الإسلامي.

عـاد الـنـظـام الـجـاهـل بـعـد سيطرة أوربا، فأحدث دويه الإلحادي في الأمم الـعربية، و سرت شكوك الملحدين إلى العقائد الدينية، و أصبحت الدنيا سوقاً للبيع و الـشـراء فـحـسـب، و تـضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى أصبحت لا تشبع و تـدهـورت الأخـلاق إلـى حـد الـمـجاهرة بالانحلال و البغاء، و أصبح الذهن العربي واقـعـاً تـحـت نـفـوذ العقل الأوربي بماديته الغليظة، و طرحت في أوربا كل تعاليم الـمـسـيـح، يـنـتـقـل الوباء إلى الشرق فينادي المخدوعون بنبذ تعاليم الإسلام لأنها مـدعـاة الـتـأخـر!! و بـانـسـحـاب الـمـسلمين من معركة الكفاح أخذت أوربا تعلن وصـايـتـهـا عليهم، حتى صاروا لا يملكون من أمرهم شيئاً، و الذين يحكمون البلاد سـيـاسـيـاً لا يبالون بغير النفع الخاص، و سبيله في رأيهم السير في التيار الأوربي، تابعين غير متبوعين.

و الـعـلاج لـهـذه الأنـواء الـعـاتية هو البعد عن أخلاق أوربا إلى أخلاق الإسلام، فـالـعـالـم فـي حـاجـة إلى هذا الدين السمح لينقذه من جاهليته الثانية، كما أنقذ الإسلام أمـم الـعـالـم من جـاهليتها الأولى عند ظهوره، و سبيل ذلك أولاً الاستعداد الـروحـي لـتـلـقـي الـمـدد الأوفـر من الثقة باللّه، ثم العمل على التقدم العلمي في مضمار التصنيع و الاكتشاف و تفهم روح الإسلام التي غطتها أغشية المستشرقين و أذنـابهم حين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، و هتفوا بأن قوانين المجتمع لا تـخـضـع لـقـواعد الدين، و بلغ الحد المضحك بأصحاب هذه النزعات أن يقولوا إن الـحـضـارة الأوربـيـة هـي آخـر مـا وصـل إليه الـعقل البشري من تمدين، و لابد من احـتـذائـها شبراً فشبراً دون إنحراف، و متى تسمم الجو بهذه الأوبئة الضالة فلا بد من تـنـظـيـم الـعالم الإسلامي تنظيماً جديداً يتفق و روح الشريعة، و منهج القرآن،

و لا بد من الاستعداد الروحي و الصناعي و الحربي حتى يتقدم الشرق من جديد.

و العالم العربي له أهميته الكبرى في زعامة الإسلام، و اضطلاعه برسالة الإصلاح، فهو إلى جانب ثروته و مناخه و عروبته، و مقدساته، ينظر إليه المسلمون نظرة رفيعة فهو مهد الإسلام و مشرق نوره و له تاريخه المجيد في الحضارة، و الدولة العربية كلها من حسنات محمد صلى اللّه عليه و سلم ولن يتقدم هذا العالم إلّا بما تقدمت به الدعوة في أول عهدها، بالإيمان، و بالتضحية، و بالفروسية التي تعود الشباب على الخشونة و محاربة أدوات الإعلام الهابطة و أهمها الصحافة الماجنة، لقد أكرم اللّه العرب قديماً بقيادة الحاكم، و عليهم أن يعرفوا أن رسالتهم دائمة باقية فهبوا لأخذ الوسائل الحاسمة في الانتصار الحاسم، كي يقودوا العالم من جديد.

هذه خلاصة مركزة لصفحات الكتاب، و قد خلت من النبض الحار الذي تتوهج به سطوره هذا الكتاب، إذ لا سبيل إلى إشعال هذا الوهج في صفحات رسالتها التلخيص، و اعترف أني خالفت عادتي في التعليق على آراء الكاتب الذي أتعرض لمؤلفه لأن الكتاب منار هداية قد استئثرت به و لا يعلق الإنسان على قول إلا إذا رآه مخالفاً لاتجاهه، و المؤلف القدير رائد كبير في تحديد الاتجاه القويم، فليتنا نعمل على نقل أفكاره إلى دنيا العمل فنبلغ ما أراد لنا من سعادة و ارتقاء.

يقول الدكتور شكري فيصل في حديثه الممتع عن هذا الكتاب: "شيء آخر يمتاز به المؤلف و يرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين، و ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطور الحياة الإنسانية، فإن الأبواب الخمسة التي كسر عليها الكتاب لتدل على هذا الأفق العالي الذي يجتنب التاريخ الإسلامي و التاريخ العام، و يركزه فيه، فمن خلال صفحات الكتاب تستطيع أن تصفى تاريخ الدولة الإسلامية و الدول الأوربية من حيث الحياة الاجتماعية

و الدينية على السواء كما تلم بالخطوط العريضة للحركات الدينية، و بتلاقيها و توازيها و اقتراب بعضها من بعض، و بالاتجاهات و ما كان من انحدارها و ارتفاعها و من إشراقها و أفولها.

و قد تعددت طبعات الكتاب حتى بلغت بضع عشرة طبعة عربية و نفدت الطبعة الثالثة المترجمة للإنجليزية و الطبعة السادسة المترجمة للألمانية و الطبعة الثامنة المترجمة للفارسية و غير هذه اللغات مما لم أقف عليه، و معنى ذلك أن صيحة الأستاذ المؤلف صادفت آذاناً واعيةً و قلوباً ظامئةً فأثمرت ثمرها البهيج.



رجال الفكر و الدعوة في الإسلام
لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي
دراسة تحليلية مؤجزة

بقلم: أ. د. محمد اجتباء الندوي

الإسلام دين دعوة و إصلاح، و فكر و بناء و فلاح و نجاح، و هو درب قويم للخلق النبيل و السلوك الجميل، و منبع احسان و تزكية، و سياسة و اجتماع و معيشة و اقتصاد، و قيادة حكيمة و موعظة حسنة ملؤها المواساة و المساواة و الإخاء و الوفاء، لتكون الحياة في هذه الدنيا كريمة هنيئة، رغيدة مطمئنة، و في الآخرة أنعم و انبل و اكرم و أعظم سمواً و رفعةً و علواً.

هذا ما أراد اللّه عز و جل للإنسان، و لأجل هذا أرسل أنبياءه و رسله (عليهم السلام) آخرهم نبينا محمد المصطفى صلى اللّه عليه وسلم لينير الطُرق و يهدي السبل، و سار على هذه الدروب المضيئة النيرة أصحابه الغر الميامين رضي اللّه عنهم، و حذا حذوهم الدعاة و المفكرون بعدهم عبر التاريخ الإسلامي، يسددون الخطى، و يقوّمون الإعوجاج، و يرشدون الغواة، و يصلحون الفساد و يسدون الثغرات و يُلمّون الشعث و يجمعون الشتات و المشردين و يبثون الوعي و يهدون إلى الصراط السوى، و كاد خير القرون يعود على ادراجه، و يوشك الظلام تسدل الأستار إذ يشع نور يضيئه أول مجدد هذه

الأمة، شاء اللّه أن يتولى سدة الخلافة الاموية من غير حسبان هو عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه، فأجرى الامور في مدة قصيرة جدا إلى مجاريها، و تتابع الرجال للفكر و الدعوة و الإصلاح بسلسلة ذهبية محكمة نرى عراها من عمر بن عبد العزيز إلى الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشاه ولي اللّه الدهلوي رحمهم اللّه، هذا موضوعنا و هذه هي قصة الكتاب الذي دبجته ريشة قلم شيخنا أبي الحسن علي الندوي، الرشيقة الانيقة، و قدمته إلى دنيا العلم و الفكر و الدعوة بحبر من نور، و بمداد من الروح العلمية و البحث النقدي التحليلي و الدراسة العميقة الواعية، و التأملات التاريخية البعيدة الاغوار، الواسعة الأطراف و الاكناف، سابراً غور النصوص التاريخية و العلمية و الأدبية، مقتطفا منها ورودا و أزهاراً ليقدم باقة جميلة إلى رحاب الدعوة و الإصلاح و البحث و العلم و الفكر و الفن، و البحث كله موضوعي ليس غير، لم يكتف سماحة المؤلف العلام رحمه اللّه في إعداد الكتاب بأجزاءه الاربعة بالإستفادة من كتب التاريخ و السير و التراجم بل بذل جهودا مضنية في إدلاء دلوه إلى أعماق المؤلفات الأدبية و الثقافية و اللغوية و المواعظ الدينية و الخطب و المحاضرات و الأحاديث المتنوعة و كتب علوم القرآن و الحديث، و الدواوين و المجموعات التي صدرت من العصر الأول إلى عصره، و بما أن المؤلف الكريم كان يتقن اللغات العديدة الأخرى غير العربية كالاردية و الفارسية و الإنكليزية و كان بوسعه أن يبحث عن بغيته بصدد التاليف عن هؤلاء الأعلام و رجال الفكر و الدعوة، حياتهم و أعمالهم و خدماتهم و تاثيرهم، فراجعها و انتفع منها و نقل قبسات و عبارات ليبرهن على آرائه بعد التعريب و الترجمة، و هذا ما جعل الكتاب وثيقة تاريخية مثالية لا يوجد مثيلها مجتمعة في المكتبة العربية الغنية السابقة، فتحول المؤلّف هذا إلى موسوعة كبيرة

ضـخـمـة لـم تـنـحصر على حياة عالم و حركته و اعماله، بل ظهر اكثر جامعية شاملة، و أعم نفعاً، و أجدر بأن يتحلى بها كل مكتبة في العالم، فقد عذر المؤلف الفاضل المؤرخين الذين كانت دراستهم قاصرة مستعجلة و قال:

"و الذنب ليس على المؤرخين فقط، إن الذنب على من يقتصر على كـتـب الـتـاريخ "الرسمي" و المصطلح، و لا يتعدى هذه الكتب إلى الكتب الـتـي لا تحمل إسم التاريخ و لا توجد في ركن التاريخ في مكتبته، و لكنها مـادة واسـعـة لـلـتـاريـخ و مـصـدر قـيم من مصادر التاريخ" ثم يعدد هذه المصادر و يسلط أضواء ساطعة عليها و يقول:

"فلو اتسعت الدراسة و شملت هذه المصادر المهجورة و تخصص" لـهـذا الـمـوضـوع بـاحـث واسـع الـفـكـر صـبـور على المطالعة، دقيق في الـمـلاحـظـة اسـتـطـاع أن يـنتج تاريخا متصلا شاملا للإصلاح و التجديد و الـتـفـكـيـر الـجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح و الكفاح مترافقان لهذه الأمة، لا يتخلفان عنها"(١)

و قـد اخـتـار سـمـاحة المؤلف هذه الطريقة الصعبة التي أجهد نفسه في اسـتـخـراج هذه اللآلئ و الدرر من المعادن الخبيئة و الكنوز المختفية عن عامة الـبـاحـثين و الـدارسين، و هـي ميزة المؤلف رحمه اللّه يمتاز بها عن غيره من الـمـؤرخـين قـديـماً و حديثاً، و قد دأب في الكتابة عن شخصية من الشخصيات الـمـدرجـة فـي الكتاب، فلا يدرسها دراسة إجمالية سريعة، بل يتحدث عن بيئته و مـجـتـمعه و محيطه قبل حياته و في حياته و عن العوامل و العناصر المكونة لـشـخـصـيته، و عن خدماته، و مكارمه و آثاره و تأثيره في المجتمع الذي عاش فيه، ثم يستنتج من جميع ما تحدّث عنها و يقدم نتائج و عطايا يستفاد منها في

حياتنا المعاصرة، و سماحة الشيخ رحمه اللّه في بحثه عن شخصية و رجل لا يحيد قيد شعرة عن الموضوعية و الحياد، و لا ينحاز إلى شخصية و لا إلى فئة دون فئة و هو يصر على أن الآراء و الأفكار النقدية و الدراسة التحليلية لأي شخصية أيا كانت لابد أن تكون موضوعية و حيادية ملاحظا لتلك البيئة و الأجواء التي عاشت فيها و قدمت خدماتها لمن عايشوها و سايروها في ذلك المجتمع، و تكون الموازين هي الموازين التي كانت سائدة في ذلك العصر، و يكون البحث مركّزا و منصبّا على نفس المقاييس و الملابسات و الأبعاد التي تعرف فيها، لا الموازين التي نحن نختارها في عصرنا هذا، و نجعلها شخصية معاصرة، فنتصدى لها و نبدي آراءنا جُزافاً بدون أن نعرف تلك الظروف و نقدر ذلك الأوضاع و نحسب حساب الزمن الذي عاشوا فيها، و هذا ما يسوق الباحث إلى أخطاء فادحة في تصوير الشخصية و أعمالها و مكارمها تصويرا واقعياً و عرضها عرضا حقيقيا بين يدي القراء و الدارسين المعاصرين بل الجمهور الذي نتحدث إليه.

قد ينساق القارئ لمجموعة "رجال الفكر و الدعوة في الإسلام" بأجزاءها الأربعة، و الخمسة في اللغة الأردية، بأن سماحة المؤلف حينما يقدم مفكرا من هؤلاء المفكرين يتحمس حماساً شديدا بل يتغنى بمكارمه و مآثره و يعرضها كأنها لم تُؤثر مثلها عن غيره من المصلحين و الدعاة، فليس الذنب ذنبه بل لأنه لم يدرك تلك الروح الدعوية و الأسلوب العلمي و العرض الدعوي الذي يتحلى به الشيخ أبو الحسن الندوي، بل يمتاز و يتميز بين أقرانه من المؤرخين و الباحثين، و تلك الروح هي روح الدعوة و روح إصلاح المجتمع، و عاطفة إنعاش النفس، و إيقاظ الضمير، و إرهاف الحس و الشعور، و بث الوعي و الدعوة إلى التحرك و النشاط و العمل الحيوي الفعال لأنه داعية مفكر قبل أن يكون باحثاً

و عـالـمـاً و اديـبـاً، و لكنه كما اشير فيما أعلاه، لم يغفل طرفة عين عن البحث و الـدراسـة و الـمـوضـوعـيـة لأجـل هـذا نرى في كل جزء من أجزاء كتابه يتقيد بـقـواعـد الـبـحـث الـعـلـمي سواء كان البحث عن الأسس و النظرات أم كان عن الـشـخصية و خدماتها، أم عن إمام و فقيه أو عن مفكر و مصلح، أو يتحدث عن الإحـسـان و الـسـلـوك، و الـتـربـيـة و التزكية، أم يحكى قصة التتار و هجماتهم الـوحـشـيـة أو الـصـلـيـبـيـة و غاراتها الغادرة أو الحملات المرهتية و السيخية و الـزوطـيـة في الهند، يقدم الوقائع كما هي ثم يناقشها و ينتقدها و يحللها بلين و لباقة و يأتي بنتائج و عوامل و أسباب و يقدم حلولا أساسية ناجعة.

و بـمـا أن سـمـاحة الشيخ الندوي رحمه اللّه كان داعية و مصلحاً يريد أن يـنـشـأ مـجـتـمـع صـالـح مثالي على منهاج النبوة، و تقوم دولة مثالية على نهج الـخـلافـة الـراشـدة، و تـلـك الروح تتجلى في كل حديثه عن هؤلاء الرجال الدعاة الصالحين فينسجم معهم و يتوافق، و يتحدث عن مكارمهم و خدماتهم بكل فخر و اعـتـزاز، فـيـهـتز و يطرب و لـكن بهوادة و جد، و لين و نبل و فطنة و لباقة، لأنه كـان مـعـجباً بهؤلاء الأفذاذ الأعلام أشد الإعجاب، يلخص مكارم الإمام أحمد بن حنبل فيقول:

> "و لـيـس سر عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام، و انـتـصـاره لـهـا" ـ و فضله لا ينكر ـ و لكن مأثرته الكبرى التي أكـسـبـته منصب التجديد، هو أنه وقف سدا منيعا في اتجاه هذه الأمة إلى الـتفكير الفلسفي المتهور، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بـالـتـدريـج عن مـنابع الدين الأولى، و عن النبوة المحمدية، و خضعت هذه الأمة للفلسفات، و أصبحت عرضة للآراء و القياسات، و انتصرت الحكومة عـلـى الـشـعـب، و السياسة على الدين انتصارا مؤبداً، و سلبت حرية الرأى

و العقيدة، و لا شك أنها رزئية جليلة، و فتنة عظيمة في الإسلام، و قد قضى عليها أحمد بن حنبل و هي في شبابها و أوجها، و حفظ هذا الدين من أن يعبث به العابثون، و تتحكم فيه السلطة و الأهواء، و حفظ هذه الأمة من أن تكون في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين و حاشيتهم، يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات و يسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم و البقرات، و رد إلى العقيدة الإسلامية كرامتها و أصالتها، و إلى الأمة حريتها و شخصيتها، فاستحق بذلك تقدير الإنسانية و ثناء المسلمين، و اعتراف الأجيال القادمة و إجلال التاريخ و اكباره، و كان من المجددين الكبار في الإسلام" (٢).

و إليكم نموذج آخر من مآثر الإمام الدهلوي يقول:

"و يمكن أن يكون سبب ذلك ـ عدا التوفيق و التقدير الالهيين ـ يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه و إلى ذلك الاحتواء و الشمول و علو الهمة، و المنهج الخاص للتعليم و التربية الذي خصه اللّه و قدره له و قد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية و الإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم و العمل حتى أن المترجم له و الكاتب في "تاريخ رجال الفكر و الدعوة في الإسلام" ليواجه الصعوبة في استيعابها و دراستها التحليلية و التفصيلية، و الذي يريد استيعاب هذه الجوانب و المجالات كلها فإن لسانه ينشد و يشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي معناه:

"إن نيل النظر ضيق و ورود حسنك كثيرة، و إن مقتطف ربيعك يشكو من نيله الضيق"(٣).

كـان سـمـاحـة الـشـيـخ من الـمـفـكـرين الـمـعاصرين الذي غير بدراسته الـمـوضـوعـيـة الواعية الموازين فقد كان العلم و الأدب البناء هو الأدب المثالي عـنـده، و قـد كـان الرجل المفكر الداعية الذي بذل مجهوده و روحه لتركيز القيم و تـأصـيـل الـمـبادئ الإسلامية مثالياً لديه فقد كان ابن تيميه و الحسن البصري و الإمـام أحـمـد بن حـنـبـل و الإمـام ولـي الـلّه الـدهـلوي شخصيات مثالية لديه و اعـتـبـرهـم من الأبـطـال و الـعـمـالـقة، و غيره من الباحثين المعاصرين عدا الـمـأمـون (الـخـلـيـفـة الـعـباسي) و عبد الملك بن مروان جعلهم أبطال الإسلام و زعماءه، مثل هذا الإتجاه و المبدأ يتميز الشيخ الندوي عن غيره من المفكرين و الدعاة المصلحين، و هو يحتاج إلى دراسة واسعة عميقة مستوعبة شاملة.

و المؤلف يتوزع في أجزاء و فصول تالية:

الجزء الأول:

١ ـ الحسن البصري و خلفاءه

٢ ـ حركة التدوين في الإسلام و تنظيم الحياة على الأسس الدينية

٣ ـ الإمام أحمد بن حنبل

٤ ـ أبو الحسن الأشعري و خلفاؤه.

٥ ـ الانـحـطـاط فـي علم الكلام و ازدهار الفلسفة الباطنية و الحاجة إلى متكلم جديد

٦ ـ حجة الإسلام الغزالي: حياته و دراسته

٧ ـ حجة الإسلام الغزالي ناقد للفلسفة و متكلم

٨ ـ حجة الإسلام الغزالي مصلح اجتماعي

٩ ـ الإمام عبد القادر الجيلاني: عصره، حياته و صفته، تأثيره

١٠ ـ الإمام عبد القادر الجيلاني: دعوته، إصلاحه، و فضله و فضل خلفائه في تجديد الإيمان و الدعوة إلى الإسلام.

١١ ـ مولانا جلال الدين الرومي: مفكر مبتكر و مؤسس علم كلام جديد

١٢ ـ مولانا جلال الدين الرومي: داع إلى الحب و العاطفة، و احترام الإنسان و الإنسانية.

الجزء الثاني:

شيخ الإسلام أحمد بن تيميه: حياته و أعماله.

تلاميذه:

الحافظ ابن قيم الجوزية، ابن عبد الهادي، ابن كثير، الحافظ ابن رجب.

الجزء الثالث:

الإمام السرهندي: ثمانية أبواب .

الجزء الرابع:

الإمام الدهلوي: اثنا عشر باباً.

إنها السلسلة الذهبية التي وصلت جواهرها ريشة الشيخ الندوي رحمه اللّه، الرشيقة الشيّقة، قدّمتها أولاً باقة جميلة جذابة إلى طلبة كلية الشريعة و أساتذتها و أعيان البلد و مفكريه و المعنيين بتاريخ التجديد و المجددين في

الإسلام، بالجامعة السورية (جامعة دمشق) ثم أتمّها باسم (رجال الفكر و الدعوة في الإسلام) (٤).

ابتدأ سماحة الشيخ رحمه اللّه من القرن الأول الهجري و انتهى برجال القرن الرابع عشر الهجري في أربعة أجزاء تشتمل على ألف و خمس مائة صفحة تقريباً، و قد نشرت الجامعة السورية محاضرات الجزء الأول في طبعته الأولى، و تحلّت بمقدمة قيّمة بقلم أستاذنا الحبيب الدكتور مصطفى السباعي رحمه اللّه عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق إذ ذاك، قال فيها:

"و هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم لقرّاء العربية صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي و ميوله الإصلاحية، و لفهمه العميق للتاريخ الإسلامي و لروح الإسلام الصافية المشرقة، و ما علق بها ـ في العصور الأخيرة ـ من غبار، و ما أصابها من انحراف، و بذلك يسدّ هذا الكتاب ثغرة في دراسة التاريخ الإسلامي، كنا و مانزال نشعر بالحاجة إليها، إذ يتحدث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية و الدينية و الاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي منذ العصر الأموي"(٥).

و قال سماحة المؤلف رحمه اللّه عن هذه المحاضرات التي طبعت في الجزء الأول:

"و إني في هذه المحاضرات لا أدّعي علماً غزيراً و لا اكتشافاً جديدا، كل ما حرصت عليه هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها و إبرازها، و القول المتزّن، و أن لا أقول شيئاً إلا عن اعتقاد و اقتناع مستنداً إلى حقائق التاريخ و شهاداته، غير مجازف في القول، و لا معتمد على

القياس و النزعة الفردية، و لم يكن شاني في ذلك شان من يحدّد غاية ثم يخضع التاريخ لها، و ما أهون ذلك على مؤلف قدير و كاتب لبق"(٦).

و تحدث الداعية الإسلامي الكبير و المفكّر الفقيه العلامة الدكتور يوسف القرضاوي عن أهمّ الكتب التي ظهرت للشيخ رحمه اللّه فقال عن رجال الفكر و الدعوة في الإسلام: "و هو كتاب يعتبر نسيجَ وَحْده" و قال: "و هو ـ في الأصل ـ محاضرات عن كل شخصية من الشخصيات المجدّدة التي اختارها الشيخ" و ألقاها على طلاب كلية الشريعة في دمشق بدعوة من عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي رحمه اللّه.

و قد أعدّها الشيخ الندوي إعداداً جيداً، و بينت مدى عناية الشيخ بالتاريخ الإسلامي، و مراحله المختلفة، و عميق معرفته بخصائص الرجال المجدّدين للدين، و المؤثّرين في الامة، و أن كلاّ منهم جاء في أوانه، و سدّ ثغرة لم يكن ليسدّها غيره، و قد أتبع الجزء الأول بأجزاء بعد ذلك تحدثت عن عدد من الأعلام، مثل الحافظ ابن تيمية و تلاميذ مدرسته، و الإمام السرهندي و خلفائه، و شيخ الإسلام ولي اللّه الدهلوي(٧).

و يحلو لي أن أضمّ إلى هذه القبسات الوضيئة كلمة جيدة من رسالة السيدة الفاضلة و الكاتبة الممتازة مريم جميلة، أرسلتها إلى سماحة الشيخ الندوي بعد تسلُّمها الجزء الأول من سلسلة رجال الفكر و الدعوة في الإسلام، تقول:

"و أما كتابكم فهو كامل و محتوٍ على الموضوع مع رشاقة القلم و إمتاع الأسلوب، و خاصة بحثكم حول الهجوم التتري على العالم الإسلامي شيّق و ممتع جداً.

فالحقيقة أن تأليفكم هذا مؤثر و ممتلئ بالحماس، و يشعل العاطفة و يصوّر التاريخ الإسلامي و الأفكار الصحيحة تصويراً دقيقاً و يعرضها عرضاً صادقاً"(٨).

ورث شيخنا الندوي رحمه اللّه من عائلته الكريمة التنوّق التاريخي، و المَلَكَة المميزة، و القدرة الكتابية الواضحة البيّنة للسّيَر و التراجم و وقائع التاريخ، و ورث كذلك الأمانة العلمية و التاريخية متجنّباً المحاباة و الجانبية و الانحياز، فقد عرض الحوادث و الوقائع عرضاً أميناً صادقاً، و بالإضافة إلى ذلك اختص بروح نقدية تحليلية شاملة ميّزته عن الكتّاب الآخرين الذين أرّخوا للرجال و الشخصيات و أعمالهم و خدماتهم تاريخاً عاماً، و لم يتعرضوا للأبعاد و الملابسات و البصمات التي تركوها على المجتمع الذي عاشوا فيه.

و أما سماحة الشيخ فقد ألقى نظرة جامعة شاملة بآراء توجيهية ترشيدية بحيث تجلّت روح زكية و معانٍ سامية تحرك في النفوس رغبة الإصلاح و التجديد على الأساس الإسلامي الصحيح، و قد حالفه النجاح و التوفيق بهذا الصدد خاصة.

و الكتاب بأجزائه الأربعة التي صدرت يحتوي على جهود المصلحين و المجددين من لدن سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى مولانا جلال الدين الرومي في الجزء الأول، و الجزء الثاني يخصُّ الإمام ابن تيمية و تلاميذه، و الجزء الثالث يتحدث عن الإمام أحمد السرهندي و أصحابه في الهند، و الجزء الرابع يشتمل على مجهودات الإمام ولي اللّه الدهلوي و أبناءه في الهند.

الهوامش:

١ ـ رجال الفكر ج١، ص ٢٤

٢ ـ رجال الفكر ج١، ص ١٠٨

٣ ـ الجزء الرابع، ص ٨٦١

٤ ـ طلب المؤلف من ابن أخته العالم الكاتب الشيخ محمد واضح رشيد أن يكتب في هذه السلسلة أجزاء أخرى تتناول رجالاً لم يكتب عنهم في الأجزاء الأربعة المطبوعة، و سوف تصدر دار القلم هذه السلسلة كاملة إن شاء اللّه.

٥ ـ مقدمة الجزء الأول، ص ٣ ـ ٤

٦ ـ تقديم الجزء الأول، ص ٥

٧ ـ الإمام العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته بتصرف، ص ٤١ ــ ٤٢

٨ ـ رسالة السيدة مريم جميلة المؤرخة ١٩ أكتوبر ١٩٧٤م



نظرية الشيخ أبي الحسن علي الندوي

عن الأدب على ضوء كتابه "نظرات في الأدب"

بقلم: أ. د. زبير أحمد الفاروقي

بـاديَ ذي بـدءٍ أهنأ رئيس قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة دلهي الأستاذ الـدكـتـور مـحـسن العثماني و زملاءه أساتذة القسم على تنظيم هذه الندوة حول الآثار الـعلمية و الأدبية لشيخنا الكبير و أستاذنا المبجل المرحـوم الشيـــخ أبـو الـحـسن عـلي الندوي رحمه اللّه، كما أشكرهم على تشريفي بتوجيه الدعوة إليّ لـحـضـور هـذه الـنـدوة الـعـلـمـية و تقديم ملاحظاتٍ حول إحدى أهم كتب الـمـغـفـور لـه "نـظـرات في الأدب"، فقد حاولت محاولة متواضعة أن أفهم من خـلال هـذا الـكـتاب ما كان مفهوم الأدب و أهدافه و أغراضه عند شيخنا رحمه اللّه الـذي كان يجمع في شخصه داعية و مصلحاً كبيراً و مفكراً عظيماً و أديباً و كـاتـبـاً لـه أسـلـوب مـتميز، و إذا أراد أحد أن يعرف عن تصوره للأدب و نزعته الأدبـيـة فـلا يـمـكـنـه الـغنى عن هذا الكتاب إلى جانب كتابين آخرين له و هما "روائـع اقـبـال" و "مختارات من أدب العرب" و كلاهما يدلان على ذوقه المرهف و ثقافته الواسعة و حسه النقدي الرفيع.

إن الأدب عـنـد شـيـخـنـا أبي الـحسن رحمه اللّه نوعان: الأدب الصناعي الـتقليدي و الأدب الطبيعي الجميل القوي، و النوع الثاني من الأدب قديم بل أكبر سنـاً و أسبق زمناً من النوع الأول و جرى تدوينه في كتب الحديث و السير قبل أن

يُدوّنَ الأدبُ الصناعي في الرسائل و المقامات، "و لكنه لم يَحْظَ من دراسة الأدباء و الباحثين و عنايتهم ما حظى به الأدب الصناعي" رغم كونه مرآة لعبقرية اللغة العربية و براعة أصحابها. و إن الزمان الذي قد فُسّر فيه الأدب بكلام مصنوع لا قوة فيه و لا روح هو زمان الشقاء و المحنة بالنسبة للأدب.

يأتي الشيخ بأمثلة عديدة من كتب الحديث و السير لهذا الأدب الطبيعي تمتاز بدقة التعبير عن الخواطر و الوجدانات و وصف بليغ للأحداث، و من هذه الأمثلة حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك و حديث الإفك الذي ظهرت فيه البراعة الأدبية و الخطابة البيانية للسيدة عائشة رضي اللّه عنها و حكايتها للهجرة النبوية و حديث حليمه السعدية عن رضاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم في سيرة ابن هشام.

يقدر الشيخ جهود المؤرخين من عهد التاليف و الترجمة في القرن الثالث و الرابع امثال الطبري و المسعودي و الادباء أمثال الجاحظ و ابن قتيبة و أبي الفرج الإصبهاني في الحفاظ على هذا الأدب الطبيعي و اللغة العذبة البليغة مع جمالها الأول و نقائها الأصيل.

و قد استعرض الشيخ باختصار في منتهى من البلاغة وضع الأدب العربي في العصور المختلفة من عهد الرسول صلى اللّه عليه و سلم إلى القرن الثالث عشر من الهجرة. و قال إننا نجد في كتب التاريخ و السير نماذج أدبية رائعة تتميز بقدرة فائقة على الوصف و التعبير و البيان الساحر لدقائق الحياة و خوالج النفس في لغة صافية و تعبير دقيق، و إن أدباء القرن الثالث و الرابع حفظوا لنا تلك اللغة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم و ذلك في كتاب البخلاء للجاحظ و كتاب الإمامة و السياسة لإبن قتيبة و كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني و روضة العقلاء و نزهة الفضلاء للبُستي و كتاب الإمتاع

و المؤانسة لإبن حيان التوحيدي. ثم جاء دور إبن العميد و الصاحب بن عباد و أبي بكر الخوارزمي و بديع الزمان الهمداني و أبي العلاء المعرى و هم اخترعوا اسلوبا للكتابة و الإنشاء غلب عليه السجع و البديع و أصبح أسلوبهم في الكتابة هو الاسلوب الوحيد الذي يُحتذى و يُقلّد في العالم الإسلامي، و تبعه دور المقامات التي تغلغلت في مدارس الفكر و الأدب و بقيت مسيطرة على العقول و الأقلام لمدة طويلة لمجرد أن محتواها كان يوافق هوى النفس و صادف عصر الجمود و العقم الأدبي في العالم الإسلامي. و هذا هو الأسلوب الذي جدده القاضي الفاضل و ظل يتحكم في العالم الإسلامي من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر من الهجرة باستثناء عبقريين اثنين و هما ابن خلدون و الإمام الشيخ ولي اللّه الدهلوي الذين تركا لنا كتابات علمية تاريخية و دينية في أحلى و أجمل صفات للأدب العربي الأصيل من ناحية البيان و الأسلوب.

و قد أشار الشيخ إلى نقطة مهمة و هي أنه إذا تناول كاتب موضوعا أدبيا و تكلف الإنشاء فلم يأت بقطعة أدبية رائعة و لكن إذا كتب في موضوع علمي أو ديني أحسن و أجاد و أتى على ذلك بمثال للزمخشري فهو متكلف مقلد في "أطواق الذهب" و كاتب بليغ موفق في مقدمة "المفضل" و في مواضع من تفسيره "الكشاف" و ابن الجوزي فهو غير موفق في كتابه "المدهش" و كاتب بليغ في "صيد الخاطر".

و يرى الشيخ أن المزايا التي تضمن القيمة و البقاء لآثار أي كاتب هي العقيدة و العاطفة و الفكرة التي تحتوي عليها، و لهذا السبب فإن الكتابات الأدبية التي كانت ورائها دوافع سطحية مثل اقتراح ملك أو وزير أو تحقيق رغبة المجتمع أو حرص التفوق فتكون خالية من الروح و القوة و لا يقدر لها البقاء و الخلود و يقول: "إن الفرق بينها و بين الكتابات المنبعثة من القلب و العقيدة كالفرق بين الصورة و الإنسان و كالفرق بين النائحة و الثكلى".

فما كتبه الغزالي في "الاحياء" و في "المنقذ من الضلال" و ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيميه و تلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما تعد نماذج رائعة للكتابة الأدبية العالية.

و في حين لا يقلل الشيخ من أهمية كتب الأدب القديمة من رسائل و مقامات و قيمتها اللغوية و الفنية و يعتقد أنها مرحلة طبيعية في حياة اللغات و الآداب، يؤكد أنها ليست الأدب كله و لا تُحْسِنُ تمثيل الأدب العالي. و الشروط الضرورية عنده للإنتاجات الأدبية العالية هي كما ذكرناه فيما سبق العقيدة و الفكر و العاطفة و الحماسة و العزم و التحرر من البديع و الترسل و الإيمان و صفاء النفس، و إذا كان الأدب متصفا بهذه الصفات فهي الأدب العالي الخليق بالبقاء. و مما لا شك فيه أن أهم عناصر الأدب و هي الاخلاص و الصدق و الواقعية تتجلى في الأدعية النبوية و عليه قد عدها الشيخ من أفضل نماذج الأدب و أروعها و منها ما دعاه في الطائف و ابدى فيه عجزه و ضعفه و صَوَّرَ فقره مستجلبا رحمة ربه و لا يمكن أن نتصور بكلمات أشد من كلمات هذا الدعاء تاثيرا و أدق منها دلالة على المعاني أو الدعاء الذي دعاه في ميدان عرفات.

كان الشيخ رحمه اللّه قد وُلِد و نَشأ في أسرة و بيئة يشتغل اهلها بالكتابة و التاليف في تراجم الرجال و طبقات الشعراء و الأدباء و سير كبار المصلحين و العلماء، فكل منا يعرف جده العلامة السيد فخر الدين الحسني صاحب موسوعة باللغة الفارسية "مهرجان تاب" (الشمس المضيئة) كتبه حين لم تكن الموسوعات و دوائر المعارف تُعرف في الهند و يقع بمجلدين ضخمين في ١٣٠٠ صفحة و أكثرها تراجم لطبقات الصوفية و العلماء و الشعراء و والده العلامة السيد عبد الحئ الحسني صاحب نزهة الخواطر و هو في ثماني مجلدات

و يـحتوي على أكثر من ٤٥٠٠ من التراجم و يشبه في أسلوبه و نهجه بإبن خلكان، و لـذلك، كما يقول: "كان ادب التراجم و السير من أحب الآداب و أخفها و اسهلها إلـيـه و كـان هـوايته و شغله الشاغل فبدأ يؤلف في تراجم الرجال و سير العلماء و المصلحين".

و عـلـى عـكس الاعتقاد السائد بأن تأليف التراجم هو من أسهل الأغراض الأدبـيـة و الـمـواد الكتابية يرى الشيخ أن وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليس من الـسـهـولة بالمكان الذي يتصوره كثير من الناس بل انه يحتاج لعدة مؤهلات و فـي مـقـدمـتـها المعرفة الشخصية الواعية الناقدة و دافع نبيل و رغبة ملحة تـنـبع من القلب و من تجاوب مع فكرة أو استجابة لنداء الضمير مما يساعد في تحديد اختصاص الشخصية المترجمة. و يعتقد الشيخ أن العلامة شمس الدين أحـمـد بن خـلـكـان يـمـتـاز بهذه الميزات في كتابه "وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان".

و هـذه العاطفة و العقيدة و مشاعر النفس و أحاسيسها هي التي يتلمسها و يبحث عنها الشيخ في أدب الرحلات و يشعر بأن أكثر الكتب التي ألفت في هذا الـمجال الأدبي يتجرد عن هذه الميزات و يمثل دور آلة التصوير أو أداة التسجيل من غـيـر تـعليق على مشاهد الحياة يهتدى القارئ به إلى عقيدة المؤلف و فكره و الـقـيـم و الـمـثل التي يحبها. و نقص آخر في كتب الرحلات الكثيرة أشار إليه الشيخ الندوي هو انها كُتبت أو أمليت بعد أن مضى زمن طويل على تلك الرحلات و الـمـشـاهـدات، الأمر الذي ينعكس سلبا على دقة الوصف حيث أن الانطباعات مَثَلُها كـمثل ظلالٍ و أمواجٍ فلا تدوم و لا تبقى و لا يستطيع الإنسان أن يستعرض كـل مـا شـاهـده بـعـد مـضي وقت. و من أجل تفادى هذا النقص في تأليف كتب الـرحـلات يـفضل الشيخ طريقة المذكرات أو تسجيل اليوميات و قد اعتمد هذه

الـطـريـقة في كتابه المعروف "منكرات سائح في الشرق العربي" فكان قد التزم فـي رحـلـتـه أن يـسـجل كل حديث و كل انطباع في يومه غالباً أو في أقرب وقت و اضـاف إلى ذلك ملاحظاته حول كل مقابلة أو زيارة أو حديث أو مشهد مما يدل على أنه وصف أو تصوير من إنسان حي يحمل القلب و العاطفة و العقيدة بحكم ارتباطه بثقافة البلدان التي يزورها و يحبها. و لا يعنى هذا أنه قد استخف بكتب الـرحـلات الـقديمة الشهيرة مثل رحلة إبن جبير الأندلسي (م ٦١٤هـ) و رحلة ابن بطوطة المغربي (م ٦٧٧هـ) بل أنه يعترف بفضل تلك الكتب و مؤلفيها و يؤكد أن الـحـيـاة الـتـي صـوروهـا و الـبـلاد التي رسموها كانت بسيطة خالية من التنوع و الـتعقد و لم تكن فيها من الثورات و الحركات الفكرية و السياسية و الفلسفات مـا يـتـمـيز بها هذا العصر و لذا فإن مهمتهم كانت بسيطة مقارنة مع أي سائح في العصر الحديث.

كـمـا تـناول الشيخ موضوع العلاقة بين الدين و الأدب و أكد أنه ليس هناك أي فـصـام نـكـد بـيـنـهـما و لا احتكار للأدباء المتزعمين للأدب و اللغة و الانشاء و النقد و التاريخ فقال في الكلمة التي ألقاها في الندوة العالمية للأدب الإسلامي المنعقدة في ندوة العلماء بلكهنؤ في ابريل ١٩٨١م:

"من سـمـات عـلـماء الهند البارزة أنهم قادوا الـحركة الأدبية الإنشائية في شـبـه الـقـارة الهندية، و كانوا من الدعائم القوية الشامخة التي قام عليها قصر الأدب الـرفيع، و النثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م و كان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبـيـة خـاصـة لا يـزال لها أنصار و أتباع و مقلدون، و كان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء و التحرير و النقد و تاريخ الأدب و الشعر، و لا تزال مؤلفاتهم هي الـمـرجـع الأصـيـل و الـعمدة في هذا الموضوع، و لم يكن في الهند ذلك الفصام

الـنكد بين علوم الدين و الأدب العصري و لغة البلاد؛ و لم تكن الفجوة التي وقعت فـي بـعـض الـبـلاد بين علماء الدين و الشادين بالأدب و الشعر، و الهائمين بهما، الفجوة التي جنت على الدين و الأدب في وقت واحد".

إنـه لا يـحـب الـجمود و تقليد أسلوب معين في الأدب و لا يتردد في تجاوز حـدود تـعـريـف الأدب و الانـشـاء الذي وصفه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم و دائـمـاً نطمح للزيادة و الابتكار و تطوير نخائر النماذج الأدبية و اثرائها مزيدا. و يـلـمـس هـذه الميزات في شعر الدكتور محمد اقبال فيقول في مقدمته لروائع اقبال:

"إن أعـظم ما حملني على الاعجاب بشعره هو الطموح و الحب و الإيمان و قـد تـجلى هذا المزيج الجميل في شعره و في رسالته أعظم مما تجلى في أي شـعـر مـعـاصـر، و رأيـت نـفسي قد طبعت على الطموح و الحب و الإيمان و هي تـنـدفـع انـدفـاعـا قويا إلى كل أدب و رسالة يبعثان الطموح و سمو النفس و بعد الـنـظـر و الـحرص على سيادة الإسلام و تسخير هذا الكون لصالحه و السيطرة عـلـى الـنفس و الآفاق و يغذيان الحب و العاطفة و يبعثان الإيمان باللّه و الإيمان بـمـحـمـد صلى اللّه عليه و سلم و بعبقرية سيرته و خلود رسالته و عموم امامته للأجيال البشرية كلها. إنني أحببته و شغلت به كشاعر الطموح و الحب و الإيمان و كـشـاعـر لـه عـقيدة و دعوة و رسالة و كأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية الـمـاديـة و أعـظم ناقد لها و حاقد عليها و كداعية إلى المجد الإسلامي و سيادة الـمسلم و من أكبر المحاربين للوطنية و القومية الضيقتين و أعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية و الجامعة الإسلامية.

أشـهـد عـلـى نـفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري و ثارتِ عواطفي و شعرت بدبيب المعاني و الأحاسيس في نفسي و بحركة للحماسة الإسلامية في

عروقي و تلك قيمة شعره و أدبه في نظري".

كما يعجبه شعر مولانا جلال الدين رومي لانطوائه على المعاني الصوفية الأسمى و في مقدمتها العاطفة و الدعوة إلى الحب الخالص الذي لا يجدر إلى المحبوب الحقيقي الخالد و كرامة الإنسان و شرفه.

و بالجملة فإن تصوره للأدب يتلخص بأحسن وجه في العبارة التالية: "إنني أتصور الأدب كائنا حيا له قلب حنون و له ضمير واعٍ و له نفس مرهفة الحس و له عقيدة جازمة و له هدف معين يتألم بما يسبب الألم و يفرح بما يثير السرور فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد أدب ميت خامد أشبه بالحركات البهلوانية و الرياضات الجمبازية، فالأدب ليس أداة تسلية و الهاء نفس و ازجاء وقت فحسب و إن الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة و للتأثير في النفس الإنسانية".



دراسة في كتاب العرب و الإسلام

بقلم: أ. د. شفيق أحمد خان الندوي

مجموعة محاضرات و مقالات كتبها الشيخ أبو الحسن رحمه الله في مناسبات عدة، ألقاها في أمكنة و أزمنة مختلفة في العالم العربي، توجد منها وحدة معنوية و غاية مشتركة تتغلب على اختلاف الزمان و المكان و تنوع أساليب البيان، و هي على حد تعبير المؤلف نفسه، إثارة الشعور الإسلامي أو إيقاظ الروح الإسلامية في نفوس العرب الذين أصبح كثير منهم بفعل عوامل كثيرة في حاجة إلى ذلك من مدة قصيرة، و هو إثارة كريم عريق في الكرم و تحريك أريحيته للمكارم و البطولات و هو إيقاظ أسد غلبه النعاس أخيراً ليحتل مكانه الطبيعي في الغابة، و حاشا أن يكون تعليم جاهل أو اقناع جاحد.

يحتوي على ١١ حديثا أو مقالا في حدود ١٢٠ صفحة من المقاس المتوسطة، بالعناوين التالية:

١ ـ من العالم إلى جزيرة العرب

٢ ـ من الجزيرة العربية إلى العالم

٣ ـ اسمعي يا مصر!

٤ ـ اسمعي يا سورية!

٥ ـ اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)

٦ ـ اسمعوها مني صريحة أيها العرب

٧ ـ إلى الراية المحمدية أيها العرب

٨ ـ القومية في ميزان العلم و التاريخ و واجب العرب

٩ ـ لا تحرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب

١٠ ـ أ جاهلية بعد الإسلام أيها العرب

١١ ـ مصر جوهرها إسلامي، إيماني، محمدي، مهما تراكمت عليه الأتربة.

و إليك بعض التفاصيل:

من العالم إلى جزيرة العرب حديث أذاعته دارالإذاعة السعودية بمكة المكرمة عام ١٩٥٠م، حاول فيه الشيخ أن يخاطب العالم و يستنطق فاه فيقول على لسان حاله إن الجزيرة العربية تغتبطني في تقدماتي الصناعية و المادية و لا تدري الواقع و هو أن الإنسان أصبح يطير في الهواء كالطير و يسبح في البحار كالسمك فإنه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان، إنها تغتبطني في امتدادي المادي و رفاهيتي البراقة، و لا تدري إنني استسمنتها بصورة اصطناعية فأصبحت عليلاً ذا أورام غير طبيعية. و قد اجتمع حولي متطببون و مشعووذون يعالجونني بالأمراض و يداوون الداء بالداء، و بعمليات جراحية خرقاء. لقد داووا جورا بجور و ظلماً بظلم و إسرافاً بإسراف و جهلا بجهل و علة بعلة، فزادوني مرضاً على مرض و ضعفاً على ضعف. إليك جئت أيتها الجزيرة العربية و كشفت سري فهل تُغيثينني و تسعفينني كما أغثتِني بالأمس و انقذتني من الموت الأحمر فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك و إنجادك من يوم بعث

رسولك و أشرق علي نورك، نفسي فداؤك يا جزيرة العرب خذي مني ما شئت من سيارات و قُطُر و طائرات و ماكينات و الآلات و زخارف و أدوات و تصدقي علي بهذا الإيمان الذي لا أجده في أسواقي.

و يستطرد قائلاً: إنك تجودين عليّ أيتها الجزيرة العربية بمقدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتي و أسير به عجلاتي. فأنا أدين لك بالفضل و أشكر صنيعك و لكني كنت أنتظر منك، أيتها الجزيرة السعيدة، يا مولد نبي الرحمة شيئاً أعز و أثمن من الذهب الأسود. كنت أنتظر منك أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل. و أن توجهيها و تخلص ركابها من هذا المأزق فقد عجزت حكمة الحكماء و صناعة الصناع من إخراجها فأخرجيها بما معك من حكمة النبوة و بقية قوة الرسالة و الإيمان و اليقين و سيّريها بنور الشريعة الإلهية و الهداية الإسلامية.

و في الحديث الثاني: من الجزيرة العربية إلى العالم، تحبيب الجزيرة العربية على العالم، فبدورها تقول: غلبتك المادة أيها العالم فجئتني لا ترغب إلّا في ما احتوى عليه من كنوز الثروة و القوة و لا يهمك إلّا ما يجري في بطني من عيون البترول فأعطيتك سؤلك و أشبعت نهمتك و إنما يُعطى السائل على قدر همته و قد جئتني تسأل أعز ما عندي و أنفع للإنسانية تسألني الإرشاد و التوجيه فأهلاً بك و سهلاً أيها الزائر الكريم و دونك المنهل العنب الصافي من الدين السماوي و من الوحي المحمدي احتفظت به طول هذه المدة فارتوِ منه ما شئت و استقِ منه الإيمان و اليقين و مبادئ الحياة السعيدة و العلم الصحيح و العمل الصالح و الخلق المستقيم و الاتجاه الصحيح في كل عمل و حركة و في كل دقيقة و جليلة، ذلك الاتجاه الذي لا يكون إلّا بالإيمان باللّه و برسله و اليوم الآخر و الحساب و العقاب، تشرب هذه المبادئ من هذا المعين الصافي و استمد منه

الحياة و القوة و الشباب و الرسالة، و اطلع عالما فتيا مشرقا يخلف العالم الشائب المظلم العليل الذي قد فقد الروح و الحياة و الشباب و أصبح لا يحمل رسالة للإنسانية.

أما الحديث الثالث فهو عبارة عن حلقة أولى من سلسلة اسمعيات شيخنا الندوي المعروفة و هي: اسمعي يا مصر، و نشر ذلك أولاً كمقال في مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات سنة ١٩٥١م ثم نشر في رسالة مفردة في مصر نفس العام، يحي فيه الشيخ مصر العزيزة بتحية الإسلام و يحي فيها الزعامة للعالم العربي، الزعامة التي كانت عن جدارة و استحقاق لا عن احتقار و اعتصاب و يقول: إنك يا مصر تحلين اليوم في العالم العربي محل السمع و البصر و محل العقل و الفكر رضي به الناس أم لم يرضوا و لكن الواقع لا يُنكر.

ثم يحييها بالعلوم و الفنون و بوجود المكتبات و الأزهر الشريف، و النيل، و رواج سوق اللغة العربية و آدابها و بالتالي فإنه يذكر بمسؤوليتها كمتلقى الثقافتين الشرقية و العربية الا و هي مسؤولية كونها قنطرة لعبور تجارب أوربا الجديدة إلى الشرق و تبليغ الرسالة الالهية الإسلامية الخالدة إلى أوربا في سبيل مشكلات الروح و الجسد معا بالعدل و الإحسان.

و في الحديث الرابع: اسمعي يا سورية الذي أذيع من دار الإذاعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٦م يحيي الكاتب سورية تحية محب لها و مُعجَب بها و يذكرها بالأيام التاريخية البطولية السعيدة السورية ثم يقول إن سر عظمتك يا سورية و سيادتك على العالم كله، سيادة دامت قرنا كاملاً هو أنك تزعمت هذه الأمة التي بُعِثت بعثاً جديداً و كلفت تبليغ رسالة إنسانية عالمية. فدعي التردد يا سورية و احملي راية الإيمان و الدعوة في الخارج و راية الإصلاح و التربية في

الـداخـل، و حـاربي فساد الإخلاق و التحلل و الميل الزائد، إلى الملاهي و الرخاوة الـتـرف. و أخيراً فإنه يذكرها بتاريخ صقر قريش و إقامة دولة اندلسية و حضارة عـربـيـة إسـلامـيـة دامت ثمانية قرون في الغرب كما يذكرها بفضلها على بلاده الـهـندية عن طريق محمد بن القاسم الثقفي و فتحه باب التبادلات الثقافية من حـيـث الاعـتـبـارات الـمـنوعة و يطالبها باستعادة المجد المفقود و الرجوع إلى القيم الخلقية الإسلامية النبيلة من جديد.

امـا بـالـنـسـبـة إلى حديثه اسمعي يا زهرة الصحراء و المراد بها الكويت و الذي أذاعها من الإذاعة العربية الكويتية عام ١٩٦٢م فإنه يذكرها بنعم اللّه التي أنـعمها اللّه عليها في صحاراها القاحلة التي لم يكن يتخيلها أحد من العالمين فـي عـهـد قـريب. ثم يقول: لقد شاعت سماحتك العربية و اريحيتكِ المعروفة في الـتـاريـخ أن تـجـودي بـالـنـفـط عـلـى الـعـالم فكنت في ذلك السخية المحسنة المشكورة و لا شك أنها مساهمة غالية منك في بناء هذه الصرح الصناعي الكبير الـذي يـفـتـخـر بـه العالم المعاصر و قد شهد الجو و البر بقيمة هذا النفط الذي يـستخرج من أرضك و دانت له الطائرات و السيارات بالفضل و الشكر فشكراً لك أيـتـهـا الـجزيرة الكريمة العريقة في السماحة و السخاء من كل من ينتفع بهذه الـوسـائـل و ما أكثرهم في العالم. و لكن فيك ما هو أغلى من هذا الذهب الاسود و أنـفـع لـلمدنية و أعود على الإنسانية بالخير و النفع العام، هو الإيمان الذي نبع عـيـنُه من أرضك لأول مرة بعد قرون متطاولة فإذا كان هذا النفط تحفة الأرض إلى الأرض، كان الإيمان الذي جاء به محمد صلى اللّه عليه و سلم تحفة السماء إلى الأرض، و فيك اتصلت السماء بالأرض لآخر مرة. و قد انقطعت صلة الأرض بـالـسـمـاء و الأجسام بالروح و القلب، و الصناعة و الحضارة بالإيمان و الأخلاق فـلـتـتـصل الأرض بالسماء و الأجسام بالأرواح و القلوب، و الصناعة و الحضارة

بالإيمان و الأخلاق مرة ثانية عن طريق الجزيرة العربية و عن طريق الوحي المحمدي و قد اشتدت حاجة الإنسانية إلى هذا الاتصال.

و بعد أسلوبه الهين اللين المزيج من اللطف و العطف و الأخاء و المجاملة فإنه يخاطب العرب و القوميين بوجه خاص فيقول: اسمعوها مني صريحة أيها العرب، إذا أردتم استعادة المجد المفقود فعليكم أن تتمردوا على المادية العصرية كما تمرد أسلافكم على مادية عصرهم و تضحوا برفاهيتكم و ترفكم و أمانيكم المعسولة في سبيل الإسلام و في سبيل المصلحة العامة و السعادة البشرية و تنضموا إلى الراية المحمدية و هي راية العدل و راية الحق و راية اللّه في العالم التي اختارها اللّه لكم كراية و اختاركم لها كأمة و جند إلى آخر الدهر.

ثم يقوم الشيخ بموازنة القومية و يضعها في ميزان العلم و التاريخ و ينذر إخوانه العرب و المسلمين بخطرها و يدعوهم إلى شد المنزر ضدها و ضد التيارات الهدامة المناوئة للإنسانية جمعاء. و لا تحرجوا الأوفياء الإسلام بموقفكم أيها العرب بموجب كلمته التي ألقاها في حفلة تكريم له أقيمت في جده أمام أعيان البلد. كما خاطبهم في مكة في بستان عبد اللّه السليمان يو ٢١ من ابريل ١٩٦٣م بعنوان أ جاهلية بعد الإسلام أيها العرب. و أخيراً فإنه ينبه العرب في مصر على الأخص، فيقول إن مصر جوهرها إسلامي إيماني محمد مهما تراكمت عليه الأتربة.

هذا و في ختام جولتنا السريعة في هذا الكتاب فإننا نستطيع أن تقول انه دعوة العرب لاستعادة مكانهم الطبيعي في القيادة البشرية و الحضارة الإنسانية، و في خلال نلك المؤلف يتوجه إلى العرب من غير مجاملة بل يعتبرها

جـريـمـة خـلـقية في حق هذه الأمة فيقول: إنني لا اقل عن أكبر عربي يعيش في الـعـواصـم الـعـربـيـة فـي عـربـيتي و نسبي الصريح و حبي للعرب و تضلعي من ثـقافتهم و علومهم و آدابهم و لـغتهم و ليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بـالاعـزاز بـالـعـربـيـة مني و أوفر نصيبها مني و لكن الإسلام أفضل من كل نسب و اقوى من كل عصبية.



"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"
دراســـــة تحليليـــــة

بقلم: أ. د. محمد أسلم الاصلاحي

بـدأ الـعلامـة أبو الحسن علي الندوي رحلته التأليفية بكتابة "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و بالرغم من هذا تعد هذه الباكورة لإنتاجه من أروع الأعمال التي صدرت حتى الآن من قلم المفكر الكبير العلامة الندوي المغفور له و قـد عـقـد الـعلامة العزم على تاليف هذا الكتاب في زمن لم يتجاوز عمره فيه الـثـلاثـين إلّا ببضع سنوات و في مكان لم تكن فيه المراجع العلمية و التاريخية و الـثـقـافـيـة مـيسرة له إلّا بقدر قليل و في ظروف لم تكن مواتية للتركيز على موضوع يتقاضى سكون القلب و راحة الفكر و هدوء البال و بمناسبة هذا المكان تجدر الاشارة إلى أن تاليف هذا الكتاب قد اكتمل في عام ١٩٤٥م و كل من له أدنى إلـمـام بـتـاريخ الـهـنـد الـحـديـث يـعـرف جـيـدا مـدى توتر الأوضاع السياسية و الاجـتـمـاعـيـة و الدينية في تلك الحقبة من الزمن إذ كانت الزعامات الوطنية و الـقـيـادات الإسـلامـيـة في شبه القارة الهندية حينذاك منقسمة أشد الانقسام و ذلك بـخـصـوص تـولـى مـقاليد السلطة بعد انسحاب الانجليز من البلاد و بلغ الـسـيـل الزبى عندما انقسم المسلمون حول هذه القضية إلى طائفتين كبيرتين فـطـائـفـة مـنـهـم كـانـت تـطـالـب بإقامة دولة إسلامية في شبه القارة الهندية مـنفصلة عن الحكومة الهندية ذات الطابع الهندوسي و كان يتزعم هذه الطائفة مـحـمـد عـلـي جـنـاح تـحـت لـواء العصبة الإسلامية (مسلم ليج) و بمقابل هذه

الطائفة كانت ثمة ثلة من العلماء المرموقين تدعو المسلمين إلى صيغة سياسية بناءة يمكن باتخاذها قبول شرعية الحكومة الهندية ذات السيادة العلمانية (الهندوسية).

هذا الانشقاق و الانقسام بين صفوف المسلمين قد أثار الشك في أذهان الناس حول مصداقية التعاليم الإسلامية التي انصهرت في بوتقتها من قبل معالم الجنسية و الوطنية و القومية و العرقية و التي قد جمعت في القرون الماضية مللاً عديدة و شعوباً مختلفة على رصيف واحد فبالرغم من هذه الخصيصة البارزة للإسلام لماذا و كيف تسربت التفرقة و الانفكاك في داخل المجتمع الإسلامي و هذا السؤال المهم كان في الحقيقة شغلاً شاغلاً لكثير من الكتاب و الباحثين في حين الف العلامة الندوي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و كلما أراد هؤلاء الكتّاب و الباحثون.استئصال شأفة هذا الانفكاك توسعت هوة الصراع بين أبناء الإسلام حتى بدأ الناس و من بينهم كثير من المسلمين يشككون في قدرة الإسلام على مواصلة السير مع تقدم الزمان كما أخذوا يعتقدون بأن الإسلام لم يبق صالحاً لقيادة البشرية جمعاء و لأجل هذا السبب أجبر المسلمون على اخلاء الطريق للشعوب الأخرى و على التنحى عن الجلوس في الموقع الريادي و هذا الفكر الخاطئ قد ترك آثارا سيئة و سلبية على أذهان النشء الجديد من المسلمين فما برح هؤلاء الشبان حتى بداؤا يعكفون على الأيدولوجيات العصرية الأخرى من أمثال العلمانية و الشيوعية و الديموقراطية و ما هو على شاكلتها و يعتنقونها.

لقد أدرك خطورة هذا الاتجاه الفتاك كل من له أدنى اهتمام بقضايا الإسلام و المسلمين و بذل بمقدوره جهودا لتدحيض الأفكار و النظريات المناوئة للتعاليم الإسلامية و التي توافينا بأن الإسلام هو السبب الرئيسي وراء تخلف

المسلمين فما دام المسلمون متشبثين بديانتهم يكون دورهم هامشيا في مختلف المجالات للحياة الإنسانية و بكلمة أخرى أن أراد المسلمون الاستعلاء و الاستنهاض فعليهم الابتعاد عن القيم الإسلامية و المبادئ الدينية و من الملاحظ أن مثل هذه الأفكار سرعان ما بدأت تروج و تنتشر في داخل المجتمع الإسلامي و في عملية نشر هذه الأفكار لعب المتفرنجون من المسلمين دوراً بارزاً و ذلك لانهم في أكثر الأحيان قد تربوا و تثقفوا على أيدي المستشرقين الذين لم تكن غايتهم إلاّ إثارة القلق و الفتن بين صفوف المسلمين إلى جانب خلق الصدع في بنيان الإسلام و إبراز مواطن الضعف و الاضمحلال في تعاليم الدين الحنيف. فتحقيقاً لهذا الهدف هؤلاء المستشرقون في بداية الأمر غربلوا تراث المسلمين الديني و العلمي و الأدبي و الثقافي ثم قاموا بتحقيقه و نشره بعد إلقاء نظرة فاحصة و أحياناً نقدية عليه و لكن عندما أدركوا أن جهودهم هذه ما أتت أكلها حسب تطلعاتهم وفّروا منحاً دراسيةً لبعض الطلبة النابهين من المسلمين للدراسة في الجامعات الأوربية و على هذه الشاكلة اشبَعوا أذهانهم بأيدولوجيات فاسدة هدفها الرئيسي بث بذور الشكوك و الشبهات حول التعاليم الإسلامية فهؤلاء الطلبة من المسلمين مع بعض الاستثناءات بعد الرجوع إلى أوطانهم بذلوا قصارى الجهود لنشر أفكار أساتذتهم الأجانب في أوساط المجتمع الإسلامي و من الجدير بالذكر أن المستشرقين قد اتخذوا هذه الاستراتيجية المختلسة بعد فشلهم في الحروب الصليبية و نستشف هذه الفكرة مما أدرجه لويس التاسع في مذكراته قائلاً:

"إن الحروب العسكرية لن تجدى مع المسلمين فتيلا و لا بد أن يعول على الحرب العقائدية و نربى من أبنائهم من يقوم بإفسادهم و تحويلهم عنا و لأمنا"(١)

و لا شك أن العالم المسيحي الذي قد تكبد دائما خسائر فادحة على أيدي

المسلمين الغزاة نجح في هذه المؤامرة إلى حد كبير و إثار زوبعة الارتباك و الارتياب في قلوب الجيل الجديد من المسلمين تجاه المبادئ الإسلامية و القيم الدينية و لم تلبث هذه الحالة حتى التفت إلى خطورتها العلماء و المفكرون المسلمون و بعد تفكير عميق وصلوا إلى نتيجة أن الاستعباد الفكري أكثر فتكاً من الاستعمار الغربي و إن لم تتخذ الإجراءات لمقاومة هذا الاستعباد الفكري ليصطبغ الكيان الإسلامي بصبغة الحضارة الغربية تماماً و كان العلامة أبو الحسن علي الندوي في طليعة هؤلاء المفكرين الذين لم يرتضوا أن تكون الدول الإسلامية في مؤخرة الموكب الحضاري و يملي عليها الاستعمار الغربي أوامره و أحكامه و يندفع المسلمون مع التيارات الحديثة فلرفع الستار عن دسائس الكتلة المسيحية الغربية كتب هؤلاء المفكرون مقالات قيمة و كتبا عظيمة الفوائد و من بين هذه المؤلفات يحتل الكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" مكانة الصدارة لاستيعابه كليات الروح الإسلامية من جميع أطرافها و قد أشار الأستاذ سيد قطب إلى ميزة الكتاب هذه قائلا:

"فإن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل و هو لهذا لا يعد نموذجا للبحث الديني و الاجتماعي فحسب بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية"(٢)

و في الحقيقة أراد العلامة الندوي بتأليف هذا الكتاب إعادة الروح إلى الكيان الإسلامي و إعادة ثقة المسلمين بأنفسهم و بقيمهم الدينية و الحضارية و الأخلاقية و لتحقيق هذا الهدف ألقى العلامة المذكور نظرة بانورامية على تاريخ الحضارة الإنسانية بأسرها و ذلك لكي يثبت جدارة الإسلام مقابل الديانات

السماوية و غير السماوية و في هذا الصدد فإن ما يسترعى اهتمامنا هو استقصاء العلامة عن الحقائق الجذرية لمختلف الشعوب و الأمم و الديانات و مما يبدو أنه قد تفحص أكثر المواد التاريخية المتضمنة المراحل التاريخية للحضارة الإغريقية و الرومية و الفارسية و الصينية و العربية و ما إليها و مع هذا كله يشتكى العلامة الندوي في مستهل الكتاب من قلة الموارد العلمية و المراجع التاريخية قائلا:

"و كانت المراجع العربية التي لابد من استنشيرها في هذا الموضوع قليلة و ذلك لأن ذلك العهد كان قريبا بالحرب العالمية الثانية و كانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند و البلاد العربية فكانت تستورد قليلا من البضاعة العلمية و المراجع التاريخية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة و مصر بصفة خاصة"(٣)

يعني ذلك أن المواد التاريخية المطلوبة لمثل هذا العمل الجليل لم تكن متوفرة لديه و بالرغم من هذا أنه شمّر عن ساعده لإنجاز مشروعه العلمي و جاء بكتاب يقول عنه الدكتور محمد يوسف موسى "أني - علم اللّه - لست أذكر فيما قرأت من القديم و الحديث كتابا حوى من الخير ما حواه هذا الكتاب و لا كتابا وضع أيدينا على ما نشكو منه من أدواء و أمراض كما فعل هذا الكتاب و لا كتابا نفذ كاتبه إلى روح الإسلام و أخلص و يخلص في الدعوة له و يقف كل جهوده على هذا السبيل كهذا الكتاب" (٤) صحيح أن المراجع المطلوبة لمثل هذا العمل الرائع لم تكن متوفرة في الهند حسب رغبات العلامة الندوي إلاّ أن نشأته و تربيته و مطالعته الواسعة كانت في الحقيقة تكفل له "ما يستطعه الأوائل" و في هذا السياق نلاحظه يقول:

"لقد أراد اللّه أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ و كتابة التراجم

و الـسـيـر و أن اولـد فـي أسـرة كان فيها مؤرخون و مؤلفون و كان أكثر اشتغالهم بـالـتـألـيـف فـي تـراجـم الـرجـال و طبقات الشعراء و الأدباء و سير العظماء من المصلحين و العلماء و الملوك و الأمراء" (٥)

فـهـذه الـكـلـمات تدل على أن العلامة الندوي شب و ترعرع في أسرة كانت تـتـوسـد الـعـلـم و الـمـعـرفـة و كانت ميزتها البارزة الدراسة و الكتابة و البحث و الـتـفـكـير و التوجيه و الإرشاد فكان من الطبعي أن يتأثر هو الآخر بهذه البيئة الـعـلـمـية و الأدبية و الفكرية و الدينية و فوق كل ذلك لقد وهبه اللّه ذوقا مرهفا و قـلـبـا نـابـضـا و فكرا سليما و عقلا واعيا و نظرا ثاقبا و قدرة فائقة على سبر الأغوار و كشف الأسرار فلم يكن يطالع الكتب أو يجالس العلماء و الأدباء لترفيه الـنـفـس و تـسـلـيـة الـقـلب بل كان يقصد بذلك منذ نعومة أظفاره نشد أن الحق و الـعـلـم و الـمـعـرفـة و اعـلاء كـلـمـة الإسـلام بين الناس و قد ساعدته في هذا المضمار الظروف التي تبرعمت و تفتحت في وسطها مواهبه العلمية و الفكرية و الأدبـيـة و لـهذه الأسباب كلها سرعان ما بدأ يتفكر في العوامل و العناصر التي تـلـعب دورا حاسما في استنهاض و انتكاس أمة أو حضارة أو ديانة و هذا التفكر و الـتـأمـل قـد أتاحا له فرصة للوقوف على أحوال الأمم الغابرة و الحاضرة و بما أنـه كان خبيرا بلغات عديدة من أمثال العربية و الانجليزية و الفارسية و الأردية فكان من الأيسر له أن يستفيد من اللغة الانجليزية هو يكتب في مكان:

"إنـنـي حـصـلـت فـي مـدة قـريـبـة مادة لغوية استطعت أن انتفع بها في أعـمـالي التاليفية العلمية و في رحلاتي إلى انجلترا أو أمريكا و قد تمكنت بهذه الـدراسة أن أقرأ الكتب التي ألفت في المواضيع الإسلامية و التاريخ بالانجليزية بسهولة و لا أزال استفيد بها و انتفع"(٦).

و خـيـر دلـيـل على صدق هذه الكلمات كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط

المسلمين" الذي استعرض فيه بإسهاب الأحوال السياسية و الثقافية و الاجتماعية و الحضارية و الأخلاقية للبشرية جمعاء و وفق إلى قدر كبير في جعل باكورته هذه صورة مصغرة للعالم الإنساني تتبلور من خلالها الشعوب و الأقوام المختلفة بخصائصها البارزة فكل من يلقي نظرة غائرة على محتويات هذا الكتاب لا يتأثر بغزارة علم المؤلف وسعة معلوماته فحسب بل يجد نفسه حائرا في متاهات التاريخ الإنساني آخذا منها الدروس و العبر و مستسلما للنتائج الإيجابية التي وصل إليها المؤلف بعد الجهد الجهيد و من الجدير بالملاحظة أن العلامة الندوي لم يستهل كتابه بذكر الصفات المشرقة للإسلام و كذلك لم يبد أي انحياز أو عصبية لإبراز المعالم الممتازة للحضارة الإسلامية بل أنه سرد الوقائع التاريخية بأسلوب منطقي و موضوعي تتجلى فيه الحقيقة تباعا و يتحلى بهذه الخصيصة المتميزة جميع أبواب الكتاب الخمسة فأقواله و آراؤه و أفكاره تتسرب إلى القلوب بدون مشقة و عناء و من هنا يمكن أن يصدق على كلامه القول "از دل خيزد بر دل ريزد" أي من القلب إلى القلب و لا يتصف الكلام البشري بهذه الميزة ما لم يكن الإنسان واضح الرؤية و صافي القلب و مخلص النية و صالح الفكر فهذه الصفات كلها تجمع في أسلوبه في حين هو يقوم بتحليل و تمحيص الأحداث التاريخية التي كانت بمثابة نقطة تحول في الحياة الإنسانية و ليس من شك أن رؤية العلامة الندوي كانت واضحة تماماً و لذا أنه لا يطيل كلامه بذكر العصور و الأزمان فلا ينقسم التاريخ الإنساني عنده إلا إلى عصرين، العصر الجاهلي و العصر الإسلامي و هذا التعريف الموجز للتاريخ الإنساني ينقذ من جانب المتلقى من تخبط الطريق و تشوش الفكر و من جانب آخر ينم عن وضوح فكر العلامة الندوي فكان العلامة

لا يرى للوجود الإنساني الاقالبين منفصلين أما قالب الخير و أما قالب الشر فكل الأحـداث الإنـسـانـية تدور حول هاتين النقطتين و مشيرا إلى أفكار العلامة هذه الأستاذ سيد قطب يقول:

"و لـعـلـه مـمـا يـلـفت النظر تعبير المؤلف دائما عن النكسة التي حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة "الجاهلية" و هو تعبير دقـيـق الـدلالـة عـلى فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام و الروح المادي الـذي سيـطر على العالم قبله و يسيطر اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة أنها الجاهلية في طبيعتها الأصلية" (٧)

هـذه الـكـلـمـات تـنـم عن أن الـعـلامـة الندوي طالع و غربل تراث التاريخ الإسـلامـي من الـزاوية الإسلامية البحتة فكل ما وجده معارضاً للمبادئ و القيم الإسلامية اعتبره عملا من أعمال الجاهلية التي لا تمثل إلاّ قوى الظلم و الضلال و الكفر و الطغيان و العبودية و الانحلال و لهذه الجاهلية ليست فترة محددة من الـزمن كـمـا تـزعـم أغـلـبية المؤرخين و الكتاب بحيث أنه يعدون الفترة ما قبل الإسـلام مـخـتـصـة بـالـجـاهـلـية إلاّ أن العلامة الندوي لا يوافق على هذا الرأى و يـذهـب إلـى أن الـجـاهـلـيـة لـيست محصورة في دائرة الزمان بل المراد منها اسـتـيـلاء قـوى الـشـر و الـعـسـف على مقاليد السلطة و السيادة دون تقيد بزمن مـخـصـوص فـانـطـلاقـا من هـذه الـفكرة كان العلامة الندوي يعتبر عالم اليوم الـمـتـحـضر نسخة مبهرجة للجاهلية الأولى و ذلك لأن القوافل البشرية في هذا الـزمن قـد تـخـطـبـت طـريـقـهـا مرة أخرى فاندست قوائمها في أوحال المادية الـجـامـحة التي غايتها الأولى هي التمتع بملذات الحياة و ملاهيها و الابتعاد عن الـقـيـم الـروحـيـة و الـخـلـقية و الانغماس في تحقيق المطامح الدنيوية و عدم الإيـمـان بخالق الكون و بالـحياة بعد الموت و في رأى العلامة الندوي كلما تتغلب

هـذه الـمـاديـة عـلى أطوار الـحياة الإنسانية تختل موازين الحق و الخير و العدل و الانصاف و تتزعزع الأسس الاجتماعية و الأخلاقية حتى تكاد تنهدم و بالنتيجة تتدهور أحوال الناس إلى أسوء حد.

في الزمن الماضي كان خالق الكون يرسل الانبياء و الرسل لهداية الإنسانية الـحـائـرة إلـى سـبـيل الرشد و السعادة و لانتشالها من أخدود النار و وهدة الهلاك و لـكن هـذه الـسـلسلة انقطعت إلى الابد بعد خاتم النبيين الذي ترك لنا كتابا لن يـضـل من يـتـخـذ تـعـالـيـمـه بـالنواجذ و شريعة تخرج اتباعها المخلصين من الـظـلـمـات إلـى الـنـور كـما تغدق عليهم السعادة و الرفاهية في الدنيا و الآخرة و مـادام الـمـسـلـمـون كـانـوا متشبثين بهذين المرجعين الأساسيين كانت تنعم الإنـسـانـيـة كـلـهـا بـالـخير و السعادة لأنهم جاووا بـ"مدنية فاضلة قوية البنيان و محكمة الاساس يسود فيها روح التقوى و العفاف و الأمانة و تقدر فيها الأخلاق الـفـاضـلـة فـوق المال و الجاه و الروح فوق المظاهر الجوفاء يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلّا بالتقوى و يهتم الإنسان بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة و القلوب خـاشـعـة و يقل الناس في أسباب هذه الحياة و التكالب على حطام الدنيا و يقل التباغض و التشاحن"(٨)

مـا أحـوج الإنـسـانـية اليوم إلى رجال متصفين بالصفات المنكورة أعلاه، رجـال يـزهـدون فـي الـشـهـوات و الـملذات و يعزفون عن شره الأموال و الثروات و يـقومون بالقسط بين الناس شهداء للّه و لو على أنفسهم أو الوالدين و الأقربين و يـعـرضـون حياتهم للخطر لقلع الفساد و الشر من الجذور، رجال يأمرون الناس بـالـبـر و الـتـقـوى و يـنـهونهم عن المنكر و السيئات و يوفون بالعهود و المواثيق و يـتـجـنـبون كبائر الاثم و الفواحش إلّا اللهم و يستعدون دوما لوضع البلسم على الـجـروح الـدامـيـة لـلإنـسـانـية فيستأنس بهم الأيتام و الأرامل و المستضعفون

و الـمـنـكـوبـون و لا مـراء فـي أن هذه السجايا و المزايا مادامت تسود المجتمع الإنـسـانـي أحـرز الـمسلمون قصب السبق في جميع ميادين الحياة إذ كانوا خير أمـة أخـرجـت لـلـنـاس فـالـنـاس كانوا يؤثرونهم على أنفسهم في تدبير أمورهم و تـنـظـيم شؤونهم و لـم يزل المسلمون يتمتعون بهذه الثقة من قبل الناس إلى أن تـسـرب إلـى سـويـداء قـلـوبـهـم حـب المال و الجاه فأرتاحوا إلى مفاسد الأرض و مـساويها و كانت نتيجة ذلك أنهم فقدوا المؤهلات اللازمة لقيادة الناس و هكذا تـخلفوا عن جادة التقدم و الازدهار فلم يخسرواهم أنفسهم فحسب بل الإنسانية كـلـهـا مـنـيت بالخسران المبين بسبب خسرانهم و انحسارهم و هذه هي الفكرة الـرئـيـسـة نـسـتـشـفـهـا مـبـثوثة في جميع أوراق "مادا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

الهوامش:

١ ـ جريدة العالم الإسلامي العدد ١٤٢١، ١١ ـ ١٧ سبتمبر ١٩٩٥

٢ ـ من مقدمة "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ص٣١

٣ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبو الحسن الندوي ص١٣

٤ ـ المرجع السابق ص٢٧

٥ ـ شخصيات و كتب للأستاذ العلامة أبو الحسن علي الندوي ص١٣

٦ ـ مجلة البعث الإسلامي (عدد ممتاز) المجلد الخامس و الأربعون، محرم/ صفر ١٤٢١هـ

٧ ـ من مقدمة "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ص٣١

٨ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبو الحسن علي الندوي ص ١٢٤



دراسة في كتاب قصص النبيين للأطفال*

بقلم: د/ أنيس الرحمن الدهلوي

و بديهيّ أنه لا حاجة إلى أن أعرّف بشخصيته العملاقة، و أنكر من حالات أسرته التي هي عريقة في النجابة، و أذكر و أعدّد جميع آثاره الأدبية الكثيرة، الوفيرة، لأن كل ذلك لا تسعه هذه المقالة الوجيزة و لا يمكن استيعابها في هذا الوقت القصير. و المؤلف الذي أريد أن أتكلم عنه شيئا بصورة وجيزة هو كتاب "قصص النبيين للأطفال".

و في الحقيقة، إن دارسا مثلي، قليل الحظّ من العربية قصير الباع في البيان و يعوزه الفكر السليم و هو لا يقدر على التعبير المستقيم. لا يمكنه إلقاء الضوء على مؤلفات تلك الشخصية البارعة التي يعترف بعربيته الأدباء و يخضع لأدبه البلغاء. فوقوفي في هذا الموقف ليس إلّا كمثل المصباح الذي نوره ضئيل و يلقى الضوء على السراج الوهاج الذي في السماء.

إن كل كتاباته في الحقيقة، نموذج من الأدب الفني الرائع و متميز بسلاسة العبارة و لطافة التعبير. فالشيخ أبو الحسن الندوي رحمه اللّه عندما يكتب، يكتب ارتجالا بالعربية الخالصة و يتدفق كالسيل بلغة عربية بليغة فيها الصور البيانية و التعبير الجميل.

* ألقى هذا الحديث في ندوة عقدت في جامعة دلهي يوم ١٩، ٢٠ مارس ٢٠٠١م حول مؤلفات الشيخ ابي الحسن علي الحسني الندوي

إن كـتـاب "قـصص النبيين للأطفال" سلسلة في ثلاثة أجزاء كتبه الشيخ الـنـدوي رحـمـه الـلّه أصـلا لإبن أخـيـه "مـحـمـد" الذي كان صغيرا و يرغب في الـقـصـص و الـحـكـايـات كـعادة الأطفال في عمره. فكان يأخذ في يده قصص السنانير و الكلاب و الأسد و الذئاب و القردة و الدباب. ذلك أنه لم يجد في متناوله إلا هـذه القصص. فيقول الشيخ الندوي مخاطبا له: أتاسف أن لا أرى في يدك إلاّ حـكـايات السنانير و الكلاب وغيرها من الحيوان. فرأيت أن أكتب لك و لأمثالك ـ أبناء المسلمين ـ قصص الأنبياء و المرسلين عليهم صلاة اللّه و سلامه بأسلوب سهل يوافق سنّك و ذوقك.... و فعلت.

و قـد قدّم الـطـبـعة الأولى للجزء الأول من الكتاب الدكتور الفاضل الشيخ أحـمـد الـشرباصي، المدرس بالأزهر الشريف بالقاهرة. فيقول في المقدمة التي كـتـبـها لـه: "لا شك أن تتابع هذه المجموعات من أخينا أبي الحسن سيؤلّف ركنا كـبـيـراً من مـكـتـبـة الأطـفال المسلمين في الهند ممّا سيكون له أكبر الأثر في تـثـقـيـفـهم ثقافة إسلامية عربية، تجعلهم أهلا للنهوض بواجباتهم في حياتهم على الوجه القويم و الأسلوب الحكيم".

إن أساتذة اللغة، و العارفين بصناعة الكتابة يعرفون معرفة جيدة أنه من أصـعـب الأمـور أن يـأتـي الكاتب ـ مهما بلغ الذروة من مهارة الكتابة ـ أن يأتي بـكـتـاب يـكـون سـهلا على المبتدئين، بسيطا في الكلمات و التعبيرات مع كونه واضـح الـبـيـان و الـتـعـبير، تكون جملُه قصيرة سانجة و لا تكون طويلة معقّدة فيصعب على الناشيء فهمها.

و شـيـخـنـا، المربّي الكبير، الداعية الإسلامي المخلص، الأديب الإسلامي الـبـارع الأسـتاذ المفضال، جاء بهذه المجموعة العظيمة، بعبارة جميلة قويمة الأسلوب محكمة النسج.

و كما علم من مقدمة الكتاب أن الهدف من هذه المجموعة امداد الشبيبة المسلمة بما تطمح إليه من غذاء روحيّ و عقلي يرضى العواطف و المشاعر و يهذّب الأخلاق و الطبائع و ثانيا هو تمكين قواعد اللغة العربية في صدور الشبيبة حتى تكون وثيقة الصلة بلغة القرآن الكريم و لغة الحديث الشريف و لغة التاريخ الإسلامي في أغلب نواحيه.

فلغرض تحقيق هذا الهدف النبيل سلك المؤلف في تأليف هذه المجموعة طريقة سهلة، يبسّط الحديث و يختار من الجمل أيسرها و أهونها لكيما يتفق و مستوى الأطفال الصغار الذين أهدى إليهم هذه المجموعة القصصية.

عندما نظرنا إلى المجموعة نظر الاعتبار و قرأناها قراءة متأنية، نجد فيها عدة خصائص و عددا من الميزات لا نجدها في أية مجموعة أخرى من قصص الأطفال مما يجعلها ممتازة و رائعة و بديعة.

أولاً: التكرار: نجد في عدة مواطن تكرار الكلمات و أحيانا تكرار الجمل. فمثلا يقول الشيخ في الجزء الأول: كان في هذه القرية بيت ..... بيت كبير جدا. و كان في هذا البيت أصنام .... أصنام كثيرة جدا و سبب هذا التكرار، كما قلنا أن القصد من هذه القصص تعليم الأطفال، فعندما يتكلم الأطفال بعضهم مع بعض، يتكلم بكلام متقطع و يعيد الجمل و الكلمات و هكذا. فهذا هو الأسلوب الذي يلائم حديث الصغار الذين يقدم إليهم هذا الكتاب. و هناك سبب آخر و هو أن الغرض من ذلك تعليم اللغة. و تعليم اللغة يتطلّب اعادة الكلمات و الجمل و تكرارها لترسخ هي في ذهن الطالب.

ثانيا: مراعاة نفسية الأطفال و صغر سنهم: إن الشيخ عندما يذكر في كتابه قصة نوح عليه السلام و يذكر صنعه السفينة و يبيّن كيف سخر الناس به

فـيـحكى سخريّتهم بتعبير هو أقرب من التعبيرات التي يستعملها الأطفال فيما بـيـنـهم في مثل هذه المواقف. فلنر كيف يكتب: "ما هذا يا نوح؟ من متى صرت نـجـاراً؟ أمـا كـنّـا نـقـول لك لا تجلس إلى هؤلاء الأراذل؟ و لكنك ما سمعت كلامنا و جـلـسـت إلى النجارين و الحدادين فصرت نجارا. و أين تمشى هذه السفينة يا نوح؟ إن أمرك كله عجب. أ تمشي هذه في الرمل أم تصعد الجبل؟ البحر من هنا بعيد جدا. هل يحملها الجن، أم تجرّها الثيران؟"

و الـمـواطن الآخـر حـيـث نلاحظ مراعاته نفسية الأطفال و مراعاة صغر سنهم هو عند ذكر قصة يوسف عليه السلام و بيان خيانة امرأة العزيز و مراودتها يـوسـف عليه السلام على أمر شنيع، لم يذكر الشيخ ذلك الأمر الشنيع و اكتفى بـ "إنها دعته إلى الخيانة".

ثـالـثـا: بـراعة اللغة: و على الرغم من أن هذه القصص تـخـتصّ بالأطفال و كـتـبت خاصة لهم بلغة سهلة بسيطة، فإنها تحتوي، في غضونها، حلاوة اللغة و عـذوبـة البيان. فإذا قرأناها قراءة متأنية نصادف مواطن حيث نجد أن البراعة الـلـغـويـة بلغت أوجها و العبارة مزخرفة و مسجعة بدون تكلّف. و إليكم نبذة من تـلـك الـبـراعات اللغوية: ففي موضع نرى كيف يتنوع في البيان "تعجّب هود من جـرانـتـهم و تأسف هود على سفاهتهم" و في موضع آخر يقول: "اعتنق الأطفال بـالأمـهـات و دخـل الـنـاس الحجرات" و يقول: "الأطفال يبكون و النساء يصحن و الـرجـال يـدعـون و يـصـيـحون" و يقول: "حزن شديد و اشتياق عظيم" و يقول: "يـمـشـون عـلـى أرض الـلّه و يـكـفرون باللّه، يأكلون رزق اللّه و يشركون باللّه". و أرجـو مـنـكـم الاهـتـمام بهذه البراعة في التعبير البياني: "إن يوسف كان كبير الـنـفـس أبيّا. إن يـوسف كان كبير العقل ذكيّا. و أرجوكم النظر في هذه العبارة

البليغة المزخرفة بالسجع المحمود: "جادت لهم السماء بالأمطار، و جادت لهم الارض بالنبات و الأزهار و جادت لهم البساتين بالفواكه و الاثمار، و بارك اللّه لهم في الرزق و الأعمار".

رابعا: فوائد تفسيرية و تاريخية: و يلاحظ القارئ المتأنّي في هذه المجموعة ميزة أخرى و هي كما ادّعى المؤلف في مقدمة الجزء الثاني بقوله: "و في ثنايا القصص و مطاويها فوائد تفسيرية و تاريخية و أجوبة عن أسئلة خفية قد يتناجى بها الضمير".

و بما أن تلك الفوائد التفسيرية و التاريخية و كذلك الأسئلة و الاجوبة لم يصرح بها الشيخ فعلينا أن نبحث عنها و نفهمها. فنأتي أولاً على فوائد تفسيرية:

إنه يوجد في القرآن الكريم كثير من الكلمات هي غريبة للأطفال و صعب فهمها عليهم إمّا لعدم استعمالها هذه الأيام أو ليست آخر. فالشيخ عند سياق القصة، يفسّر تلك الكلمات الغريبة بحيث يسهل على القارئ الصغير فهم القصة بدون انقطاع و بدون صعوبة.

فمثلا كلمة "تفتؤ" في قوله تعالى: "تفتؤ تذكر يوسف" يقول الشيخ: و قالوا إنك لا تزال تذكر يوسف.

و مثلا كلمة "سيارة" في قوله تعالى: "و جاءت سيارة، فأرسلوا واردهم، فأدلى دلوه" فسّرها الشيخ بقوله: و كانت جماعة تسافر في هذه الغابة ـ و ترك كلمة السيارة لأنها لا تستعمل في هذه الأيام في المعنى الذي أراده اللّه بها هذا المكان.

و مـثـلا كـلـمـة "أضـغـاث أحـلام" إن هـذه الـكـلـمة أيضا تتطلب الشرح و الـتـفـسـيـر. فالشيخ فسّرها، في سياق القصة بقوله: قالوا هذا ليس بشيء. إن النائم يرى أشياء كثيرة لا حقيقة لها (الخ) و هلمّ جرا.

و بجانب الكلمات المفردة إن الشيخ اهتم أيضا بشرح الآيات التي تتطلب الـتـفـسـيـر. فـمـثـلا آية: "أ أرباب متغرقون خير أم اللّه الواحد القهّار" لا يفهم الـقـارئ الـصغير ماذا أراد يوسف عليه السلام بالأرباب المتغرقين فبسط الشيخ شـرحـه ثمّ شـرح الـمـقارنة التي أراد يوسف فيقول: تقولون ربّ البرّ و ربّ البحر و ربّ الرزق و ربّ المطر. و نحن نقول اللّه ربّ العالمين.

و مـثلا قول اللّه عزّ و جلّ على لسان قوم نوح عليه السلام "لو كان خيرا ما سـبـقـونـا إلـيـه" إن الآيـة، فـي بـدايـة النظر صعب فهمها على القارئ الصغير فـشـرحـها الشيخ بقوله: و قال الأغنياء: إن الذي يدعو إليه نوح ليس بحق و ليس بـخير. لماذا؟ لأنّا جرّبنا أنا نحن السابقون في كل خير. لنا كل طيّب من الطعام، و لـنـا كـل جـميل من اللباس. و الناس في كلّ شيء لنا تبع. و أنّا رأينا أن الـخير لا يـخـطـئـنـا و لا يـجـاوزنـا فـي الـمدينة فلو كان هذا الدين خيرا لأتانا قبل هؤلاء المساكين.

إنـي لا أسـتـطـيع أن أذكر في هذه المقالة الوجيزة جميع تلك المواضيع التي تثبت ما ادعاه المؤلف من تضمين فوائد تفسيرية في ثنايا القصص فلذلك أقـتـصـر عـلى مثالين و أتطرّق إلى الدعوى الأخرى و هي تضمين فوائد تاريخية في سياق القصة.

في كثير من المواضع قام المؤلف بسرد خلفية تاريخية لآية قرآنية. فمثلا عـنـد بيان قصة يوسف عليه السلام أنه ذكر خلفية أسرته و كذلك عند بيان قصة

إبراهيم عليه السلام أنه ذكر أحوال أسرته و سفره إلى مكة و بيان زوجيه و ابنيه و بناء الكعبة، كما أنه حدّد مكان ديار شمود ببيان الحديث النبوي الشريف أنه في طريق الشام.

أما الأجوبة عن الأسئلة الخفية فهي أيضا في عدة مواضع. منها أنه يكتب في القصة: و أراد اللّه أن يكون هذا الرسول بشرا و أن يكون واحدا من الناس يعرفه الناس و يفهمون كلامه. فيتطرق السؤال إلى الذهن: لماذا يجب أن يكون الرسول بشرا من الإنسان؟ و لماذا لا يجوز أن يكون ملكا؟.... فيجيب الشيخ على ذلك السؤال المحتمل بقوله: و إذا كان الرسول ملكاً قال الناس: ما لنا و له. هو ملك و نحن بشر. نحن نأكل و نشرب. و لنا أهل و ذريّة. فكيف نعبد اللّه؟

و في مكان آخر يردّ الشيخ على سؤال مقدّر و هو لماذا لا يكون الرسول من الأغنياء ـ ردّ على هذا السؤال المحتمل بجواب مسكت: اللّه يعلم من يحمل رسالته.

و كذلك في قصة هود عليه السلام عندما ندّد اللّه ببناء قومه البيوت و القصور يجيب الشيخ على ذلك السؤال المحتمل أنه لماذا كان بناؤهم البيوت محلاً للاعتراض و الاستنكار، يجيب عليه بقوله: كانوا يبنون بيوتا و قصورا من غير حاجة. و الناس لا يجدون ما يأكلون و يلبسون. و كان الفقراء منهم لا يجدون بيتا يسكنون فيه. و بيوت الأغنياء لا ساكن فيها. ـــ فبهذه العبارة يثبت الشيخ أنهم كانو يبنون بيوتا بلا حاجة على سبيل الافتخار فقط.

و إنني كما كتبت، إن للمجموعة ثلاثة أجزاء. فالشيخ الندوي اهتم اهتمامه الكبير بالصغار في الجزأين الأولين و لم يقم بذلك الاهتمام في الجزء

الـثـالـث الـذي يـشـتـمل على سيرة خاتم النبيين صلى اللّه عليه وسلم فيقول هو بنفسه في مقدمة الجزء الثالث:

"لـم أتقيد في هذا الكتاب بالالتزامات التي التزمتها في الأجزاء الأولى من "قـصـص الـنـبـيـين لـلأطفال" من محاكاة أسلوب الأطفال و طبيعتهم و تكرار الـكـلـمـات و الـجـمـل، و سـهولة الالفاظ، و بسط القصة. فقد شبّ هؤلاء القراء الـصـغار عن طوقهم و تقدموا في ثقافتهم اللغوية و درجتهم العقلية، فاصبحوا قـادرين عـلـى اساغـة هـذا الـغذاء العلمي العقلي و التذوق لهذه القصة الرائعة لحياة أكبر إنسان و أشرف نبي".

فـكـان كـما قال المؤلف: فإن الجزء الثالث أرفع مستوى من الجزئين الاول و الـثـانـي من الـنـاحـيـة اللغوية، لا نجد فيه تكرارا و لا شرحا للكلمات الصعبة الغريبة و لا بسطا يناسب الطفل و يملّ الكبير.

و مـع كـل ذلـك إن الـشـيء الـذي يـلاحظه القارئ في الجزء الثالث ـ الذي يـشـتـمل على السيرة النبوية ـ عقيدته الصافية و إيمانه الراسخ و حبه للإسلام و الـمسلمين و حرصه على تعليم أبناء المسلمين بالتعاليم الإسلامية و تثقيفهم و تـربـيـتـهم بثقافة إيمانية و آداب قرآنية و حبّه للنبيّ و سنّته و محاولته أن تعم الأخلاق النبوية معشر المسلمين من خلال كتاباته، و ما إلى ذلك.

و فـي الاخير أن أختمه بمسك الختام: فانقل ما قاله علامة عصره مفسّر الـقـرآن و مـؤلـف "فـي ظـلال الـقرآن" الأستاذ الفاضل السيد سيد قطب الشهيد رحمه اللّه عن الشيخ و كتابه قصص النبيين:

"و لـقـد قـرأت الكثير من كتب الأطفال بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الـصـلاة و الـسـلام و شـاركـت فـي تأليف مجموعة القصص الديني للأطفال في

مـصـر مـأخـوذا كـذلـك من القرآن الكريم و لكني أشهد في غير مجاملة أن عمل السـيـد أبي الحسن في هذه القصـة التي بين يديّ جاء أكمل من هذا كله. و ذلك بـمـا احـتـوى من توجيهات دقيقة و إيضاحات كاشفة لمرامي القصة و حوادثها و مـواقـفـهـا و من تعليقات داخلة في ثنايا القصة، و كلّها توحى بحقائق إيمانية ذات خـطـر حـين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار. جزى اللّه السيد أبا الحسن و زاده توفيقاً".



دراسة في كتاب "المسلمون في الهند"

بقلم: د/ حبيب اللّه خان

إن العلامة أبا الحسن علي الحسني الندوي لقد بذّ و تخصص، في الدراسات الإسلامية و العربية و التاريخية و هو صغير، و أنجز فيها كتباً و أبحاثاً و دراساتٍ مهمةً بعدد هائل، إضافة إلى اهتمامه بأحوال المسلمين داخل الهند و خارجها، و بأمور الدعوة و تراث الأمة الذي تجنّد له طوال عمره باحثاً و منقّباً و محققاً حتى وافاه الأجل في ٣١ ديسمبر عام ١٩٩٩م، و في هذا التاريخ لقد فقدنا، و فقد العالم معنا، عالماً ربانياً، داعياً مخلصاً، كاتباً بارزاً، إنساناً عظيماً، أكرمه اللّه سبحانه و تعالى بشعبية كبيرة ليست في الهند فحسب و إنما في البلدان الإسلامية و العربية قاطبةً، نستشهد على ذلك بالانطباعات الواردة في رسائل العزاء، حيث وضعه الكُتّاب العرب في مصاف أئمة السلوك الإسلامي من أمثال الحسن البصري و الفضيل بن عياض و عبد القادر الجيلاني رحمهم اللّه رحمةً واسعةً(١)، و بالجملة أنه كان مصداقاً لقولِ الشاعرِ الإسلامي العلامة محمد إقبال رحمه اللّه تعالى:

پرے ہے چرخِ نیلی فام سے منزل مسلماں کی
ستارے جس کی گردِ راہ ہوں وہ کارواں تو ہے

و ما من شكٍ لقد كان العلامة رحمه اللّه تعالى قافلةً في رجل، ترك وراءه غباراً من النجوم و من هذه النجوم كتابه "المسلمون في الهند" الذي كُلِّفتُ أنا

بدراسته، و الآن أتجاسر على أن أقدّم أمامكم حصيلة الدراسة المتواضعة التي خرجتُ بها، لقد تناولتُ لغرضٍ هذه الدراسة، الطبعة الثالثة للكتابِ المذكور التي قدّم لها فضيلة الشيخ مولانا محمد رابع الندوي، أمين عام ندوة العلماء الحالي، أن هذه الطبعة خرجت مع بعض الإضافات الهامة التي لا توجد في الطبعتين السابقتين، يضمّ الكتاب بين دفّتيه ٢٧٠ صفحةً، و يحتوي على مقدمةٍ قيّمةٍ من المؤلف و ١٤ مقالةً متنوعةً، بعضها أحاديث المؤلف عن جوانب دينية و علمية و حضارية من حياة المسلمين التي أنيعت من إذاعة عموم الهند، و بعضها مقالات مهمة دبّجها المؤلف باللغة الأردية ثم عربّها فضيلة الشيخ المرحوم محمد الحسني، و بعضها كلمات مهمة ألقاها المؤلف بالمناسبات المختلفة و كل هذه المواضيع تمتّ إلى مسلمي الهند بصلةٍ وثيقةٍ، و خلال دراستي الاستقصائية لهذا الكتاب وجدتُ أن هذا الكتاب و لو أنه صغير في الحجم و لكنه كبير في المحتوى و المضمون، إن أهمّية أيّ كتابٍ و قيمته يتوقّف على لماذا وُضِعَ ذلك الكتاب؟ ثم ماذا كُتِب فيه؟ و بعد ذلك من وضعه؟

و إذا أردنا أن نقيّم هذا الكتاب بهذا المنظور، لوجدنا أن المؤلف المرحوم وضع هذا الكتاب لغرضٍ نبيلٍ، و ليَسُدّ به عوزا كبيرا لمَسَه في بداية الخمسينات من القرن الماضي، خلال جولته في الشرق الأوسط التي شملت المملكة العربية السعودية و مصر و السودان و سوريا و فلسطين، حيث كان يواجه أسئلةً مُدهشةً في كلّ حلّه وتَر حاله عن المسلمين الهنود، مثل كم عدد المسلمين في الهند؟ هل يوجد فيها المدارس و المساجد؟ و هل يوجد فيها من يعرف اللغة العربية و يُحسن قراءة القرآن الكريم؟ و غيرها من الأسئلة التي هزّت كيانه من الداخل، و أحزنته أيما حزنٍ، و أخيراً حملته على القيام بسدّ هذه الفجوة الإعلامية التي كانت تحول بين الشعبين، المؤلف بنفسه يقول: "إن من الجفاء أن تبقى هذه البلاد الغنية برجالها و أعمالها و ماضيها و حاضرها مجهولة عند أصدقائها في الخارج، مطمورة في صفحات التاريخ، لكنّ التبعة في ذلك على أبنائها قبل أن

تكون على أصدقائها، لأنهم فرّطوا في تقديم هذه البلاد، و ما تمتاز به من فضلٍ و علمٍ و حياةٍ و نشاطٍ، إلى الناطقين بلغة الضاد، و انطووا على نفوسهم و عاشوا في العزلة عن العالم"(٢).

و يقول المؤلف في مقدمة الكتاب: "أقدم إلى إخواني في الشرق العربي هذا الكتاب، يتحدث عن الهند، و عن إخوانهم فيها قديماً و حديثاً، و يتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية و الاجتماعية و الدينية، و عما أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها و ما أدخلوا عليها من إصلاحاتٍ و تجديداتٍ في مختلف نواحي الحياة، و عما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلامية، و ما زادوا إلى تراثها، و من نبع فيها من العلماء الكبار و المؤلفين العظام، و عن مظاهر نشاط المسلمين العلمي و الديني، و مراكزه الكبيرة في العصر الحاضر، و عن خصائص هذا الشعب و طبيعته و شخصيته و عن ماضيه و حاضره، و عن قضاياه الرئيسية و مشكلاتِه، عسى أن يكون حلقةً ـ ظلت مفقودةً زمناً طويلاً ـ في سلسلة تنوير الرأي العام و التزويد بالمعلومات الصحيحة، و في سبيل التعارف الإسلامي.

و يحملني على تقديم هذا الكتاب أيضاً أننا نلاحظ أن كثيراً من أقطاب السياسة و الثقافة و رجالات العالم الإسلامي و الشرق العربي يزورون هذه البلاد كل عام و يقضون فيها ما شاء اللّه من الوقت، و لا يهمّهم أن يتصلوا بإخوانهم المسلمين ـ الذين أسهموا في بناء الحضارة و الثقافة الإسلاميتين العربيتين بسخاءٍ و جدارةٍ ـ و أن يعرفوا أوضاعهم السياسية و الثقافية و الدينية و ما يمثّلونه أو يستطيعون أن يمثّلوه من دور في حضارة هذه البلاد و حضارة العالم، و ما لهم من قضايا و مشكلات يعالجونها، كأنها بلاد ـ كأوربا و اليابان ـ ليس فيها شعب مسلم، و ينصرفون إلى بلادهم لا يعرفون عن الشعب الإسلامي في الهند إلاّ معلومات ضئيلة سطحية مبعثرة، و قد يعرفون عن البوذيين

و الجينيين أكثر مما يعرفونه عن المسلمين الذين يشاركونهم في العقيدة و الثقافة و الحضارة، و الذين كانوا بناة الهند الجديدة و صانعيها، و الذين هم من أغنى شعوب العالم علماً و إنتاجاً و حكماً و إدارةً و آثاراً، و لا يزالون مصدر قوة و أملٍ(٣)" إن هذا الاقتباس إن يدلّ على شيء فإنه يدلّ على الشعور المرير الذي شعَرَ به المؤلف المرحوم قبل وضع هذا الكتاب و الحاجة الماسة التي حدت به إلى وضعه، أن هذا الكتاب الذي يتألف من ١٤ مقالة، و هي "دور المسلمين في حضارة الهند" و "تراث المسلمين العلمي في الهند، و عنايتهم باللغة العربية" و "نوابغ الشعب الهندي" و "تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية" و "الحضارة الإسلامية في الهند" و "الحركة العلمية القديمة في الهند، مراكزها و مزاياها" و "مزايا منهج التعليم القديم" و "مراكز العلم و الثقافة الإسلامية في الهند" و "الصوفية في الهند و تأثيرهم في المجتمع" و "المسلمون في الهند شعب ممتاز" و "الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند" و "مشكلات الشعب الإسلامي الهندي" و "شخصية الشعب المسلم" و "شعب يقرر و يعاهد اللّه" هذه هي المقالات القيمة التي يتألف منها الكتاب، تصلح فيه كلّ مقالةٍ أن تكون عنوان كتابٍ مستقلٍ عن الموضوع لو لم يختر المؤلف المرحوم أسلوب الإيجاز في تقديم المعلومات، و بعبارة أخرى أن هذا الكتاب يفتح ١٤ نافذةً على التاريخ الحضاري و الثقافي لمسلمي الهند، اسمحوا لي ـ أيها الأساتذة الكرام ـ أن أتجول معكم قليلاً لنرى بمنتهى الإيجاز، على بعض ما تفتح عليه هذه النوافذ؟

إن نافذة من هذه النوافذ تفتح على "دور المسلمين في حضارة الهند" و تقدم لنا معلومات قيّمة و موجزة عن دور المسلمين في إثراء الحضارة الهندية عن طريق تقديم أفكار جديدة لم تكن مألوفة في الهند، و هي فكرة التوحيد الإسلامي النقي و المساواة الإنسانية و الأخوة الإسلامية و احترام المرأة و الاعتراف بحقوقها و كرامتها و علوم جديدة و النظافة الزائدة و خدمات

طبية و إحياء صلة الهند بالعالم الخارجي و إيجاد الوحدة السياسية و إيجاد لغة رسمية و إدارية و تطوير لغات إقليمية و تجديد التجارة عن طريق البحار، هذه هي هبات الإسلام للشعب الهندي، و لقد اعترف بها برحاب الصدر المثقفون في كتبهم منهم: K. M. Panikkar في كتابه "A Survey of Indian History" و بانديت جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء الهند في كتابه "Discovery of India" و الدكتور برنير في "مذكرة رحلته" و غوستاف لوبون في كتابه "حضارة الهند" و Pattabhai Sita Ramyya في كلمته امام المؤتمر الهندي و W.W. Hunter في كتابه "Indian Muslims" و N. N. Mehta في كتابه "Indian Civilisation and Islam" و جادو ناته سركار في عدة مقالاته عن "الإسلام في الهند".

و الثانية تفتح على "تراث العلماء المسلمين في الهند و عنايتهم باللغة العربية" لقد سلّط المؤلف المرحوم الضوء الكاشف على قائمة طويلة من أمهات الكتب و مؤلفيها من العلماء المسلمين الهنود الذين قدّموا خدماتٍ جليلةً في حقل القرآن الكريم و الأحاديث النبوية الشريفة و الفقه و اللغة العربية و القواميس العربية، نذكر منهم البعض على سبيل المثال و هم الإمام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري و الشيخ محمد طاهر البتني و العلامة مرتضى البلغرامي و الشيخ عبد الحي اللكهنوي و مولانا أشرف علي التهانوي و العلامة عبد الحي الحسني و العلامة شبلي النعماني و العلامة السيد سليمان الندوي و الشيخ مناظر حسن الكيلاني و الشيخ حميد الدين الفراهي و مولانا فيض الحسن السهارن بوري حتى الدكتور عبد العزيز الميمني، كما ذكر بإيجاز دور المجلات العربية الصادرة من الهند و منها مجلة البيان و الجامعة و الضياء و البعث الإسلامي و الرائد و صوت الأمة و الكفاح و الدعوة و دعوة الحق و الداعي وغيرها من المجلات.

و على هذا الغرار تحتوي النوافذ الأخرى أيضا على معلومات وفيرة لا غنىً عنها لكل من يريد الوقوف على تاريخ المسلمين في الهند، و لا يفوتني أن أنكر أن الذين يطالعون مؤلفات العلامة المرحوم يدركون جيداً بأنه أولى اهتماماً كبيراً بحضارة المسلمين الهنود و ثقافتهم و آدابهم و مؤسساتهم العلمية و نشاطاتهم الدعوية و إنتاجاتهم الأدبية، و وضع عدداً وجيهاً من المؤلفات حول هذا الموضوع و السير الذاتية، و لولا جهوده لما عرف الجيل الحالي الكثير عن أسلافه و مآثرهم الخالدة، فإن كتابه "المسلمون في الهند" يُعدّ جزءا مهماً من هذه السلسلة، جمع فيه المؤلف كل ما أراد أن يقدمه إلى العالم العربي بأسلوب علمي بحت، و مما يزيد من قيمة الكتاب هو حرصه على أن يعزو كل نصٍ أو فكرةٍ إلى المصدر الذي استقى منه ليكون الكتاب مصوراً للأمانة العلمية، و حرصه الشديد على انتهاج أسلوب الإيجاز السليم الذي صعبٌ للغاية و لا يمارسه أحدٌ سوى الكتاب المقتدرين، ذات مرةٍ قال قائل لمولانا أبي الكلام آزاد، في هذه الأيام نقرأ افتتاحيات طويلة في مجلة الهلال، فرد عليه مولانا قائلاً: "لا أجد وقتاً كافياً لاكتبها بالإيجاز" و هذا هو الإيجاز الذي اتخذ منه الشيخ المرحوم أسلوباً لكتابه "المسلمون في الهند" الذي لقي قبولاً واسعاً لدى الأوساط العلمية في البلدان العربية، و تُرجم إلى اللغات العديدة منها الإنجليزية و الاردية، فإنني لا أعتبر هذا الكتاب هدية قيّمة من الشيخ المرحوم للعالم العربي بل أعتبره فرض الكفاية الذي أدّاه خيرُ أنباء الهند في العصر الحاضر، جزاه الله عنّا و عن المسلمين جميعاً خير جزاء، و أسكنه في فصيح جنّاته.

المراجع:

١ ـ إمام محمد إمام/البعث الإسلامي عدد ممتاز ٤ ـ ٥ ـ ٦ المجلد ٤٥/ ندوة العلماء.

٢ ـ سماحة العلامة أبو الحسن علي الندوي/ المسلمون في الهند ص ٨

٣ ـ ص ١١ ـ ١٢



دراســـة تحليلية "لروائع إقبال" للشيـــخ النـــدوي

بقلم: د/ عبد الماجد القاضي

كان الشيخ الندوي أنسب من يتصدى لمهمة ترجمة إقبال إلى العربية لعلو كـعبـه فـي الآداب الـعـربية و رسوخ قدمه في الفارسية و آدابها و طول باعه في الـثـقـافـة الأدبيـة و إطـلاعه المباشر على جل مصادر إقبال و الانسجام الفكري بينه و بين الشاعر.

تـربـى الشيخ الندوي في بيئة الثقافة و الأدب و المعرفة و انحدر من أسرة عـريقـة ذات جـذور ضـاربة في العلم و الأدب حيث كان والده العلامة عبد الحي الـحـسـني صاحب "الإعلام بما في الهند من أعلام" أديباً و مؤرخاً و عالماً كبيراً و أمـه كـانـت سيدة ذات فضل و ثقافة عالية و كانت شاعرة قديرة صاحبة ديوان باللغة الأردية. و بفضل هذا الجو التربوي الملايم نشأ على حب العلم و تطلع إلى الأدب و الـمـعرفة في وقت مبكر جدا، و انطبعت على مرآة قلبه الصافية أناشيد إقـبـال الـتـي تـلـهـف إلـيـهـا صغيرا و وعاهاً كبيرا و وجد نفسه مدفوعا إلى هذا الـشـاعـر الـعـبـقري و مولعاً بشخصيته الفذة، و شاءت الأقدار أن يحظى بلقياه مرتين و ينظر إليه و يسمع منه و بذلك كان سنده متصلاً و حديثه موصولا به.

أقـبـل الـشـيـخ الندوي على إقبال لميزاته المتفردة التي اكسبت شخصيته قـوة و جـانبـيـة خـاصة منها إيمانه الراسخ بخلود الرسالة المحمدية و صلاحها المطلق عن قيود الزمان و المكان. يقول الشيخ عن صلته بإقبال:

"إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو الطموح و الحب و الإيمان، و قد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره و في رسالته أعظم مما تجلى في شعر مـعـاصـر و رائـيـت نفسي قد طبعت على الطموح و الحب و الإيمان و هي تندفع انـدفـاعـا قـويـا إلـى كل أدب و رسالة يبعثان الطموح و سمو النفس و بعد النظر و الـحـرص عـلـى سـيـادة الإسلام و تـسـخير هذا يكون لصالحه و السيطرة على الـنـفـس و الآفـاق و يـغـذيـان الـحـب و العاطفة و يبعثان الإيمان باللّه و الإيمان بـمـحـمـد صلى اللّه عليه و سلم و بعبقرية سيرته و خلود رسالته و عموم إمامته للأجيال البشرية كلها" (١)

و نـجـد آثـار هـذا الإعـجـاب فـي غضون مؤلفاته حيث يكثر الإستشهاد به و لاسيما فيما يتعلق بالحضارة الغربية و الفلسفات المادية و المذاهب الفكرية الحديثة.

منهج العلامة الندوي في الترجمة:

تـصـفـح الشيخ الندوي دواوين إقبال الأردية و الفارسية ليختار منها باقات يقدمها إلى العرب، و أراد أن ينتقي من بنات فكره أقواها صلة بالعرب و ألصقها علاقة بوحي المواقف التي وقفتها الأمة العربية في ماضيها و حاضرها. ليتسنى له استنهاض هممهم و تذكيرهم بالدور المرتقب منهم.

و سـار الـشـيـخ مـنـهـجا جديدا في ترجمة شعر إقبال و فكره فاستقاهما و وعـاهـمـا حـتـى حلاّ في سويداء قلبه و قرارة وجدانه، و بدأ صياغة المفاهيم

الفكرية و الصور الفنية بأسلوبه الأدبي القوى، و احتفظ لنفسه حق التصرف في الترتيب و التنسيق حيث يتم نقل المضمون الشعري و الصورة الفنية بأقرب عبارة و ألطف إشارة، و ربما تطلب النص تفسيراً لبعض الرموز التاريخية فيتبسط الشيخ فيها ليتقشع غموضها و تتضح دلالتها.

و على هذه الشاكلة تناول الوحدات الشعرية بصفة مستقلة و صاغها حسب هذه الخطة بدل أن يقابل النص بالنص و يتبع منهج الترجمة المتقيدة، فجاءت المواضيع مبوبة و مترابطة بنظام و منطقية و منهجية و متماسكة من النواحي الفكرية و الفنية، و زاد الأسلوب روعة و قوة أنه يسير على خط واحد مع إقبال على المستويين الشعوري و العاطفي و يشاطره همومه و مشاعره تجاه القضايا المطروحة على ساحة الشعر و الفن و لذلك نجد أن البناء الفني في "روائع إقبال" جاء على نمط آخر حيث تزدوج فيه أصالة العواطف مع ما تنعكس فيه بواعث الشوق التي سجلها المترجم عفو البديهة و يمكن القول بأن هذه الروائع جاءت وليدة تجربتين، التجربة الفنية الأولى التي مرّ بها إقبال و التجربة الشعورية الثانية التي عاشها المترجم خلال عملية الصياغة الثانية.

و يكاد يكون نثره الفني في "الروائع" أشعر من كثير من المنظومات الشعرية لقوته و جريانه مع السجية، و نرى المترجم هنا يزيح أستار اللفظ و يخوض غمار المعاني ليصل إلى ماوراء طبيعة اللفظ فيستلهم مباشرة من مصادر الشعور و أغوار التجارب التي لا يستطيع اللفظ أن يستوعبها و يصورها بدقة لأنه إنما يُلمع إليها و لا يتعدى من الإشارة الخاطفة إلى الدلالة الواضحة. و هنا يحصل الانسجام على محيط التجربة الشعورية و تتصل أسباب المترجم بإقبال على مستوى المشاعر فينفعل معها و يتفاعل و تتلاشى الحدود التي تفصل بين القدر الذي استوحاه من إقبال و بين ما تلقاه شعوره من وحي

الـخـواطـر و الـمـشاعر الذاتية، و في نهاية العملية يأتي هذا المزيج الذي يمتاز بـالأصالة الذاتية جنباً بجنب مع الموضوعية التي تمثل في نقل شعر إقبال بدقة و أمـانـة. و هـذه الـعـمـلية الشبه الكيمياوية على المستوى الشعوري ـ إن صح الـتـعـبـيـر ـ تـكـاد تـخـرج هـذا العمل الفني من زمرة أعمال الترجمة إلى فئة الإنتاجات الإبداعية.

تنقسم محتويات "روائع إقبال" إلى ثلاثة أنواع:

أولاً : الـمـقـالات الـتـي تـنـاولـت شخصية إقبال بالبحث و الدراسة بصفة عـمـومـيـة، و اشـتـمـلـت عـلـى الجوانب البارزة من حياته و آثاره و الإنطباعات الشخصية عنه.

و هـي : (١) الـعـوامـل الـتي كونت شخصية محمد إقبال (٢) شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال (٣) صلتي بمحمد إقبال.

ثانياً: الـدراسات النظرية، و هي أبحاث علمية و أدبية تتركز حول نقاط مـعـيـنـة من مـيزات شعر إقبال و آراءه و نظرياته، و التزم فيها المؤلف بالجانب الموضوعي حيث جمع من شتات شعره ما يدور حول تلك النقاط المعينة بالذات، و انـتـقى من دواوينه القطعات الشعرية التي تؤلف وحدة موضوعية خاصة، و قد تـرجـم هـذه الـقـطـعـات لـيـستشهد بها في إبراز جوانب فكرية من شعر إقبال، و جـاءت فـي ثـنـايـا الـحـديث سرداً و استدلالاً، و يغلب على هذه الأبحاث الطابع الأدبي و الإنشائي. و من هذه الأبحاث:

١ ـ الإنـسـان الـكـامـل فـي نظر محمد إقبال ٢ ـ مكان المسلم في الوجود ٣ ـ نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري و مراكزه ٤ ـ الحضارة الغربية و التربية الغربية ٥ ـ الحقائق التاريخية في شعر إقبال.

ثالثاً: سائر المواضيع ماعدا الدراسات المذكورة آنفاً عبارة عن تراجم وحدات شعرية متسلسلة و منظومات مستقلة، و تمتاز هذه التراجم بالوضوح و التسلسل الموضوعي و التحرر من التعقيد و الإلتواء اللذان نشاهدهما في كثير من تراجم الشعر، و تكشف دراستها التحليلية المقارنة أن نجاحها يعود إلى سببين:

أولاً : التزم الشيخ الندوي بتمهيد الجو الملائم و التوطية الوجدانية التي تضمن خلق الظروف المواتية للاستجابة الفنية فوضع التراجم في سياقها الصحيح بعد مداخل الحديث الضافية و استعراض الخلفيات. و قد كانت لهذا الاسلوب آثار بعيدة المدى في إعادة الأمور إلى نصابها و إتاحة فرص التأمل و التذوق الفني.

ثانيا: اختار الشيخ خطة متداخلة في الترجمة فجمع بين الترجمة الوصفية غير المباشرة و بين الترجمة المباشرة، و نعني بالترجمة الوصفية أو غير المباشرة ما يتم فيها سرد الحديث عرضاً و حكاية بلسان المترجم و على غرار الرواية بالمعنى، و الترجمة الوصفية تتيح للمترجم فرصة التصرف و تفسح له مجال الحرية في التعبير. و قد تجلى ذكاءه و توفيقه في هذا الأسلوب غير المباشر، و يبدو أنه اختار ذلك الأسلوب في قطعات "الروائع" التي لا تتابَع في تدفقها و لا يمكن ملاحقتها لسرعتها الجارفة و قوتها العارمة، حيث يكون المشهد الفني ـ لشدة الحركة ـ أشبه شيء برعد و خطفة و برق و عند ذلك لا يكون توخي مسايرة إقبال و مجاراته قرارا مأمون العواقب و اللجوء إلى الوصف و التعبير غير المباشر أنسب و أوفق.

نقرأ على سبيل المثال قصيدة إقبال التي دبجها بعنوان "ساقى نامه":(٢)

هوا خیمہ زن کاروانِ بہار | اِرم بن گیا دامنِ کوہسار
گُل و نرگس و سوسن و نسترن | شہیدِ ازل لالہ خونیں کفن
جہاں چھپ گیا پردۂ رنگ میں | لہو کی ہے گردش رگِ سنگ میں
فضا نیلی نیلی، ہوا میں سرور | ٹھہرتے نہیں آشیاں میں طیور
وہ جوئے کہستاں اُچکتی ہوئی | اٹکتی، لچکتی، سرکتی ہوئی
اُچھلتی پھسلتی سنبھلتی ہوئی | بڑے پیچ کھا کر نکلتی ہوئی
رُکے جب تو سِل چیر دیتی ہے یہ | پہاڑوں کے دل چیر دیتی ہے یہ
ذرا دیکھ اے ساقیِ لالہ فام | سُناتی ہے یہ زندگی کا پیام
پلادے مجھے وہ مئے پردہ سوز | کہ آتی نہیں فصلِ گُل روز روز
وہ مئے جس سے روشن ضمیرِ حیات | وہ مئے جس سے ہے مستیِ کائنات
وہ مئے جس میں ہے سوز و سازِ ازل | وہ مئے جس سے کھلتا ہے رازِ ازل
اُٹھا ساقیا پردہ اس راز سے | لڑا دے ممولے کو شہباز سے

و ترجمها الشيخ الندوي بعنوان "حديث الربيع" يقول:

"خيم السلطان الربيع، و انتشرت جنوده في رحاب الصحراء و أودية الجبال و قامت دولة الزهور و الرياحين و دبت الحياة إلى الصخرات و الحجارة حتى كادت تنطق و تنطلق، و غشيت العالم سحابة من المرح و السرور، حتى أبت الطيور أن تستقر في أوكارها مرحاً و انطلقت عيون الجبال تميس و تنساب كالحيات في الصعيد، تدب أحياناً و تجري برفق و هدوء، و تتدفق أخرى و تجري بسرعة و قوة، و إذا حبسها حابس فلقت الصخور و الهضبات، و شقة طريقها إلى الأمام و إنها بخريرها الدائم تغنى نشيد الحياة و تردد حقائقها" و يقول:

"يصغي محمد إقبال ـ الشاعر الحكيم ـ إلى هذا النشيد، و يرى كيف تتلون هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال و كيف تنعطف و تتعرج، و تتداول الرفق و القوة، و هي مع ذلك لا تفقد حقيقتها و حياتها، متسلسلة في الفيضان، مستمرة في الجريان و يرى فيها صورة للحياة التي تجري باستمرار و تظهر في ادوار و أطوار، و تلتزم الحركة و التطور، فما لها من قرار، و يستلهم الشاعر الحكيم من مناظر الربيع التي فتقت قريحته و أهاجت شاعريته، و من الدروس التي يلقيها نهر الحياة الفياض، معاني حكيمة، يهديها إلى الجيل الإسلامي الجديد، الذي هو مناط آماله، و يهيئه لاستقبال العصر الجديد الذي ظهرت تباشيره"(٣)

و قد جمع المؤلف بين الأسلوبين المباشر و غير المباشر في معظم التراجم، غير أنه تتجلى براعة يراعه و سيلانه أكثر و أقوى في الأسلوب الوصفي حيث يرسله على سجيته فيخلق بنثره الفني جواً شعرياً.

الخصائص الأسلوبية العامة:

تمتاز ترجمة الشيخ الندوي بالدقة و تتغلغل إلى أعماق المعاني، و يتسم أسلوبه بالطابع الأدبي الرائع فيه حيوية و حركة و إثارة و رنين و ترتج هذه الأصداء في محيط القلب و يلج دويها في إجاشة العواطف، و تدق أبواب الوجدان بصفة متتابعة و تلقى الحظ الأوفر من الاستجابة و التاثير.

و الدكتور صلاح الدين الذي أعد أطروحته للدكتوراه "حول الإتجاه الإسلامي في شعر إقبال" في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر يقول عن ترجمة الشيخ الندوي:

"و الترجمة التي وجدتها طبق الأصل، قام بها السيد أبو الحسن الحسني الندوي فهو أستاذنا و أستاذ أساتذتنا الكرام، و له من المنزلة في قلوبنا ما

يـجـعـلنا نجله و نقدره و نـحترم الترجمة التي قام بها، و تلك الترجمة نشرت في شـكـل كـتـاب بـعـنـوان "روائع إقبال" و لهذا الكتاب مكانة مرموقة في الأوساط الادبيـة و خير دليل على أن المؤلف كان موفقاً في فهم شعر إقبال و ترجمته هو قـول الـدكـتـور جـاويـد إقـبال ــ إبن الشاعر محمد اقبال ــ عن هذا الكتاب "لقد عـرض الـمـؤلف في كتابه جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوب اكبر ظني انه يوافق شعور محمد إقبال نفسه أو كان يؤثره لشرح أفكاره"(٤).

هوامش:

١ ـ روائع اقبال: ص ١٢

٢ ـ بال جبريل ص: ٣٤٣

٣ ـ روائع اقبال: ص ١٨٢ ــ ١٨٣

٤ ـ د/ صلاح الدين الاتجاه الإسلامي، ص ١٦



السيـــرة النبويـــة
لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

بقلم: محمد فهيم أختر الندوي

لـو سـئـل الـمـرء الـمـسـلم عن أحب موضوعاته لديه و آثرها إطلاقاً لكان جـوابـه "السيرة النبوية" على صاحبها ألف ألف تحية، و ذلك لأن السيرة النبوية هـي الأسوة الـحـسـنـة لـمن يـرجـو الـلّـه و الـيوم الآخر، و هي ثاني المصدرين الـتـشريعين و أحد الأمرين الذين لن يضل من يتمسك بهما، و السيرة النبوية هي الـوحـي غـيـر الـمتلو و النموذج العملي للإسلام، و هي المدرسة الأولى و الأخيرة التي يتربى فيها كل مسلم.

و كـان من فـضـل اللّه على أمة صاحب هذه السيرة الطاهرة أن قيض لها من لـم يـتـركـوا من سـيـرتـه صـلـى الـلّـه عـليه وسلم صغيرها و كبيرها دقيقها و جـلـيـلـهـا إلّا و وعتها قلوبهم و حفظتها صدورهم و تناقلتا ألسنتهم، حتى دونت فـي بـطـون الكتب، و انطلاقا من أهمية هذه السيرة الفذة اعتنى بها المسلمون جـيـلاً بـعـد جـيـل فـي شرق الأرض و غربها و في لغات العالم قديمها و حديثها، و تناولها الكتاب بجوانبها المختلفة و بأساليب شتى، حتى أصبحت المؤلفات في السيرة النبوية تفوق العد و الحصر.

إن الـكـاتـب الـمـسـلـم يرى من سعادة نفسه و حسن حظه أن ينخرط في الـسـلـك الـذَهَـبي لـمـؤلفي السيرة النبوية، و هذا الدافع في حد ذاته لمبرر كاف

لإسداء كتاب جديد إلى مكتبة السيرة النبوية، و لكن الباحث المتمرن على مواضيع السيرة مثل شخصية العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي لم يكن يكفيه هذا الدافع الديني الوحيد فحسب عندما خاض هذا الموضوع الحبيب الأثير و المهم الخطير.

يعرف كل من له إلمام بحياة الشيخ الندوي أنه كان في غاية من الحب لذات النبي الكريم صلى اللّه عليه وسلم، فإنه كان فتح عينيه و عاش صباه في جو الحب النبوي و دراسة السيرة النبوية، ثم درس و قرأ أكثر و أفضل ما كتب في السيرة، و عندما أمسك قلمه و بدأ يراعه يدبج خواطره و أفكاره، فكانت مادة السيرة و روحها سائرة في مقالاته و محاضراته و مؤلفاته، يستهدى فيها بهديها و يستضيء بنورها و يستوحى من وحيها، يجعل منها سَداها و لحمتها و جوهرها و قشرها، إنه يمهد "الطريق إلى المدينة" و يسلكها بكل شوقٍ و حب و تقدير و أدب، إلى مدينة "النبي الخاتم"، و هو يحمل بين جنبيه قلباً استقر الحب النبوي في سويدائه و فكراً تغلغلت الرسالة النبوية في أحشائه.

بالرغم من هذا الاقتراب إلى موضوع السيرة النبوية لم يكن الشيخ الندوي يرغب في تأليف السيرة النبوية بحكم الدافع الديني المحض، بل كان يعتبره وفق خصائصه و مواصفاته تحقيق حاجة عصرية و سد فجوة في الموضوع.

استخراجاً لهذه المواصفات نتوقف على مقدمة الشيخ الندوي باعتبارها مدخلا لما أراد عرضه في مؤلفه.

إن الشيخ الندوي في رحلته لدراسة السيرة النبوية بدأ يشعر بمواصفات يعتبرها مرتكزات أساسية و سمات خاصة لأي مؤلف على السيرة النبوية، و الشيخ يعيش في القرن العشرين، و لكل عصر أسلوبه و طبيعته و اقتضاءاته

و تحدياته، و من هنا بدأ يشعر بمسيس الحاجة إلى كتاب فيها يتصف بمواصفاته الذهنية، و لما تناول الموضوع فكأنه قدم كتابا متصفاً بتلك المواصفات و متحلياً بتلك الخصائص، و يمكن لنا تصنيف هذه المواصفات إلى قسمين، قسم يتعلق بانتقاء مادة السيرة، و قسم منها عن أسلوب عرضها و ترتيبها، و فيما يلي نسلط بعض الأضواء على القسمين من المواصفات:

القسم الأول: انتقاء مادة السيرة

في انتقاء مادة السيرة ركز الشيخ الندوي على المواصفات التالية:

١ ـ الاعتماد على مصادر السيرة الاولى من كتب السيرة و الحديث، فكان أكثر اعتماده على كتب الصحاح و سيرة ابن هشام و زاد المعاد لإبن قيم الجوزية و السيرة النبوية لإبن كثير، و على أصح ما كتب و ألف في هذا الموضوع. (المقدمة ص ١٣)

٢ ـ التطابق بين مفردات السيرة و بين ما جاء في القرآن الكريم و السنة الصحيحة، لأن القرآن و السنة الصحيحة هما المصدران الصادقان، و هما المعياران للأخذ و الرد، فراعى هذا التطابق و لم يتبنى أسلوب حشد المعلومات في غير نقد و تمحيص. (المقدمة ص٦)

٣ ـ التمشي مع المقررات الدينية من غير إخضاع السيرة للأهواء و الأغراض و للنظريات العلمية المتغيرة صباح مساء و للشبه و الاعتراضات التي يدفع إليها التعصب الديني أو الجهل العلمي أو الغرض السياسي، و من غير تقليد للاتجاهات العصرية و خضوع لكتابات المستشرقين و أقوال المشككين. (المقدمة ص ٧)

٤ ـ اعـتـمـاد زايـد عـلـى النصوص الحرفية للحوادث و الوقائع من السيرة و تـركها تنطق بلسانها بما كان فعلا لا بما يراد لها أن يكون، و ذلك لأن النصوص الـتـاريـخـيـة لـلـسـيـرة عـلـى قدر كبير من الاستيعاب لدقائق الحياة و تفاصيلها و مـلامـحـهـا و قسماتها، فليس الامر فيها من الصعوبة و الغموض و الافتراض و القياس كما هو في سير الآخرين، و لذلك يقول الشيخ الندوي في أسلوبه الرائع: "السيرة النبوية غنية بجمالها و روعتها و سحرها على النفوس و العقول و وقعها منها موقع القبول من شفاعة شافع و تدليل حكيم و براعة أديب، و جل ما يحتاج إلـيـه الـمـؤلف هو جمال العرض و حسن الترتيب و جودة التلخيص". (المقدمة ص٧)

٥ ـ الاسـتـفـادة مـمـا كـتـب في هذا الموضوع في العصر القديم و العصر الـحـديـث، و من الـمـراجـع الأجـنـبـيـة التي توضح الكثير من السيرة و التاريخ الـمـعـاصـر و تـلـقـى ضـوءا على الحكومات و المجتمعات المعاصر، ليأتي هذا الـكـتـاب جـامـعـا لـخـيـر ما قدمته المصادر القديمة من روايات موثقة أصيلة و لأحـسـن مـا طـرحـتـه الـدراسـات الـحـديثة من تحاليل و مواقف و استنتاجات. (الـمـقـدمـة ص ٨، ١٣، و مـقـال الـدكـتـور عماد الدين الخليل عن السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي).

و لإدراك حـجـم الـمـراجـع الـقـديـمـة و الحديثة التي استفاد منها المؤلف يكفي إلقاء نظرة على قائمة المراجع العربية و الأجنبية الملحقة بآخر الكتاب، هـذه الـنـظـرة تكشف لنا عن أن المراجع العربية و الأردية المختارة يبلغ عددها إلـى مـاة و عشرين كتابا، و هي شاملة لموضوعات القرآن و كتب الحديث و كتب الـتـفسير و كتب السيرة النبوية و كتب التاريخ و التراجم و الأخبار و تاريخ البلاد و الأمـم و كـتـب الـشريعة الإسلامية و الأديان و المذاهب و كتب المعاجم و كتب

الادب و المحاضرات و الموسوعات، كما يبلغ عدد المراجع الأجنبية باللغات الإنجليزية و الفرنسية إلى عشرين كتابا. (٤٦٤ ـ ٤٧٢ ص).

القسم الثاني: أسلوب عرضها و ترتيبها

في أسلوب عرضها و ترتيبها و إخراجها في حلتها القشبية نرى خصائص تاليف الشيخ الندوي كما يلي:

١ ـ الكتابة في أسلوب عصري: و لعل هذا الوصف كان من أعلى دوافع التاليف على السيرة النبوية للشيخ الندوي، لما كان يرى من مسيس الحاجة إلى كتاب روعيت فيه عقلية الجيل الجديد و ذوقه و مستوى فهمه و نفسيته، و ما جد من طلبات و حاجات و أسلوب كتابي و منهج علمي، (المقدمة ص١٣).

و تطبيقاً لعناصر الأسلوب الكتابي الحديد ركز المؤلف على عرض وقائع السيرة بلغة سهلة واضحة و بأسلوب مؤثر رشيق و ترتيب زمني حسن، و ذكر محتويات الوقائع بالاستفادة من القديم الأصيل و الحديث المقارن، و من الكشوف الحديثة و الخرائط و المعالم الجغرافية، ثم التزم فيها بتوثيق المعلومات من تثبيت المصادر و المراجع بأجزائها و صفحاتها و أحيانا بطبعاتها، كما اعتنى بشرح المفردات و تحديد الاعلام.

٢ـ ترتيب مضامينه بالتسلسل الزمني للأحداث، الامر الذي يعرض أمام القاري حياة صاحب السيرة منذ ولادته و نشأته و مراحل وقائعه و أحداثه بحيث تتجلى الحياة النبوية العطرة متمثلة في صباح مساء بالترتيب الطبيعي.

٣ ـ تصوير الظروف التي تلابس وقائع السيرة، لأن كثيراً من الحوادث التي يمر بها القاريء في السيرة لا يفهمها إلا إذا عرف الظروف الملابسة لها و طبيعة

أرضـهـا و جـغـرافـيـتـهـا و أعـرافها و المعاملات الشائعة هناك، و لأن معطيات السـيـرة تـتحلى بالبُعدين المحلي و العالمي معاً، فإنها كما تتجاوز حدود الزمن و الـمكان فهي كذلك وليدة زمنها و جغرافيتها و ابنة بيئتها، و قد نجد المؤلف أنه خـصص مساحة واسعة لإلقاء الضوء على البيئة المعاصرة من العصر الجاهلي إلـى مـاقبل البعثة و بعدها في مكة و المدينة، كما لم يفته التعريف بالحكومات الـمعاصرة و البلاد المجاورة عندما خاطب الرسول صلى اللّه عليه وسلم الملوك و الأمراء و دعاهم إلى الإيمان برسالته. (المقدمة ص٩، ١٠)

٤ ـ الـجـمـع بين الـجـانـب العلمي و الجانب التربوي البلاغي، لأن السيرة النبوية ليست مجرد معلومات جافة فحسب، بل هي تشتمل على أكبر مقدار من الـقـطـع الـنـابـضـة الـدافقة بالحيوية و التأثير، لتلعب دورها في تربية القارىء و تـمـكـيـنـه من الـتـأسـي بـأسـوة صاحب السيرة المباركة، و لاشك أن الضرورة التربوية من أهم أهداف كتابة السيرة النبوية. (المقدمة ص١٤)

٥ ـ الـجمع بين العقل و العاطفة، فلا يكفى أن يكون كاتب السيرة يتعامل من الـخـارج بـالـبـحـث العلمي الجاف و النقد التحليلي المجرد، بدون المشاركة الـوجـدانـيـة و الانـفـعـال بـها و تذوقها، لأن الحياة النبوية ليست تجربة وضعية مـحـضـة، يتحتم لفهمها الانفصال منها، بل هي بالعكس لا يمكن إدراك أغوارها و الاقـتـراب من صـمـيـم أحداثها إلّا بالمعايشة الوجدانية معها و الاندماج فيها، و قد جمع الشيخ الندوي بين صفحات كتابه و جنبات قلبه. (المقدمة ص٧)

٦ ـ التقديم إلى المسلم و غير المسلم: من المعلوم أن صاحب السيرة كان مـرسلاً إلى الناس كافة و رحمة للعالمين، فليست سيرته أسوة و هدياً للمسلمين فـقط، بل هي كذلك لغيرهم ايضاً، و كما يقول الندوي: "ليس حق غيرِ المسلمين

علـى هـذه الـسـيـرة و حظهم فيها أقل من حق المسلمين الذين نشاوا في ظلال الإيـمـان و الإسـلام، و الـدواء حـاجة المريض أكثر من حاجة السليم، و القنطرة يـحـتـاج إلـيـهـا من يـعـيـش وراء الـنـهر أكثر مما يحتاج إليها من يعيش دونه" (المقدمة ص٨)

و نـحـن نـرى أن الـكـتـاب بـمـضـمونه العالي و محتواه السامي و بأسلوبه الـعـصـري و منهجه العلمي جدير بتقديمه إلى كل مثقف منصف من المسلمين و غير المسلمين.

مـتـصـفـاً بـهـذه المواصفات و متحلياً بهذه الخصائص و متبوءاً المكانة الـلائقة المرموقة جاء الكتاب "السيرة النبوية" في حوالي خمسماة صفحة أول مـرة فـي عـام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ثـم تـوالـت بـعـدها الطبعات، و ترجمت إلى اللغة الأردويـة و اللغة الانجليزية و غيرها من اللغات، و الكتاب كما نال قبولاً و حظوة لـدى الأوسـاط الـعـلمية كان حبيباً إلى مؤلفه الراحل أيضاً، يقول استاذنا الشيخ الـبـرفـيـسـور سـيد محمد إجتباء الندوي: "سألت سماحة الشيخ رحمه اللّه قبل وفاته بأربع و عشرين يوماً، و كان إذ ذاك في حرم ندوة العلماء (لكهنؤ) الهند: "أي مـؤلـفـاتـكـم أحـب إلـى جـنـابـكـم"، فـقال: "السيرة النبوية، و النبوة و الأنبياء، و الـطـريق إلى المدينة، و الأركان الأربعة، و ماذا خسر العالم". (أبو الحسن علي الندوي، ص١٠٦، طبع دار القلم).



كلمة التحرير:

هذا العدد الخاص من ثقافة الهند بنكرى فقيد الأمة الهندية و ضالة العالم الإسلامي الأستاذ العلامة الشيخ سيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ تغمده المولى برحمات غواد رائحات ـ بين أيديكم أيها القراء الكرام، كانت و لا تزال نكرياته العطرة أمانة في أقلام الكتاب و المترجمين من معاصريه و تلاميذه البارزين فلم يضنّوا في اداء هذه الأمانة إلى الجيل المعاصر و الأجيال القادمة، فجزاهم اللّه عنا خير الجزاء، فقد صدرت عشرات من الأعداد الخاصة للمجلات و الجرائد و الدوريات المحلية و الدولية تنكاراً لتلك الشخصية الفذة، ليس في لغة واحدة بل في عديد من اللغات العالمية مثل العربية و الأردية و الهندية و الانكليزية و التركية و الفارسية و ما إلى نلك.

إن الأستاذ أبا الحسن الندوي رحمه اللّه كان من خيرة الأبناء البارين الذين أنجبتهم الهند في مطلع القرن العشرين، أثرت شخصيته في كافة المجامع العلمية و الثقافية بفضل عطاءاته النبيلة القيمة، استخدم لسانه و قلمه دائماً في صالح الإنسانية ببالغ من شعور المسئولية و الأمانة و كف اللسان و القلم عن كل ما لا يعني و لا يفيد. كان يحمل في طياته قلباً خاشعاً نكياً و حسّاساً يتفاعل و يتاثر بكل ما تتعرض له الإنسانية في مشارق الأرض و مغاربها فكان يرضى و يرتاح بمنجزاتها كما يتألم و يحزن لمآسيها و مراسبها إنه رأى الدنيا و تعامل معها كمزرعة للآخرة، لم يقدر لزخارفها ـ و لو لحظةً ـ اغراء نفسه إليها فاستغنى عن زهوها و بهوها تمام الإستغناء حتى ألقت الدنيا بنفسها و نفيسها في قدميه و لكنه عاش فيها كغريب أو عابر سبيل و عمل

لدنياه كانه يعيش ابدا و عمل لآخرته كانه يموت غداً، أمطرت عليه الجوائز الغالية المحتوية على آلاف من الدنانير و الدولارات في مملكة الأردن الهاشمية و المملكة العربية السعودية و أبوظبي و دبي و الشارقة و بروناي، و لكن لم يصل فلس منها إلى بيته و أسرته بل و قسمها بين المعاهد و الجماعات التي تهتم بتحفيظ القرآن الكريم و نشر الدعوة الإسلامية و تحقيق المصالح الشعبية الاجتماعية، تشرف باستقباله و الترحيب به شرق الأرض و غربها و شمالها و جنوبها كما سعد العالم العربي و الإسلامي قريبه و بعيده باستضافته المثالية و شهد اهتمامه باعلاء كلمة الحق عند سلطان جائر أو شعب حائر، كأنه اكتشف من جديد عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين إذ كان العالم في غمرة من هذا السر المكنون و دعا الناس إلى اقتناء ميزات إنسانية حيث وجدت و مهما تيسرت و لم يفرق في هذا الأمر بين الشرق و الغرب أو الشمال و الجنوب، استلفت انتباه السكان الهنود بدون أن يفرق بين ديانة و ديانة أو حضارة و حضارة نحو الرسالة الإنسانية الخالدة و دعا الناس إلى وحدة الكلمة على أساس الآدمية.

استرعى اهتمام الكتاب و الأدباء و الشعراء إلى رسالة الأدب الإسلامي و نظريته الطاهرة الباهرة فلبّى دعوته المخلصة عدد كبير من نوابغ الشعر و الأدب من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق و دوى صوته الرنان في صميم العالم العربي. إنه علّم الهنود المسلمين أن يتمسكوا بشعائرهم الدينية و الثقافية كائناً ما كان فإنها بمثابة امانة في أعناقهم ليؤديها اسلافهم إلى أخلافهم كاملة غير منقوصة، لا ماروضة و لا متاكلة.

هذه كانت شخصية الأستاذ العلام أبي الحسن علي الحسني الندوي كان الشاعر العربي عناه إذ قال:

أولائك آبائي فجئنى بمثلهــم   إذا جمعتنا يا جرير المجامــع

بالمناسبة سأقصر عن واجبي إذا نسيت أن أقدم شكري و امتناني الخالصين إلى الأستاذ الدكتور محسن العثماني رئيس القسم العربي بجامعة دلهي سابقاً و الدكتور نعمان خان رئيس القسم الحالي الذي تكرم علينا بموافقته السخية على نشر حوالي عشر مقالات قدمت في ندوة خاصة حول شخصية الأستاذ أبي الحسن خلال شهر مارس/ آذار سنة ٢٠٠١م في هذا العدد الممتاز كما تفضل بإذنه الكريم لنشر عدد لا باس به من المقالات التي تم تقديمها في ندوة خاصة أخرى حول سياحة الهنود في العالم العربي في عدد سابق من مجلتنا. فليتقبل منا القسم العربي بجامعة دلهي و أساتيذه ألف ألف تحية و شكر لهذا التعاون على البّر و على هذه المساعدة العلمية البارزة جزاهم المولى القدير عنا خير الجزاء.

كما اشكر زملائي أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية بالجامعة الملية الإسلامية و جامعة نهرو و جميع المساهمين الذين شاركوا معنا في إعداد هذه المجلة الخاصة.

و لا بد أن أذكر ـ و لو بإيجاز ـ ما سعدت به أسرة "الثقافة" من توجيهات كريمة و توصيات يتعسر حصرها و تقيمها من أستاذنا و أستاذ الجيل سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة الهندية و منطقة جنوب شرقي آسيا الذي لم يسمح فقط بنشر مقالته القيمة كفاتحة خير لهذا العدد الممتاز بل و تكرم باعطاء بعض ما لديه من كتابات فحول الأدباء و المفكرين الإسلاميين العرب إزداد بفضلهم هذا العدد وقاراً و اعتباراً، افلا يجب إذن تقديم كل ما لدى من مشاعر

الإستحسان و الشكر إلى هؤلاء العظماء عن طريق أستاذنا الجليل حفظه اللّه و أرجو من سماحته الإستمرار برعايته الكريمة و توجيهاته الرشيدة أكثر من ذي قبل فلن أتمكن من الإستغناء عنها رجاء و إيماناً بما وعدنا القدير على كل شيء بقوله عز و جل "لئن شكرتم لأزيدنكم" فإنه لا يخلف الميعاد.

س. ضياء الحسن الندوي